العصر المماليكى

فى مصر والشام

تأليف

دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد

كلية الآداب — جامعة القاهرة

الطبعة الثانية

١٩٧٦

الناشر

دار النهضة العربية

٣٢ شارع عبد الخالق ثروت — القاهرة

العصر المماليكي

في مصر والشام

تأليف

دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
أستاذ التاريخ المصري الوسطى المساعد
كلية الآداب — جامعة القاهرة

الطبعة الثانية
١٩٧٦

الناشر
دار النهضة العربية
٣٢ شارع عبد الخالق ثروت — القاهرة

دار الاتحاد العربي للطباعة
لصاحبها: محمد عبد الرازق
١٩ كنيسة الأرمن ش الجيش
تليفون ٩٣٤٠٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

التاريخ دول ، وتاريخ مصر العريق حافل بعديد الدول التى تعاقبت فى حكمها . وبين هذه الدول العديدة التى زخر بها التاريخ المصرى فى العصور القديمة والوسطى والحديثة ، تحتل دولة المماليك مكانة خاصة بارزة تجعل من عصر سلاطين المماليك عصراً جديراً بمزيد من الدراسة والبحث والتمحيص . هذا بالإضافة إلى أن الأحداث الخارجية والداخلية التى ارتبطت بذلك العصر لا تعكس أهميتها على تاريخ مصر والشام فحسب ، بل على تاريخ الشرق الأدنى عامة فى العصور الوسطى ، فضلا عن التيارات العالمية الكبرى — اقتصادية وغير اقتصادية — التى ارتبطت ارتبـــاطاً مباشراً بتاريخ المماليك فى مصر والشام .

وإذا نحن ذكرنا تاريخ المماليك ، فإننا يجب أن نذكر تلك الأعداد من الجنسيات الأوربية والآسيوية المتباينة الذين أتوا فرادى أو جماعات صغيرة ، بعضهم من الترك والجركس والتتار والصينيين ، والبعض الآخر من الصقالبة واليونانيين والأسبان والألمان .. حملهم تجار الرقيق صغاراً إلى بلاد غير بلادهم ليشبوا فى أرض جديدة وعلى ديانة جديدة ويصبحوا نواة الحكم وأداة الحكام وقوة المستقبل التى قدر لها أن تسيطر على مصائر البلاد والعباد أكثر من قرنين ونصف من الزمان .

وإذا نحن ذكرنا عصر المماليك فى تاريخ الشرق الأدنى ، فإننا يجب أن نذكر آيات البطولة التى أبدتها تلك الدماء الجديدة فى الدفاع عن الوطن العربي ضد الأخطار الكبرى التى هددته من جانب التتار حيناً ، ومن جانب

الصليبيين والغرب الأوربي أحياناً . وما زالت أسماء مواقع عين جالوت ومرج الصفر من ناحية ، والمنصورة وفارسكور وأنطاكية وطرابلس وعكا وخيروكيتا من ناحية أخرى ، ما زالت هذه الأسماء حية في التاريخ تنطق بالبطولة والشجاعة والفداء .

وإذا نحن ذكرنا عصر المماليك ، فإننا يجب ألا ننسى ذلك النشاط الديني والعلمي الخصب الذي صحب انتقال الخلافة العباسية من بغداد إلى القاهرة ، والذي ظهر أثره وتردد صداه في مصر والشام جميعاً ، فمن حرص على المبالغة في إحياء شعائر الدين والاهتمام بإقامة المنشآت الدينية وإقبال منقطع النظير على حياة الزهد والتصوف ... إلى رغبة جامحة في التعليم والتعلم ونشاط ليس له مثيل في ميدان الكتابة والتأليف ، حتى أننا مازلنا عاجزين حتى الآن عن نشر مئات الموسوعات والمخطوطات التي ألفت في عصر المماليك في مختلف ألوان المعرفة والتي تكتظ بها دور الكتب في العالم أجمع ، مشرقه ومغربه .

وإذا نحن ذكرنا عصر المماليك ، فإننا يجب أن نذكر أنه العصر الذي غدت فيه مصر والشام قصبة التجارة العالمية ، والمعبر الرئيسي لتجارة الشرق في طريقها إلى الغرب ، الأمر الذي يجعلنا نفسر في ضوئه تلك الثروة الواسعة التي تمتع بها المماليك ، وذلك الثراء الضخم وما ارتبط به من مظاهر السعة والأبهة الذي اتصف به عصرهم . ومازالت مخلفات وآثار المماليك من جوامع شامخة ، وقصور فخمة ، ومصنوعات فنية دقيقة ، فضلا عما حفلت به مراجع العصر المماليكي من وصف لحياة المماليك ، وما فاض به مجتمعهم من ألوان البذخ والغنى العريض . . . ما زال ذلك شاهدا على أن ثمة موارد مالية إضافية ضخمة تمتع بها الحكام في ذلك العصر وأصاب المحكومون بعضاً من فتاتها .

* * *

وهكذا يبدو أن عصر المماليك ليس عصراً عادياً من العصور الهادئة أو الخامدة فى التاريخ ، وإنما هو عصر حركة دائمة ونشاط دائب : فى الخارج حروب وتوسع وانتصارات ترتب عليها تأمين الوطن العربى فى الشرق الأدنى . . وفى الداخل حياة صاخبة حافلة بالتيارات الاقتصادية والدينية والعلمية والاجتماعية . فلا عجب إذا احتلت دولة المماليك مكانة هامة بارزة فى التاريخ ، لا تاريخ مصر والشام والشرق الأدنى فحسب ، بل تاريخ العالم أجمع أواخر العصور الوسطى . وخير شاهد على ذلك ، تلك السفارات العديدة التى قصدت بلاط سلاطين المماليك فى القاهرة من قبل ملوك الشرق والغرب جميعاً ، وذلك العدد الضخم من المراسلات والمكاتبات التى كان يتلقاها ديوان الإنشاء بالقاهرة فى ذلك العصر من مختلف الحكام، والتى كان يقوم بالرد عليها وفقاً لتقاليد وقواعد دقيقة معروفة .

والعجيب أنه مع ما لعصر المماليك من أهمية بالغة بالنسبة لتاريخ مصر والشام من ناحية ، وتاريخ الشرق الأدنى عامة من ناحية ثانية، وتاريخ العالم فى أواخر العصور الوسطى من ناحية ثالثة ؛ مع ذلك كله فإن المكتبة العربية ما زالت حتى اليوم خلوا من كتاب واحد يعالج تاريخ ذلك العصر فى صورة وحدة مترابطة تبدو فى إطارها العام مميزات ذلك العصر وخصائصه ومظاهره.

وقد حاولت فى هذا الكتاب الجديد أن أسد تلك الثغرة الهامة التى تشكو منها المكتبة العربية ، فحرصت فيه على إعطاء القارىء العربى صورة متكاملة للعصر المماليكى بين سنتى ١٢٥٠ ، ١٥١٧ للميلاد ؛ وحاولت بقدر الإمكان أن يكون علاجى لتاريخ ذلك العصر الهام علاجا موضوعياً شاملا بعيداً عن التفصيلات الثانوية الصغيرة التى لا تخدم التاريخ بقدر ما تفسد عرضه .

ولما كانت المراجع الأولى الأساسية لعصر المماليك مليئة بالمصطلحات الغريبة غير المألوفة ، التى لا نجد لكثير منها تفسيرا فى القواميس العربية لأنها

دخلت مع التيارات العديدة غير العربية التى تعرضت لها منطقة الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، فإنى رأيت إتماماً للفائدة أن أورد فى نهاية الكتاب كشافاً بأهم تلك المصطلحات مع شرحها شرحاً علمياً ، مستعيناً فى ذلك بجهود الأساتذة المتخصصين الذين سبق أن أسهموا فى خدمة تاريخ المماليك.

والله أسأل أن يوفقنا فيما ذهبنا إليه من رغبة صادقة فى استكمال نواحى النقص فى مكتبتنا العربية .

سعيد عبد الفتاح عاشور

ضاحية المعادى فى ٣٠ شعبان ١٣٨٤ هـ
٣ يناير ١٩٦٥ م



عبارة (بسم الله الرحمن الرحيم) محفورة على قطعة من الرخام بالخط النسخ المماليكى

الفصل الأول

قيام دولة المماليك في مصر

نشأة نظام المماليك في الدولة الاسلامية:

المملوك وجمعه مماليك اسم مفعول مشتق من الفعل العربي « ملك » ، ويقال عبد مملكة بفتح اللام وضمها إذا سُبي ومُلك دون أبويه . ويبدو أن هذا المعنى مأخوذ من القرآن الكريم ، حيث وردت عبارات « ملكت أيمانكم » و « ملكت أيمانهم » و « ملكت يمينك » أكثر من مرة[1] .

ولم يلبث اللفظ أن اتخذ معنى اصطلاحى خاص فى التاريخ الإسلامى ، فأصبح يقصد بالمماليك جموع الرقيق الأبيض الذين كانوا يصبحون رقيقاً إما نتيجة للأسر فى الحرب أو للشراء من التجار الذين يجلبونهم إلى البلاد الإسلامية حيث يطلبون أثمانا مرتفعة لبضاعتهم .

وكان الخلفاء العباسيون هم أول من استخدم المماليك — أو الرقيق الأبيض — واعتمدوا عليهم فى توطيد نفوذهم . والمعروف أن الدولة العباسية قامت على أكتاف الفرس ، ولكن الخلفاء العباسيين — وبخاصة منذ أيام الخليفة المأمون — أخذوا يخشون ازدياد نفوذ الفرس ويتشككون فيهم ، فلجأوا إلى الإكثار من شراء مماليك من الترك ليعتمدوا عليهم فى دعم نفوذهم وسلطانهم .

---

(١) انظر مثلا سورة النساء آيات ٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٦ ؛ وسورة النحل آية ٧١ ، وسورة النور آيات ٣١ ، ٣٣ ، ٥٨ . وسورة الروم آية ٢٨ . وسورة الأحزاب آية ٥٠ .

ولم يلبث أن شاع استخدام المماليك في كثير من أرجاء الدولة الإسلامية، فأدى ضعف الدولة العباسية من جهة ورغبة حكام الولايات في الاستقلال من جهة أخرى إلى اعتمادهم على ما يشترونه من مماليك في تأليف جيوش يحققون بها مطامعهم . وفي جميع الحالات كان التطور يسير في نفس الطريق تقريباً ؛ فالمماليك الذين يجلبون صغاراً يحظون بعطف سادتهم وأساتذتهم فيتحررون ويزداد نفوذهم حتى يسيطرون على مقاليد الأمور في البلاد التي استوطنوها.

وكانت مصر مثلا بارزاً لولايات الدولة العباسية التي شهدت هذا التطور نحو ازدياد نفوذ المماليك حتى تملكوا البلاد . فطولون — الذي أسس ابنه أحمد الدولة الطولونية في مصر — كان مملوكا تركياً آل إلى الخليفة المأمون العباسي. وعندما طمع أحمد بن طولون في الاستقلال بمصر، رأى أن يدعم استقلاله بقوة ضاربة من المماليك الديالمة والأتراك ؛ حتى ذكر ابن إياس أن مماليك أحمد بن طولون بلغوا أربعة وعشرين ألفاً[1] . فلما زالت الدولة الطولونية وأسس محمد بن طغج الأخشيد دولته في مصر سنة ٩٣٥ ، اعتمد هو الآخر على المماليك من الأتراك والديلم حتى « بلغت عدة مماليكه ثمانية آلاف مملوك » على قول أبي المحاسن[2] . وإذا كان الخلفاء الفاطميون الأوائل قد اعتمدوا على المغاربة والسودان في تأليف جيوشهم ؛ فإن الخلفاء الأواخر في الدولة الفاطمية — منذ عهد الخليفة المستنصر فصاعداً — أكثروا من الاعتماد على المماليك — الترك وغير الترك — وبذلك حافظوا على سياسة الطولونيين والأخشيديين في الاعتماد على المماليك . وهكذا حتى قامت الدولة الأيوبية لتفتح صفحة جديدة في تاريخ الشرق الأدنى والمماليك جميعاً .

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٣٧ ؛
المقريزي : المواعظ ج ١ ص ٩٤ .
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٦ ، ٥٩٦ .

ازدياد نفوذ المماليك فى عصر الأيوبيين :

والواقع إن العصر الذى أعقب وفاة صلاح الدين الأيوبى سنة ١١٩٣ شهد ازدياد أعداد المماليك فى مصر والشام ازدياداً كبيراً يسترعى الانتباه. ذلك أن ورثة صلاح الدين — من أبنائه وأخوته وأبناء أخوته — اقتسموا فيما بينهم تلك الدولة الواسعة ، فصارت دمشق ومصر وحلب والكرك وبصرى وبعلبك وحمص وحماه ... وغيرها مراكز لإمارات مهمة يحكمها بعض أبناء البيت الأيوبى(١) . ولم يلبث أن دب الخلاف والشقاق بين ورثة صلاح الدين فقامت الحروب فيما بينهم وبين بعض ، كما قامت المنازعات فيما بينهم من ناحية وأبناء البيوت القديمة الأخرى التى ظلت تحكم أجزاء من الوطن الإسلامى فى الشرق الأدنى ، مثل أبناء البيت الزنكى فى الموصل وسنجار ، وكيفا وآمد وخرتبرت فضلا عن بنى سكمان فى خلاط ... من ناحية أخرى .

وفى وسط تلك الفوضى الضاربة التى عمت العلاقات بين حكام مصر والشام عقب وفاة صلاح الدين ، كان لا بد لكل أمير من الأمراء من أن يكون لنفسه عصبية يعتمد عليها فى الاحتفاظ بإمارته أو فى تحقيق مطامعه على حساب أمير آخر قريب أو بعيد(٢) . ولم يجد أمراء المسلمين — من أيوبيين وغير أيوبيين — وسيلة يتقوون بها فى أوجه خصومهم سوى المماليك — أو الرقيق الأبيض — ، فأكثروا من شرائهم وعنوا بتدريبهم وتنشأتهم ليكونوا عدة وسنداً لهم . وهكذا شهدت السنوات الأخيرة من القرن الثانى عشر والنصف الأول من

---

(١) عماد الدين الكاتب : الفتح القسى ص ٣٥٨ — ٣٥٩ ،
ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٣٢٨ — ٣٧٩ ،
أبو شامة : كتاب الروضتين ج٢ ص٢٢٦ .
(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩١٢ وما بعدها .

القرن الثالث عشر ازدياد نفوذ المماليك فى مختلف الإمارات والدول الإسلامية فى الشرق الأدنى ، ومنها مصر . وسرعان ما غدا لأولئك المماليك كلمة مسموعة فى الأحداث والخلافات التى تعرضت لها المنطقة . من ذلك ما ترويه المراجع من أنه عندما توفى الملك العزيز عثمان سلطان مصر فى نوفمبر سنة ١١٩٨ ، وتطلع العادل أخو صلاح الدين للاستيلاء على مصر ، خشى المماليك الأسدية والصالحية فى مصر سطوة العادل ، فتدخلوا فوراً واستدعوا الملك الأفضل من حوران وسلموه مقاليد الأمور فى مصر فى يناير سنة ١١٩٩ (١) .

وخلاصة القول أن سلاطين الأيوبيين وملوكهم دأبوا على شراء مماليك صغار من الرقيق الأبيض - وبخاصة من بلاد القفجاق وما وراء النهر - واتخذوا منهم قوة يعتمدون عليها فى تثبيت حكمهم والوقوف فى وجه خصومهم . وقد ظل أولئك المماليك الأتراك أداة سهلة لينة فى أيدى سادتهم الأيوبيين . طالما احتفظ أولئك السادة بقوتهم وهيبتهم . وإلى جموع المماليك بالذات يرجع الفضل فى احتفاظ خلفاء صلاح الدين — وبخاصة العادل والكامل بتفوقهم الحربى فى وجه خصومهم من الصليبيين ومنافسيهم من أمراء المسلمين . ولم يلبث أن أصبح المماليك الأداة التى لا غنى عنها للملوك الأيوبيين للاحتفاظ بسلطانهم ، مما أدى إلى تضخم نفوذهم السياسى نتيجة لشعورهم بأهميتهم .

المماليك البحرية :

وقد بلغ من ازدياد نفوذ المماليك السياسى فى الدولة الأيوبية فى النصف الأول من القرن الثالث عشر ، أنهم دبروا مؤامرة مكنتهم من خلع العادل الثانى

---

(١) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ١٤٦ - ١٤٧ ،
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٣٥ .

وإحلال الصالح أيوب محله فى السلطنة(١) وهكذا أحس السلطان الصالح نجم الدين أيوب (١٢٤٠ – ١٢٤٩) بفضل المماليك عليه، وأهميتهم له فى توطيد سلطانه والاحتفاظ بملكه، فأكثر من شراء المماليك وعنى بهم عناية فائقة جعلت نفوذهم يتضخم فى صورة ملموسة على أيامه. ويروى المؤرخ العينى أن الصالح نجم الدين أيوب «جمع من المماليك الترك ما لم يجمع غيره من أهل بيته، حتى كان أكثر أمراء العسكر مماليكه، ورتب جماعة من المماليك الترك حول دهليزه وسماهم البحرية»(٢).

وقد تعددت التفسيرات لاسم البحرية الذى أطلق على مماليك الصالح أيوب فالرأى القديم الشائع — وهو الأرجح فى نظرنا — يقول إن هذه الطائفة سميت بالبحرية نسبة إلى بحر النيل، حيث أن السلطان الصالح أيوب اختار لهم جزيرة الروضة وسط النيل لتكون مستقراً ومقاماً. وهناك رأى آخر رأى فيه البعض نوعاً من التجديد والرغبة فى الخروج على المألوف، ويقول إن تلك التسمية إنما مصدرها أن أولئك كانوا يجلبون عن طريق البحر صحبة تجار الرقيق، ومن ثم سموا بالبحرية.

ومهما يكن من أمر، فقد ازداد نفوذ المماليك البحرية فى عهد الصالح أيوب ازدياداً خطيراً، بعد ان انفض عن الصالح أعوانه من الأكراد وغيرهم. ولم يلبث أن استغل المماليك البحرية سطوتهم فى العبث بمصالح البلاد والعباد، فأكثروا من الاعتداءات على أموال الناس وأرزاقهم، الأمر الذى دفع بعض الشعراء إلى التنديد بهم وإلى إلقاء تبعة أعمالهم على السلطان الصالح أيوب نفسه، ومن ذلك قول الشاعر: –

---

(١) المقريزى: السلوك جـ١ ص ٢٩٥.

(٢) العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٦٤٧ هـ.

الصالح المرتضى أيوب أكثر من ترك بدولته يا شر مجلوب
قد أخذ الله أيوبا بفعلته فالناس قد أصبحوا في ضر أيوب (١)

على أن أولئك المماليك البحرية الذين أسرفوا في العبث بمصالح الناس واستثاروا غضب الأهالي بعدوانهم وشرهم، سرعان ما أثبتوا كفايتهم في التغلب على أكبر خطرين خارجيين واجها مصر — بل الوطن الإسلامي في الشرق الأدنى — حوالي منتصف القرن الثالث عشر، وهما خطر الصليبيين وخطر التتار. ذلك أن استيلاء الخوارزمية على بيت المقدس سنة ١٢٤٤ استثار الغرب الأوربي من جديد، فخرج لويس التاسع ملك فرنسا سنة ١٢٤٨ على رأس حملة صليبية كبرى قاصداً مصر. ولم تكن هذه أول حملة صليبية تخرج من غرب أوربا بنية الاستيلاء على مصر بالذات، فقد سبق لمصر قبل ذلك بثلاثين سنة أن تعرضت لهجوم من جانب الحملة الصليبية الخامسة بزعامة حنا برين ولكن حملة لويس التاسع على مصر سنة ١٢٤٩ كانت أعظم خطراً، لكونها أكثر عدداً وعدة وأوفر تنظيما، فضلا عن أنه كان على رأسها ملك من أعظم ملوك الغرب الأوربي وأشدهم تديناً وتحمساً للفكرة الصليبية.

ثم إن الظروف التي ظهرت فيها حملة لويس التاسع في الشرق ساعدت على إكساب تلك الحملة قسطاً من الخطورة بالنسبة لأوضاع مصر الداخلية. ذلك أن لويس التاسع ورجاله وصلوا إلى شواطئ مصر في الوقت الذي كان السلطان الصالح نجم الدين أيوب يعاني مرضاً خطيراً؛ ولم تكد الأخبار تصل مسامعه عن قرب تعرض مصر لخطر صليبي حتى حملوه في محفة إلى مصر حيث نزل في

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور ج ١ ص ٨٣.

جمال الدين سرور: الظاهر بيبرس ص ٣٨. ويلاحظ أن الشاعر يشير الى الآية الكريمة «وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين».

أشموم طناح ليرقب الموقف[1] . وهكذا أتى الصليبيون مصر فى وقت كان سلطانها مريضاً لا يقوى على الحركة لمنازلتهم ، فاستولى لويس التاسع على دمياط فى يونيه سنة ١٢٤٩ « وتملكها الفرنج بغير قتال » . ويقال إن السلطان الصالح أيوب حزن حزناً شديداً لسقوط دمياط فى قبضة الصليبيين ووبخ المماليك الأتراك وقائدهم فخر الدين لإهمالهم فى الدفاع عنها وقال لهم « ماقدرتم تقفون ساعة بين يدى الفرنج ؟ » وقد تخوف المماليك عندئذ من نوايا الصالح أيوب ، وأرادوا قتله ، ولكن الأمير فخر الدين أفهمهم أن السلطان مريض وأشار عليهم بالتريث فقال لهم « اصبروا عليه فهو على شفا ... فإن مات فقد استرحتم منه وإلا فهو بين أيديكم »[2] .

ولم يلبث أن اشتد المرض على الصالح أيوب ، فحمل إلى قلعة المنصورة حيث ظل ينظم شئون الدفاع وهو على فراش الموت . وفى الوقت الذى شرع الصليبيون فى الزحف من دمياط تجاه الجنوب ، توفى الصالح أيوب فى المنصورة فى ٢٣ نوفمبر سنة ١٢٤٩[3] .

المماليك البحرية وإنزال الهزيمة بالفرنسيين :

جاءت وفاة الصالح أيوب فى تلك الظروف الحرجة خسارة جسيمة ، لعدم وجود من يحل محله بسرعة فى حكم البلاد وفى مواجهة الخطر الناجم عن الغزو الصليبى . وكان للصالح أيوب ابن واحد اسمه توران شاه ، وهو شاب عديم الخبرة عينه أبوه نائباً عنه فى حصن كيفا[4] . ولكن شاءت الظروف أن تظهر فى

---

(١) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، جـ١ ص ٢١٩ (بولاق) .
(٢) العينى : عقد الجمان ، حوادث سنة ٦٤٧ هـ .
(٣) المقريزى : السلوك ، جـ١ ص ٣٤٦ .
(٤) أبو المحاسن : النجوم ، جـ٦ ص ٣٦٤ .

حريم الصالح أيوب امرأة قوية هي أرملته شجر الدر ، التي قدرت خطورة الموقف فأخفت خبر موت زوجها ، وأرسلت تستدعي توران شاه على عجل من حصن كيفا ، واستمرت المناشير تخرج كل يوم عليها علامة السلطان ، والأدوية والطعام تدخل غرفته كما لو كان حياً[1] .

وعلى الرغم من كافة الاحتياطات التي اتخذتها شجر الدر فإن خبر وفاة الصالح أيوب تسرب إلى لويس التاسع الذي رأى أن يسرع بتوجيه ضربته قبل أن يستكمل المسلمون استعداداتهم ويفيقوا من أثر الصدمة التي حلت بهم نتيجة لوفاة الصالح أيوب . وعندما وصل الصليبيون إلى نقطة تفرع بحر أشموم من فرع دمياط ، وهي النقطة المواجهة للمنصورة ، صار على الصليبيين أن يعبروا بحر أشموم للوصول إلى المنصورة ومهاجمتها . ولم يعجز لويس عن عبور بحر أشموم ، وعندئذ اندفعت القوات الصليبية في اتجاه المنصورة واقتحمتها مقدمة الجيش الصليبي فعلا بقيادة روبرت دى أرتوا أخى لويس التاسع[2] .

وفي تلك المرحلة الحرجة ظهر المماليك البحرية على المسرح لينقذوا الموقف . ذلك أن المماليك تركوا الصليبيين يدخلون المنصورة ليتيهوا في أزقتها ، وعندئذ انقضت « الطائفة التركية من الجامدارية والبحرية الصالحية ، وحملوا على الفرنجة حملة زعزعت وهدمت بنيانهم وأناخوا عليهم حربا شواكا وقتلا وإهلاكا ، فكانت عدة القتلى منهم ألفا وخمسمائة ، ولوا منهزمين »[3] . وبذلك استطاع المماليك أن يحولوا انتصار الصليبيين إلى هزيمة وأن يبددوا مخاوف المسلمين ويحيوا فيهم روح الأمل والمقاومة . ثم إن المماليك لم يتركوا الصليبيين يعودون إلى دمياط سالمين ، وإنما طاردوهم حتى أنزلوا بهم هزيمة كبرى عند فارسكور ووقع الجيش الصليبي

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ورقة ٣٦٢ — ٣٦٣ (مخطوط) .
(٢) محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر ص١٥٣ — ١٥٤ .
(٣) العيني : عقد الجمان حوادث سنة ٦٤٧ هـ .

بأكمله تقريباً بين أسرى وقتلى . وكان من جملة الأسرى لويس التاسع نفسه الذى سيق مكبلا بالأغلال إلى المنصورة حيث سجن فى دار فخر الدين إبراهيم ابن لقمان(١) .

نهاية الدولة الأيوبية فى مصر :

وفى تلك الأثناء وصل المعظم تورانشاه ابن الصالح أيوب إلى مصر فى نهاية فبراير سنة ١٢٥٠ أى بعد موقعة المنصورة مباشرة . وقد أعلن تورانشاه سلطانا فى دمشق ، وهو فى طريقه إلى مصر ، « فتيمن الناس بطلعته وترقبوا خيراً على يديه » . ولكن المراجع أجمعت على أن السلطان الجديد لم يكن رجل الساعة ، وعلى أنه جمع بين سوء الخلق والجهل بشئون الحكم والسياسة ؛ حتى لقد وصفه سبط بن الجوزى بأنه « كان سيء التدبير والسلوك ذا هوج وخفة »(٢) .

وكان مفروضاً أن يقدر السلطان المعظم تورانشاه الموقف الجديد الذى نجم عن انتصار المماليك على الصليبيين ، مما جعل المماليك يبدون فى صورة أصحاب الفضل فى تخليص البلاد من ذلك الخطر الداهم . ولكن بدلا من أن يصانع تورانشاه المماليك ، حسدهم على ما حققوه لأنفسهم من مكانة وكلمة ، وسيطر عليه شعور بأن المماليك يزاحمونه الحكم ويقاسمونه سلطانه . ولم يلبث أن أضمر تورانشاه للمماليك البحرية أمراً . من ذلك ما ترويه المراجع من أنه كان يشرب الخمر ويضرب الشموع المصفوفة أمامه واحدة بعد أخرى حتى تنقطع وهو يردد

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٥٦ ،
أبو المحاسن : النجوم ، ج ٦ ص ٣٦٧ .
(٢) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ؛ حوادث سنة ٦٤٨ هـ .

« هكذا أفعل بالبحرية ، وسمى كل واحد من زعماء البحرية باسمه .»(١)

وليت توران شاه حفظ الجميل لزوج أبيه شجر الدر ، بل نسي أنها حرست له ملك أبيه وأنها أرسلت إليه تستدعيه على عجل من حصن كيفا بعد وفاة الصالح أيوب ؛ فاتهمها بأنها أخفت ثروة أبيه وأرسل إليها يتهددها ويطالبها بما تحت يدها من الجواهر « فداخلها منه خوف كثير ، وكاتبت المماليك البحرية » . وهكذا استثار توران شاه بسياسته الحمقاء المماليك البحرية ، أصحاب القوة الفعلية في البلاد وقتئذ ؛ واكتفى بمجموعة من الندماء كان قد أحضرهم معه من حصن كيفا ، فوزع عليهم الإقطاعات والوظائف التي حرم منها المماليك .

وكان أن استقر رأي المماليك على التخلص من توران شاه بالقتل ، واستحثتهم على ذلك زوجة أبيه شجر الدر التي باتت تخشى على نفسها من غدر توران شاه فأرسلت إلى البحرية تقول « اقتلوا توران شاه وعلى رضاكم ! » ، وقد تزعم المؤامرة مجموعة من أمراء المماليك على رأسهم بيبرس البندقداري وقلاون الصالحي وأقطاي الجامدار وأيبك التركماني . ولم يكد توران شاه ينزل بفارسكور في ٢ مايو سنة ١٢٥٠ حتى بادره أولئك الأمراء بالسيوف ، ففر توران شاه ليحتمي بكشك خشبي كان قد أعد لإقامته في فارسكور . ولما أغلق توران شاه أبواب الكشك عليه ، أشعل المماليك النار فيه ، وعندئذ ألقى توران شاه بنفسه في النيل وقد اشتعلت النار في ثيابه ، وأخذ يسبح طالباً النجاة ، ولكن المماليك لاحقوه بالنشاب من كل ناحية وهو يصيح « ما أريد ملكا ! دعوني أرجع إلى الحصن (كيفا) ، يامسلمين ! ما فيكم من يصطنعني ويجيرني ! »(٢) ، ولكن أحداً

---

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٣٥٩ ،
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧١ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ؛ ج ٧ ص ٣٧١ .

لم يتقدم لنجدة تورانشاه ، فمات جريحاً غريقاً محترقاً ـ على قول المقريزى ـ وتركت جثته ملقاة فى العراء على شاطىء النيل ثلاثة أيام لا يجرؤ أحد على دفنه ، حتى شفع فيه رسول الخليفة العباسى وعندئذ وورى فى التراب (١) .

وبمقتل تورانشاه انتهى حكم الأيوبيين فى مصر .

السلطانة شجر الدر :

غدا المماليك بعد مقتل تورانشاه أصحاب الكلمة الأولى والأخيرة فى شئون البلاد . وقد اختار المماليك شجر الدر — أرملة أستاذهم الصالح أيوب ـ لتكون سلطانة على البلاد . وكانت شجر الدر جارية تركية الجنس ـ وقيل بل أرمينية ـ اشتراها الملك الصالح أيوب وحظيت عنده ، حتى أعتقها وتزوجها ولذلك فهى من ناحية الأصل والنشأة أقرب إلى المماليك ، حتى اعتبرها المقريزى أولى سلاطين المماليك فى مصر « وأول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك »(٢) .

وكانت أولى المشاكل التى واجهت شجر الدر فى سلطنتها هى مشكلة الصليبيين الذين مازالوا يحتلون دمياط . لذلك أخذت شجر الدر تسعى لحل هذه المشكلة ، فأرسلت الأمير حسام الدين محمد لمفاوضة الملك لويس التاسع ـ أسير المنصورة ـ وتحت تأثير التهديد تم الاتفاق بين المماليك والفرنسيين ، فوافق الطرف الأول على إطلاق سراح لويس التاسع وجميع أسرى الصليبيين منذ عهد العادل الأيوبى وذلك مقابل ثمانمائة ألف دينار يدفع الصليبيون نصفها

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٣ ص ١٨١ ،
المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٣٥٨ — ٣٦٠ .
(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٦١ .

عاجلا ، والنصف الآخر بعد ذلك (١) أما الطرف الثانى وهم الفرنسيون فقد اتفقوا على إخلاء دمياط والجلاء عن البلاد ؛ كما تعهد لويس بعدم العودة إلى « سواحل الإسلام مرة أخرى » . وقد تحدد أجل الصلح بعشر سنوات . ولم يلبث أن تسلم المماليك دمياط فى ٦ مايو سنة ١٢٥٠ ، وأطلقوا سراح الملك لويس التاسع بعد دفع مقدم الفدية المتفق عليها ، وبذلك كانت مدة استيلاء الصليبيين فى تلك المرة على دمياط أحد عشر شهراً وتسعة أيام (٢) .

وهكذا نجحت السلطانة شجر الدر فى تخليص البلاد من آثار الخطر الذى تعرضت له فى أواخر أيام زوجها الصالح نجم الدين أيوب . على أن ذلك كله لم يكف لتدعيم مركز شجر الدر فى أعين المعاصرين ، إذ لا يخفى علينا أن السلطانة الجديدة كانت قبل كل شىء امرأة ، والمسلمون لم يعتادوا فى تاريخهم الطويل أن يسلموا زمام حكمهم لامرأة ويبدو أن شجر الدر نفسها أحست بوضعها الغريب ، الأمر الذى جعلها تسرف فى التقرب إلى أهل الدولة ومنحهم الرتب والإقطاعات فضلا عن أنها خفضت الضرائب عن الرعية لتستميل قلوبهم ؛ وبالجملة فقد ساست الرعية أحسن سياسة (٣) .

ولا أدل على شعور المعاصرين بالحرج من قيام امرأة فى حكمهم ، من أن السلطانة شجر الدر حرصت على ألا تبرز اسمها مكشوفاً ، فكانت المراسيم والمناشير تصدر من القلعة وعليها علامتها « أم خليل » ؛ ونقش اسمها على السكة والنقود فى صيغة « المستعصمية الصالحية ، ملكة المسلمين ، والدة الملك المنصور خليل أمير المؤمنين » أما الخطباء فكانوا يقولون فى دعاء يوم الجمعة بالمساجد « اللهم وأدم سلطان الستر الرفيع والحجاب المنيع ، ملكة المسلمين والدة الملك خليل » وبعض

---

(١) Joiuville, p. 194 &
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٩ .
(٢) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٣٦٣ .
(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ٨٩ .

الخطباء كان يقول — بعد الدعاء للخليفة العباسى — « واحفظ اللهم الجهة الصالحية ، ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، أم خليل المستعصمية ، صاحبة الملك الصالح » . وفى جميع هذه الألقاب لانلمس اسم شجر الدر الأمر الذى يعبر عن شعور الاستحياء وحرص المرأة على عدم كشف اسمها مكتفية بأن تنتسب إلى ولدها أو زوجها أو مولاها .

وكانت شجر الدر قد أنجبت من الصالح أيوب ولداً اسمه خليل توفى فى صغره ولكنها تمسكت فى سلطنتها بلقب « أم خليل » لتتجنب ذكر اسمها فى عصر اعتبر اسم المرأة عورة من عوراتها . وربما أحست شجر الدر بأصلها غير الحر ، وبأنها لا تنحدر من شجرة البيت الأيوبى ، وبالتالى فإنها دخيلة على الحكم وليس لها حق شرعى فيه . لذلك حرصت السلطانة شجر الدر على التمسك بلقب « أم خليل الصالحية » لتظهر صلتها القوية بالبيت الأيوبى عن طريق ولدها خليل من ناحية وزوجها الصالح أيوب من ناحية أخرى ، وبذلك تضفى على سلطتها هالة من الشرعية تجعل المعاصرين يصرفون النظر عن الحقيقة الكبرى وهى أن مقاليد حكمهم غدت فعلا فى يدى امرأة .

ومع ذلك ، فإن جميع تلك الحيل لم تفلح فى دعم موقف السلطانة الجديدة ؛ فرفض الأمير جمال الدين بن يغمور نائب السلطنة والأمراء القيمرية فى دمشق أن يحلفوا يمين الولاء والطاعة للسلطانة أم خليل ، وثارت ثائرة الأمراء والملوك الأيوبيين فى بلاد الشام عندما سمعوا بمقتل توران شاه وقيام شجر الدر فى الحكم لأنهم وجدوا فى ذلك خروجاً للسلطنة من بيتهم . ولم يلبث أن التهب الموقف فى بلاد الشام وأصبح من الواضح أن ملوك الأيوبيين سيتخذون موقفاً حازماً هجومياً ضد مصر ، بعد أن استولى الملك السعيد حسن الأيوبى على غزة وقلعة الصبيبة ،

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٦٢ .

وثار الطواشى بدر الدين لؤلؤ الصالحى نائب الكرك والشوبك ، وملك الملك المغيث عمر الأيوبى على هذين الحصنين . فى الوقت الذى سلم الأمراء القيمرية مدينة دمشق إلى صاحب حلب الناصر يوسف بن العزيز الأيوبى[١] . وبذلك خرجت بلاد الشام بأكملها من قبضة شجر الدر ، وانقسمت الجبهة الإسلامية فى الشرق الأدنى مرة أخرى فغدت مصر فى قبضة المماليك وبلاد الشام فى قبضة الأيوبيين .

ولم يشفع لشجر الدر أنها حاولت عندئذ أن تتمسح فى الخلافة العباسية ، فتمسكت بلقب « المستعصمية » نسبة إلى الخليفة المستعصم العباسى ؛ بل على العكس وجد الخليفة العباسى فى بغداد نفسه لا يمكن أن يقر مبدأ قيام امرأة فى حكم المسلمين ، فبعث من بغداد كتاباً إلى مصر عاب فيه على الأمراء موقفهم ، وقال لهم عبارته المشهورة « إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فاعلمونا حتى نسير إليكم رجلا »[٢] .

وهكذا وجدت شجر الدر نفسها فى موقف لا تحسد عليه بعد أن أحاطت بها مظاهر الكره فى الداخل والخارج ، وجاء قيامها فى الحكم مصحوباً بتمزيق الوحدة بين مصر والشام ، وهى الوحدة التى ظلت قائمة فى صورة أو أخرى منذ أيام نور الدين محمود بعد منتصف القرن الثانى عشر . هذا إلى أن المعارضين لشجر الدر اتهموها بالتفريط مع الصليبيين وأنها المسئولة عن إطلاق سراح لويس التاسع ملك فرنسا ، وهو الذى خرج من مصر ليواصل نشاطه الصليبى فى بلاد الشام . وللخروج من ذلك المأزق « خلعت شجر الدر نفسها من مملكة مصر » ، فوافقت على التزوج من الأمير عز الدين أيبك – أتابك العسكر – على أن تترك له وظيفة السلطنة . وكان أن تمت هذه الخطوة فى يوليو سنة ١٢٥٠ .

---

(١) المقريزى : السلوك ، ج١ ص ٣٦٦ — ٣٦٧ .
(٢) المقريزى : السلوك ج١ ص ٣٦٨ .

وبذلك انتهى عهد شجر الدر بعد أن ظلت فى الحكم ثمانين يوماً أثبتت فيها مهارة نادرة وكفاية ممتازة (١) .

السلطان المعز أيبك : (١٢٥٠ — ١٢٥٧)

كان عز الدين أيبك أحد المماليك الصالحية ، ولكنه لم يكن من طائفة المماليك البحرية ، ترقى فى خدمة السلطان الصالح أيوب حتى أصبح من الأمراء وتولى وظيفة الجاشنكير فى بلاط السلطان .

وعندما تولت شجر الدر السلطنة صار أيبك أتابك العسكر أى قائد الجيش ، حتى تحرج موقف شجر الدر فى الداخل والخارج كما ذكرنا ، وعندئذ وافق الأمراء على زواج أيبك من شجر الدر على أن تصير له السلطنة . وكان أيبك معروفاً بين المماليك « بدين وكرم وجودة رأى » ، ولكن يبدو أن هذا لم يكن السبب الرئيسى الذى جعل المماليك — ومنهم طائفة البحرية — يجمعون على اختياره للسلطنة ، إذ الواقع أنه وجد عندئذ مجموعة من الأمراء الأقوياء وهؤلاء كانوا يخشون بعضهم بعضاً ، ويخشاهم الناس جميعاً . فمال الناس إلى أيبك « لأنه من أوسط الأمراء ولم يكن من أعيانهم » ، فى حين أيد زعماء البحرية — مثل إقطاى وبيبرس وقلاون — اختياره للسلطنة لاعتقادهم أنه سهل « ومتى أردنا صرفه أمكننا ذلك لعدم شوكته » (٢) !

على أن الصعاب لم تلبث أن أحاطت بالسلطان الجديد فى الداخل والخارج . وكان أول خطرين تعرض لهما خطر الأيوبيين فى الشام وخطر البحرية فى مصر . أما ملوك الأيوبيين فى بلاد الشام فقد ظلوا فى حالة نقمة وثورة ، وأخذوا

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ٩٠ ، المقريزى : السلوك ص ٣٦٧ — ٣٦٨ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٤ .

يجمعون قواهم لغزو مصر والقضاء على دولة المماليك الناشئة . وأما المماليك البحرية ، فقد عز عليهم أن يتولى أيبك السلطنة وهو ليس بحرياً ، فثاروا بعد خمسة أيام من إعلان أيبك سلطاناً وقالوا « لابد لنا من سلطان يكون من بنى أيوب يجمع الكل على طاعته ! »(١) . ومن الواضح أن الهدف الحقيق للبحرية كان استئثارهم لأنفسهم بالحكم ، ولم تكن الدعوة لبنى أيوب إلا ستاراً يخفون وراءه أطماعهم الحقيقية .

وكان أن وقع الاختيار على صبى صغير من بنى أيوب — هو الملك الأشرف موسى — فجعلوه شريكاً للسلطان المعز أيبك فى السلطنة « ليجتمع الكل على طاعته ويطيعه الملوك من أهله » . وهكذا بدت ظاهرة غريبة هى اشتراك سلطانين — المعز أيبك التركمانى والأشرف موسى الأيوبى — فى حكم مصر « فكانت المراسيم والمناشير تخرج عن الملكين الأشرف والمعز ، إلا أن الأشرف ليس له سوى الإسم فى الشركة لا غير وجميع الأمور بيد المعز أيبك »(٢) . وكان الأشرف موسى فى السادسة من عمره ، الأمر الذى جعل زعماء البحرية — مثل أقطاى الجمدار وبيبرس البندقدارى وبلبان الرشيدى وسنقر الرومى — يرحبون بذلك الطفل ، « حتى يدبرونه كيفما شاءوا ويأكلون الدنيا به ! » على قول أبى المحاسن(٣) . أما المعز أيبك فقد رأى فى إشراك ذلك الصبى معه وسيلة طيبة لتخدير بنى أيوب وتسكين ثورتهم .

ولكن ملوك الأيوبيين بالشام لم تنطل الحيلة عليهم ، فقرر الناصر يوسف الأيوبى صاحب حلب ودمشق الزحف على الديار المصرية للقضاء على ثورة المماليك (سبتمبر ١٢٥٠) وفى تلك الأزمة أثبت السلطان المعز أيبك أنه أقوى

---

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٥ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٦٩ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٥ .

بما ظنه عليه البعض، فقبض على بعض أمراء المماليك المعروفين بميولهم الأيوبيين، وأعلن فى القاهرة أن «البلاد للخليفة المستعصم بالله العباسى وأن الملك المعز نائبه فيها!»(١). هذا إلى أن أيبك خشى حدوث تفاهم بين الأيوبيين فى الشام ولويس التاسع زعيم الصليبيين الذى كان عندئذ قابعاً فى عكا يرقب الموقف، ولذلك حاول أيبك أن يتقرب من الملك الفرنسى بأن أطلق سراح بعض أسرى الصليبيين الفرنسيين من السجون المصرية. وفى الوقت نفسه أراد أيبك أن يأمن شر هجوم غادر يقوم به لويس التاسع على مصر ليثأر مما حل به من هزيمة فى المنصورة، فأمر أيبك بهدم تحصينات مدينة دمياط «حتى خربت كلها ومحيت آثارها» وبذلك لا يتمكن الصليبيون من اتخاذها مرة أخرى قاعدة لهم يهددون منها داخلية البلاد.

أما زعماء البحرية فقد تناسوا فى تلك الأزمة عصبيتهم الصغيرة الضيقة، وتذكروا العصبية المماليكية الكبيرة التى تجعل منهم ومن أيبك وبقية المماليك كتلة واحدة أمام الخطر الأيوبى الذى هدد مستقبل المماليك جميعاً. وهكذا خرج المعز أيبك ومعه المماليك البحرية لدفع الغزاة، فحلت الهزيمة برجال المعز أيبك ولكنهم عادوا وانتصروا على الأيوبيين عند العباسة فى فبراير سنة ١٢٥١ ففر الناصر يوسف الأيوبى إلى الشام وعاد المماليك ظافرين ومعهم الأسرى إلى القاهرة(٢).

ولم تلبث الخلافة العباسية أن أخذت تحس بخطر التتار الذين اقتربوا بزعامة هولاكو من العراق. وقد رأى الخليفة المستعصم العباسى أن يعمل بسرعة لتوحيد صفوف المسلمين فى الشرق الأدنى ليقفوا صفاً واحداً أمام خطر المغول الوثنيين، ولذلك أرسل «رسولا إلى الملك الناصر (يوسف) صاحب دمشق يأمره بمصالحة الملك المعز (أيبك) وأن يتفقا على حرب

(١) المقريزى: السلوك ج ١ ص ٣٧٠.
(٢) أبو الفدا: المختصر، ج٣ ص ١٨٤ — ١٨٥.

التتار(١) . وبفضل هذه الوساطة أمكن الوصول إلى اتفاق بين الأيوبيين في الشام والمماليك في مصر ، فعقدت اتفاقية بين الطرفين في إبريل سنة ١٢٥٣ وبمقتضاها صار للمماليك مصر وفلسطين حتى نهر الأردن بما في ذلك غزة والقدس والساحل ، على أن تكون بقية بلاد الشام للأيوبيين(٢) . ومن الواضح أن هذه الاتفاقية لها أهميتها في التاريخ لأنها بمثابة الوثيقة التي اعترف فيها بنو أيوب بشرعية سلطنة المماليك في مصر . وكان ذلك في الوقت الذي استغل أيبك فرصة انتصاره على الناصر يوسف الأيوبي عند العباسة من جهة ، وفرصة المخاوف التي عمت نتيجة لخطر التتار من جهة أخرى ، وتخلص من شريكه الصغير الملك الأشرف موسى الأيوبي ؛ فحذف اسمه من الخطبة وقبض عليه وسجنه(٣) .

على أن الأمور لم تهدأ لأيبك في الداخل بسبب ثورة الأعراب الذين احتقروا المماليك لأصلهم غير الحر ، وأنفوا أن يخضعوا لحكمهم ونادوا بأنهم « أحق بالملك من المماليك وقد كفى أننا خدمنا بني أيوب ؛ وهم خوارج خرجوا على البلاد » وقد اتخذ تمرد الأعراب شكل ثورة جامحة ، فاختاروا شخصاً زعموا أنه من ذرية علي بن أبي طالب اسمه حصن الدين بن ثعلب ليكون زعيما لحركتهم . ولكن السلطان المعز أيبك استعان بالبحرية وزعيمهم أقطاي في القضاء على ثورة الأعراب في الشرقية والغربية والمنوفية وغيرها من الجهات ، وقبض على حصن الدين بن ثعلب وقتل كثيراً من أتباعه(٤) .

ولكن إذا كان أيبك قد نجح في التغلب على الأخطار الخارجية والداخلية

(١) السبكي : طبقات الشافعية جـ ٥ ص ١١٣ .
(٢) المقريزي : السلوك جـ ١ ص ٣٨٥ .
(٣) أبو المحاسن : النجوم جـ ٧ ص ١٢ .
(٤) المقريزي : السلوك جـ ١ ص ٣٨٦ — ٣٨٨ .

التى واجهته بمساعدة المماليك البحرية ، فإن النتيجة الحتمية لذلك الوضع هى ازدياد نفوذ البحرية وزعيمهم أقطاى حتى أصبح لا مفر من وقوع صدام بينهم وبين أيبك . وقد سبق أن أشرنا إلى أن البحرية لم يمانعوا فى تولية أيبك السلطنة لاعتقادهم فى ضعفه وأنه من الممكن إزالته من طريقهم فى سهولة . ولكن الأيام أثبتت خلاف ذلك ، وأظهرت أيبك فى صورة السلطان القوى الذى نجح فى التغلب على الأخطار الخارجية والداخلية التى واجهته خطراً بعد آخر . وأخيراً أفاق أيبك ليجد أن جميع الانتصارات التى كسبها مطلوب منه ومن شعب مصر أن يدفع ثمناً غالياً لها ، هو تحمل بطش المماليك البحرية الذين اعتدوا بأنفسهم وبقوتهم « وساروا إلى القاهرة ومصر أنحس سيرة من العسف بالناس والجور » . أما أقطاى زعيم البحرية فقد بلغ درجة من السطوة والنفوذ فاقت سطوة السلطان أيبك ونفوذه « فطغى وتجبر وبغى وتكبر ... وأمره مطاع فى الحقيرة والكبيرة لا يرد له مرسوم ، والملك المعز (أيبك) معه باسم الملك لا غير » ![1] وقد بالغ أقطاى فى احتقار السلطان أيبك فصار « لا يسميه إلا أيبكا » كما أخذ أقطاى ينتحل لنفسه فى مواكبه ومجالسه بعض الشعائر التى كانت من اختصاص السلطان وحده بل إن أصحابه أسموه « الملك الجواد ! »[2] .

وأخيراً خطب أقطاى ابنة الملك المظفر تقى الدين محمود صاحب حماه، ثم طلب من المعز أيبك أن يسكنها قلعة الجبل « لكونها من بنات الملوك ولا يليق سكناها بالبلد ! » وعندئذ أدرك أيبك ما يجول بنفس أقطاى ، لأن قلعة الجبل فى ذلك العصر كانت المقر الرسمى للحكم ، فكان معنى طلب أقطاى أن نفسه « حدثته بالملك » . هذا إلى أن زواج أقطاى من أميرة من أميرات البيت الأيوبى كان كفيلا بأن يجعل له سنداً شرعياً فى الحكم، وهو أمر

---

(١) ابن أيبك : كنز الدرر ج ٨ ق ١ ص ٢٢ (مخطوط) .

(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ١١ .

لما يتوفر لأيبك . لذلك قرر أيبك التخلص من أقطاى بالقتل ، فاستدعاه إلى القلعة بحجة استشارته في بعض أموره ، وهناك هاجمه بعض أتباع أيبك « وهبروه بالسيوف حتى مات » (١).

وسرعان ما انتشر خبر مقتل أقطاى في القاهرة ، فاجتمع بيبرس البندقدارى وقلاون الألفى وسنقر الأشقر وبيسرى ... وغيرهم من أمراء البحرية تحت أسوار القلعة ومعهم أتباعهم في محاولة يائسة لإنقاذ أقطاى ، ظناً منهم أنه لم يقتل . ولكن أيبك ألقى إليهم رأس زعيمهم أقطاى من القلعة وعندئذ أدرك أمراء البحرية أن دورهم آت عن قريب فقرروا الفرار إلى الشام . وعندما علم أيبك بنيتهم أغلق أبواب القاهرة في وجوههم ، ولكنهم أحرقوا باب القراطين — الذى عرف بعد ذلك باسم الباب المحروق — وبذلك استطاعوا الفرار إلى الشام (٢).

وقد بدت تلك الحركة التى اتخذها أيبك ضد البحرية وقد خلصته من خطر جسيم ، إذ استطاع أيبك أن يقبض على من تبقى من البحرية في القاهرة فقتل بعضهم وحبس البعض الآخر ، وصادر أموالهم ونساءهم وأتباعهم ، ونودى في القاهرة بتهديد كل من أخفى أحداً من البحرية (٣) . على أن الأمر كان في حقيقته أعمق بكثير من ذلك الانتصار الظاهرى ، لأن زعماء البحرية الذين فروا إلى الشام لم ينسوا ثأرهم وظلوا يسببون المتاعب لأيبك ومن خلفه من السلاطين في مصر ، حتى انتهى الأمر باستئثارهم بالحكم . وكان أن اتصل أمراء البحرية الذين فروا إلى الشام بالناصر يوسف الأيوبى صاحب حلب .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٩٠ ويذكر المقريزى أن قطز . الذى ولى السلطنة فيما بعد كان ممن شاركوا في قتل أقطاى .

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٥ ص ٣٧٥ – ٣٧٦

(٣) المقريزى : السلوك ج١ ص ٣٩٢ .

وأغروه بفتح مصر ، وفعلا ساء الموقف بين الناصر يوسف والمعز أيبك سنة ١٢٥٦ ، ولكن الأمر انتهى بالصلح بين الطرفين بفضل وساطـــة الخليفة العباسى [١].

والغريب أن أيبك الذى ثبت ذلك الثبات فى وجه خصومه فى الداخل والخارج ، واستطاع أن يتغلب على جميع ماواجهه من مشاكل متعددة ، جاءت نهايته أخيراً على يد زوجته شجر الدر التى ذاقت طعم السلطان وتولت السلطنة فعلا ثمانين يوما ، عز عليها بعدها أن تتخلى عن نفوذها وأن يخرج الأمر والنهى من يديها . وقد وصف المؤرخ ابن إياس شجر الدر بأنها « صعبة الخلق قوية البأس » كما وصفها المؤرخ نفسه بأنها كانت « سكرانة من خمرة العجب والتيه »[٢] وهذا النوع من النساء إذا ذاق طعم السلطان مرة من الصعب أن يتخلى عنه بعد ذلك . ومن الواضح أن شجر الدر عندما قررت الزواج من عز الدين أيبك إنما أرادت أن تتظاهر بالتخلى عن السلطنة لترضى شعور المسلمين ولكنها صممت منذ اللحظة الأولى على أن تحتفظ بسلطانها وتتحكم فى أيبك وشئون الدولة جميعاً . وفعلا أحكمت شجر الدر سيطرتها على زوجها الجديد السلطان المعز أيبك ، فأرغمته على هجر زوجته الأولى أم ولده على ، وحرمت عليه زيارتها هى وابنها ، وبالجملة فقد كانت شجر الدر « مستولية على أيبك فى جميع أحواله ليس له معها كلام »[٣] .

ولم يلبث أن سئم المعز أيبك الحياة مع شجر الدر ، وخاف على نفسه من غائلتها لاسيما بعد أن أخبره أحد المنجمين أن نهايته ستكون على يد امرأة . وكان

---

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ١٢ ،
المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٩٨ .
(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٩١ .
(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٤ .

أن خطب المعز أيبك ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ليتزوجها ، فغضبت شجر الدر لذلك « وكانت شديدة الغيرة » . وقد أسرعت شجر الدر فى تدبير مؤامرتها ، فأرسلت إلى أيبك - الذى كان قد غادر القلعة فى مناظر اللوق - تسترضيه وتطلب عفوه . فخدع أيبك واستجاب لدعوتها وعاد إلى القلعة حيث احتفت به حفاوة بالغة . ولم يكد أيبك يدخل الحمام فى الليل ، حتى انقض عليه خمسة رجال أشداء أعدتهم شجر الدر ، فقتلوه سنة ١٢٥٧ (١) .

وقد أشاعت شجر الدر أن المعز أيبك مات فجأة أثناء الليل ، ولكن مماليك أيبك لم يصدقوها وهبوا للثأر لأستاذهم فقبضوا على شجر وبعض أعوانها . ويقال إنه بلغ من صلابة شجر الدر أنها عندما وجدت نفسها أوشكت على الوقوع فى أيدى أعدائها جمعت معظم ما لديها من جواهر ولآلىء وأتلفتها بأن كسرتها فى الهاون ، حتى لا تتمتع بها ضرتها أم على بن أيبك من بعدها (٢) . ولكن ذلك كله لم ينجها من سوء المصير ، فقتلها مماليك أيبك وألقوا بجثتها من سور القلعة إلى الخندق وليس عليها سوى سراويل وقميص ، إلى أن حملت فى قفة ، ودفنت بعد عدة أيام . وعلى ذلك الوجه انتهت حياة أيبك وشجر الدر جميعا (٣) .

السلطان المنصور على بن أيبك : (١٢٥٧ — ١٢٥٩)

لم يؤمن المماليك بنظام وراثة العرش . ولم يتبعوا هذا النظام عن قصد كقاعدة ثابتة طوال تاريخهم ، الأمر الذى جعل منصب السلطنة دائماً موضعاً

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٤٠٣ .
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٧٨ .
(٣) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٤٠٤ .

للتنافس والمنازعات بين كبار امراء المماليك عقب وفاة كل سلطان. وكان الذى يحدث عادة عند وفاة سلطان من سلاطين المماليك هو أن يجتمع كبار الأمراء ويعينوا ابن السلطان المتوفى فى منصب السلطنة بدلا من أبيه ، لا إيمانا منهم بمبدأ الوراثة ، ولكن كحل مؤقت إلى أن ينجلى الموقف بين الأمراء ويظهر الأمير القوى الذى يستطيع أن يثبت تفوقه على بقية الأمراء ، وعندئذ يأخذ منصب السلطنة لنفسه بعد عزل من عساه يكون موجوداً من سلالة السلطان الراحل.

وكان هذا هو الموقف فى مصر بعد مقتل السلطان أيبك ، إذ اجتمع كبار الأمراء واختاروا ابنه نور الدين على ـ الذى تلقب بالمنصور ـ سلطانا ، وكان فى الخامسة عشرة من عمره . ولم يكن منتظراً من هذا الصبى أن يصمد فى وجه كبار الأمراء أو أن يتمكن من مواجهة الأخطار الخارجية التى هددت الوطن العربى فى الشرق الأدنى عندئذ ، وحسب المنصور على بن أيبك أنه كان يقضى وقته فى التلهى بركوب الحمير والطواف بها داخل أسوار القلعة .

وسرعان ماظهر التنافس بين كبار الأمراء فى الدولة ، فقبض الأمير قطز ـ الذى كان نائب السلطنة وأقوى الأمراء نفوذاً فى شئون الدولة ـ على الأمير علم الدين سنجر الحلبى أتابك العسكر ، وعين بدله فى ذلك المنصب الأمير فارس الدين أقطاى . ثم انتشرت الشائعات بعد ذلك بأن السلطان المنصور على قد تغير على نائبه الأمير قطز وأنه ينوى عزله مع بقية المماليك المعزية ، ولكن بعض الأمراء توسطوا بين الطرفين حتى صلح الأمر بين السلطان المنصور على من ناحية والأمير سيف الدين قطز المعزى من ناحية أخرى[1] وهكذا عاشت القاهرة فى تلك الفترة عيشة قلق وعدم استقرار ، وهى المظاهر التى نشأت عن قيام صبى قاصر فى السلطنة

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٤٢ — ٤٣ .

ومجموعة من الأمراء الأقوياء المتربصين لبعضهم البعض حول كرسى السلطنة .

وفى ذلك الوقت كان المماليك البحرية الذين فروا إلى الشام فى عهد المعز أيبك بعد مقتل كبيرهم أقطاى ، مازالوا يتحينون الفرص للثأر لأنفسهم . ولم ينس زعماء البحرية بالشام أن السلطان المنصور على إنما هو ابن المعز أيبك الذى تسبب فى تشريدهم ومقتل زعيمهم ؛ كذلك لم ينسوا ان الأمير قطز نائب السلطنة فى مصر إنما كان أحد الأمراء الذين هووا بسيوفهم على رقبة أقطاى تنفيذاً لأوامر المعز أيبك ، وكانت العلاقة قد ساءت بين الناصر يوسف الأيوبى صاحب حلب ودمشق من ناحية وأمراء البحرية بالشام من ناحية اخرى ، فاتجه البحرية إلى الكرك حيث أطمعوا المغيث عمر الأيوبى فى ملك مصر (١) . وفعلا استجاب المغيث عمر لدعوة البحرية فأمدهم بالمال والسلاح وخرج البحرية متجهين صوب مصر لغزوها . وقد أسرع قطز على رأس الجيش المصرى لصد خطر البحرية ، واستطاع أن ينزل بهم هزيمة عند الصالحية ؛ حيث أسر منهم بعض الأمراء مثل قلاون الألفى وبلبان الرشيدى ، وإن كان قد أطلق سراح معظم الأسرى بعد ذلك فعاد قلاون إلى الكرك ليلحق بأصحابه (٢) .

على أن البحرية لم يكفوا عن محاولة أخذ مصر بعد ذلك ، فانتهزوا فرصة الفوضى التى عمت بلاد الشام نتيجة للأخبار المتواترة عن اقتراب خطر المغول ، وزينوا للمغيث عمر مرة أخرى الخروج معهم لأخذ مصر . وفى تلك المرة — سنة ١٢٥٨ — خرج المغيث عمر بنفسه صحبة البحرية ، ولكن الأمير قطز تصدى للغزاة من جديد وأنزل بهم هزيمة أخرى عند الصالحية ، ففر المغيث عمر

(١) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٩٢ — ١٩٣ .
(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٠٦ .

إلى الكرك فى حين اتجه البحرية إلى الطور حيث اتصلوا بالأكراد الفارين من وجه التتار (١) . ويبدو أن حركات البحرية فى ذلك الدور أخافت الناصر يوسف الأيوبى فتهدى لهم وأخذ يطاردهم ، وهدد المغيث عمر بتسليم من لديه منهم ، وكان ذلك فى الوقت الذى اشتد خطر التتار ليهدد الأيوبيين والمماليك جميعاً فى الشام ومصر .

ذلك أن الأخبار أخذت تترى - سنة ١٢٥٩ - بوصول التتار بزعامة هولاكو إلى الشام بعد أن أسقطوا الخلافة العباسية فى بغداد ، ومن ثم عم القلق أهل مصر بعد أن أحسوا باقتراب الخطر منهم . وفى ذلك الموقف الحرج وجد قطز فرصته سانحة لعزل الصبى المنصور على بن أيبك والجلوس محله على كرسى السلطنة ، فجمع « الأعيان والأمراء بالديار المصرية ، وعرفهم أن الملك المنصور هذا صبى لا يحسن التدبير فى مثل هذا الوقت الصعب ، ولا بد أن يقوم بأمر الملك رجل شهم يطيعه كل أحد ، وينتصب للجهاد فى التتار . فأجابه الجميع : ليس لها غيرك !! » (٢)

وهكذا تم الأمر لقطز ، فقبض على المنصور على بن أيبك وأخيه قاقان ابن أيبك وأمهما ، واعتقلهم جميعاً فى برج بالقلعة ، وتولى هو السلطنة بلقب المظفر فى أبريل سنة ١٢٥٩ .

---

(١) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٩٥ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٥٥ .

الفصل الثانى

المماليك والتتار

سقوط الخلافة العباسية فى بغداد :

عرفت قارة آسيا فى التاريخ بأنها المخزن البشرى الضخم الذى خرجت منه غزوات كثيرة فى العصور الوسطى لتؤثر جنسياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً فى أوضاع بلدان الشرق الأدنى حيناً ، وبلدان شرق أوربا ووسطها أحياناً. ويفسر الباحثون تلك الغزوات التى تدفقت من جوف القارة الآسيوية فى العصور الوسطى فى ضوء العامل الاقتصادى ، وما يرتبط بهذا العامل من ازدياد السكان زيادة ضخمة وتناقص الأمطار فى بعض الأوقات، مما يدفع الشعوب الرعوية الآسيوية إلى الهجرة فى صورة غزوات هدامة ضخمة، فتدمر الزرع والضرع وتحرق فى طريقها المدن والقرى ، ولا يعنيها فى كل ذلك سوى أن تنجو من ألم الجوع وخطر الموت .

ومن تلك الغزوات التى تركت أثراً خطيراً فى تاريخ الشرق الأدنى بوجه خاص غزوات التتار ، الذين نجح زعيمهم جنكيزخان فى توحيد قبائلهم ثم فى الاستيلاء على الصين فى أوائل القرن الثالث عشر ، ومن ثم غدا التتار قوة رهيبة لم تقنع بالأقاليم الوسطى من القارة الآسيوية ، وانما انطلقت غرباً نحو شرق أوربا من جهة وغرب آسيا والشرق الأدنى من جهة أخرى، لتنفس عن طاقتها المكبوتة تعبيراً حربياً عنيفاً واسع النطاق .

ويهمنا من أمر تلك الغزوات المغولية التى شهدها النصف الأول من القرن الثالث عشر ، أن منكوخان — خاقان التتار الأعظم — أوفد أخاه هولاكو

لفتح إيران والشام ومصر وبلاد الروم (السلاجقة) والأرمن . وفعلا لم يكد ينتصف القرن الثالث عشر إلا كان التتار قد قضوا على الدولة الخوارزمية وسيطروا على إيران ، كما استولوا بعد قليل على قلاع الباطنية فى فارس ؛ وبذلك جاء دور الخلافة العباسية فى بغداد[١] . وكانت الخلافة العباسية عند منتصف القرن الثالث عشر — فى عهد الخليفة المستعصم بالله - تعانى آلام الموت ؛ بعد أن اعتراها الضعف الشديد بسبب الانقسامات المذهبية والفتن الداخلية وسيطرة الأمراء على الخلافة وشئونها ؛ ولذلك لم تستطع الخلافة العباسية الصمود فى وجه الغزو المغولى للعراق سنة ١٢٥٧ . فى الوقت الذى فشلت جهود الخليفة المستعصم العباسى فى توحيد جهود الأيوبيين والمماليك فى الشام ومصر لصد ذلك الخطر[٢] .

وهكذا اقتحم التتار بغداد فى فبراير سنة ١٢٥٨ ليقتلوا ثمانمائة ألف من أهلها فى مذبحة رهيبة استمرت أربعين يوما ، ثم أشعلوا النار فى المدينة بعد ذلك فأتت على كثير من تراث العباسيين — بل تراث الحضارة الإسلامية — فى الآداب والعلوم والفنون . أما الخليفة المستعصم بالله العباسى فقد قتله التتار فى ٣٠ فبراير بعد أن حصلوا منه على كل ما كان الخلفاء العباسيون قد جمعوه خلال خمسة قرون ،[٣] . ولم يكتف التتار بقتل الخليفة العباسى نفسه بل أرادوا أن يحدثوا مذبحة لاستئصال جذور البيت العباسى كله ، فقضوا على كل شخص وجدوه حيا من العباسيين ،[٤]

---

(١) رشيد الدين الهمذانى : جامع التواريخ ﺟ ٢ ص ٢٣٦ وما بعدها .

(٢) السبكى : طبقات الشافعية ﺟ ٥ ص ١١٣ ، المقريزى : السلوك ﺟ ١ ص ٣٨٥ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٥٦ ﻫ .

(٤) رشيد الدين الهمذانى : جامع التواريخ ص ٢٩٤ .

التتار في الشام :

ولا شك في أن وصول التتار إلى العراق واستيلائهم عليه ، وإسقاطهم الخلافة العباسية في بغداد ... كل ذلك أحدث هزة عنيفة في العالم الإسلامي بوجه عام والوطن العربي بوجه خاص . وقد أخذ حكام المسلمين وأمراؤهم في البلاد المجاورة يعملون حساباً لليوم المرتقب ، لأنه لم يكن منتظراً أن يقنع المغول بالاستيلاء على العراق وأن تقف غزواتهم وقفة تلقائية عند ذلك الحد ، وهم الذين خرجوا من جوف القارة الآسيوية واستمروا - كلما استولوا على بلد - يتطلعون إلى ما بعده من بلاد .

ويبدو أن أخبار قسوة التتار ووحشيتهم وعنفهم كانت تسبقهم دائماً إلى البلاد التي لم يصلوا إليها بعد ، فيسرع الأمراء والحكام إلى استرضائهم والاستسلام لهم طلباً للسلامة وتجنباً لسوء العواقب . وهكذا أسرع أهالي الحلة والكوفة وواسط في العراق إلى استقبال جند هولاكو ورسله « وأقاموا الأفراح ابتهاجاً بقدومهم »(١) وفعل مثل ذلك حاكم الموصل وسلطان سلاجقة الروم ، وغيرهما من حكام البلدان الإسلامية المجاورة .

أما ملوك الأيوبيين وأمراؤهم بالشام فلم يكونوا أحسن حالا ، إذ أسرع الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب ودمشق إلى إعلان خضوعه للتتار فأرسل ابنه العزيز سنة ١٢٥٨ « بتحف وتقادم إلى هولاكو ملك التتر وصانعه ، لعلمه بعجزه عن ملتقى التتر »(٢)

على أن تلك المظاهرات من جانب ملوك الأيوبيين جاءت بعد فوات الأوان

---

(١) رشيد الدين الهمذاني : جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٢٩٦ .
(٢) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٠٧ هـ .

إذ لم يكن إعلان ولائهم بعد سقوط بغداد ليصرف نظر هولاكو عن الشام. وقد بدأ التتار هجماتهم ضد بنى أيوب بالاستيلاء على ميافارقين فى ديار بكر ، وكان يحكمها أحد أمراء الأيوبيين واسمه الكامل محمد ، وعندما استولى التتار على تلك المدينة ذبحوا من فيها من المسلمين ، فى حين قطعوا جسد الكامل محمد الأيوبى إرباً وحملوا رأسه على حربة ليطاف بها فى جميع أنحاء الشام من حلب إلى دمشق (١) .

أما الناصر يوسف الأيوبى صاحب حلب ودمشق فلم يشفع له أنه أرسل ابنه العزيز إلى هولاكو ، لأن الأخير تحجج بأن عدم حضور الناصر يوسف بنفسه إليه واكتفائه بإرسال ابنه يعتبر إهانة شخصية بالنسبة له . ويروى المقريزى أن العزيز عاد إلى أبيه ومعه رسالة من هولاكو يصف له فيها ما حل ببغداد على أيدى التتار وينذره بسوء العاقبة إن لم يستسلم للتتار فوراً دون قيد أو شرط (٢) . وفى تلك الأزمة لم يجد الناصر يوسف الأيوبى أمامه سوى المماليك فى مصر ، فأرسل إليهم الصاحب كمال الدين بن العديم ليطلب معونتهم لمواجهة خطر التتار ، فوعده المماليك بالمساعدة (٣) .

وهنا يصح أن نشير إلى أن غزو التتار لبلاد المسلمين فى الشام اتخذ طابعاً صليبياً ذلك أن زوجة هولاكو وأمه كانتا مسيحيتين على المذهب النسطورى ، الأمر الذى جعل هولاكو يعطف على المسيحيين بقدر ما قسا على المسلمين فى الشرق الأدنى . وفى الوقت نفسه وجدت بعض القوى الصليبية فى الشرق الأدنى وفى الغرب الأوربى فرصة طيبة فى إمكان تحويل التتار إلى المسيحية فاتصلوا بهم واستثاروهم ضد المسلمين . وهناك فى المراجع الصليبية المعاصرة

---

(١) D' Ohsson : Hist. des Mongols, IU, P. 307 .

(٢) المقريزى : السلوك ص ٤١٥ — ٤١٦ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٧٢ — ٧٣ .

ما يثبت أن ملك أرمينية الصغرى المسيحى اتصل بهولاكو ورسم معه خطة غزو بلاد الشام وانتزاع بيت المقدس من المسلمين ليتسلمها المسيحيون (١) .

ومهما يكن من أمر ، فإن غزو التتار لبلاد الشام بدأ فعلا سنة ١٢٥٩ ، فتدفقت قواتهم من أذربيجان وكردستان على الجزيرة ، واستولى هولاكو على آمد ونصيبين وحران والرها والبيرة ، ومن هناك اتجهت صوب حلب . وقد رفض نائب حلب الاستسلام للتتار ، فاقتحموا المدينة فى يناير سنة ١٢٦٠ واستولوا عليها عنوة ليعملوا فى أهلها قتلا وأسرا (٢) . وسرعان ما انتشرت أخبار ما فعله التتار بحلب فى بقية أنحاء الشام ، فأسرع ملوك الأيوبيين إلى الدخول فى طاعة هولاكو ، فى حين فر الناصر يوسف من دمشق إلى غزة وترك دمشق تلقى مصيرها على أيدى التتار . ولا شك فى أن تخاذل ملوك الأيوبيين أمام التتار واستسلامهم لهم ، وفرارهم أمام ذلك الخطر ، جاء بمثابة تنازل منهم عن ملكهم بعد أن عجزوا عن الدفاع عن ذلك الملك (٣) .

ولم يصعب على هولاكو بعد ذلك الاستيلاء على دمشق فى مارس سنة ١٢٦٠ ، ثم استولى التتار على بقية بلاد الشام فى الأسابيع التالية ، بحيث وصلوا إلى غزة ، وبذلك جاء دور مصر .

السلطان المظفر قطز : (١٢٥٩ — ١٢٦٠)

وفى تلك الأوقات التى شهدت سقوط بلاد الشام فى أيدى التتار ، استغل الأمير قطز خطورة الموقف لعزل على بن أيبك وإعلان نفسه سلطانا ، كما سبق أن أوضحنا وقد وصف المؤرخون السلطان المظفر قطز بأنه « كان بطلا شجاعا

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص١١٢٣ .

(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، حوادث سنة ٦٥٨هـ .

(٣) Greasset ; Hist, des Crcisades, Tome III, p587.

مقداماً حازماً حسن التدبير، يرجع إلى دين وإسلام وخير، وله اليد البيضاء فى جهاد التتار » .(١)

والواقع أن قطز تولى منصب السلطنة فى ظروف لا يحسد عليها حاكم، إذ كان مطالبا بأمنه أن يصد الخطر الذى لم تستطع قوة فى الشرق الأدنى الصمود فى وجهه . ولم يكد قطز يعتلى عرش السلطنة حتى حضر إليه رسل هولاكو يطلبون منه الاستسلام ويذكرونه بما فعله المغول وينذرونه سوء العاقبة إذا حدثته نفسه بالمقاومة ؛ « . . . فلكم بجميع البلاد معتبر وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم وأسلموا إلينا أمركم، قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ . فنحن ما نرحم من بكى ولا نرق لمن شكى . وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد وقتلنا معظم العباد . فعليكم بالهرب وعلينا بالطلب . . . »(٢) .

ولكن قطز لم يهتز لحرب الأعصاب التى دأب التتار على شنها والإفادة منها . وكان أن جمع السلطان قطز الأمراء واستشارهم فى الأمر فقرروا المقاومة وعدم الاستسلام، وعندئذ أمر قطز بتوسيط رسل التتار — وكانوا أربعة — فوسط أحدهم بسوق الخيل، والثانى عند باب زويلة، والثالث عند باب النصر والرابع بالريدانية، ثم علقت رؤوسهم جميعاً على باب زويلة (٣) .

وفى تلك الأزمة أظهر المماليك البحرية — الذين كانوا مازالوا هائمين على وجوههم بالشام — روحا طيبة وحماسة نادرة مما كان له أثر كبير فى التغلب على التتار . وذلك أنه منذ أن دخل التتار بلاد الشام، وأمراء البحرية يصرون على مقاومتهم وعدم الاستسلام لهم . ويقال إن أحد أمراء دمشق — وهو زين الدين

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٨٤ .

(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٤٢٧ — ٤٢٨ .

(٣) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٤٢٩ .

الحافظى — أظهر تخوفه عندما سمع بزحف التتار على حلب ، وأشار بالاستسلام لهولاكو والدخول فى طاعته، ولكن الأمير بيبرس البندقدارى — وهو أحد زعماء البحرية — لم يعجبه ذلك القول ، فقام وصفع الأمير الحافظى على وجهه قائلا له ، أنتم سبب هلاك المسلمين ،[١] وبمثل هذه الروح سار الأمير بيبرس البندقدارى ومعه جملة من أمراء البحرية إلى غزة ، ومن هناك أرسل بيبرس إلى السلطان المظفر قطز يطلب منه الأمان وتوحيد الكلمة لمواجهة خطر التتار وقد رحب قطز بتلك الدعوة وطلب من بيبرس الحضور إليه ، وأحسن استقباله وأقطعه قليوب وأعمالها[٢] . وبذلك تماسك المماليك جميعا بحرية وغير بحرية — وأظهروا روحا طيبة لمواجهة أفدح خطر هدد العالم الإسلامى فى الشرق الأدنى فى القرن الثالث عشر .

موقعة عين جالوت سنة ١٢٦٠ :

وفى الوقت الذى أظهر المماليك جميعاً تماسكا عظيما فى صد خطر التتار ، إذا بالظروف نفسها تساعدهم فى التغلب على ذلك الخطر ، ذلك أن منكوخان خاقان المغول العظيم توفى فى أغسطس سنة ١٢٥٩ ، مما أثار نزاعاً بين أخوته حول اقتسام امبراطورية المغول الواسعة . وعندما سمع هولاكو بوفاة أخيه ، رأى أن يسرع إلى قراقورم حاضرة التتار فى جوف آسيا ، فعاد إليها تاركا قيادة جيوشه بالشام لقائده كتبغا . ولا شك فى أن عودة هولاكو إلى قراقورم ومعه جزء كبير من جيشه كان لها أثر كبير فى إضعاف قوة التتار بالشام فى الوقت الذى أخذ السلطان قطز يعد عدته لمواجهة خطرهم[٣] .

---

(١) المقريزى : السلوك ج١ ص٤١٩ — ٤٢٠ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ورقة ٣٩٤ (مخطوط) .

(٣) رشيد الدين الهمذانى : جامع التواريخ ، ج١ ص ٣٠٨ .

وعندما اكتملت استعدادات السلطان المظفر قطز خرج على رأس جيوشه قاصداً الشام لملاقاة التتار. وقرب الصالحية تردد بعض الأمراء فى السير بعد أن تذكروا ما أحاط تحركات التتار من قصص مخيف جعل مقاومتهم ضرباً من العبث فى نظر كثير من المعاصرين . ولكن السلطان المظفر قطز هب فى أمرائه صائحاً « يا أمراء المسلمين ! لكم زمان تأكلون أموال بيت المال وأنتم للغزاة كارهون. أنا متوجه ، فمن اختار الجهاد يصحبنى ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته ، فإن الله مطلع عليه وخطيئة المسلمين فى رقاب المتأخرين [1] ...».

وبمثل هذه الروح واصل الجيش المماليكى زحفه فى اتجاه الشام فى يوليه سنة ١٢٦٠ . وكانت مقدمة جيش المماليك بقيادة الأمير بيبرس البندقدارى الذى اتجه إلى غزة ، فى الوقت الذى كان كتبغا قد أقام قوة من التتار عند غزة تحت قيادة بيدرا . وقد أرسل بيدرا إلى كتبغا — الذى كان عندئذ فى بعلبك — يعلمه بوصول مقدمة الجيش المماليكى ويطلب منه النجدة ، ولكن كتبغا رد عليه قائلا « قف مكانك وانتظر » ، وأمره بالاحتفاظ بغزة وعدم التخلى عنها لحين وصول الإمدادات إليه . على أن المماليك فوتوا على التتار فرصهم ، فبادروهم بالهجوم وهزموا بيدرا واحتلوا غزة وطاردوا المغول حتى نهر العاصى [2] .

وكان لوصول المماليك إلى فلسطين واحتلالهم غزة رد فعل قوى عند المسلمين فى كافة مدن الشام ، إذ رأوا فى ذلك النصر بادرة أمل ، وتشجعوا على مقاومة التتار [3] وفى الوقت نفسه أظهر المماليك كياسة وبعد نظر فلم يحاولوا استثارة الصليبيين وحرصوا على مسالمتهم حتى لا يحاربوا خصمين فى وقت واحد وكان أن أرسل المماليك إلى حكومة عكا الصليبية يستأذنونها فى السماح لجيوشهم

(١) المقريزى : السلوك جـ ص ٤٢٠ .

(٢) رشيد الدين الهمذانى : جامع التواريخ ، جـ ١ ص ٣١٣ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٥٨هـ .

بعبور الأراضى الصليبية لمحاربة التتار ، فوافق الصليبيون على ذلك الطلب(١).

وهكذا سار قطز على رأس الجيش المماليكى بحذاء الساحل، ومر المماليك بسلام فى أراضى الصليبيين بحذاء عكا ، بل إن الصليبيين فى عكا خرجوا إلى السلطان قطز ومعهم التقادم والهدايا «وأرادوا أن يسيروا معه نجدة، فشكرهم وأخلع عليهم واستحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه »(٢). وبعد أن حصل المماليك فى الأراضى الصليبية على مالزمهم من ميرة ومؤن ، اتجهوا شرقا عبر الجليل إلى الأردن عن طريق الناصرة . لاسترداد دمشق من التتار وقد لجأ قطز إلى خدعة حربية ناجحة ، فأخفى معظم جيشه بين الأحراش والأشجار المحيطة بعين جالوت — بين بيسان ونابلس — وترك مقدمة الجيش بقيادة بيبرس تتابع سيرها وحدها تجاه التتار . وفى تلك الأثناء كان كتبغا قد وصل «وكأنه بحر من اللهب بسبب الغيرة والغضب » فالتقى بالمماليك عند قرية عين جالوت فى ٣ سبتمبر سنة ١٢٦٠(٣) . وقد أظهر المماليك شجاعة كبيرة فى عين جالوت ، حتى يقال إنه حدث عندما اضطربت صفوفهم أن ألقى السلطان قطز خوذته عن رأسه إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته «واإسلاماه» وحمل بنفسه على العدو حتى تم القضاء على التتار قضاء تاماً «وولوا الأدبار لايلوون على شىء» . أما كتبغا فقد ظل يقاتل فى شجاعة وعناد حتى سقط قتيلا(٤) .

ولا شك فى أن موقعة عين جالوت تعتبر من المواقع الفاصلة فى التاريخ، نظراً لما ترتب عليها من نتائج خطيرة . فلو انتصر التتار فى تلك الموقعة لفعلوا

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص١١٣٥ — ١١٣٦.

(٢) المقريزى : السلوك ج١ ص٤٣٠ .

(٣) رشيد الدين الهمذانى : جامع التواريخ ، ج ١ ص ٣١٣ .

(٤) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٤٣١ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٧٩ .

بمصر وأهلها مثلما فعلوا بالعراق وأهله ، أو على الأقل لأقاموا واستقروا بالشام مثلما أقاموا واستقروا بالعراق ؛ ولمرت بقية البلدان العربية بالشرق الأدنى فى دور مظلم حالك طويل تحت حكم التتار مما يترك أثراً بعيداً فى تاريخها . ولكن انتصار المماليك فى عين جالوت لم ينقذ مصر فحسب من همجية التتار ، بل أنقذ الشام أيضا ، لأنهم غدوا ولا مقام لهم بالشام بعد تلك الضربة القاصمة التى نزلت بهم فى عين جالوت(١).

ولكن مع اعترافنا بحسن بلاء المماليك وشجاعتهم فى موقعة عين جالوت ، إلا أنه ينبغى ألا نسقط من حسابنا العوامل المساعدة على تحقيق ذلك النصر ، وهى العوامل التى تستتر عادة فى التاريخ وتحتاج إلى نوع من التقصى لكشف الستار عنها ، ومن هذه العوامل موقف جمهرة الصليبيين بالشام من التتار موقفاً سلبياً ، وعدم محاولتهم استغلال تلك القوة الجديدة لإنزال ضربة قاصمة بالعدو المشترك ممثلا فى المسلمين . كذلك كانت عودة هولاكو ومعه معظم جيشه إلى قراقورم ذات أثر كبير فى إضعاف قوة التتار بالشام ، ولا يخفى علينا أن وجود هولاكو نفسه فى المعركة ضد المماليك كان من الممكن أن يؤثر تأثيراً معنوياً خطيراً فى نفوس رجاله من التتار وأعدائه من المماليك جميعاً . وأخيراً فإن ثمة حقيقة كثيراً ما يغفلها المشتغلون بالتاريخ . هى أن لكل غزوة أو هجرة - مهما يبلغ عنفها وقوتها - نهاية حتمية ؛ وأن حركات الغزو كالكرة التى تنطلق فى أول أمرها فى سرعة وقوة ولكن لا تلبث أن تفتر قوة اندفاعها تدريجياً حتى تتوقف تلقائياً . ولا توجد غزوة فى التاريخ استمرت فى حالة انطلاق دائم ، وإنما هناك نقطة معينة يجب أن تتوقف عندها نتيجة لظروف عديدة طبيعية وبشرية تفرض عليها ذلك التوقف .

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٣٧

ولا شك أنه بوصول التتار إلى بلاد الشام كانت حركتهم الضخمة قد بلغت نهايتها فى ذلك الاتجاه الجنوبى الغربى ، بعد أن طالت خطوط مواصلاتهم وبعدوا كثيراً عن مركزهم الأصلى فى جوف القارة الآسيوية ، فضلا عما استنفدوه من جهد وطاقة نتيجة لاجتياحهم تلك البلدان الفسيحة والمساحات الواسعة حتى وصلوا إلى الشرق الأدنى . وجميع هذه الاعتبارات يجب أن نضعها أمام أعيننا - إلى جانب شجاعة المماليك وحسن بلائهم - عندما نفخر بانتصار عين جالوت .

توحيد مصر والشام :

وثمة أهمية خطيرة لانتصار المماليك على التتار فى عين جالوت هى إعادة الوحدة بين مصر والشام ، بعد أن أدى قيام دولة المماليك فى مصر وغضب الأيوبيين بالشام ، إلى تمزيق رباط الوحدة التى أجهد كل من نور الدين محمود وصلاح الدين نفسه فى بنائها فى القرن الثانى عشر ، والتى كان لابد منها لمواجهة الأخطار التى واجهت المسلمين جميعاً فى الشرق الأدنى . ولكن تقاعس ملوك البيت الأيوبى عن صد التتار ونفورهم من الجهاد ، بل تواطؤ بعض أبناء البيت الأيوبى مع التتار واشتراكهم معهم فى عين جالوت ضد إخوانهم المسلمين ، أفقد بنى أيوب أى حق شرعى فى الملك وجعلهم يبدون فى نظر المعاصرين فى صورة القوة المتداعية غير الجديرة بحكم المسلمين .

وفى الوقت نفسه كانت دولة المماليك الناشئة فى حاجة إلى دعامة تعتمد عليها فى البقاء فى الحكم . ولا يخفى علينا أن المماليك الذين استأثروا بحكم مصر فى منتصف القرن الثالث عشر كانوا قبل كل شىء مغتصبين للعرش من أصحابه الشرعيين ، فضلا عن كونهم مجرحين بسبب أصلهم غير الحر . وكان المماليك عند قيام دولتهم فى حاجة ماسة إلى القيام بعمل كبير يضفى عليهم نوعاً من

الشريف ويكسب حكمهم قسطاً من الأهمية والشرعية ويجعل حكمهم مستساغاً لدى جماهير المسلمين . وهنا تبدو أهمية انتصار المماليك فى عين جالوت ، لأن هذا الانتصار أظهرهم ، فى صورة الدرع الواقى للوطن الإسلامى فى الشرق الأدنى ، والقوة الوحيدة التى استطاعت الصمود فى وجه خطر التتار ، بل كسر شوكتهم وإنقاذ الشام ومصر من براثنهم .

وهكذا يمكننا القول أنه بانتصار المماليك فى عين جالوت حصلوا على ما كان ينقصهم من مجد لا بد منه لتثبيت أركان دولتهم ؛ فنسى الناس أصلهم غير الحر ، وتناسوا أنهم فى حقيقة أمرهم مغتصبو العرش من سادتهم الأيوبيين . ولم يعد الناس يذكرون إلا شيئاً واحداً ، هو أن المماليك أنقذوهم من التتار ، وأن بقاء المماليك فى الحكم إنما هو ضرورة لا بد منها للمحافظة على كيان المسلمين فى الشرق الأدنى ، وفى ضوء هذه الحقيقة يمكننا أن نقرر إن موقعة عين جالوت كانت بمثابة الحد الفاصل للصراع بين الأيوبيين والمماليك ، فجاءت هذه الموقعة إيذاناً بغروب شمس دولة بنى أيوب وارتفاع نجم دولة المماليك .

والواقع أن السلطان المظفر قطز صار غداة موقعة عين جالوت سيد الموقف فى « بلاد الشام كلها من الفرات إلى حدود مصر » ؛ فلم يبق أمامه من بقايا البيت الأيوبى سوى بعض الشخصيات العجاف التى كانت لا تستطيع الصمود فى وجه قاهر التتار . وكان أن عفا قطز عن الأشرف موسى الأيوبى صاحب حمص وأمنه ، وكذلك فعل مع الملك المنصور الثانى صاحب حماة وأقره على حماة وبعرين ، كما أعطاه المعرة وكانت بيد الحلبيين[1] . أما الملك السعيد حسن أمير بانياس والصبيبة — وهو الذى تواطأ مع التتار وانضم

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٣٣

اليوم يوم عين جالوت في محاربة المسلمين — فلم يقبل قطز عذره وأمر بضرب عنقه فضربت في الحال(١).

ولم يكد يتم انتصار المسلمين على التتار في عين جالوت حتى انتشر الخبر في سرعة مذهلة ، فحملت رأس كتبغا إلى مصر حيث أقيمت الاحتفالات بالنصر في حين فر « نواب التتار من دمشق وتبعهم أصحابهم »(٢) ثم دخل قطز دمشق دخول الفاتح المظفر ، فاستقبل استقبالا حافلا ، وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم ، « فإن القلوب كانت قد يئست من النصرة على التتر لاستيلائهم على معظم بلاد الإسلام ، ولأنهم ماقصدوا إقليما إلا فتحوه ولا عسكرا إلا هزموه »(٣).

السلطان الظاهر بيبرس : (١٢٦٠ — ١٢٧٧)

وفي الوقت الذي استعدت القاهرة لاستقبال بطل عين جالوت وأقيمت الزينات في الطرقات والأسواق والحوانيت تحية له وتكريماً لبطولته إذا بالأمور تتطور بسرعة حتى انتهت بمقتل قطز وقيام بيبرس في السلطنة .

ذلك أن الأمير بيبرس كان يأمل أن يجد من قطز حظاً من التقدير بعدما أبداه من شجاعة في محاربة التتار ، فطلب من قطز أن يوليه نيابة حلب التي كان السلطان قد وعد فعلا بمنحها إياه(٤). ولكن قطز امتنع وتنكر للجميل، وبذلك أظهر قصر نظر واضح لأن المكانة التي أحرزها بيبرس في ذلك الوقت كانت أعظم من أن يتجاهلها إنسان ، ولو كان قطز حكيما لأرضى بيبرس

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٨٠

(٢) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٤٣٢

(٣) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٥٨ هـ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٠١

بنيابة حلب ، وبذلك يأمن منافسته له فى مصر [1] . ولا يخفى علينا أن البحرية — ومنهم بيبرس — لم ينسوا لقطز أنه شارك فى قتل كبيرهم أقطاى زمن أيبك ، وبمعنى آخر فإن البحرية أحسوا دائما أن لهم ثأر فى عنق قطز ، ولذا لم يكونوا فى حاجة إلى مزيد من التحريض والاستثارة ضد قطز .

وكان أن صمم بيبرس على الانتقام من قطز ، فدبر مؤامرة مع زملائه من زعماء البحرية لقتل قطز فى أول فرصة مناسبة . وسرعان ما حانت الفرصة عندما وصل ركب السلطان إلى الصالحية فى طريقه إلى القاهرة . ذلك أن قطز أظهر رغبته فى الصيد ، فلما فرغ من رياضته تقدم منه الأمير بيبرس وطلب امرأة من سبي التتار ، فأجابه السلطان إلى طلبه وأنعم عليه بما أراد . وقد تظاهر بيبرس برغبته فى تقبيل يد السلطان ، وكانت إشارة بينه وبين شركائه المتآمرين ، فقبض بيبرس على يد قطز ليمنعه من الحركة فى حين انهال عليه بقية أمراء البحرية بسيوفهم ورماحهم وألقوه عن فرسه حتى أجهزوا عليه . وبمقتل قطز على ذلك الوجه فى أواخر أكتوبر سنة ١٢٦٠ ، خلا الجو للبحرية وزعيمهم بيبرس [2] .

وكان طبيعياً أن تؤول السلطنة بعد مقتل قطز إلى قاتله الأمير ركن الدين بيبرس ، بوصفه أقوى الأمراء البحرية من ناحية وصاحب الفكرة فى قتل قطز من ناحية ثانية ، فضلا عن مواقفه المشرفة فى محاربة المغول من جهة ثالثة . وتروى المراجع أن الأمراء البحرية الذين قتلوا قطز ساروا بعد تنفيذ مؤامرتهم إلى الدهليز السلطانى بالصالحية ، وقد أجمعوا أمرهم على سلطنة بيبرس . وعندما قابلهم الأمير فارس الدين أقطاى الأتابك عند باب الدهليز ، أخبروه بما فعلوا من قتل السلطان قطز ، وعندئذ سألهم

(١) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ص ٣٣ — ٣٤

(٢) أبو الفدا : جـ ٣ ص ٢٠٧

الأتابك «من قتله منكم؟» فقال بيبرس «أنا» فنظر إليه الأتابك وقال «ياخوند، اجلس فى مرتبة السلطنة!»(١) وبمثل هذه السهولة والبساطة حل القاتل محل القتيل، فاستدعى العسكر فى الحال ليحلفوا للسلطان الجديد قبل أن تجف دماء ضحيته، وكان القاضى برهان الدين قد وصل من القاهرة ليستقبل قطز ويهنئه بانتصاره فى عين جالوت، فاستدعى القاضى نفسه ليقوم بتحليف العسكر للملك بيبرس الذى تلقب بالملك القاهر.

وبعد أن تمت تلك الإجراءات المبدئية فى الصالحية. قال الأمير أقطاى لبيبرس «لاتتم السلطنة إلا بدخولك قلعة الجبل» لذلك أسرع بيبرس ومعه صحبه من الأمراء إلى القاهرة التى كانت قد زينت لاستقبال المظفر قطز بطل عين جالوت، فإذا بالمنادى ينادى فى طرقات القاهرة «ترحموا على الملك المظفر وادعوا لسلطانكم الملك القاهر ركن الدين بيبرس!» وهكذا شق بيبرس طريقه إلى قلعة الجبل، فلقيه الأمير عز الدين أيدمر نائب السلطنة وكان قد خرج للقاء قطز، فأخبره بيبرس بما حدث، وعندئذ حلف نائب السلطنة للسلطان الجديد وتقدمه إلى القلعة حيث أعلن الأمراء ولاءهم لبيبرس، واستقر السلطان الجديد فى قلعة الجبل قاعدة الحكم فى البلاد(٢).

ويروى المؤرخ أبو المحاسن أن الوزير زين الدين يعقوب - وكان فاضلا فى الأدب وعلم التاريخ — دخل على السلطان بيبرس بالقلعة فأشار عليه بتغيير لقبه «القاهــــر» وقال له «ما لقب به أحد فأفلح، لقب به القاهر ابن المعتضد فلم تطل مدته وخلع من الخلافة وسمل، ولقب به القاهر ابن صاحب الموصل فسم» لذلك تشاءم بيبرس من لقب القاهر وأبطله واتخذ لقبا جديدا هو «الملك الظاهر»(٣).

---

(١) المقريزى: السلوك جـ١ ص ٤٣٦

(٢) المقريزى: السلوك جـ١ ص ٤٣٧.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٧ ص ١٠٣ — ١٠٤.

وبدخول بيبرس قلعة الجبل يوم ٢٣ أكتوبر سنة ١٢٦٠ بدأت صفحة جديدة فى تاريخ دولة المماليك . ذلك أن السلطان الظاهر بيبرس أثبت بأعماله وإصلاحاته وحروبه أنه المؤسس الحقيقى لدولة المماليك فى مصر والشام . ومن يتأمل دولة المماليك فى الدور الأول من نشأتها يجد أنه تعاقب على عرشها فى السنوات العشر الأولى من عمرها خمسة سلاطين، مما يدل على حالة القلق وعدم الاستقرار التى تعرضت لها دولة المماليك فى ذلك الدور. أما بيبرس فيكفيه أنه شغل كرسى السلطنة سبعة عشر عاماً ، وهى مدة طويلة لم يبلغها أحد من سلاطين دولة المماليك البحرية ، عدا السلطان الناصر محمد بن قلاوون وإذا كان السلطان الظاهر بيبرس قد بقى مدة طويلة فى الحكم ، فإن ذلك جاء دليلا على قوته ونجاح سياسته فى الحكم من ناحية ، فضلا عن استقرار الأمور له من ناحية أخرى (١) .

ولم يلبث السلطان الظاهر بيبرس أن وضع لنفسه سياسة واسعة الأفق استهدفت فى الخارج صد أخطار التتار والصليبيين عن بلاد الشام ونشر نفوذه على شبه الجزيرة العربية والنوبة ؛ وفى الداخل توطيد الأمن والقضاء على الثوار والمناوئين وتخفيف الأعباء الملقاة على كواهل الأهالى ثم وضع قواعد النظام الإدارى فى مصر والشام فى العصر المماليكى ، فضلا عن القيام بقدر ضخم من الإصلاحات المتنوعة . وهكذا قضى السلطان بيبرس حكمه فى حركة دائبة بين مصر والشام يصلح ويجاهد ويثبت أركان دولته، حتى قال فيه أحد المعاصرين :

يوماً بمصر ويوماً بالحجاز وبالشام — يوماً ويوماً فى قـــرى حلب

وفى سبيل تنفيذ سياسته الواسعة النطاق البعيدة الأهداف ؛ لجأ بيبرس إلى

---

(١) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ص ٣٧ .

عدة إجراءات سياسية تدل على ذكائه وفطنته ، فهو يحالف مغول القفجاق ليتخذ منهم ستاراً ضد مغول فارس ، ويحالف الدولة البيزنطية أو امبراطورية الروم ليجعل منها عضداً له في سياسته ضد الصليبيين بالشام ؛ ويحيى الخلافة العباسية في مصر لتكون دعامة له ولحكم المماليك في مصر والشام . وسنتكلم عن مختلف أعمال الظاهر بيبرس الداخلية والخارجية حسب ترتيبها الموضوعي في فصول هذا الكتاب ؛ ونكتفي في هذا الموضع بالكلام عن موقف بيبرس من تتار فارس بالذات .

والواقع أنه إذا كان التتار قد انسحبوا من الشام عقب عين جالوت ، فإنهم لم ينسوا أبداً تلك الهزيمة الفاضحة التي حلت بهم ، فظلوا يداومون الإغارة على بلاد الشام بين حين وآخر كلما سنحت لهم فرصة لذلك . ومن الواضح أن الصراع بين المماليك والتتار كان أمراً طبيعياً بين جارين آمن كل منهما بفكرة الحرب ومبدأ الغزو ، واتخذ هذه الفكرة وذلك المبدأ محوراً لنشاطه ومجالا لحياته (١) . وإذا كان هناك عامل ديني واضح جعل المسلمين يكرهون تتار فارس بوصفهم وثنيين أولا ومسئولين عن إسقاط الخلافة العباسية في بغداد ثانياً ، فإننا يجب أن نذكر بالإضافة إلى هذا العامل الديني أثر صغار أمراء المسلمين الذين استولى التتار على مدنهم وبلادهم في العراق والشام ، والذين احتموا بسلاطين المماليك في مصر وظلوا يحرضونهم ضد المغول ؛ عسى أن يكون في ذلك التحريض تنفيساً عما تكنه صدورهم من حقد على المغول ، وسلوى لما لحقهم من خسارة على أيديهم . وإذا كان المماليك قد اتخذوا لأنفسهم لقب سلاطين الإسلام ، وبذلك اكتسبوا صفة حماة العالم الإسلامي المدافعين عنه وعن أهله ؛ فلا أقل من أن يسهروا على دفع الأخطار التي هددت العالم الإسلامي من جانب الصليبيين والتتار جميعاً (٢) .

---

(1) Wiet : ' Egypte Arabe, p. 431.

(٢) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس : ص ٨٩ .

ومهما يكن من أمر، فإن تتار فارس كانوا هم البادئون بالعدوان فأغاروا سنة ١٢٦٥ على البيرة — وهى قلعة هامة على نهر الفرات — وحاصروها بغية الاستيلاء عليها. وكان أن أظهر بيبرس همة كبيرة لصد ذلك الخطر فأرسل الجيوش إلى الشام على دفعات، ثم سافر بنفسه على رأس الفوج الأخير فى نهاية يناير سنة ١٢٦٥، فوصل غزة فى ٩ فبراير. ولما شكا بعضهم إلى السلطان قلة الدواب قال «ما أنا فى قيد الجمال، أنا فى قيد نصر الإسلام»(١). على أن بيبرس لم يصل إلى البيرة، إذ وافته الأخبار وهو فى دمشق بأن التتار ولوا مدبرين أمام الإمدادات التى أرسلها بيبرس إلى البيرة صحبة الملك المنصور صاحب حماة(٢) ولما أدرك بيبرس أن التتار فى فارس يتخذون البيرة مركزاً للعبور إلى بلاد الشام، أمر بتحصينها وتزويدها بالسلاح والمؤن التى تمكنها من تحمل حصار طويل. هذا إلى أن الظاهر بيبرس استخدم شيوخ العرب فى العراق ليكونوا عيوناً له على التتار فيخبرونه بتحركاتهم وأحوالهم(٣).

ولم تؤد وفاة هولاكو خان التتار فى فارس سنة ١٢٦٥ إلى تهدئة الموقف بين التتار وسلطنة المماليك، لأن أبغا بن هولاكو كان مسيحياً نسطورياً، فتزوج من إبنة الامبراطور البيزنطى ميخائيل باليولوجس، وحرص على أن يدعم علاقاته بالقوى المسيحية فى الشرق والغرب للانتقام من المسلمين فى بلاد الشام ومصر. على أنه يبدو أن أحوال دولة مغول فارس الداخلية والخارجية عند قيام أبغا فى الحكم كانت لا تساعده على الاستمرار فى معاداة المسلمين فى مصر والشام، بدليل أنه سارع بإرسال الرسل سنة ١٢٦٥ إلى السلطان بيبرس تحمل الهدايا وتطلب الصلح. ولكن بيبرس لم يرتض لنفسه أن يصالح التتار، وهم الذين

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٥٢٤ .
(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة جـ ٩ ورقة ٩٠ .
(٣) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٤٧٦ .

مزقوا العالم الإسلامي وقتلوا خليفة المسلمين وحالفوا أعداء الإسلام[١]. ولما أهمل بيبرس تلك الدعوة إلى الصلح ، عاد أبغا بعد عدة سنوات وأرسل سنة ١٢٦٨ رسولا إلى بيبرس يكرر الطلب إلى الصلح . وفي تلك المرة وسط أبغا ملك أرمينية الصغرى في طلب الصلح ، كما لجأ إلى مزيج من التهديد والترغيب ، فجاء في كتابه إلى بيبرس «إن الملك أبغا لما خرج إلى الشرق تملك جميع العالم وما خالفه أحد ومن خالفه هلك وقتل . فأنت لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما خلصت منا ؛ فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحاً . » ثم إن أبغا لم يكتف بذلك التهديد الصريح ؛ بل عمد على لسان رسوله — إلى تجريح بيبرس بأصله المماليكي غير الحر ، والحط من قدره وقيمته بين الملوك ؛ فقال الرسول للسلطان أثناء الحديث « أنت مملوك وأبعت في سيواس ، فكيف تشاقق الملوك ، ملوك الأرض ؟ » [٢] .

ولكن بيبرس لم يضعف أمام حرب الأعصاب التي حاول أبغا أن يشنها عليه ؛ فرفض مبدأ الصلح ، ورد على رسول التتار قائلا : « اعلم أني وراءه بالمطالبة ولا أزال أنتزع من يده جميع البلاد التي استحوذ عليها من بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض»[٣] وهكذا يئس أبغا من مصالحة بيبرس ، فلم يبق أمامه إلا مواصلة العدوان على بلاد الشام بمحالفة الصليبيين . وكان الظاهر بيبرس بالإسكندرية سنة ١٢٦٩ عندما بلغه أن التتار أغاروا على الساجور — قرب حلب — وأنهم واعدوا فرنج الساحل ، أي اتفقوا مع الصليبيين على القيام بهجوم مشترك على المسلمين في بلاد الشام . وفي الحال أرسل السلطان بيبرس الأمير علاء الدين البندقدار على رأس قوة من الجند ، وأمره أن يقيم في أطراف بلاد الشام على أهبة

---

(١) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ص ٩٦ .
(٢) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٥٧٤ .
(٣) العيني : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٤٩ (مخطوط) .

لصد التتار . ولم يكتف بيبرس بذلك وإنما خرج بنفسه إلى الشام ، ولكنه لم يكد يصل إلى دمشق حتى سمع بانهزام التتار وارتدادهم عن بلاد الشام .

ولم يقنع أبغا بذلك الفشل الذى منى به فى هجماته على بلاد المسلمين بالشام فعاود الهجوم سنة ١٢٧١ على عين تاب وعمق الحارم . ولكن بيبرس خرج على رأس جيشه إلى حلب ، وأرسل فرقاً من جنده إلى أطراف الشام والعراق ، فحلت الهزيمة بالتتار عند حران ، وعندئذ تدخل الصليبيون للتخفيف عن حلفائهم فأغاروا على قاقون ولكن المسلمين هزموهم هم الآخرون[١] .

ومرة أخرى يئس أبغا من محاربة المماليك ، وبخاصة بعد أن تم عقد الصلح بين بيبرس والصليبيين مما حرم التتار من حليف يعتمدون عليه فى مناوءة المسلمين ببلاد الشام ، فأرسل أبغا بعض الرسل إلى بيبرس لتحسين العلاقات بين الطرفين والتمهيد لعقد الصلح بين التتار والمماليك . وفى تلك المرة أكرم بيبرس رسل التتار وأرسل بدوره اثنين من كبار أمرائه إلى أبغا ومعهما الهدايا والخلع[٢] . ويبدو أن أبغا أراد أن يستعجل الصلح ، فقام ببعض حركات عسكرية على حدود الشام سنة ١٢٧٢ فى الوقت الذى أرسل رسله لطلب الصلح . ولكن بيبرس أهمل رسل التتار « ولم يحتفل بهم » ، وبخاصة عندما طلب أولئك الرسل أن يسير السلطان بيبرس بنفسه إلى بلاط أبغا لعقد الصلح ، وعندئذ رد بيبرس على رسل التتار قائلا « بل أبغا إذا قصد الصلح يمشى هو فيه أو أحد من إخوته » .

وكان أن عادت جيوش أبغا إلى الإغارة من جديد على البيرة فنصبوا المجانيق لمهاجمتها ، واتخذوا كافة الاحتياطات لمنع المسلمين من الوصول إليها عبر

(١) المقريزى : السلوك حـ ١ ص ٥٨٤ .
(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٠٤ — ١٠٥
مفضل ابن أبى الفضائل : المنهج السديد ص ٢٠٤ — ٢٠٦ .
(٣) المقريزى : السلوك ؛ جـ١ ص ٦٠٢ .

الفرات وقد أسرع بيبرس إلى تعبئة قواته لإنقاذ البيرة ، وعبر بيبرس ورجاله الفرات عوماً ، وعندئذ فر التتار تاركين خلفهم جميع ما أعدوه من عدد وأسلحة(١) .

على أن سياسة الظاهر بيبرس إزاء تتار فارس لم تقتصر على الدفاع ، وإنما تعدت ذلك إلى الهجوم أحياناً للانتقام من التتار من ناحية وإشعارهم بقوة سلطنة المماليك من ناحية أخرى . من ذلك أن بيبرس قام بحملة سنة ١٢٧٧ على بلاد سلاجقة الروم التي كانت مشمولة بحماية التتار في فارس ، واستطاع بيبرس أن يمزق الجيش التترى في الأناضول عند أبلستين في ١٨ أبريل سنة ١٢٧٧ ، دون أن يستطيع كيخسرو الثالث — الذي كان صغيراً — أو وزيره معين الدين سليمان البرواناه وقف ذلك الخطر(٢) . وبعد عودة بيبرس إلى الشام أسرع أبغا إلى أبلستين حيث شاهد عسكر مصرعى ولم يشاهد أحداً من عسكر الروم مقتولاً ، فاستشاط غضباً وأمر بنهب الروم وقتل من مر به من المسلمين(٣) ويروى رشيد الدين الهمذاني أن أبغا بكى عندما شاهد قتلى التتار مكدسين وحزن على رجاله حزناً شديداً(٤) .

علاقة المماليك بتتار فارس بعد بيبرس :

وهكذا استمر العداء بين التتار في فارس والعراق من ناحية والمماليك في مصر والشام من ناحية أخرى قائمة طوال عهد بيبرس ، ولا تكاد الحرب بين الطرفين تهدأ حيناً إلا لتثور أحياناً . وإذا كان السلطان الظاهر بيبرس قد توفى

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ورقة ٣٣٤ .
(٢) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٥٩ وما بعدها .
(٣) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٧٥ هـ .
(٤) رشيد الدين الهمذاني : جوامع التواريخ م ٢ ج ٢ ص ٦٢ — ٦٣

١٢٧٧ ، فليس معنى ذلك أن العداء توقف بين المماليك والتتار ، لأن ذلك العداء
حقيقة أمره لم يكن أمراً شخصياً ، وإنما رجعت أصوله وأسبابه إلى عدوان
على المسلمين وبلادهم واحتلالهم العراق وفارس وغيرهما من أرض
الإسلام وقتلهم الخليفة العباسى وأهل بيته ، وتدميرهم بغداد وغيرها من المدن
الإسلامية ... هذه الأعمال وغيرها أثارت لعنة المسلمين جميعاً على
فى فارس والعراق وجعلت المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها
يشعرون بمرارة قاسية كلما تذكروا ما حل بالإسلام والمسلمين على أيدى
تلك المشركين .

وهكذا لم يكن منتظراً أن يتوقف العداء بين المماليك وتتار فارس لمجرد
وفاة حاكم وقيام آخر بدله . وربما أراد التتار أن يستغلوا فترة القلق وعدم
الاستقرار التى تعرضت لها دولة المماليك بين وفاة الظاهر بيبرس سنة ١٢٧٧
وقيام السلطان المنصور قلاون فى الحكم سنة ١٢٧٩ ، فأغاروا على بلاد الشام
من جديد بنفس الوحشية والهمجية التى عرفوا بها من قبل ولكن السلطان
المنصور قلاون أظهر أنه لا يقل ثباتاً فى وجه التتار عن سلفيه بيبرس وقطز ،
ولم يكد يعلم أنهم اقتربوا من حلب واستولوا على بعض أعمالها ، حتى أرسل ضدهم
حملة سنة ١٢٨٠ ، وعندئذ ولى التتار الأدبار[١] وعندما عاود أبغا الهجوم
على الشام سنة ١٢٨١ ، ووصلت جيوشه حماة ، تصدت لهم جيوش السلطان
المنصور قلاون التى استطاعت إنزال الهزيمة بالتتار قرب حمص ، فقتل كثير
منهم ، وأسرع أبغا بالعودة إلى بغداد ومعه فلول جيشه ، ولم يلبث أبغا أن
توفى بعد ذلك بقليل سنة ١٢٨٢[٢] .

وبوفاة أبغا تبدلت العلاقات فجأة بين سلطنة المماليك وتتار فارس . ذلك

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٦٨ .
(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١١٣ ،
النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٨ — ٩ .

أن تكودار الذى خلف أخاه أبغا فى الحكم كان قد اعتنق الإسلام قبل اعتلائه عرش تتار فارس ، فأرسل إلى السلطان المنصور قلاون يظهر رغبته فى أن يظل فى سلام ومودة مع جيرانه المسلمين ، ويعبر عن حرصه على حماية الإسلام والدفاع عن أراضيه . ولم يخف أحمد تكودار فى رسالته إلى المنصور قلاون رغبته فى توحيد كلمة المسلمين وإنهاء حالة الحرب والقتال القائمة بين التتار والمماليك « فقد ظهر بفضل الله تعالى فى دولتنا النور المبين ، وإن كانت لماسبق من الأسباب فمن يتحرى الآن طريق الصواب فإن له عندنا لزلفى وحسن مآب . وقد رفعنا الحجاب وأتينا بفصل الخطاب وعرفناهم طريقتنا وما عزمنا بنية خالصة لله تعالى على استئنافها وحرمنا على جميع العساكر العمل بخلافها ، لترضى الله والرسول ويلوح على صفحاتها آثار الإقبال والقبول ، ولتستريح من اختلاف الكلمة هذه الأمة وتنجلى بنور الائتلاف ظلمة الاختلاف والغمة »(١) . وكان من الطبيعى أن يرحب السلطان قلاون بدخول إيلخان القتال فى الإسلام ، وبإحلال السلام محل الحروب والعدوان بين التتار والمماليك(٢) .

ولكن شاءت الظروف ألا يستمر أحمد تكودار فى حكم تتار فارس ، إذ نقم عليه قومه لإسلامه وقتلوه ليحل محله ابن أخيه أرغون سنة ١٢٨٤ . وقد اتبع أرغون سياسة عنيفة مع المسلمين فى بلاده ، الأمر الذى أساء إلى العلاقة بين تتار فارس وسلطنة المماليك مرة أخرى ، مما أدى إلى اشتداد الشعور فى دولة المماليك بضرورة إجلاء التتار عن العراق(٣) . على أن سلاطين المماليك كانوا لا يستطيعون القيام بذلك المشروع الضخم فى الوقت الذى استنفدت الحروب ضد الصليبيين كثيراً

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٨ ص ٦٥ — ٦٨ .

(٢) محيى الدين بن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور ص ١٠ — ١٧ .

(٣) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٧٧٤ .

من جهودهم ، فاكتفى السلطان الأشرف خليل بن قلاون بالاستيلاء على قلعة الروم سنة ١٢٩٢ ، وهي قلعة غربي الفرات كان التتار يتخذونها قاعدة للوثوب منها على بلاد الشام(١) .

ويبدو أن دولة تتار فارس تطرق إليها الضعف بعد عهد أرغون بسبب الخلافات الداخلية . وقد آل حكم تلك الدولة سنة ١٢٩٥ إلى غازان بن أرغون الذى أشهر إسلامه وأظهر حماسة كبيرة فى نصرة المسلمين ببلاده واضطهاد العناصر المسيحية والبوذية(٢) على أن حماسة غازان للاسلام لم تقربه من سلطنة المماليك ، لأنه أبى إلا أن يتمسك بسياسة أسلافه التوسعية على حساب جيرانه المسلمين . من ذلك أن غازان أعد حملة كبرى سنة ١٢٩٩ لغزو بلاد الشام فحاول الناصر محمد بن قلاون — سلطان المماليك عندئذ — أن يتصدى له . غير أن الناصر محمد لم يستطع أن يصمد فى وجه التتار الذين أنزلوا الهزيمة بجيوش المماليك عند مجمع المروج بين حمص وحماه(٣) . وقد فر السلطان الناصر محمد عقب تلك الهزيمة إلى دمشق حيث عم الأهالى الذعر والقلق . ولم يلبث أن أرسل غازان أمانا لأهل دمشق ، قرأه أحد رجال التتار على الناس فى المسجد الأموى(٤) ، ندد فيه غازان بالمماليك وحكمهم ، ووعد أهالى دمشق بأنه لن « يتعرض أحد من العساكر المذكورة على اختلاف طبقاتها لدمشق وأعمالها وسائر البلاد الشامية الإسلامية ، وأن يكفوا إظهار التعدى عن أنفسهم وأموالهم وحريمهم » .

ولكن غازان لم يحفظ عهده ، إذ لم يكد رجاله يصلون إلى دمشق حتى عاثوا فساداً فى المدينة وأهلها ، ثم انتشر التتار بعد ذلك حتى وصلوا إلى بيت المقدس

(١) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ج ٢ ص ٣٨٩ — ٣٩٠ .
(٢) Howorth : Hist of Mongols, vol. 3, p. 396
(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٨٨٧ — ٨٨٨ .
(٤) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٣٢٥ «مخطوط» .

والكرك فى جنوب فلسطين ، فى الوقت الذى عاد السلطان الناصر محمد بن قلاون إلى مصر . على أن سلطنة المماليك كانت لا يمكن أن ترضى بذلك الوضع وتترك التتار يعيثون فساداً فى أرجاء الشام ، ولذلك عاد الناصر محمد إلى مصر ليعد جيشاً كبيراً خرج به إلى الشام حيث دارت بينه وبين التتار عدة مناوشات ومراسلات[١] وفى موقعة مرج الصفر قرب دمشق دارت الدوائر على التتار سنة ١٣٠٢ ، فولوا الأدبار عبر الفرات وبذلك عادت بلاد الشام إلى أحضان دولة المماليك . ويبدو أن النصر الذى أحرزه السلطان الناصر محمد فى موقعة مرج الصفر جعله يعتد بنفسه ، فأرسل إلى غازان محقراً إياه ، طالباً منه الجلاء عن العراق فوراً لإعادتها إلى الخلافة العباسية « وإن سولت لك نفسك خلاف ذلك فأنت لا محالة هالك ، وعن قريب يخلو منك العراق والعجم وتبدل وجودك بالعدم .. فاختر لنفسك إما الدخول إلى خراسان سريعاً وإما الخروج عن الروم والعراق جميعاً »[٢] .. ويقال إن غازان لم يحتمل مرارة الهزيمة فمات من الغيظ فى ١٧ مايو سنة ١٣٠٥ وخلفه أولجاتيو بن أرغون .

وعلى الرغم من أن أولجاتيو حاول فى بداية عهده مصالحة المماليك حتى أنه أرسل إلى القاهرة يطلب الصلح ويقول « عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه »[٣] ، إلا أن اعتناق أولجاتيو المذهب الشيعى جعله ينفر من المماليك السنيين ، فعاد إلى التفكير فى مهاجمة بلاد الشام . وربما شجع أولجاتيو على اتباع هذه السياسة الجديدة فرار إثنين من كبار أمراء المماليك هما قرا سنقر والافرم إليه حيث زينا له الهجوم على الشام . وقد شرع التتار فعلا فى مهاجمة بلاد الشام سنة ١٣١٢ ، ولكنهم لم يلبثوا أن عادوا أدراجهم بعد أن سمعوا باقتراب الناصر محمد

---

(١) محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاون فى مصر ص ١٨٩ — ١٩٧ .
(٢) زترشتين : تاريخ سلاطين المماليك ص ١١٨ — ١٢١ .
(٣) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٦ .

على رأس جيوشه الجرارة(١) وإذا كان الصدام بين التتار والمماليك قد تكرر سنة ١٣١٥ حول ماردين ، فإن الهزيمة حلت عندئذ بالتتار ، وسيق أسراهم إلى حلب(٢) .

وأخيراً استقرت العلاقات الطيبة بين المماليك وتتار فارس بعد موت أولجاتيو وولاية ابنه بوسعيد سنة ١٣١٦ ، مما أدى إلى عقد صلح بين الطرفين سنة ١٣٢٠ ويعتبر هذا الصلح نقطة تحول فى العلاقات بين دولتى المماليك وتتار فارس ، إذهدأت الأمور بين الدولتين بعد ذلك ولم نعد نسمع عن حروب طاحنة بين المماليك والتتار من نوع الحروب التى شهدها القرن الثالث عشر . وربما ساعد على ذلك الوضع الجديد أن دولة تتار فارس تعرضت لكثير من عوامل الضعف والانحلال منذ عهد بوسعيد فى القرن الرابع عشر ؛ فى الوقت الذى أخذت دولة المماليك البحرية تعانى كثيراً من مظاهر التفكك فى عصر أولاد الناصر محمد وأحفاده .

(١) محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون فى مصر ص ٢٠٥ .
(٢) المقريزى السلوك جـ ٢ ص ١٤٧ .

الفصل الثالث

المماليك والصليبيون

الشرق الأدنى بين خطريه :

إذا كان المماليك قد واجهوا فى فجر دولتهم التى أقاموها عند منتصف القرن الثالث عشر خطر التتار ونجحوا فى مواجهة هذا الخطر والتغلب عليه وحماية مصر والشام من شره ؛ فإن ثمة خطراً آخر كان على المماليك مواجهته بنفس روح الشجاعة وقوة التصميم التى واجهوا بها الخطر الأول ، وأعنى بهذا الخطر الثانى خطر الصليبيين . ومع أن التشابه بين الخطرين التترى والصليبى يبدو واضحاً فى بعض النواحى ، إلا أن أوجه الاختلاف لا تقل وضوحاً ، فى نواح أخرى . فنحن نرى أن الخطرين التترى والصليبى متفقان فى أن لهما عدو مشترك واحد كبير هو الإسلام والمسلمين فى الشرق الأدنى . ومهما يقال من أن التتر فى دولة فارس والعراق كانوا فى الدور الأول من تاريخهم وثنيين بوذيين ؛ إلا أن الميول المسيحية النسطورية لا يمكن اخفاؤها فى سياسة تلك الدولة منذ ذلك الدور بالذات . وحسبنا أن دوقوز خاتون زوجة هولاكو والمرأة ذات الكلمة المسموعة فى بلاطه كانت مسيحية ، نسطورية [1] ، فضلا عن أن بعض القوى الصليبية فى الشرق الأدنى — وبخاصة مملكة أرمينية الصغرى — حرصت على استغلال قوة التتار فى القضاء على الكيان الإسلامى ، ولذلك تحالف الأرمن مع التتار واشترك الطرفان فى وضع خطة غزو هولاكو لبلاد الشام . فإذا أضفنا إلى ذلك ما كان هناك من إتصالات بين تتار فارس من ناحية والقوى المسيحية فى غرب أوربا

---

(١) رشيد الدين الهمذانى : جامع التواريخ ص ٢٢٠ (م ٢ ج ١) .

وعلى رأسها البابوية من ناحية أخرى ، أدركنا مدى ذلك التقارب بين التتار والمسيحية فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر بالذات. لذلك لا عجب إذا هلل المسيحيون الشرقيون — فى الجزيرة والشام وأطراف آسيا الصغرى — لحركة التوسع التترى ، ولا عجب إذا سمعنا فى المراجع أن رجال هولاكو كانوا كلما استولوا على مدينة من مدن الشام الإسلامية — مثل حلب أو دمشق — أسرفوا فى اضطهاد أهلها المسلمين وامتهان مساجدهم ، بقدر ما أسرفوا فى تأمين العناصر المسيحية واحترام كنائسها ودورها(١) .

وثمة وجه آخر من أوجه التشابه بين الخطرين الصليبي والتترى هو أن كلاهما كان خطرا خارجيا لم ينبع من منطقة الشرق الأدنى وإنما أتى على شكل غزوات خطيرة ليدهم المسلمين والوطن الإسلامى فى تلك المنطقة. فالتتار وفدوا من أقصى الشرق والصليبيون وفدوا من أقصى الغرب ، والجميع أرادوا أن يتخذوا من الوطن الإسلامى فى الشرق الأدنى مستقرا ومقاما ، مما جعل المسلمين فى القرن الثالث عشر يحسون بمرارة قاسية عندما رأوا أنفسهم بين شق رحى ضخمة تريد أن تسحقهم وتقضى على كيانهم . وقد عبر المؤرخ ابن الأثير تعبيرا صادقا عن ذلك الشعور فى زفرة عميقة أرسلها قلمه إذ يقول « لم ينل المسلمون أذى وشدة منذ جاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا الوقت مثل مادفعوه إليه الآن. هذا العدو الكافر التتر قد وطئوا بلاد ما وراء النهر وملكوها وخربوها. والعدو الآخر الفرنج قد ظهر فى بلادهم فى أقصى بلاد الروم بين الغرب والشمال ووصلوا إلى مصر ، فملكوا مثل دمياط وأقاموا فيها .. فإنا لله وإنا إليه راجعون ! ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ....!»(٢)

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٣٠ — ١١٣١ .

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٦١٧ هـ .

هذا عن أوجه التشابه بين الخطرين التترى والصليبى، أما عن أوجه الخلاف فيلاحظ أن الخطر الصليبى أعمق جذوراً وأقدم عمراً من الخطر التترى. فبينما كان خطر التتار من النوع الداهم المفاجىء الذى لا يرتبط إلا بالرغبة فى التوسع والنهب والسلب، ولا يتصف إلا بسفك الدماء والتدمير الحضارى الشامل، إذ الخطر الصليبى على الشرق الأدنى يرتبط بأصول قديمة ترجع إلى أيام حركة التوسع الإسلامى فى القرن السابع الميلادى، ويتخذ مسحة دينية — ولو ظاهرية — يخفى وراءها أغراضاً أخرى اقتصادية وسياسية وغيرها. وليس معنى هذا أن الصليبيين كانوا أقل خطراً على المسلمين فى الشرق الأدنى من التتار. حقيقة إن غزوات التتار كانت أشد عنفاً وبدت أكثر قسوة ووحشية، ولكن ينبغى أن نذكر أن الخطر الصليبى كان أقرب إلى قلب العالم الإسلامى فى الشرق الأدنى من الخطر المغولى. فالمركز الرئيسى الذى خرجت منه الحملات الصليبية كان غرب أوربا، وشتان بين المسافة بين غرب أوربا والشام، والمسافة بين قراقورم — قاعدة التتار فى جوف آسيا وبلاد الشام. ولعل قرب مركز الحركة الصليبية من بلاد المسلمين فى الشرق الأدنى هو الذى جعل الخطر الصليبى يتخذ شكل حملات مستقلة تخرج بين حين وآخر من الغرب قاصدة بلاد المسلمين، فتكون هذه الحملات أشبه بالدماء الجديدة التى تخرج من القلب لتغذى الأطراف وتبعث فيها الحياة. وطالما استمر مجىء الحجاج والصليبيين من غرب أوربا إلى بلاد الشام، ضمنت الإمارات الصليبية فى بلاد الشام قوة تغذيها بين حين وآخر وتحقق لها البقاء. أما التتار فى فارس والعراق فمهما يقال عن قوتهم، فإنهم باستقرارهم فى تلك البلدان البعيدة فى الشرق الأدنى ضعفت الصلات بينهم وبين مراكزهم الأولى، ولم يجدوا غذاء بشريا مستمراً يحيى فيهم أصولهم الأولى، فتعرضوا تدريجيا للذبول والانحلال والذوبان البطىء.

وعلى هذا الأساس لا ينبغي أن نقلل من خطر الصليبيين بالقياس إلى الخطر التترى ، فقد ولدت دولة المماليك والصليبيون يحتلون جزءاً من أراضى مصر فضلا عن إمارات ومستعمرات قوية أسسوها فى الشام ، ودول مسيحية مستقلة تجاوبت معهم فى أرمينية وقبرص . وكانت الإمارات الصليبية فى بلاد الشام صورة دائمة تعبر عن الخطر الأوربى الغربى ، وتعتمد فى تهديدها الدائم لبلاد المسلمين فى الشرق الأدنى على قواعد قريبة ثابتة .

وهنا أظهر المماليك ثباتا كبيراً فى مواجهة الخطر الصليبى لا يقل عن ثباتهم فى مواجهة الخطر التترى ، ونجحوا فى التغلب على الخطر الصليبى نجاحا لا يقل عن نجاحهم فى التغلب على الخطر التترى بل ربما فاقه ، لأن المماليك هم أصحاب الفضل فى اقتلاع جذور الخطر الصليبى من بلاد الشام وطرد الصليبيين نهائيا من تلك البلاد . وربما اضطر المماليك إلى مقاتلة الصليبيين فى نفس الوقت الذى قاتلوا فيه التتار ، ولكن كان يحدث غالباً أن يحرص المماليك على عدم محاربة الخصمين فى وقت واحد إلا إذا اضطرتهم الظروف إلى ذلك .

لويس التاسع فى بلاد الشام :

وكان أول نجاح أحرزه المماليك على الصليبيين هو إنقاذ المنصورة ثم إنزال الضربة القاصمة بالجيش الصليبى قرب فارسكور سنة ١٢٥٠ كما سبق أن رأينا . وأعقب ذلك مباشرة قيام دولة المماليك فى حكم مصر ، فكان على الدولة الجديدة أن تقوم بجهد سريع لتصفية آثار الحملة الصليبية السابعة على مصر . حقيقة إن لويس التاسع زعيم تلك الحملة كان أسيراً فى دار ابن لقمان بالمنصورة ، ولكن الصليبيين كانوا ما زالوا يحتلون دمياط الأمر الذى شكل خطراً جسيما على مصر ودولة المماليك الناشئة . ومن يدرى ، فإنه طالما ظلت دمياط فى أيدى الصليبيين ، فإن ذلك كان كفيلا بأن يجعل منها قاعدة للصليبيين فى الأراضى المصرية يمكن أن

تأتى إليها الوفود الصليبية من الغرب الأوروبى للقيام بمحاولة أخرى لغزو مصر وفك أسر لويس التاسع . لذلك حرصت شجر الدر - أولى سلاطين المماليك فى مصر - على إبرام الصلح مع الصليبيين وفك أسر لويس التاسع ، كما سبق أن أوضحنا .

وقد تعهد لويس التاسع فى تلك الاتفاقية بألا يقصد شواطىء الإسلام مرة أخرى ، إلا أنه شق عليه عقب إطلاق سراحه فى مايو سنة ١٢٥٠ أن يعود إلى بلاده مباشرة وقد لطخت سمعته فضيحة الهزيمة وعار الأسر ، واختار أن يقصد بلاد الشام أولا عسى أن يتمكن من القيام ببعض الأعمال الصليبية التى تعيد إليه ماء وجهه . وكان الصليبيون فى بلاد الشام وقتئذ أحوج مايكونون إلى زعيم قوى ينظم صفوفهم ويحل مشاكلهم ويبث فيهم روح الأمل والثبات ، ولذلك فرحوا بمقدم لويس التاسع اليهم ورحبوا به ترحيباً كبيراً (١) . وقد قضى لويس التاسع بالشام أربع سنوات (مايو ١٢٥٠ — ابريل ١٢٥٤) عمل فيها جاهداً لتصفية الخلافات بين أمراء الصليبيين بعضهم وبعض من ناحية ، والاحتفاظ بكيان الصليبيين وسط الخلافات التى تأججت بين بنى أيوب فى الشام والمماليك فى مصر من ناحية ثانية ، ثم القيام بمباحثات هامة مع التتار من ناحية ثالثة .

وكان أن أفاد لويس التاسع فى الشام من النزاع بين الأيوبيين والمماليك ، لأن كل فريق أخذ يخطب وده ويحاول محالفته ضد الطرف الآخر . ومن ذلك أن المعز أيبك سلطان المماليك فى مصر حرص على استرضاء لويس التاسع فأفرج عن دفعات من أسرى الصليبيين بلغت نحواً من ثلاثة آلاف أسير ، كما أرسل هدية الى لويس التاسع (٢) . أما الناصر يوسف — كبير الأيوبيين بالشام —

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١٠٨٤ — ١٠٨٥ .

(٢) Joinville, p 254-256.

فقد بادر هو الآخر بإرسال سفارة إلى الملك لويس التاسع فى عكا يعرض عليه محالفته ويعده بإعطائه بيت المقدس[1] وقد أدرك لويس التاسع أنه لا يمكنه أن يقبل العرض الأيوبى ويضحى بأرواح أكثر من عشرة آلاف صليبى مازالوا أسرى فى مصر. كذلك فضل لويس التاسع أن يعقد اتفاقية مع المماليك فى مايو سنة ١٢٥٢ ، وافق المماليك فيها على إطلاق سراح جميع أسرى الصليبيين وإعفاء لويس التاسع من مؤخر الفدية المستحق عليه ، فضلا عن إعطاء بيت المقدس للصليبيين « إن نصروهم على الشاميين »[2] . وفى مقابل ذلك كله وافق لويس التاسع على مساعدة المماليك فى القيام بحملة ضد الناصر يوسف الأيوبى ، على أن تلتقى جيوش الحلفاء عند يافا فى مايو سنة ١٢٥٢ . على أنه حدث فى تلك المرحلة أن توسط الخليفة العباسى فى الصلح بين الأيوبيين والمماليك — كما سبق أن ذكرنا — وبذلك ضاعت على لويس التاسع والصليبيين فرصة الحصول على بيت المقدس عن طريق استغلال حالة النزاع بين الأيوبيين والمماليك[3] . ولم يجد لويس التاسع بعد ذلك وسيلة لتدعيم مركز الصليبيين بالشام سوى الاتصال بالتتار لمحالفتهم ضد المسلمين جميعاً من أيوبيين ومماليك. ولكن يبدو أن هذه الاتصالات لم تؤد إلى نتيجة ناجحة ، مما جعل لويس التاسع يغادر بلاد الشام عائداً إلى فرنسا فى إبريل سنة ١٢٥٤ .

وعلى الرغم من حدوث صدام بين المماليك والصليبيين سنة ١٢٥٦ ، إلا أن هذا الصدام لم يستمر طويلا ولم يلبث أن انتهى بالصلح السريع بين الطرفين[4] ولعل السبب فى ذلك هو أن كلا من الطرفين لم يكن مستعداً للدخول فى حرب

---

(١) Runciman: A Hist. of the Crusades, III p. 275.

(٢) العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٦٥١ هـ (جـ ١٨ قسم ٢ ورقة ٣٤٤) .

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١٠٩٢ .

(٤) Setton : A Hist. of the Crusades, II, p. 568.

طويلة مع الطرف الآخر، فالصليبيون كانوا منقسمين على أنفسهم فى خلافات داخلية خطيرة، والمماليك كانوا يقيمون دولة فى دور التأسيس ولم تستطع أن تقف على قدميها بعد أمام الأخطار الداخلية والخارجية التى واجهتها .

وبانتصار المماليك على التتار فى عين جالوت، أمكن للمماليك أن يتغلبوا على أكبر خطرين واجهادولتهم الناشئة، وهما خطر التتار وخطر الأيوبيين . وبذلك أصبح المماليك سادة مصر والشام ، وحققوا لأنفسهم من المجد ما أضفى عليهم قسطا من الأهمية ونوعا من الشرعية . ومادام المماليك قد ورثوا الأيوبيين فى ملكهم فى مصر والشام ، فإنه كان من الطبيعى أن يرثوا عن الأيوبيين سياستهم الخاصة بجهاد الصليبيين وتقويض دعائم ملكهم بالشام . وإذا كان القدر لم يمهل قطز بطل عين جالوت لوضع قواعد هذه السياسة، فإن خليفته السلطان الظاهر بيبرس، استطاع أن يسهم بسهم وافر فى جهاد الصليبيين والتمهيد لطردهم كلية من بلاد الشام .

الظاهر بيبرس والاستيلاء على أنطاكية :

وقد رأينا كيف أن السلطان الظاهر بيبرس الذى تولى سلطنة المماليك فى أواخر سنة ١٢٦٠ ، استطاع أن يثبت أنه من أقدر الحكام وأقواهم وأبعدهم نظراً. فأخذ يتغلب على المشاكل الداخلية والخارجية التى واجهته واحدة بعد أخرى ليتفرغ بعد ذلك لحرب الصليبيين .(١) والواقع أن الحقيقة الكبرى التى تواجهنا فى نشاط بيبرس الحربى ضد أعداء الوطن الإسلامى فى تلك الحقبة هى أنه يصعب وضع خط فاصل بين حروبه ضد التتار وحروبه ضد الصليبيين فكثيرا ما كان بيبرس يخرج على رأس جيوشه من مصر لمحاربة أحد الخصمين ، فيحارب

---

(١) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ص ٣٨ وما بعدها .

الآخر، أو يحارب الاثنين معاً. وإذا كنا لاحظنا أن حروب بيبرس ضد التتار امتازت بالقوة والشجاعة والمثابرة، فإننا يجب أن نذكر فى نفس الوقت أن حروبه ضد الصليبيين كانت أكثر استمراراً وأوسع نطاقاً وأشد عنفاً من حروبه ضد التتار. ذلك أنه يلاحظ دائماً على حروب سلاطين المماليك ضد التتار أن تلك الحروب كانت مؤقتة متقطعة تأتى فى أوقات متباعدة نسبياً، أى عندما يجرؤ التتار على مهاجمة بلاد الشام. وطالما ظل التتار قابعين فى العراق وفارس لا يبدأون بالهجوم على أطراف دولة المماليك فى الشام، لم يحاول سلاطين المماليك غالباً أن يهاجموهم. أما الخطر الصليبى فكان من نوع آخر، لأن الصليبيين كانوا عند قيام دولة المماليك منتشرين فى بلاد الشام شمالها وجنوبها — عن طريق عديد حصونهم ومعاقلهم التى أسسوها داخل البلاد وقرب الساحل، أو عن طريق المدن الشامية التى ظلوا يسيطرون عليها ويتحكمون فيها. وهكذا صار الاحتكاك بين المسلمين والصليبيين بالشام يمكن أن يكون مباشراً ومتصل الحلقات كما كان سلاطين المماليك أكثر إحساساً بالخطر الصليبى منهم بالخطر التترى الذى لم يحسوا به إلا وقت خروج التتار من العراق لمهاجمة أطراف الشام.

وإذا كان الظاهر بيبرس هو الشخصية الكبرى فى صدر دولة المماليك البحرية، والرجل الذى أراد أن يجعل من نفسه صلاح الدين الثانى، فإن ذلك دفعه إلى أن يضع لنفسه برنامجاً خارجياً ضخماً كانت أبرز أركانه حماية بلاد الشام من خطر التتار والقضاء على الصليبيين وطردهم من الشام[1]. وقد بدأت هجمات بيبرس على الصليبيين فى وقت مبكر، أى فى نوفمبر سنة ١٢٦١ عندما هاجم بيبرس إمارة أنطاكية لعقاب أميرها بوهيموند السادس على محالفته التتار، ثم كرر الهجوم عليها فى صيف سنة ١٢٦٢، وفى تلك المرة حاصر الجيش المماليكى

---

(١) سعيد عاشور: الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٤٢.

مدينة أنطاكية ذاتها وأوشك على الاستيلاء عليها لولا تدخل هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى الذى استنجد بالمغول ، مما أدى إلى جلاء المماليك عن أنطاكية فعادوا ومعهم أكثر من ثلثمائة أسير (١) .

على أن بيبرس رأى قبل أن « يتوجه بكليته إلى الفرنج » — على قول المقريزى — (٢) أن يدعم مركزه باتخاذ خطوتين على جانب كبير من الأهمية ، الأولى هى إحياء الخلافة العباسية فى مصر سنة ١٢٦٢ ليظهر سلطنة المماليك فى صورة القوة الحامية للخلافة المتمتعة بيعتها مما يدعم دولته الناشئة ويكسبها أهمية فى نظر المسلمين كافة . والثانية هى محالفة تتار القفجاق — فى القوقاز وجنوب روسيا — وهم الذين اعتنقوا الإسلام فأراد بيبرس أن يتخذ منهم عونا على هولاكو وتتار فارس .

وقد بدأت الحروب الشاملة التى شنها بيبرس على الصليبيين بعدة محاولات من جانبهم لطلب الصلح ، وببعض مناوشات من جانب بيبرس لسبر غورهم حتى إذا ما كانت سنة ١٢٦٥ بدأ بيبرس حربه الشاملة ضدهم . ففى أوائل فبراير من تلك السنة خرج السلطان بيبرس على رأس جيش ضخم إلى غزة فاستولى على قيسارية ويافا وعثليث وأرسوف التى استسلمت بعد مقاومة شديدة أبدتها حاميتها من الاسبتارية (٣) . وبعد استيلاء بيبرس على أرسوف جاء دور عكا ، ولكن هيو الثالث الوصى على عرش قبرص قام عندئذ بالوصاية على عكا أيضا ، فحضر على رأس جيش قوى من جزيرة قبرص فى ابريل سنة ١٢٦٥ للدفاع عن عكا ، مما حمل بيبرس ينصرف إلى مصر (٤) .

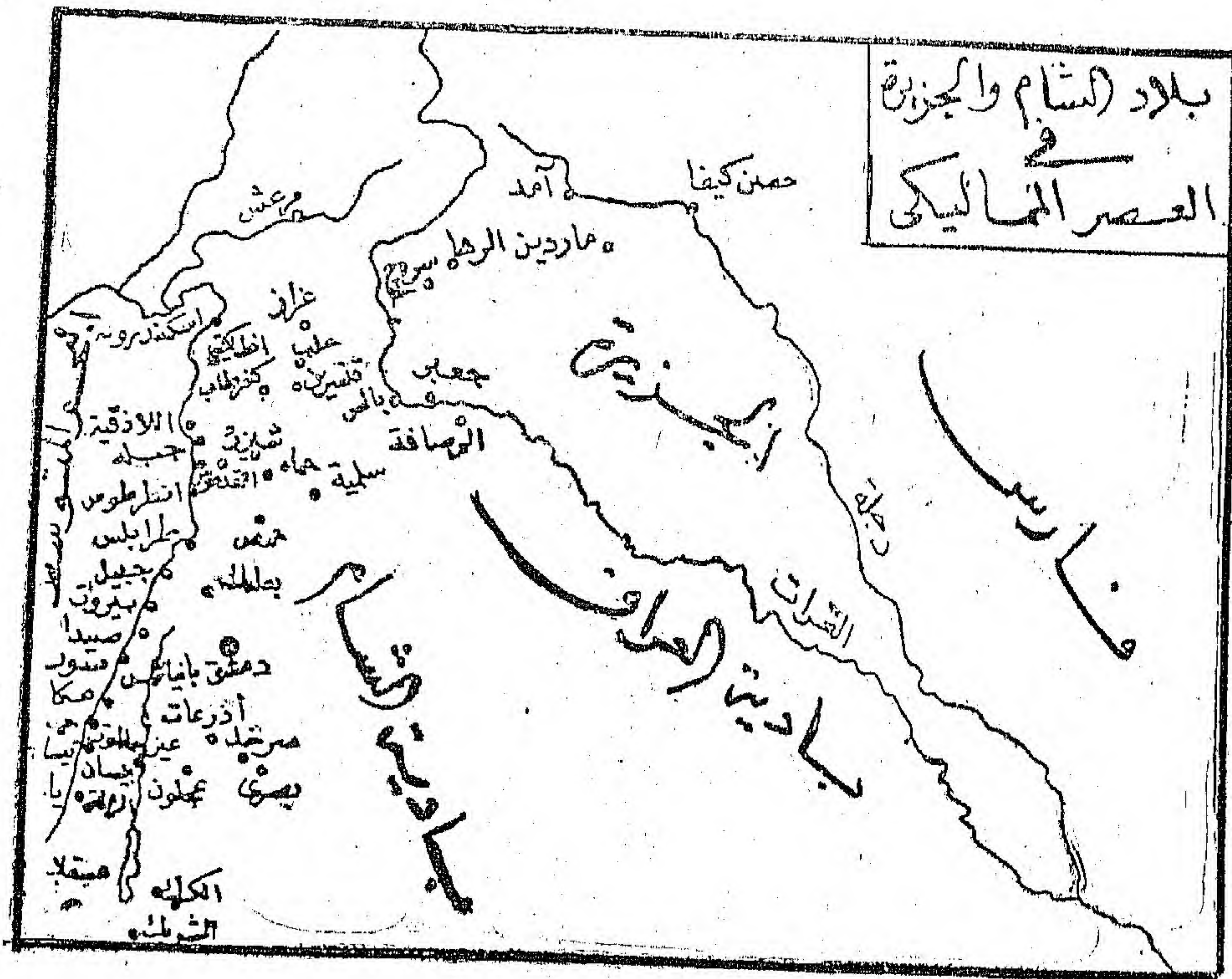
---

(١) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٦٠ هـ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٨٣ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٦٣ هـ .

(٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٤١ .


بلاد الشام والجزيرة
في
العصر المماليكي
حصن كيفا
آمد
ماردين
الرها
سروج
مرعش
عزاز
حلب
انطاكية
اسكندرونة
قنسرين
كفرطاب
جعبر
بالس
الرصافة
شيزر
حماه
سلمية
اللاذقية
جبلة
انطرطوس
طرابلس
حمص
جبيل
بيروت
صيدا
دمشق
بانياس
صور
عكا
أذرعات
صرخد
عين جالوت
بيسان
عجلون
بصرى
عسقلان
الكرك
الشوبك
الجزيرة
بادية العراق
بادية الشام
الفرات
دجلة
فارس

ثم عاد بيبرس فى العام التالى — مايو سنة ١٢٦٦ — لاستئناف الحرب ضد الصليبيين ، فبدأ بمهاجمة عكا ، ولما وجدها قوية التحصين انصرف إلى قلعة القرين فوجدها هى الأخرى صعبة المنال ، فقصد صفد واستولى عليها فى صيف سنة ١٢٦٦ ، وبعدها استقلت هونين وتبنين ومدينة الرملة[1] . وبعد ذلك استولى بيبرس على بعض المراكز القريبة من طرابلس مثل القليعات وحلباء وعرقة .

ولم ينس السلطان بيبرس لأرمينية الصغرى موقفها وموقف ملكها هيثوم الأول فى مؤازرة التتار وحثهم على غزو الشام سنة ١٢٥٩ — ١٢٦٠ . لذلك أرسل بيبرس جيشا كبيرا فى صيف سنة ١٢٦٦ تحت قيادة الأمير قلاون والملك المنصور الثانى الأيوبى صاحب حماه لمهاجمة أرمينية الصغرى واستطاع المماليك أن ينزلوا هزيمة كبرى بالأرمن وحلفائهم قرب دربساك فى ٢٤ أغسطس سنة ١٢٦٦ . وقد قتل فى الموقعة أحد أبناء الملك هيثوم وأسر ابنه الثانى ، فى حين كان هيثوم نفسه متغيبا عن بلاده فى تبريز يستجدى مساعدة التتار[2] . وبعد أن أغار المماليك على مدن أرمينية الرئيسية — وهى أذنه والمصيصة وطرسوس — وأشعلوا النار فى عاصمتها سيس ، عادوا ومعهم قدر كبير من الغنائم وعدد ضخم من الأسرى[3] . والواقع إن مملكة أرمينية الصغرى لم تفق مطلقاً من تلك الكارثة وصار دورها سلبياً بعد ذلك فى الأحداث الجارية على مسرح الشرق الأدنى ، أما الملك هيثوم فإن الصدمة جعلته يتنازل عن العرش سنة ١٢٦٩ لابنه ليو الثالث[4] .

---

(١) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٥٥٠ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٤٠ ؛

أبو الفدا : المختصر حوادث ٦٦٤ هـ .

(٣) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٥٢ ؛

(4) Runciman : op. cit; III p. 323.

ويبدو أن السلطان الظاهر بيبرس استغل فرصة الخلافات الداخلية بين الصليبيين بعضهم وبعض وأغار على منطقة طبرية وعكا سنة ١٢٦٧ كما استولى على يافا والشقيف أرنون فى العام التالى (١). أخيراً توج بيبرس أعماله الحربية ضد الصليبيين بالاستيلاء على أنطاكية، فوصل إليها قرب منتصف مايو سنة ١٢٦٨ وهناك قسم جيشه إلى ثلاث فرق « إحداها اتجهت إلى ميناء السويدية لتقطع الصلة بين أنطاكية والبحر، والثانية سدت الممرات بين قيليقية والشام لمنع وصول أية مساعدة إلى أنطاكية من أرمينية الصغرى، فى حين أخذت القوة الرئيسية تحت قيادة بيبرس نفسه تهاجم المدينة. ولم تلبث أن سقطت أنطاكية فدخلها المماليك وغنموا منها غنائم طائلة، بلغ من كثرتها أن « قسمت النقود بالطاسات ». كذلك بلغ من كثرة الأسرى أنه « لم يبق غلام إلا وله غلام، وأبيع الصغير باثنى عشر درهما والجارية بخمسة دراهم »(٢) وقدرت بعض المراجع الصليبية عدد أسرى أنطاكية بمائة ألف أسير.

ولا تخفى علينا أهمية سقوط أنطاكية بالذات فى قبضة المسلمين سنة ١٢٦٨. إذ كانت ثانى إمارة - بعد الرها - أسسها الصليبيون فى الشرق سنة ١٠٩٧، فجاء استيلاء المسلمين عليها دليلا جديدا على انهيار ذلك البناء الضخم الذى أقامه الصليبيون فى الشام فى أواخر القرن الحادى عشر.

وفى سنة ١٢٦٩ توج هيو الثالث ملك قبرس ملكا على مملكة بيت المقدس الصليبية، فأخذ يعمل على تقوية جبهة الصليبيين بالشام. ولكن بيبرس لم يحترم الهدنة التى كان يعقدها مع الصليبيين بين حين وآخر، وإنما هاجم إمارة طرابلس سنة ١٢٧١ واستولى على صافيتا من الداوية، وعلى حصن الأكراد وحصن

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة، ج ٧ ص ١٤٢ ؟
العينى : عقد الجمان سنة ٦٦٦ هـ.
(٢) المقريزى : السلوك، ج ١ ص ٥٦٨.

عكار من الاسبتارية(١). وفى طريق عودة بيبرس من طرابلس استولى على حصن القرين — إلى الشمال الشرقى من عكا — فى يونية سنة ١٢٧١، وكان من الحصون المنيعة التى احتفظ بها الفرسان التيوتون حتى ذلك الوقت (٢).

وفى تلك الأثناء كان السلطان بيبرس ناقما على قبرس لجهود ملكها هيو الثالث فى توحيد قوى الصليبيين بالشام من ناحية ولاعتداء القبارسة على السفن الإسلامية فى شرق البحر المتوسط من ناحية أخرى. لذلك أرسل بيبرس أسطولا سنة ١٢٧٠ لغزو جزيرة قبرس، ولكن ريحاً عاصفة هبت على سفن ذلك الأسطول وحطمت عدداً كبيراً منها قرب شاطىء الجزيرة، مما جعل حملة بيبرس تنتهى بالفشل(٣).

ويلاحظ أن جهود بيبرس فى ذلك الدور لم تقتصر على محاربة الصليبيين، وإنما امتدت إلى تقليم أظافر الباطنية، وهى الطائفة الهدامة التى قامت بدور خطير فى تاريخ الشام على عصر الحروب الصليبية. ولم يقنع الظاهر بيبرس بأن يجعل الباطنية يدفعون الأموال له منذ سنة ١٢٦٧ بدلا من دفعها للصليبيين، وإنما أخذ يستولى على معاقلهم بالشام، وأقطعهم بدلا منها أراضى فى مصر (٤).

وفى سنة ١٢٧١ وصلت إلى عكا حملة صليبية صغيرة بقيادة الأمير إدوارد الإنجليزى، ولكنها لم تستطع أن تفعل شيئاً مذكوراً لمساعدة الصليبيين بالشام مما أدى إلى عقد هدنة لمدة عشر سنوات بين الصليبيين من ناحية والسلطان

---

(١) أبو الفدا : المختصر، حوادث سنة ٦٦٩ هـ.
(٢) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ص ١٩٨ — ١٩٩.
(٣) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٤٧ — ٤٨.
(٤) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٥٥٧ ؟
سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ص ٨٢ — ٨٣.

بيبرس من ناحية أخرى . ولم يستطع بيبرس أن يظل ساكناً طوال مدة تلك الهدنة ، وإنما قام سنة ١٢٧٥ بغزو مملكة أرمينية الصغرى ، فأغار على المصيصة وسيس وأذنة وطرسوس وإياس. هذا إلى أنه أغار على بلاد سلاجقة الروم التى كانت مشمولة بحماية التتار، واستطاع أن يمزق الجيش التترى عند أبلستين فى أبريل سنة ١٢٧٧ ، كما سبق أن ذكرنا(١) . وهكذا قضى السلطان الظاهر بيبرس حكمه الطويل فى جهاد الصليبيين من ناحية والتتار من ناحية أخرى ، حتى كانت وفاته سنة ١٢٧٧ .

أبناء الظاهر بيبرس : (١٢٧٧ – ١٢٧٩)

على الرغم من أن الظاهر بيبرس كان أحد المماليك الذين لم يؤمنوا بنظام وراثة الملك ، وعلى الرغم من أنه عاصر الأحداث التى أدت إلى عزل على ابن أيبك وقيام قطز فى السلطنة ، إلى أن غريزة الأبوة غلبت على بيبرس فأراد أن يورث سلطنة المماليك لابنه السعيد . وربما اغتر بيبرس بما حققه من أعمال ، وبما وصل إليه من نفوذ واسع لم يدركه أحد قبله من سلاطين المماليك ، فظن أنه حقق لنفسه ولبيته من المجد ما يكفل لابنه الملك السعيد القيام فى الحكم من بعده دون اعتراض من كبار الأمراء .

وكان أن استغل بيبرس فرصة حركة التتار على شمال الشام سنة ١٢٦٤ لتنفيذ غرضه . ويروى المقريزى أن الأمراء أشاروا على بيبرس عندئذ بسلطنة ولده ليقيم بديار مصر أثناء غيبة أبيه فى حرب التتار بالشام . هذا وإن كانت نية بيبرس فى تمليك ابنه من بعده قد ظهرت قبل ذلك بعامين

(1) D'O Hsson : op. cit; III, pp. 481—488.

عند ما عرض بيبرس عساكر مصر و حلفهم لولى عهده الملك السعيد ناصر الدين خاقان بركة خان»[١].

ولم يلبث السلطان بيبرس أن احتفل سنة ١٢٦٤ بسلطنة ابنه الملك السعيد احتفالا كبيراً فأركبه بشعار السلطنة وخرج السلطان بنفسه فى ركابه ماشياً على قدميه وقد زينت له القاهرة أحسن زينة . وبعد ثلاثة أيام جمع بيبرس الأمراء والقضاة والفقهاء وقرىء تفويض عهد السلطنة للملك السعيد وجاء فيه «كانت شجرتنا المباركة قد امتد منها فرع تفرسنا فيه الزيادة والنمو وتوسمنا منه حسن الجنا المرجو ... فليتقلد الولد ما قلدناه من أمور العباد ، وليشركنا فيما نباشره من مصالح الثغور والقلاع والبلاد»[٢].

ثم كان أن توفى السلطان الظاهر بيبرس فى دمشق سنة ١٢٧٧ ؛ فكتب الأمير بدر الدين بيليك الخازندار إلى الملك السعيد فى القاهرة يخبره بوفاة أبيه ، وعندئذ جدد الأمراء البيعة للملك السعيد ، كما بايعه سائر العسكر والقضاة والأعيان ودعا له الخطباء فى الجوامع[٣] .

على أن الملك السعيد اتبع سياسة فى الحكم أغضبت الأمراء ، فقرب إليه جماعة من المماليك الأحداث الذين ازداد نفوذهم فى شئون الدولة، الأمر الذى أغضب كبار الأمراء وعلى رأسهم نائب السلطنة الأمير سيف الدين كوندك الساقى . وعند ما ازداد العداء بين السلطان السعيد وكبار الأمراء عول على التخلص منهم ، فسجن بعضهم ، الأمر الذى أثار الخواطر ضده ، وتزعم حركة المقاومة مجموعة من كبار الأمراء البحرية مثل الأمير سيف الدين قلاون والأمير شمس الدين سنقر الأشقر . وأخيراً اجتمع هؤلاء الأمراء وأرسلوا إنذاراً إلى

---

(١) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٤٦٨ .
(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ٨١ — ٨٥ .
(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٦٤٢ .

السلطان السعيد بركة بن بيبرس جاء فيه « إنك قد أفسدت الخواطر وتعرضت إلى أكابر الأمراء ، فإما أن ترجع عما أنت عليه وإلا كان لنا ولك شأن »(١).

وهكذا ظلت العلاقة بين الملك السعيد وكبار الأمراء تهدأ حيناً وتسوء أحياناً ، حتى انتهى الأمر بأن حاصر الأمراء القلعة سنة ١٢٧٩ وقطعوا عنه الماء وأصروا على أن يخلع نفسه من السلطنة(٢). وعندما لمس السلطان السعيد خطورة موقفه طلب من الأمراء أن يعطوه الكرك ، فأجابوه إلى ذلك .

وقد عرض كبار الأمراء السلطنة بعد ذلك على الأمير سيف الدين قلاون ، فتظاهر بالزهد وتمنع قائلا « أنا لم أخلع السعيد شرها إلى السلطنة وحرصاً على المملكة ، ولكن حفظاً للنظام وأنفة لجيوش الاسلام أن يتقدم عليها الأصاغر ، والأولى ألا يخرج الأمر من ذرية الملك الظاهر ! »(٣) ومن الواضح أن ادعاء الأمير قلاون الرغبة فى الاحتفاظ بالسلطنة لذرية السلطان الظاهر إنما كان ادعاء باطلا لعدم إيمان المماليك بمبدأ توريث الملك ؛ وكل ماهنالك هو أن قلاون أدرك أن الأمور لم تنضج بعد فاختار أن يتريث لاسيما وأن غالبية الجيش كانت من المماليك الظاهرية — أتباع الظاهر — فخشى أن يثوروا ضده .

وهكذا استقر رأى الأمراء على تعيين بدر الدين سلامش بن بيبرس سلطاناً ، وكان عمره سبع سنوات . فتلقب بالملك العادل واختير الأمير قلاون أتابكاً له . وكانت هذه هى فرصة الأمير قلاون ، فاستغل صغر سن السلطان الجديد وأخذ يمكـّن لنفسه من وراء ستار ، فقبض على زمام الأمور وتخلص من بعض الأمراء الظاهرية بالسجن ؛ بل لقد جعل نفسه شريكا للسلطان العادل

(١) المرجع السابق ص ٦٤٥ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٢٦٦ — ٢٦٩ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٦٥٧ .

بدر الدين سلامش فأجبر الأمراء على أن يقسموا له يمين الطاعة وضربت السكة باسميهما ، كما خطب لهما على المنابر (١).

ولما أدرك الأمير قلاون أن الكثرى قد نضجت، جمع الأمراء، وتحدث معهم في صغر سن السلطان العادل وقال لهم « قد علمتم أن المملكة لا تقوم إلا برجل كامل » فاتفقوا على خلعه ونفيه إلى الكرك وتولية قلاون سلطنة مصر (٢).

السلطان المنصور قلاون والصليبيون (١٢٧٩ – ١٢٩٠)

تولى السلطان المنصور قلاون عرش سلطنة المماليك سنة ١٢٧٩ ، ولكنه لم يلبث أن تعرض في أوائل حكمه لنفس النوع من العقبات التي تعرض لها غيره من سلاطين المماليك. ونقصد بهذه العقبات خروج بعض كبار الأمراء على السلطان الجديد لأنهم يأنفوا الخضوع لواحد منهم أو لاعتقادهم أنهم أجدر منه بالسلطنة. من ذلك أن الأمير شمس الدين سنقر نائب الشام رفض الاعتراف بالمنصور قلاون سلطاناً سنة ١٢٨٠ ، وأعلن نفسه حاكما على الشام وتلقب بالملك الكامل ودعى له في المسجد الأموى (٤). على أن السلطان المنصور قلاون استطاع أن يقضى على الفتنة فأرسل أكثر من حملة ضد سنقر الأشقر الذى اتصل بالتتار وأغراهم على غزو الشام. وأخيراً خضع سنقر الأشقر وطلب الأمان سنة ١٢٨٧ وبذلك دانت بلاد الشام للسلطان قلاون.

وقد اتبع السلطان المنصور قلاون سياسة سلفه بيبرس من حيث الوقوف

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٨٦ .
(٢) المقريزى : السلوك ، ج ٢ ص ٦٥٥ — ٦٥٨ ؟
أبو المحاسن النجوم ج ٧ص ٢٧٠ — ٢٧١ .
(٣) المقريزى : السلوك ؛ ج ١ ص ٦٧٢ — ٦٧٤ .

بالمرصاد للتتار ومحاولاتهم للتسرب إلى بلاد الشام، وفى الوقت نفسه العمل على تقويض بناء الصليبيين بالشام. ويبدو أن السلطان قلاون كان فى الدور الأول من حكمه - أى حتى سنة ١٢٨٥ - أكثر انشغالا بثورة سنقر الأشقر فى الشام، فضلا عن هجمات التتار الذين أغاروا على بلاد الشام سنة ١٢٨٠ ثم سنة ١٢٨١، الأمر الذى جعل قلاون يحرص فى ذلك الدور على مسالمة الصليبيين فعقد معهم صلحا لمدة عشر سنوات تبدأ بسنة ١٢٨١ (١). على أن الأمور لم تكد تهدأ للسلطان المنصور قلاون حتى لجأ إلى خرق ذلك الصلح الذى سعى إليه بنفسه مع الصليبيين، فشرع فى مهاجمة الإسبتارية واستولى منهم على حصن المرقب سنة ١٢٨٥ (٢).

والواقع أن جميع الشواهد دلت عندئذ على أن الصليبيين بالشام كانوا يمرون بدور الاحتضار، بعد أن فترت معونة الغرب الأوربى من جهة وازدادت الخلافات الداخلية بين القوى الصليبية فى بلاد الشام من جهة أخرى (٣). وقد استغل المماليك تلك الأوضاع للإجهاز على البقايا الصليبية بالشام إجهازا تاما، فأرسل السلطان المنصور قلاون حملة بقيادة الأمير حسام الدين طرنطاى استولت على اللاذقية فى أبريل سنة ١٢٨٧، وكانت آخر ما تبقى من إمارة أنطاكية الصليبية (٤).

وشاءت الظروف أن يشتد الخلاف عندئذ داخل إمارة طرابلس الصليبية بعد وفاة أميرها بوهيموند السابع. ويقال إن بعض الأحزاب داخل طرابلس استنجدت بالسلطان قلاون طالبة تأييده فوجد قلاون فى ذلك فرصة سانحة

---

(1) King : The Knights Hospitullers. 282.

(٢) محيى الدين بن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ص ٧٧.
(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٦٧ — ١١٧٠.
(٤) أبو الفدا : المختصر حوادث سنة ٦٨٦ هـ ؛
محيى الدين عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ص ١٥١.

وتحجج بأن أهل طرابلس من الصليبيين نقضوا الهدنة واعتدوا على التجار المسلمين وقطعوا الطريق على المسافرين. وهكذا أعد قلاون عدته « وتجهز لأخذ طرابلس » (١). وخرج فعلا من مصر إلى الشام في فبراير سنة ١٢٨٩. وكان جيش قلاون مؤلف من أربعين ألف فارس ومائة ألف من المشاة، وبهذه القوة الضاربة شرع قلاون يحاصر طرابلس في ٢٤ فبراير سنة ١٢٨٩ « وضايقها مضايقة شديدة » بعد أن نصب حولها آلات الحصار وأخذ النقابون ينقبون أسوارها حتى سقطت المدينة في يد قلاون في أواخر ابريل سنة ١٢٨٩ (٢).

ويروى أبو الفدا أن بعض أهالى طرابلس من الصليبيين حاولوا النجاة عن طريق البحر « فنجا أقلهم في المراكب وقتل غالب رجالها وسبيت ذراريهم وغنم منها المسلمون غنيمة عظيمة ». وكان أمام طرابلس وعلى مقربة منها في البحر جزيرة القديس نيقولا ، ففر إليها كثير من الصليبيين، ولكن المماليك لحقوا بهم فقتلوا وسبوا وأسروا منهم أعدادا كبيرة. وقد زار المؤرخ أبو الفدا تلك الجزيرة بعد المذبحة السابقة، لكنه لم يستطع البقاء فيها « من نتن القتلى » (٣). وبعد أن تم تدمير مدينة طرابلس القديمة، بنى السلطان قلاون طرابلس الجديدة في الداخل بعيدا عن شاطىء البحر، وذلك خوفا من تهديد الأساطيل الصليبية (٤).

ولم يلبث الصليبيون أن أخلوا ما لهم من مراكز ومدن في إمارة طرابلس ـ مثل بيروت وجبلة ـ فاحتلها المماليك في سهولة. وإذا كانت جبيل قد ظلت في أيدى الصليبيين بضعة سنوات أخر، فإن ذلك جاء مشروطا بإعلان تبعيتها وخضوعها التام لسلطنة المماليك، كما تعهد صاحبها الصليبي بدفع أموالها

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٤٦.

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢١.

(٣) أبو الفدا : المختصر، حوادث سنة ٦٨٨ هـ.

(٤) المقريزى : السلوك، ج ١ ص ٧٤٨.

للسلطان (١) وبذلك لم يبق للصليبيين من ملكهم العريض ببلاد الشام سوى عاصمتهم عكا ، فضلا عن صيدا وصور وعثليث .

ويبدو أنه لم يكن فى نية السلطان قلاون أن يقوم بهجوم على عكا عقب استيلائه على طرابلس مباشرة ، بدليل أنه اتجه إلى دمشق حيث استجاب لرغبة الصليبيين فى عقد الصلح وتجديد الهدنة القديمة لمدة عشر سنوات(٢). ولكن لم تكد المياه تعود إلى مجاريها بين المسلمين والصليبيين فى بلاد الشام بعد إبرام الصلح المشار إليه ، حتى وصلت عكا فى صيف سنة ١٢٩٠ حملة صليبية إيطالية الطابع . وقد أراد هؤلاء الصليبيون الجـــدد أن يعبروا عن حماستهم الدينية فور وصولهم إلى الشام ، فاعتدوا على المسلمين فى إقليم عكا وقتلوا عددا من تجار المسلمين داخل عكا ذاتها ، الأمر الذى قطع حبل السلام بين دولة المماليك والصليبيين (٣) .

ذلك أن أخبار العدوان الصليبى لم تكد تصل إلى مسامع السلطان قلاون حتى استشاط غضباً ، ورفض الأعذار الواهية التى تحجج بها الصليبيون القدامى من أهل عكا . وفى الوقت الذى أخذ السلطان قلاون يعد جيوشه بالقاهرة للانتقام من الصليبيين ، أمر الأمير شمس الدين سنقر الأعسر بالاستعداد للحرب فى الشام (٤) . على أنه لم يكد السلطان قلاون يفرغ من كافة استعداداته الحربية ويغادر القاهرة فعلا لحرب الصليبيين بالشام ، حتى دهمه الموت فى ١٠ نوفمبر سنة ١٢٩٠(٥) .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٧ ص ٣٢١ .

(2) Stevenson : The Crusaders in the East p. 351.

(٣) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ، جـ ٢ ص ٣٨٦ .

(٤) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٧٥٤ .

(٥) محيى الدين بن عبد الظاهر : تشريف الأيام ص ١٧٨

السلطان الأشرف خليل بن قلاون : (١٢٩٠ – ١٢٩٣)

لم يكتف السلطان المنصور قلاون بجعل ولاية العهد لابنه علاء الدين ، بل أراد أن يجعل ابنه سلطانا في حياته ، فعرض فكرته على كبار الأمراء الذين أقروه على رأيه . وكان أن قرىء تقليد علاء الدين بالقلعة سنة ١٢٨٠ وتلقب بالملك الصالح ، وركب علاء الدين بشعار السلطنة في حياة أبيه[١] .

على أن الملك الصالح علاء الدين لم يلبث أن توفي في حياة أبيه المنصور قلاون سنة ١٢٨٨ ويقال إن قلاون حزن حزنا شديدا لوفاته ، لأنه كان يضع كل ثقته في ذلك الابن بالذات . وكان المنطق يحتم أن يعهد قلاون بولاية العهد لابنه الثاني خليل ، وفعلا كتب القاضي محي الدين بن عبدالظاهر تقليدا بولاية العهد لخليل الذي لقب بالأشرف[٢] .

ومن الثابت أن المنصور قلاون كان لا يثق في ابنه خليل ولا يميل إليه ولا يرضى عن تصرفاته وسلوكه الشخصي ، فاعتقد أنه غير كفؤ للسلطنة ، وقال – عندما عرض عليه القاضي ابن عبد الظاهر تقليد ولاية العهد لخليل – « أنا ما أولي خليلا على المسلمين »[٣] ويقال إن المنصور قلاون كان يعلم أن ابنه خليل مكروه من الأمراء لاستهانته بهم ، فضلا عن اتهامه بدس السم لأخيه الملك الصالح علاء الدين[٤] . ولهذه الأسباب توفي السلطان المنصور قلاون دون أن يوقع كتاب ولاية العهد لابنه خليل .

---

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ ص ١٠٥ – ١٥٨ ؟
القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٠ ص ١٧٣ – ١٧٧ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٠ ص ١٦٦ – ١٧٣ .

(٣) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٧٤٥ – ٧٥٦ .

(٤) المرجع السابق ص ٧٩٢ – ٧٩٣ .

ولما سمع الأشرف خليل بوفاة والده السلطان المنصور قلاون ، استدعى القاضى ابن عبد الظاهر صاحب ديوان الإنشاء وسأله « أين تقليدى ؟» فأحضر القاضى التقليد إليه وهو خلو من توقيع والده ، وعندئذ قال الملك الأشرف « إن السلطان امتنع أن يعطينى فأعطانى الله ! »(١) ولم يلبث أن أقسم الأمراء الأيمان للسلطان الجديد الأشرف خليل بن قلاون .

وقد تعرض السلطان خليل فى أول كلمة للمؤامرات التقليدية التى تعرض لها بقية سلاطين المماليك ، فحاول الأمير حسام الدين طرنطاى نائب السلطنة إقصاء خليل عن العرش ولكن السلطان الجديد نجح فى القضاء على المؤامرة وقتل الأمير طرنطاى وبذلك هدأت الأمور ولم يبق أمامه سوى أن ينفذ مشروع أبيه الخاص بالاستيلاء على عكا من الصليبيين(٢) .

طرد البقايا الصليبية من الشام :

وكان الصليبيون قد هللوا لوفاة المنصور قلاون ، وظنوا أن تلك الوفاة جاءت إرادة الله لإنقاذ عكا من مصيرها المحتوم . ولكن سرعان ما خاب ظنهم عندما سمعوا أن السلطان خليل قد سار فعلا على رأس الجيوش التى أعدها أبوه إلى الشام ، فى الوقت الذى أرسل إلى كافة القوات الإسلامية فى مختلف المدن الشامية بمقابلته أمام عكا(٣) . وقد قدر عدد الجيوش الإسلامية التى اشتركت فى حصار عكا بستين ألفا من الفرسان ومائة وستين ألفا من المشاة مجهزين بقدر كبير من الأسلحة وعدد ضخم من آلات الحصار(٤) .

ولم يكد السلطان الأشرف خليل يصل إلى عكا ويفرض حصاره عليها

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٢٩٣ .
(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ ورقة ١٦٧ ؟
المقريزى : المواعظ ج ١ ص ٧٥٧ .
(٣) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٩٠ .
(4) Setton : op. cit. II, p. 595.

فى خامس إبريل سنة ١٢٩١ ، حتى أخذت قواته فى مهاجمة أسوار المدينة وضربها بالمجانيق الكبار التى كان « منها مايرمى بقنطار دمشق وأكبر » ؛ وبذلك أمكن إحداث عدة ثقوب فى سور المدينة(١). وكان على الصليبيين عندئذ أن يبذلوا محاولة أخيرة للدفاع عن عكا وإنقاذها من السقوط، فجمعوا كل قواتهم فى الشام وعكا ، فضلا عن البحارة الإيطاليين والصليبيين الجدد الوافدين ، حتى اجتمع فى عكا عدد يتراوح بين ثلاثين ألفاً وأربعين ألفاً ، منهم ثمانمائة فارس وأربعة عشر ألف من المشاة ، والبقية من عامة الحجاج . وأخيراً أدرك الصليبيون بالشام خطورة الموقف ، فحاولت الهيئات والجاليات الصليبية أن تتناسى ما بينها من حزازات قديمة ، وتقاسموا جميعاً الدفاع عن أسوار عكا وقلعتها(٢) .

وفى ٤ مايو وصل هنرى الثانى ملك قبرص إلى عكا على رأس مائتين من الفرسان وخمسمائة من المشاة وقدر كبير من المؤن والإمدادات، ففرح الصليبيون فى عكا بقدومه فرحاً كبيراً وتشجعوا على الثبات والمقاومة(٣). ولكن هنرى الثانى لم يلبث أن فشل فى التفاهم مع المسلمين من ناحية ، كما فشل من جمع كلمة الصليبيين وإزالة ما بينهم وبين بعض من خلافات من ناحية ثانية. ولذلك عاد هنرى الثانى إلى قبرص ومعه جميع قواته وفرسانه ، فكان لذلك أسوأ الأثر فى نفوس المدافعين(٤) .

وكان أن اشتدت هجمات المسلمين على عكا يوم ١٨ مايو حتى نجحوا فعلا فى اقتحام المدينة ، رغم المقاومة العنيدة التى أبداها مقدم الداوية وقائد الاسبتارية، حتى خر كلاهما قتيلا فى المعركة(٥) ولم يلبث أن وجد الصليبيون

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٥ — ٨ .

(2) King : op. cit., pp, 291-292

(3) Schlumberger : Prise de Saint-Jean d'Acre, pp. 23-36.

(٤) أبو المحاسن : النجوم ، ج ٨ ص ٦ .

Grousset : Hist. des. Croisades, III, pp. 755-758.

(5) Setton : op. cit., II, p. 595

أنفسهم لاعاصم لهم . فالمسلمون أمامهم والبحر خلفهم ؛ فهرعوا إلى السفن فارين بأرواحهم ولكن السفن الباقية فى ميناء عكا لم تكن كافية، فغرق بعضها فى البحر بسبب ثقل حمولتها وكثرة من اكتظ فيها من طلاب النجاة وكانت النتيجة أن نسبة من الصليبيين فى عكا وقعوا بين قتلى وغرقى وأسرى .

ولم يكن منتظرا من بقية المعاقل الصليبية الباقية بالشام أن تظل قائمة ، فاحتل المماليك مدينة صور دون مقاومة فى ١٩ مايو ، واستولى المماليك على صيدا ودمروا قلعتها فى ١٤ يوليو سنة ١٢٩١ ، كما احتلوا حيفا وهدموها . وبذلك لم يبق للصليبيين فى الشام سوى موضعين هما انطرطوس وعثليث ، فاستسلمت الأولى فى ٣ أغسطس والثانية فى ١٤ أغسطس سنة ١٢٩١، وبذلك « تكاملت بهذه الفتوح جميع البلاد الساحلية للإسلام[١] » .

وهكذا دالت دولة الصليبيين بالشام ، وانتهى أمر تلك الجموع من الغزاة الغربيين إلى حيث لا رجعة ، وعادت بلاد الشام من قيليقية شمالا حتى غزة والحدود المصرية جنوبا لايقطنها إلا أبناؤها الحقيقيون من العرب . ولكن طرد آخر البقايا الصليبية من الشام فى أواخر القرن الثالث عشر لايعنى نهاية قصة الحروب الصليبية ، إذ استمرت بقية فصول تلك القصة فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، وظلت دولة المماليك تنهض بدورها كاملا فى ذلك الدور الأخير من أدوار الحركة الصليبية ، كما سيلى فيما بعد .

---

(١) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٩٠ هـ ؛ المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٧٦٥ — ٧٦٦ .

الفصل الرابع

المماليك والنوبة

مصر والنوبة قبل قيام دولة المماليك :

تربط النوبة بمصر روابط قوية متينة منذ أقدم عصور التاريخ، وكان من الطبيعى أن تتأثر النوبة — بحكم هذه الروابط — بما تتعرض له مصر من تيارات متنوعة . وإذا كانت مصر قد تعرضت فى النصف الأول من القرن السابع للميلاد لحركة الفتح العربى ، فإنه كان من المتعذر أن تظل النوبة بعيدا عن ذلك التيار الجديد .

والمعروف فى التاريخ أنه لم يكد يتم فتح مصر على يد عمرو بن العاص، حتى أرسل عمرو أخاه لأمه — وهو عقبة بن نافع الفهرى — على رأس جيش لفتح النوبة سنة ٦٤٢ . وكانت النوبة عندئذ مركزا لمملكة مسيحية هى مملكة دنقلة التى امتدت من أسوان حتى كورتى ، فأظهر النوبيون مقاومة شديدة للمسلمين، واضطر الجيش الإسلامى إلى التراجع بعد أن يتحمل خسائر كثيرة(١)

ولم يقنع العرب بتلك النتيجة ، فقام عبد الله بن سعد بن أبى سرح أثناء ولايته على مصر بغزو بلاد النوبة سنة ٦٥١ . وفى تلك المرة أفاد عبد الله بن سعد من التجربة المريرة التى مرت بها حملة عمرو بن العاص ، فعنى بإعداد حملته إعدادا محكما ، وبذلك تمكنت جيوشه من التوغل داخل مملكة النوبة جنوبا حتى وصلت عاصمتها دنقلة وحاصرتها(٢) . على أنه بوصول الجيش العربى

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢٣٧ .

(٢) المسعودى مروج الذهب ج ٢ ص ٢٩ .

الإسلامى إلى ذلك الحد ، كان قد استنفد قواه وعجز عن القيام بأى جهد جديد ، الأمر الذى أدى إلى عقد اتفاقية البقط الشهيرة بين عبدالله بن سعد ابن أبى سرح من ناحية وملك النوبة المسيحى من ناحية أخرى[1] . وبمقتضى هذه الاتفاقية كان على صاحب النوبة أن يقدم إلى بيت المال فى مصر خمسة وستين وثلثمائة رأسا من الرقيق كل عام ، مقابل ألف أردب من الغلال وقدر آخر من البقول والأقمشة تقدمها مصر للنوبة . ومن هذا يبدو أن اتفاقية البقط كانت أقرب إلى معاهدة تبادل اقتصادى بين مصر والنوبة ، منها إلى جزية يدفعها النوبيون رمزا للخضوع ، الأمر الذى جعل ابن خرداذبه يقول عن البقط إنه ليس « بجزية ولا خراج »[2] ، كما قال البلاذرى « ليس بيننا وبين الأساود عهد ولا ميثاق ، إنما هى هدنة بيننا »[3] .

ومهما يكن من أمر ، فإن اتفاقية البقط لم تحقق لمصر الإسلامية أية سيطرة سياسية على بلاد النوبة المسيحية ا وهى فى الوقت نفسه لم تضع حدا للعلاقات المضطربة بين مملكة النوبة المسيحية ومصر العربية الإسلامية فى العصور الوسطى . وقد حدث أكثر من مرة أن حاولت مملكة النوبة التحلل من شروط اتفاقية البقط ، كما لجأ النوبيون فى سنوات الشدة إلى الإغارة على حدود مصر الجنوبية بغية السلب والنهب ومن الواضح أن تلك الإغارات النوبية على مصر كانت تشتد فى أوقات عدم الاستقرار فى مصر ، مما كان يشجع النوبيين على الإغارة والعدوان ، كما حدث ذلك فى أواخر الدولة الإخشيدية وفى أواخر الدولة

---

(١) اختلف الباحثون فى تفسير أصل لفظ « البقط » فالبعض قال إنه تحريف من قبط غير أن الرأى الأرجح أن هذا اللفظ مشتق من كلمة bak وهى كلمة مصرية قديمة بمعنى الضريبة التى كانت تجبى عادة من بلاد النوبة والسودان . وربما كان لفظ بقط مشتق أيضا من اللفظ اليونانى Pactum ومعناه عهد أو ميثاق » .

(٢) ابن خرداذبه : المسالك والممالك ص ٩٢ .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٣٧ .

الفاطمية . وربما أحس النوبيون بأن اتفاقية البقط فيها غرم فادح لهم أو فيها مهانة ومساس بكرامتهم ، بدليل أنهم أرسلوا مبعوثا ـ هو ابن ملك النوبة ـ إلى الخليفة المعتصم العباسى يشكون إليه فداحة البقط ويطلبون إلغاءه ، فنظر المعتصم إلى ما كان يدفعه المسلمون فوجده أكثر من البقط . . . ، وعندئذ وافق المعتصم على ألا يكون البقط سنويا وإنما يدفع كل ثلاث سنوات(١) .

على أن حكام مصر الإسلامية أظهروا من جانبهم تمسكا كبيرا بالبقط ، فدأبوا على مهاجمة النوبة كلما تأخر ملوكها عن دفع البقط المفروض عليهم ومن تلك الحملات التى شنها حكام مصر على النوبة الحملة التى أرسلها صلاح الدين بقيادة أخيه توران شاه سنة ١١٧٢ ، والتى أوغلت فى تلك البلاد حتى أبريم(٢) على أنه يبدو فى تفسير حملة صلاح الدين على النوبة أنه من الصعب إرجاع سبب تلك الحملة إلى رغبة صلاح الدين فى إجبار النوبيين على دفع البقط وربما كان أقرب إلى الصواب أن صلاح الدين استهدف من وراء حملته على النوبة مطاردة بقايا أنصار الفاطميين ، أو إيهام سيده نور الدين محمود بأنه يسعى لمد نفوذه جنوبا على حساب قوة مسيحية مجاورة . هـذا وإن كان هناك رأى يقول بأن صلاح الدين أراد بتلك الحملة أن يختبر مدى صلاحية النوبة لتكون مأوى لأبناء البيت الأيوبى فى حالة تفاقم الموقف بينه وبين نور الدين وبأن تقرير توران شاه عن أحوال النوبة جعل صلاح الدين ينبذ تلك الفكرة ويوجه أنظاره إلى اليمين (٣) .

---

(١) المقريزى : المواعظ ، ج ١ ص ٣٠١ ؟
Mac Michael : Hist of the Arabs in the Sudan vol. p. 158,
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج٥ ص ٢٧٦ ؟ ج ٦ ص ٥٠٦ — ٥١٦ .
(3) Lane-Poole : A Hist of Egypt,, p. 197.

السلطان الظاهر بيبرس والنوبة :

ثم كان أن قامت دولة المماليك فى مصر ، وأخذ سلاطين المماليك - بعد أن استقرت لهم الأمور فى الداخل - يضربون القوى غير الإسلامية المحيطة بهم - من تتار وصليبيين - لحماية الوطن الإسلامى فى الشرق الأدنى من ناحية والتمكين لأنفسهم عن طريق الظهور فى صورة حماة المسلمين من الأخطار التى هددتهم من ناحية أخرى . وإذا كان المماليك قد وجهوا جزءا كبيراً من طاقتهم لمحاربة الصليبيين ، فإنه كان من الصعب أن تمر موجة الحماسة الدينية التى عمت مصر الحروب الصليبية دون أن يلحق مملكة النوبة بعض من رذاذها وإذا كان الصليبيون فى بلاد الشام مسيحيين مخلصين يهددون الكيان الإسلامى فإن النوبيين كانوا عندئذ أيضاً مسيحيين لا يقلون إخلاصا لعقيدتهم وتهديدا للمسلمين فى جنوب مصر عن الصليبيين فى الشام .

ثم إن ملوك النوبة من جانبهم لم يراعوا حرمات الجيرة ، واستمروا بين حين وآخر يستفزون حكام مصر بإغاراتهم العدوانية . من ذلك ما نسمعه من أن داود ملك النوبة انتهز فرصة انشغال السلطان الظاهر بيبرس بحروبه فى الشمال ضد التتار والصليبيين والأرمن ، وقام بحملة كبيرة على جنوب مصر سنة ١٢٧٢ ، فنهب أسوان وأسر منها جمعاً كبيرا من المسلمين ، كما اعتدى على ميناء عيذاب ، وهو من موانى مصر الكبرى على شاطىء البحر الأحمر فى ذلك العصر (١) .

ويبدو أن مشاغل بيبرس فى ذلك الوقت حالت بينه وبين إرسال حملة كبرى لتأديب ملك النوبة ، فاكتفى بإرسال تجريدة عسكرية سنة ١٢٧٢

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ص ١٠٩ ؟
ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٧ ص ٤٥ — ٤٦ .

مهمتها دفاعية أكثر منها هجومية وقد نجحت هذه الحملة الصغيرة فى حماية حدود مصر الجنوبية من عدوان ملك النوبة ، وقبض المماليك على صاحب الجبل وغيره من النوبيين فأحضروهم أسرى إلى القاهرة .

ولم تلبث أن أتيحت فرصة طيبة لبيبرس للانتقام من داود ملك النوبة عندما حضر إلى مصر شكنده ملك النوبة الأسبق الذى عزله ابن أخيه داود وحل محله فى الحكم ، فجاء شكنده يطلب مساعدة السلطان بيبرس فى استرداد عرشه(١) . وكان أن أعد الظاهر بيبرس حملة كبرى بقيادة الأميرين شمس الدين اقسنقر الفارقانى وعز الدين الأفرم ، وصحبتهما شكنده الذى أمر بيبرس بتسليمه ما يتم فتحه من بلاد النوبة . وتتضح لنا تفاصيل أخبار تلك الحملة من مكاتبات الأمير شمس الدين اقسنقر للسلطان بيبرس ، خلاصة المكاتبات عن أخبار تلك الحملة ، أن المماليك أغاروا على قلعة الدر حيث قتلوا وسبوا كثيراً من الأعداء ، ثم تقدموا بعد ذلك إلى جزائر ميكائيل عند شلال وادى حلفا ، حتى اضطر الملك داود إلى الفرار بنفسه بعد أن وقع معظم رجاله قتلى وأسرى ، ومن جملة الأسرى كان أخوه شنكو وأمه وأخته . وقد حاول صاحب الجبل قمر الدولة الهرب ولكن قبض عليه ، ثم أفرج عنه بعد أن تعهد بالدخول فى طاعة الملك شكنده وكان أن أظهر قمر الدولة هذا همة كبيرة بعد ذلك فى معاونة الحملة المماليكية وإمدادها برجال كلما احتاج الأمر إلى ذلك . وبعد أن أقام المماليك شكنده فى الملك بدلا من داود وألبسوه التاج ، نظم القائدان أسس العلاقة الجديدة بين دولة المماليك ومملكة النوبة على الوجه الآتى :—

١ — تعهد شكنده بإرسال البقط السنوى المعتاد إلى سلطان المماليك فى مصر

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٥ ص ٢٧٦ ؟
المقريزى : السلوك جـ١ ص ٦٢٦ .

مضافا إليه بعض الهدايا من الفهود والفيلة والزراف: على أن يقوم سلطان المماليك بإرسال الغلال إلى مملكة النوبة .

٢ — يستولى شكنده على أموال الملك السابق داود ويرسلها إلى مصر .

٣ — تفرض دولة المماليك سيادتها على الجزء الشمالى من بلاد النوبة ، أى «بلاد العلى وبلاد الجبل» ومعنى ذلك أن سيادة مصر امتدت لأول مرة بصورة فعلية على جزء كبير من بلاد النوبة يبلغ ربعها . اما ما بقى من مملكة النوبة فيصبح مناصفة بين سلطان المماليك وملك النوبة ، فتذهب نصف خيرات الإقليم إلى السلطان بيبرس والنصف الآخر يبقى لملك النوبة «لعمارة البلاد»(١) .

٤ — خير ملك النوبة بين اختيار واحد من الأساليب الثلاثة التى عامل بها المسلمون المغلوب — وهى الإسلام أو الجزية أو القتل — فاختار الجزية ، وتعهد بدفع دينار سنويا عن كل فرد عاقل بالغ فى مملكته ولذلك أنشأ السلطان بيبرس ديوانا للنوبة يشرف عليه الصاحب بهاء الدين بن حنا الوزير ، للإشراف على جزية النوبة وخراجها .

٥ — أخذ عشرون أميرا من أمراء النوبة ليكونوا رهائن تحت يد السلطان بيبرس ، وكذلك أطلق سراح جميع أسرى المسلمين الذين أسرهم داود فى إغارته السابقة على أسوان وعيذاب .

وبعد كتابة جميع الشروط السابقة ، أقسم شكنده على احترامها . وذكر فى قسمه ما نصه « ... أننى أخلصت نيتى وطويتى من وقت هذا وساعتى هذه لمولانا السلطان الأعظم الملك الظاهر ركن الدنيا والدين بيبرس خلد الله ملكه ، وأنى أبذل جهدى وطاقتى فى تحصيل مرضاته ، وأننى ما دمت نائبه لا أقطع ما قرر على فى كل سنة تمضى ...(٢)

---

(١) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٦٢٢

(٢) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٣٦ — ٢٣٨ .

وعلى هذا الوجه استطاع بيبرس أن يبسط سيطرته على مملكة النوبة المسيحية فى العصور الوسطى . ولا أدل على حرص بيبرس على ضمان إشرافه على النوبة من أنه فى تنظيمه للبريد أنشأ طريقاً هاما يبدأ من قوص ثم يتشعب شعبتين إحداهما إلى أسوان والنوبة والثانية إلى عيذاب[1] .

وأخيراً عادت حملة بيبرس من بلاد النوبة سنة ١٢٧٦ حيث احتفل السلطان بيبرس بقدومها فى القاهرة احتفالا كبيراً ، فخلع على الأميرين القائدين ، واستعرض الأسرى والغنائم الذهبية والفضية التى استولى عليها الغزاة ، هذا فضلا عن الرقيق الذين بلغ من كثرتهم أن بيع الواحد منهم بثلاثة دراهم . وقد اشترط السلطان فى بيع الأسرى ألا يفرق بين المرأة وغلامها وألا يباع منهم شىء لغير المسلمين[2] .

وقد اعترف جمهرة المؤرخين بأن حملة بيبرس على النوبة حققت ما لم تحققه أية حملة أخرى على تلك البلاد منذ أيام الفتح العربى لمصر . من ذلك ما يقوله مفضل بن أبى الفضائل من أن ما قام به بيبرس من فتوحات فى بلاد النوبة يعتبر مما يفوق به على كل ملك تقدمه[3] . أما ابن الفرات فيقارن بين الغزوات التى قام بها حكام مصر فى بلاد النوبة منذ أيام عمرو بن العاص وبين ما قام به الظاهر بيبرس فيقول « كل هذه غزوات وإنما الفتح الذى وقع فى زمن الملك الظاهر»[4] .

على أن قصة النوبة فى عهد بيبرس لم تقف عند ذلك الحد ، إذ لم يلبث أن وقع داود — ملك النوبة السابق الذى أغار على أسوان وعيذاب — أسيراً فى قبضة بعض خصومه ، فأرسلوه إلى السلطان بيبرس الذى أمر بحبسه مع أمه

---

(١) القلقشندى : صبح الاعشى ج ١٤ ص ٣٧٤ .

(٢) ابن شاكر الكتبى : عيون التواريخ ج ٢١ ق ١ ورقة ٥٢ (مخطوط) .

(٣) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ، ص ٢٣٦ .

(٥) تاريخ ابن الفرات ج ٧ س ٤٥ .

وأخيه حتى مات فى سجنه[1].

والواقع إن بيبرس لم يستطع أن ينسى ما حل ببلاده على أيدى النوبيين، فظل يراقب أحوال النوبة عن كثب. ويبدو أنه لم يطمئن إلى شكنده، فعهد إلى أحد الباطنية الفداوية — واسمه إسماعيل — بالتردد على النوبة سراً ومراقبة شكنده وأحواله، خوفاً من أن يغدر بالعهد ويفعل بأسوان وعيذاب مثلما فعل داود. وكان لإسماعيل هذا زميل رافقه فى بعض سفرياته إلى النوبة، فانقض ذلك الزميل على شكنده وفتك به فجاء ذلك ختاماً لصفحة مثيرة فى تاريخ العلاقات بين مصر والنوبة — على عهد الظاهر بيبرس[2].

السلطان المنصور قلاوون والنوبة :

ولم تقف علاقة سلاطين المماليك بالنوبة عند حد جهود بيبرس، وإنما استمر تدخل المماليك فى شئون تلك البلاد لرغبة سلاطين مصر فى تأمين أطراف دولتهم الجنوبية، بعد أن قاست الكثير من إغارات النوبيين واعتداءاتهم على الأهالى الآمنين. هذا فضلا عن أن اهتمام المماليك بأمر النوبة كان جزءاً من سياستهم التجارية فى البحر الأحمر. وساعد على ازدياد تدخل المماليك فى شئون مملكة النوبة — تدهور أحوال تلك المملكة المسيحية تدهوراً سريعاً بسبب ظهور بعض الدول الإسلامية فى غرب السودان مثل الكانم والبرنو، وهى الدول التى بدأت تربطها بدولة المماليك فى مصر علاقات طيبة، مما جعل النوبة المسيحية تصبح شبه محصورة وسط نطاق من الدول الإسلامية المتفاهمة[3].

---

(١) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٢٣٦ .

(٢) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ص ١٢٤ .

(٣) سعيد عاشور : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ص ٨٢ — ٨٣ .

وكان السلطان المنصور قلاون الذى اعتلى عرش سلطنة المماليك سنة ١٣٧٩ حريصاً على اقتفاء أثر سياسة بيبرس الخارجية ، سواء فى دفع خطر التتار أو قطع دابر الصليبيين أو تثبيت سيادة السلطنة المماليكية على النوبة(١) . ولا يخفى علينا أن شكنده عقد الاتفاقية السابقة مع المماليك كارهاً تحت ضغط المماليك العسكرى من ناحية ولشعوره بأنه يدين فى استرداد عرشه للسلطان الظاهر بيبرس من ناحية أخرى . ولذلك ظل خلفاء شكنده من ملوك النوبة يتحينون الفرص لنقض شروط تلك الاتفاقية والخروج عن طاعة سلطنة المماليك فى مصر . ولكن خلفاء بيبرس من ناحية أخرى ظلوا بالمرصاد لكل محاولة قام بها النوبيون للتخلص من سيطرة المماليك . من ذلك أن الملك برك — خليفة شكنده — قام بمحاولة من هذا النوع ولكن الأمير علم الدين سنجر المسرورى والى القاهرة أحبط تلك المحاولة ، وانتهى الأمر بقتل برك(٢) .

وقد خلف برك فى حكم النوبة الملك سمامون الذى وصفته المراجع بأنه كان « ذا دهاء ومكر وبأس » فسعى للتخلص من قيود الاتفاقية التى عقدها شكنده مع سلطنة المماليك ، وأهم هذه الشروط مداومة إرسال البقط إلى مصر . وصادف فى ذلك الوقت أن دب النزاع بين سمامون ملك دنقلة والنوبة ، وآدور ملك مملكة الأبواب المجاورة ، فأرسل آدور سفراءه إلى السلطان المنصور قلاون سنة ١٢٨٧ حاملين إليه هدايا من جملتها زرافة وفيل . وقد أكد آدور فى رسالته ولاءه وخضوعه التام للسلطان ، وشكا إليه سوء المعاملة التى يلقاها من سماون ملك دنقلة والنوبة(٣) . ولما علم سماون أن ملك الأبواب أرسل

---

(١) Wiet : L'Egypte Arabe. p. 435

(٢) محيى الدين بن عبد الظاهر : تشريف الايام والعصور فى سيرة الملك المنصور ص ١٥٤ .

(٣) مصطفى محمد مسعد : الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى ص ١٥٣ .

سفارة إلى مصر ، بادرهو الآخر بإرسال سفارة من قبله لشرح وجهة نظره للسلطان المنصور قلاون وتوضح له ظروف النزاع بينه وبين ملك الأبواب، ووصلت سفارته بعد وصول سفارة آدور بقليل . ويقال إن سفارة سيامون حملت معها إلى السلطان قلاون هدية ضخمة مقدارها مائة وتسعون رأساً من الرقيق وما تا بقرة(١) .

وقد رأى السلطان بعد أن استمع إلى حجج كل من الطرفين المتنازعين أن يرسل مبعوثاً إلى كل من الدولتين ليدرس أسباب النزاع على الطبيعة ، واختار الأمير علم الدين سنجر المعظمى مبعوثاً إلى مملكة الأبواب والأمير علم الدين الحصنى رسولا إلى ملك دنقلة بالنوبة . وكان أن سلك الرسول الأول طريق قوص وعيذاب والبحر الأحمر ، مخافة أن يقع فى قبضة سيامون فيعذبه . وفعلا استطاع الأمير سنجر المعظمى أن يتم مهمته بنجاح ، ولكنه فى طريق عودته إلى مصر ألقى سيامون القبض عليه وفكر فى قتله لولا أن حذره بعض رجاله عاقبة ذلك، وقالوا له « تريد أن تخرب ديارنا وأعمارنا ا» ، وعندئذ أطلق سراحه(٢) . أما الأمير علم الدين الحصنى الذى قصد مملكة دنقلة فلا توجد فى المراجع إشارة عن عودته ؛ وإن كان يبدو أنه عاد سالماً وأنه أقنع السلطان الظاهر بأن سيامون هو المعتدى .

ومهما يكن من أمر فقد قرر السلطان قلاون غزو النوبة وأعد لذلك حملة سنة ١٢٨٧ ويفهم من أخبار تلك الحملة فى المراجع أن السلطان قلاون اهتم بإعدادها اهتماماً كبيراً وحشد لها قوة ضخمة على رأسها الأمير سنجر المسروري المعروف بالخياط متولى القاهرة ، والأمير عز الدين الكورانى كذلك كتب السلطان

---

(١) Quatrewere. Memoire sur l'Eggpte, Tome 2,pp 109-I12

(٢) محيى الدين عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ص ١٤٤ .

قلاون إلى الأمير عز الدين أيدمر السيفى متولى قوص بأن يشارك فى تلك الحملة بكل ما يستطيع من مماليك وأجناد وعربان (١) .

وعندما وصلت الحملة المماليكية إلى أطراف النوبة الشمالية انقسمت إلى قسمين ، قسم بقيادة الأمير سنجر الخياط زحف على امتداد الشاطىء الغربى لنهر النيل ، والقسم الثانى بقيادة الأمير عز الدين أيدمر سار بحذاء الشاطىء الشرقى للنيل . وكان معظم القتال من نصيب أيدمر ، حيث أن المدن الهامة فى مملكة النوبة — ومنها العاصمة دنقلة ذاتها — تقع على الضفة الشرقية للنيل . على أن سمامون — وهو الرجل الذى اتصف بالدهاء وسعة الحيلة كما سبق أن ذكرنا — وضع خطة مكيرة استهدفت استدراج المماليك إلى داخلية البلاد ، وعدم الاشتباك معهم فى معركة فاصلة إلا عند العاصمة دنقلة حيث يكون المماليك قد أدركهم الكلل والتعب من طول الطريق ومشقته . لذلك كتب سمامون إلى جريس صاحب الجبل يأمره بعدم الاشتباك مع الجيوش الغازية وإخلاء البلاد فى وجهها ، «فكانوا يرحلون والعسكر (المماليك) وراءهم منزلة بمنزلة» (٢) .

وعند دنقلة دارت الواقعة بين المماليك وسمامون ، وكانت معركة عنيفة ذهب ضحيتها عدد كبير من النوبيين والمسلمين سواء (٣) . أما سمامون فقد فر جنوبا ، وعندئذ تبعه الأمير أيدمر حتى ابتعد عن دنقلة مسار خمسة عشر يوما ، ولكنه لم يستطع أن يظفر بملك النوبة ، وإن كان قد ظفر بابن خالة سمامون وجريس صاحب الجبل (٤) . ولما فشل أيدمر فى القبض على سمامون عاد إلى دنقلة ، حيث تم تعيين ابن أخت سمامون ملكا على مملكة النوبة ، كما أفرج عن جريس

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٣٦ — ٧٣٧ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٣٧ .

(٣) Quatremerc : Memoires. p. 113.

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٣٧ .

وأعيد إلى منصبه بولاية الجبل ، وأقيمت إلى جانبهما حامية عسكرية[١]. كذلك تعهد ملك النوبة الجديد بدفع البقط القديم وكافة الالتزامات الأخرى التي تعهد بها شكنده . وكان اليمين الذي أقسمه ملك النوبة الجديد — والذي أورده القلقشندي — مطابقاً إلى حد كبير لليمين الذي سبق أن أقسمه شكنده من قبل [٢] .

وفي سنة ١٢٨٨ وردت إلى السلطان المنصور قلاوون كتب الأمير علم الدين سنجر الخياط ، تبشره بما قام به من فتح البلاد ، وما انعقد له من نصر ؛ فخلع السلطان على الرسول وأعاده إلى النوبة بكتاب إلى الأمير سنجر الخياط يطلب منه العودة إلى مصر على أن يترك الأمير أيدمر بدنقلة مع حامية ليكون أميراً مقيما من قبل السلطان إلى جانب ملك النوبة الجديد . ثم جهز السلطان مع البريدية سعد الدين سعد — ابن أخت الملك داود الذي أسر أيام بيبرس والذي يبدو من اسمه الجديد أنه اعتنق الإسلام — ليعاون أيدمر في حكم النوبة بحكم خبرته بأحوال البلاد . على أنه لم يقدر لسعد الدين أن يصل إلى النوبة عندئذ بسبب تطور الأمور تطوراً سريعا — كما سيلي فيما بعد — الأمر الذي جعل سعد الدين يستقر في قوص[٣] .

ولم يلبث أن وصل الأمير علم الدين سنجر المسروري إلى القاهرة ، ومعه « ملوك النوبة ونساؤهم وتيجانهم وعدة أسرى كثيرة » ، ففرق السلطان الأسرى وتهاداهم الناس « وبيعوا بالثمن اليسير لكثرتهم »[٤] .

غير أن قلاوون يكد يهنأ بذلك النصر حتى جاءت الأخبار بأن سمامون

---

(١) محيى الدين بن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ص ١٥٤ .
(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٣ ص ٢٩٠ — ٢٩١ .
(٣) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٧٤٣ .
(٤) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٧٤٣ .

ظهر مرة أخرى ساعياً لاسترداد ملكه ، وأنه نجح فى إنزال الهزيمة بالحامية المماليكية وسيطر على دنقلة ، فى حين فر ملك النوبة الجديد — بدمه — وجريس صاحب الجبل إلى القاهرة . وقد غضب السلطان المنصور قلاون لهذه الأخبار وأمر فوراً بإعداد حملة كبيرة لتأديب سمامون (١) .

وفى تلك المرة أراد قلاون أن تكون سيطرته على النوبة نهائية فعنى بإعداد الحملة إعداداً فائقا ، فامتازت عن سابقتها بوفرة عدد السفن — من حراريق وغيرها — ، كما امتازت بوفرة عدد الأمراء المشتركين فيها ، فإلى جانب الأمير عز الدين أيبك الأفرم الذى عقدت له القيادة العليا ، ذهب مع الجيش الأمير قبجاق المنصورى والأمير بكتمر الجوكندار والأمير أيدمر والى قوص ، فضلا عن ملك النوبة الطريد وجريس صاحب الجبل (٢) .

وفى سنة ١٢٨٩ غادرت تلك الحملة — التى زاد عدد أفرادها عن أربعين ألفا — القاهرة . فانضم إليها بالوجه القبلى كثير من أجناد الأمراء فضلا عن العربان . ولكن لم تكد الحملة تصل إلى ثغر أسوان حتى توفى ملك النوبة فدفن هناك ؛ وأرسل الأمير الأفرم إلى السلطان يعلمه بذلك ويستشيره فيما يفعله ، فأرسل السلطان إليه ابن أخت آخر للملك داود — كان معتقلا بقلعة الجبل — لتعيينه ملكا فى دنقله (٣) .

ويروى المقريزى أن تلك الحملة الجديدة التى أرسلها السلطان قلاون إلى النوبة اتبعت نفس الخطة التى اتبعتها الحملة السابقة ، فانقسمت إلى نصفين : نصف سار على البر الغربى للنيل وعلى رأسه الأمير عز الدين الأفرم والأمير قبجاق ، والنصف الآخر سار بحذاء البر الشرقى تحت قيادة أيدمر والى قوص

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٤٣ .
(٢) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٨ ص ٨٢ .
(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٤٩ .

وبكتمر . أما جريس الذى لقبه المقريزى بلقب « نائب ملك النوبة » فقد تقدم الجند ومعه أولاد كنز « ليؤمن أهل البلاد ويجهز الإقامات »(١). ويبدو أن حملة المماليك لم تصادف مقاومة فى ذلك الجزء الشمالى من بلاد النوبة — أى من بلد الدالى جزائر ميكائيل — لأن هذا الجزء كان ولاية جريس « فكان العسكر إذا قدم إلى بلد خرج إليه المشايخ والأعيان وقبلوا الأرض وأخذوا الأمان وعادوا » . ومن جهة أخرى فإن المماليك احترموا أرواح الأهالى وممتلكاتهم فى تلك الجهات ، رعاية لجريس .

على أن سياسة المماليك لم تلبث أن تبدلت عندما دخلوا نطاق نفوذ ملك النوبة ، إذ وجدوا الأهالى قد جلوا عن البلاد « طاعة لمتملك النوبة » «فأخذ المماليك ينهبون ويقتلون من يصادفونه من الناس » فرعوا الزروع وخربوا السواقى » (٢) . ويفهم من ذلك أن سمامون عاد إلى خطته القديمة فجلا عن البلاد وتحاشى أن يصطدم مع المماليك فى معركة فاصلة . وعندما وصل المماليك إلى دنقلة — عاصمة مملكة النوبة — وجدوا المدينة خالية ، إلا من شيخ واحد وعجوز ، أخبرا المماليك أن سمامون فر إلى جزيرة فى النيل تبعد عن دنقلة خمسة عشر يوما (٣) .

وكان أن اتجه أيدمر والى قوص بمن معه من جند إلى تلك الجزيرة لمطاردة سمامون ، حتى وصلوا إلى تجاهها فطلبوا منه الدخول فى الطاعة وأمنوه فلم يقبل . ويبدو أن سمامون خشى أن تحاصره سفن المماليك فى تلك الجزيرة ، فهرب منها جنوباً إلى جهة الأبواب على بعد ثلاثة أيام ، وعندئذ فارقه معظم جنده وأمرائه فضلا عن الأسقف والقساوسة ومعهم الصليب الفضى الذى يحمل على رأس الملك

---

(١) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٢) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ص ٧٥٠ .

(٣) المرجع السابق ص ٧٥٠ .

وتاج الملك(١) ، وقد استسلم هؤلاء جميعا لأيدمر ، فخلع عليهم وعاد بهم إلى دنقلة ، وهناك في دنقلة توج المماليك الملك الجديد — الذى كان قلاون قد أرسله لهم — ملكا على النوبة ، بعد أن تعهد بالولاء لسلطان المماليك والوفاء بالالتزامات التى تعهد بها شكنده من قبل ، وبعد أن أحيي المماليك فى دنقلة انتصارهم بأن أدوا ألعاب الفروسية وزينوا الحراريق والسفن فى النيل حيث لعب الزراقون بالنفط ، قفلوا راجعين إلى مصر ، واكتفوا بترك حامية صغيرة فى دنقلة لمساندة الملك الجديد(٢).

أما سمامون ، فإنه لم يكد يعلم بعودة المماليك ، حتى خروج من جحره مرة أخرى ، وعاد إلى دنقلة ليطرد الأمير بيبرس العزى قائد الحامية المماليكية ، فى حين قبض على الملك الذى عينه المماليك « وعراه من ثيابه وألبسه جلد ثور ... وتركه حتى مات » ، كما قتل جريس(٣) .

وكان سمامون يعرف أن سلطنة المماليك فى مصر لن تسكت عن ذلك الوضع ، ولن تغفر له عمله ؛ فأرسل رسالة إلى السلطان المنصور قلاون « يسأله العفو ، وأنه يقوم بالبقط المقرر وزيادة ، وبعث رقيقا وغيره تقدمة » . ويبدو أن المنصور قلاون كان فى ذلك الوقت قد ملّ حرب النوبة واستنفدت مشاكله الداخلية وحروبه ضد التتار والصليبيين كثيرا من جهوده ، فرضى بما عرضه سمامون وقبل تعهداته ، وأقره على ما بيده من بلاد(٤) ، وذلك بعد أن حلفه على يمين مشابه لليمين التى حلف عليها شكنده(٥) . وقد ذكر النويرى

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٩ ورقة ٢٧٤ .
(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٧٥٢ .
(٣) المرجع السابق ص ٧٥٣ .
(٤) ابن خلدون : العبر ، جـ ٥ ص ٤٠٠ .
(٥) القلقشندى : جـ ١٣ ص ٢٩٠ — ٢٩١ .

أن السبب الذى دفع قلاون إلى قبول سياسة الأمر الواقع فى النوبة . وإقرار سمامون على وضعه ، هو أن المنصور قلاون كان فى ذلك الوقت يتأهب للاستيلاء على عكا بعد أن استولى على طرابلس ، ولذلك لم يكن لدى السلطان متسع من الوقت أو الجهد لإرسال حملة جديدة إلى النوبة[1].

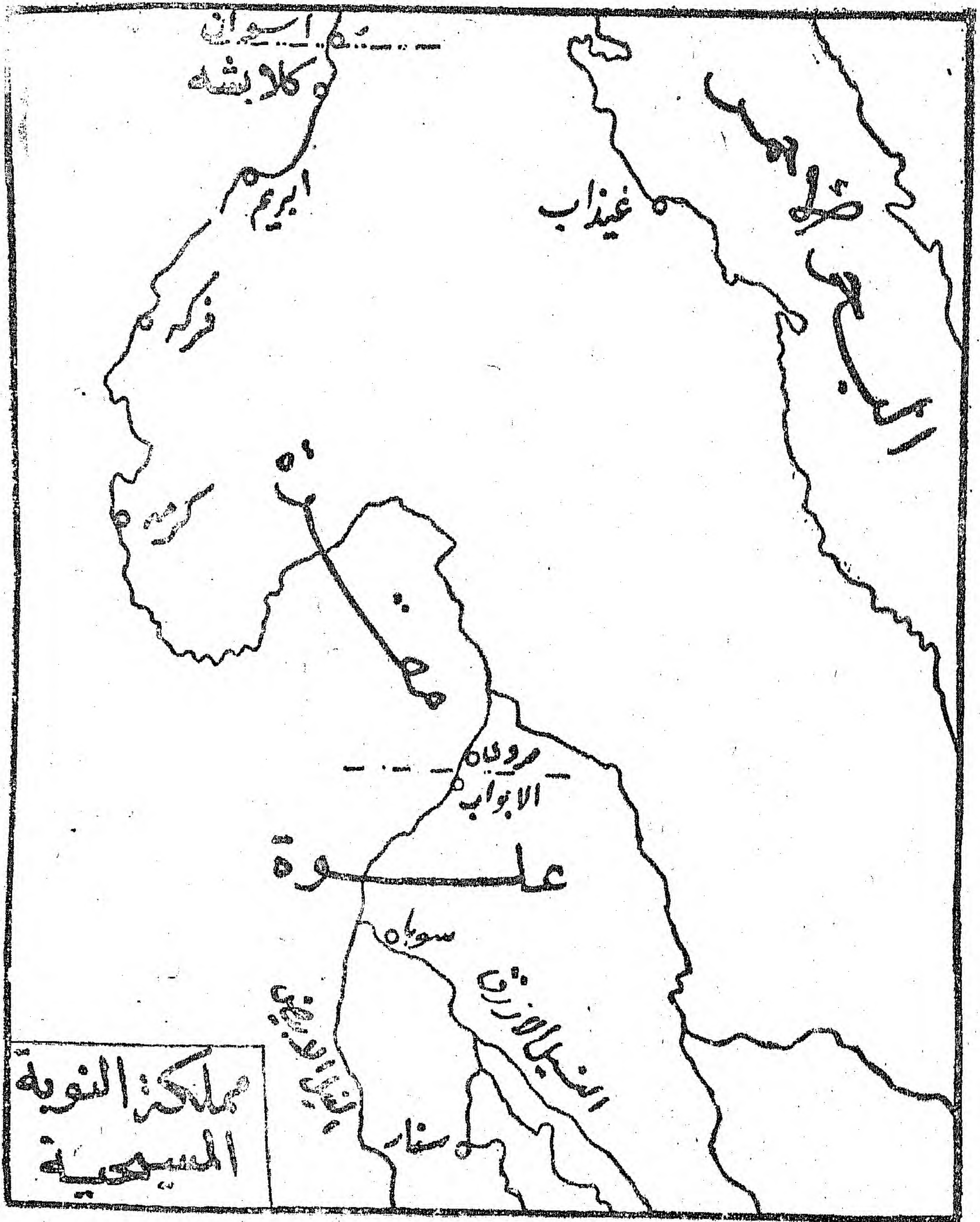
وخلاصة القول أن السلطان قلاون — مثل الظاهر بيبرس — اعتبر النوبة جزءاً من ملكه الواسع ، ودليل ذلك أن كتاب ولاية العهد الذى كتب للملك الصالح علاء الدين ابن المنصور قلاون نص على سائر أقاليم الدولة ، « ومن جملتها مملكة النوبة وما احتوت عليه »[2].

السلطان الأشرف خليل والنوبة :

على أن سمامون لم يف بالعهد الذى قطعه على نفسه إذ لم يكد يعلم بوفاة السلطان المنصور قلاون حتى قطع البقط المستحق عن سنة ١٢٩١ ، وبعث إلى السلطان الأشرف خليل يعتذر بما أصاب بلاده من التخريب نتيجة « دخول العساكر الإسلامية إليها كرة بعد كرة » ، وبأن إغارات الملك آدر صاحب الأبواب قد « زادت البلاد خرابا إلى خرابها »[3]. لكن السلطان خليل لم يقبل تلك الأعذار ، فأرسل الرسل إلى سمامون مهددة منذرة ، حتى سأل الأمان وعندئذ أجابه السلطان خليل بن قلاون إلى طلبه ، كما شمل أم سمامون وعمته وبعض أهله بعطفه بوصفهم رهائن وأنزلهم فى دور الضيافة بالقاهرة وبعد ذلك بقليل أرسل سمامون أخاه جريس — وهو غير جريس الذى سبقت الإشارة إليه — برسالة إلى السلطان خليل يستعطفه لإرسال أمه إليه.

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٢٧٤ .
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٠ ص ١٧٥ .
(٣) ابن عبد الظاهر : الألطاف الخفية ص ٢٩ — ٣١ .



اسوان
كلابشه
ابريم
فرس
مقرة
عيذاب
البحر الاحمر
الابواب
علوة
سوبا
النيل الازرق
سنار
مملكة النوبة
المسيحية

وقد ذكر سمامون فى رسالته « إن ملوك النوبة ما يدبرهم غير النساء » إشارة إلى مكانة المرأة عند أهل النوبة ، كما أرسل بعض الهدايا إلى السلطان(١). ويظهر أن العـــداء كان مستحكما فى ذلك الوقت بين ملك دنقلة وصاحب الأبواب ، لأن سمامون أفرط فى الشكوى من صاحب الأبواب ، وزعم أنه اعتدى على الهدية التى أرسلها للسلطان ، كما طلب من السلطان خليل ألا يفسح صدره لأى رسول يرسله ملك الأبواب(٢).

ومهما يكن من أمر ، فإن السلطان خليل لم ينخدع بكلام سمامون المعسول ، بل ضاق ذرعا بمماطلته ، وقرر استخدام القوة لردعه ، وكان أن أنفذ السلطان الأشرف خليل بن قلاون حملة كبرى إلى بلاد النوبة للقبض على سمامون من ناحية وأمير آخر اسمه آنى من ناحية أخرى . وقد ذكر محيى الدين بن عبد الظاهر أخبار هذه الحملة فى اقتضاب ، فقال إن الأمير الأفرم أوغل فى مملكة النوبة مسيرة ثلاثة وثلاثين يوما جنوبى دنقله فى مطاردة الملك آنى الذى فر ومعه سبعة أنفار إلى جهة الأنج(٣). ولكن المماليك لم يستطيعوا الاستمرار فى مطاردة آنى بسبب « شدة العطش ، ولأن البلاد التى وصلوا إليها خراب ، مأوى الفيلة والقردة والخنازير والزرافات والنعام » مما يشير إلى أن المماليك وصلوا إلى جنوب السودان . وقد اكتفى المماليك بتأديب تلك الجهات « ورجعوا بغنيمة » إلى دنقلة(٤). أما سمامون فلا تذكر عنه المراجع شىء ، ويغلب على الظن أنه هلك أثناء مطاردة المماليك له .

وفى تلك الأثناء وصلت تعليمات من السلطان الأشرف خليل بالقاهرة

---

(١) المرجع السابق ص ٣٩ — ٤٠ ؛
مصطفى مسعد : الإسلام والنوبة ص ١٦٠ .
(٢) ابن عبد الظاهر : الألطاف الخفية ، ص ٣١ .
(٣) محيى الدين بن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ص ١٥٢ .
(٤) المرجع السابق ، ص ١٥٣ .

إلى الأمير الأفرم بأن يعين أميراً نوبياً اسمه بدمه ملكا على دنقلة ، وفى الحال جمع الأمير عز الدين الأفرم مقدمى المماليك وأكابر مملكة النوبة ، واحتفل بتتويج بدمه ، وحلف الرعية يمين الولاء له ، ولكن ذلك اليمين جاء مشروطاً بطاعته لسلطان المماليك « ولولا مولانا السلطان ما أطمناك ومتى تغيرت أمسكناك ؛ ونحن نرضى أن يقيم مولانا السلطان لنا ملكا فلاحاً أو جبلياً ، فإن بلاد النوبة مالها ملك إلا مولانا السلطان ونحن رعيته »(١). وبعد ذلك حلف المماليك جريس — الذى كان نائباً لملك النوبة فى جزائر ميكائيل وعمل الدو ، وبذلك تعهد كل من بدمه وجريس بطاعة سلطان المماليك « وأن أى من خرج عن الطاعة كان الآخر عونا عليه لمولانا السلطان » .

وبعد ذلك شرع الأمير عز الدين الأفرم فى العودة بمن معه من جند إلى القاهرة ، وبعد رحيله بخمسة أيام وصل كتاب من بدمه ملك دنقلة يفيد أن أهل المملكة عادوا إلى بلادهم وأنهم أخذوا فى عمارتها . كذلك وصل كتاب آخر من ملك الأبواب فى الجنوب يعتذر عن تأخره فى الحضور بنفسه والمثول بين يدى الأمير الأفرم لأنه كان مشغولا بمطاردة آنى ؛ وأنه يسعى للسيطرة على بلاد الأنج ؛ فإذا تم له ذلك « صار جميع بلاد السودان فى قبضة مولانا السلطان وطاعته »(٢).

وهكذا حققت حملة السلطان الأشرف خليل على النوبة نجاحا كبيرا « لأنها وصلت إلى أمكنة ما وصلها جيش قط » . وكان الأمير عز الدين الأفرم وهو فى طريقه إلى القاهرة قد طلب ثلثمائة جمل لركوب الأسرى ، فأرسلت إليه ، فدخل القاهرة وصحبته عساكره « متجملة فى أحسن زى » ؛ ومعه أحمال عديدة من غلات النوبة(٣).

---

(١) محيى الدين بن عبد الظاهر : تشريف الايام والعصور ص ١٥٣ .
(٢) محيى الدين بن عبد الظاهر : تشريف الايام ص ١٥٤ — ١٥٥ .
(٣) محيى الدين بن عبد الظاهر : تشريف الايام ص ١٥٥ .

السلطان الناصر محمد والنوبة:

ويبدو أن الحملات التى أرسلها سلاطين المماليك فى مصر إلى النوبة منذ عهد السلطان الظاهر بيبرس أفلحت فى جعل ملوك النوبة يعملون حسابا لسلطنة المماليك فى القاهرة ويخشون بأسهم وسطوتهم. وهكذا ظل ملوك دنقله يعبرون عن ولائهم بين حين وآخر لسلاطين المماليك، ويحتكمون إليهم فيما ينشب بينهم وبين بعض من خلاف. من ذلك أن الملك أماى ملك النوبة آتى بنفسه إلى القاهرة سنة ١٣٠٤ يحمل الهدايا للسلطان الناصر محمد بن قلاون ويطلب معونته ضد منافسيه وأعدائه. وقد استجاب الناصر محمد لنداء ملك النوبة، فأرسل معه تجريدة بقيادة والى قوص الأمير سيف الدين طقصبا، وبعد أن أتمت هذه الحملة مهمتها فى مساعدة ملك النوبة عادت إلى مصر سنة ١٣٠٥ (١).

على أنه يبدو أن الأمور لم تستقر تماما لأماى ملك النوبة، بدليل أن أخاه كرنبس قتله سنة ١٣١١ ليحل محله فى عرش دنقله، وقد أحس الملك الجديد بحاجته إلى تأييد سلطنة المماليك، فأتى إلى القاهرة معلنا ولاءه للسلطان الناصر محمد حاملا الجزية والضرائب المفروضة على بلاده (٢).

ولكن كرنبس سرعان ما تنكر لسلطنة المماليك بمجرد استقرار الأمور بالنسبة له، وامتنع سنة ١٣١٦ عن إرسال البقط إلى مصر. وكان أن أعد السلطان الناصر محمد حملة كبرى لتأديب كرنبس ووضع حد للمشكلة النوبية (٣) وحشد لهذه الحملة عددا كبيرا من الأمراء بقيادة الأمير عز الدين أيبك جهاركس عبد الملك (٤). واصطحبت هذه الحملة معها أحد النوبيين هو سيف الدين عبد الله

---

(١) المقريزى: السلوك ج ٢ ص ٢٩.
(٢) ابن حجر: الدرر الكامنة ج ١ ص ٤٢١.
(٣) القلقشندى: صبح الاعشى ج ٥ ص ٢٧٧.
(٤) المقريزى: السلوك ج ٢ ص ١٦١.

برشنبو ابن أخت داود ملك النوبة الأسبق — لتتويجه ملكا على النوبة بدلا من كرنبس وكان برشنبو قد أسر فى إحدى الحملات السابقة التى أرسلها سلاطين المماليك إلى النوبة وتربى ونشأ فى الطباق السلطانية ضمن جملة مماليك السلطان واعتنق الإسلام(١). والواقع إن تفكير سلاطين المماليك فى تعيين بعض أبناء النوبة — الذين عاشوا وشبوا فى مصر وتشربوا كثيراً من مظاهر الحضارة المماليكية الإسلامية — ملوكا على مملكة دنقلة، ليدل على اتجاه جديد جدير بالتأمل والعناية. وترجع أهمية هذا الاتجاه فى التاريخ إلى أن اختيار حاكم مسلم للنوبة كان كفيلا بسرعة تحويل تلك البلاد إلى الإسلام، وبالتالى إلى زيادة نفوذ العنصر العربى فيها؛ وكل هذه أدت فى نهاية الأمر إلى إسقاط مملكة النوبة المسيحية(٢). ذلك أن بنى كنز — وهم من عرب ربيعة الذين تطرقوا إلى بلاد النوبة فى العصور الوسطى — أخذوا يتطلعون فى ظل الاتجاه الجديد إلى ملك النوبة لأنهم مسلمون فضلا عن أنهم تزوجوا من بنات البيت المالك فى النوبة، حتى أن الملك كرنبس كان خال كنز الدولة أمير بنى كنز. ولما كان العرف عند ملوك النوبة قد جرى بتوريث أبناء الأخت، فإن الملك كرنبس عندما علم برغبة السلطان الناصر محمد بن قلاون بتعيين ملك مسلم فى عرش دنقلة فإنه «أرسل ابن أخته كنز الدولة بن شجاع الدين ... إلى الأبواب السلطانية وسأل شموله بالإنعام السلطانى فى توليته الملك». وقد جاء فى رسالة كرنبس إلى السلطان الناصر محمد ما نصه «إذا كان يقصد مولانا السلطان بأن يولى البلاد لمسلم، فهذا مسلم، وهو ابن أختى. والملك ينتقل إليه من بعدى»(٣).

ولكن السلطان الناصر محمد لم يستجب لتلك الرغبة، ومضت حملته بقيادة

---

(١) النويرى: نهاية الارب، جـ ٣٠ ورقة ٩٥؛
القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٥ ص ٢٧٧ ؟

(٢) مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة ص ١٦٥ — ١٦٦.

(٣) النويرى: نهاية الأرب جـ ٣٠ ورقة ٩٥ — ٩٦

الأمير عز الدين أيبك وصحبتها عبد الله برشنبو إلى النوبة . وقد فر كرنبس إلى الجنوب من وجه جيوش المماليك ، ولكن ملك الأبواب قبض عليه وعلى أخيه أبرام وسلمهما لقائد الحملة المماليكية ، الذى عاد بهما إلى مصر سنة ١٣١٧ بعد أن تم تتويج عبدالله برشنبو أول ملك مسلم على مملكة النوبة[١].

أما كنز الدولة ، فقد اتخذ من وصول ملك النوبة وأخيه إلى القاهرة سبباً للمطالبة بالإفراج عنه ، فأذن له السلطان الناصر محمد بالسفر إلى أسوان، ولكن ملك النوبة استهواه ، فواصل كنز الدولة سفره حتى دنقلة . وعندئذ رحب به الناس وحيوه كعادتهم فى تحية الملوك بلفظ «موشاى ! ... موشاى» ![٢] وفى ذلك الوقت كان استياء الأهالى فى النوبة من ملكهم الجديد الذى عينه السلطان الناصر محمد - وهو عبد الله برشنبو - قد بلغ أشده لأنه «غير قواعد البلاد وتعاطى نوعا من الكبر لم تجر عليه عادة ملك النوبة بمثله ، وعامل أهل البلاد بغلظة وشدة».[٣] وهكذا استطاع كنز الدولة أن ينزل الهزيمة بالملك برشنبو وأن يقتله ، وجلس كنز الدولة على عرش دنقله. وقد ذكر النويرى أن كنز الدولة رفض أن يضع تاج الملك على رأسه «رعاية لحق أخواله وتعظيما لهم وحفظاً لحرمتهم»[٤] ولكن يبدو أن السبب الرئيسى الذى جعل كنز الدولة يرفض وضع التاج على رأسه ، هو أن ذلك التاج كان يحمل علامة الصليب ، وهو أمر لا يتفق وديانة كنز الدولة الإسلامية[٥].

وقد وجد السلطان الناصر محمد بن قلاوون فى مصر أن ما فعله كنز الدولة

---

(١) النويرى: نهاية الأرب جـ ٣٠ ورقة ٩٦.
(٢) المرجع السابق .
(٣) المرجع السابق.
(٤) النويرى: نهاية الأرب جـ ٣٠ ورقة ٩٦.
(٥) مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة ، ص ١٦٩ .

يعتبر تحدياً لمشيئة السلطنة المماليكية وإخلالا بهيبتها ومكانتها . لذلك رفض السلطان الناصر الاعتراف بكنز الدولة وأطلق سراح أبرام أخى كرنبس وأرسل إلى النوبة ليقبض على ابن أخته كنز الدولة . ولم يكد أبرام يصل إلى النوبة حتى دخل كنز الدولة فى طاعته وتنازل له عن الملك غير أن أبرام غدر بابن أخته وقبض عليه ليرسله إلى القاهرة ، لولا وفاة أبرام المفاجئة التى أوقفت ذلك الإجراء (١) .

وهكذا تكررت القصة مرة أخرى ، إذ مات أبرام ليعتلى كنز الدولة عرش النوبة من جديد سنة ١٣١٧ ، أما السلطان الناصر محمد فلم يقف مكتوف اليدين أمام تحدى كنز الدولة له ولرجاله ، وإنما بادر بإرسال حملة إلى النوبة سنة ١٣٢٣ بقيادة الأمير علاء الدين بن على قراسنقر . وقد أرسل الناصر محمد صحبة تلك الحملة كرنبس ليعتلى عرش النوبة ، لا سيما أنه ورد فى المراجع أن كرنبس اعتنق الإسلام عقب مجيئه إلى مصر (٢) بدلا من كنز الدولة . وكان أن نجحت تلك الحملة فى تحقيق أغراضها فهرب كنز الدولة من دنقلة واعتلى كرنبس العرش ، ولكن لم تكد الحملة تنسحب من النوبة عائدة إلى مصر ، حتى ظهر كنز الدولة من جديد واسترد عرشه (٣) .

العلاقة بين دولة المماليك والنوبة فى أواخر العصور الوسطى :

كانت حملة السلطان الناصر محمد على بلاد النوبة سنة ١٣٢٣ آخر حملة نسمع عنها فى التاريخ أرسلها سلاطين المماليك لإخضاع النوبة . والواقع إن السبب

(١) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ١١٦ ،
النويرى : نهاية الأرب ح ٣٠ ورقة ٩٦ .
(٢) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٥ ص ٢٧٧ .
(٣) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٢٥٠ .

فى ذلك واضح ، هو أن سلاطين المماليك دأبوا منذ أيام بيبرس على إرسال حملات إلى النوبة للدفاع عن حدود مصر الجنوبية من جانب النوبيين. وكان لسلاطين المماليك سند قوى فى تلك الحملات لأن مملكة النوبة كانت مسيحية، حكمها ملوك مسيحيون، الأمر الذى جعل سلاطين المماليك ينظرون إلى بلاد النوبة بوصفها ميدانا جديداً للجهاد إلى جانب الميدان الصليبي القديم فى حوض البحر المتوسط .

ولكن الأمر انتهى فى عصر الناصر محمد بن قلاون بقيام كنز الدولة فى حكم دنقلة، ولم يكن كنز الدولة مسيحياً وإنما كان مسلماً انحدر من أصل عربى صريح. ثم إن الأمر لم يقف عند حد أن بلاد النوبة صار يحكمها ملك مسلم، وإنما تعدى ذلك إلى أن تلك البلاد أخذت عندئذ - منذ أوائل القرن الرابع عشر - تصطبغ بالصبغة العربية الواضحة نتيجة لهجرة بعض القبائل العربية - عدا بنى كنز - إلى النوبة واستقرارهم فيها[1] . وهكذا لم يعد هناك مبرر واضح لأن يقوم سلاطين المماليك بالتدخل فى شئون دولة مجاورة ذات صبغة عربية ويحكمها ملوك مسلمون ، لاسيما إذا كانت هذه الدولة فى عهدها الجديد قد جنحت إلى السلم ولم تعد مصدر خطر على حدود مصر الجنوبية. وإذا كان سلاطين المماليك قد تمسكوا فيما مضى بضرورة قيام ملوك النوبة بإرسال البقط ، فإن هذه الضريبة صار لا مبرر لها أيضا بعد أن غلب الطابع العربى الإسلامى على بلاد النوبة . ونستدل على هذا المعنى من عبارة ذكرها القلقشندى نصها « فبعث السلطان كرنبس إليهم فملكهم ، وانقطعت الجزية عنهم من حين أسلم ملوكهم[2] » .

---

(١) حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية فى أفريقية ص ٣٢٤ — ٣٢٦ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٧٧ .

وكيفما كان الأمر ، فإن مملكة النوبة المسيحية سقطت فى النصف الأول من القرن الرابع عشر ، وقامت على أنقاضها وحدات عديدة صغيرة ذات صبغة إسلامية عربية ، ومنذ ذلك الوقت حتى سقوط سلطنة المماليك سنة ١٥١٧ صارت العلاقة بين مصر والنوبة لا تتعدى بعض المبادلات التجارية المحدودة .

الفصل الخامس

بيت قلاون

أشرنا من قبل إلى أن المماليك لم يؤمنوا مطلقاً بمبدأ الوراثة فى الملك ؛ فالأمراء جميعاً سواء والملك للأقوى والأكثر أتباعاً والأوفر ذكاءاً . وربما حاول المماليك أن يظهروا قسطاً من الوفاء للسلطان الراحل فيعينون ابنه بعده سلطاناً ؛ ولكن لا تلبث أن تنقشع الغيوم وتزول صدمة الموت وعندئذ يدرك كبار الأمراء أن ذلك الوضع غير طبيعى ، وأنهم لا يقلون أحقية فى الملك عن السلطان الراحل ، ويكفى أنهم رضوا بحكمه حيناً من الدهر ، فلا مبرر لأن يخضعوا لابنه من بعده . أو ربما اشتد التنافس بين كبار الأمراء عقب موت السلطان ، فيتظاهرون — حسماً للنزاع — بموافقتهم على تعيين ابن السلطان الراحل ، حتى تنكشف الأمور ويظهر بين صفوف الأمراء الرجل القوى الذى يبذ زملاءه فى سطوته وعصبيته المماليكية ، وعندئذ يسهل عليه عزل ذلك الابن وإحلال نفسه محله .

وهكذا نلمس فى دراستنا لعصر المماليك عدم استمرار بيت واحد فى الحكم مدة طويلة . وإذا استطاع رجل مثل بيبرس أن يمكن لنفسه ويحلف الأمراء على احترام ولاية العهد لابنه من بعده — فإن تلك الأيمان كانت سرعان ما تنكث بعد وفاته لعدم إيمان المماليك بمبدأ الوراثة . ولم يحدث طوال القرنين ونصف القرن التى حكم فيها سلاطين المماليك مصر أن ظلت السلطنة فى بيت واحد مدة طويلة . باستثناء بيت قلاون الذى حطم تلك القاعدة والذى يعتبر مثلا فريداً فى تاريخ المماليك لبقاء الحكم فى بيت واحد أكثر من قرن (١٢٧٩ — ١٣٨٢) . ولا يمكن إرجاع هذه الظاهرة إلى إيمان المماليك

فى حقبة معينة بمبدأ وراثة الملك ، وإنما هى مجرد الصدف والظروف التى أحاطت بذلك البيت وبعض أفراده فضلا عن أحوال البلاد عندئذ والدليل على ذلك أن أمراء المماليك لم ينقادوا لبيت قلاون طوال ذلك القرن ، وإنما قامت محاولات لعزل بعض سلاطين بنى قلاون من الحكم ، ونجح بعض الأمراء فى تولى السلطنة فعلا فى تلك الأثناء ، ولكن التيار القلاونى كان لا يلبث أن يتغلب بعد قليل .

ولاشك فى أن بقاء منصب السلطنة فى بيت قلاون تلك المدة الطويلة ، جعل عصر تلك الأسرة يكتسب طابعاً خاصاً مميزاً فى تاريخ المماليك ، وربما كان فى بقاء اسم الجد « قلاون » فى سلسلة طويلة من أسماء السلاطين منذ أواخر القرن الثالث عشر حتى أواخر القرن الرابع عشر ، ما أضفى على ذلك العصر جواً خاصاً مميزاً . هذا بالإضافة إلى أن جميع مميزات وخصائص العصر المماليكى اكتملت ونضجت فى ذلك العصر ، فاستقر الحكم للمماليك تماماً فى مصر والشام بعد فترة الاضطرابات الأولى التى أنهاها بيبرس بتثبيت أوتاد الدولة ، وأخذت تتبلور النظم والقواعد التى سارت عليها سلطنة المماليك حتى أواخر أيامها ، وبدأت تظهر بشائر النشاط التجارى الذى عاد على المماليك بالثروة الواسعة ومكنهم من إقامة تلك المنشآت الرائعة التى ما زالت بقاياها فى مدن مصر والشام تنطق بمجدهم . فإذا أضفنا إلى ذلك أن عصر أسرة قلاون شهد حلقات بارزة فى قصة الجهاد ضد التتار من ناحية والصليبيين من ناحية ثانية وفى أرض النوبة من ناحية ثالثة ، فضلا عن النشاط الدبلوماسى والمعاهدات السياسية والاتفاقيات الاقتصادية مع كثير من القوى المعاصرة فى إفريقية وأوربا وآسيا ... أدركنا فى نهاية الأمر أهمية عصر بيت قلاون فى تاريخ دولة المماليك .

السلطان الأشرف خليل بن قلاوون : (١٢٩٠ — ١٢٩٣)

والواقع إن السلطان المنصور قلاون نفسه لم يكن يتصور بأن السلطنة ستظل فى أعقابه أكثر من قرن، لأنه كان مملوكا قبل أن يكون سلطاناً، وحطم بنفسه مبدأ الوراثة عندما عزل سلامش — ابن الظاهر بيبرس — من السلطنة ليتولى هو الحكم بدلا منه. وإذا كانت عاطفة الأبوة قد غلبت على المنصور قلاون فأعلن ابنه الصالح علاء الدين سلطاناً فى حياة أبيه، فإن هذا الابن لم يلبث أن توفى فى حياة أبيه أيضاً سنة ١٢٨٨. وقد سبق أن أوضحنا كيف أن السلطان قلاون رفض أن يوقع كتاب ولاية العهد لابنه الثانى خليل لاعتقاده فى سوء خلقه وعدم أهليته لتولى الملك، ومع ذلك فقد شاءت الظروف أن يتولى خليل السلطنة سنة ١٢٩٠

وسرعان ما أثبتت الأيام صدق نظرة الأب قلاون وسبب مخاوفه من ابنه خليل. حقيقة إن خليلا عرف بالشجاعة والبأس، وله مواقف مشهودة فى محاربة الصليبيين والتتار والنوبيين، وهو فوق هذا وذاك السلطان الذى اقترن اسمه فى التاريخ بمحو آية الصليبيين من الشام - كما سبق أن أشرنا - ولكن ذلك كله جاء مصحوباً بنزعة تعسفية فى أخلاقه، فغدر بالأمراء وتعاظم عليهم واستخف بهم ؛ مما عجل بنهايته . وفى ذلك يقول المؤرخ ابن إياس «كان الأشرف بطلا لا يكل من الحروب ليلا ونهاراً . وكان مسعوداً فى حركاته ولا يعرف فى أبناء الملوك من كان يناظره فى العزم والشجاعة والإقدام ... ولكنه كان يسمع الكلام فى الناس بالباطل من وزيره ابن السلعوس، وكان ذلك سبباً لزوال ملكه .... »(١)

وتفصيل ذلك أن السلطان الأشرف خليل لم يكد يتولى السلطنة سنة ١٢٩٠

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج١ ص١٢٦ .

حتى أخذ يغدر برجال الدولة وكبار الأمراء الذين كانت لهم الكلمة والنفوذ فى عهد أبيه . ومنذ أن كان خليل ولياً للعهد ظهرت خلافات بينه وبين نائب السلطنة الأمير حسام الدين طرنطاى ، فحرض بعض الأمراء نائب السلطنة على التخلص من السلطان الجديد، ولكن طرنطاى رفض الاستجابة لهم. وكانت النتيجة أن السلطان خليل بادر بعد توليه السلطنة بأيام معدودات إلى القبض على طرنطاى وقتله غدراً ، الأمر الذى أثار استياء الأمراء ومخاوفهم(١) . ولم يدر السلطان خليل أنه بعمله إنما سعى إلى حتفه بظلفه ، لأنه عين الأمير بدر الدين بيدرا نائباً للسلطنة بدلا من طرنطاى ، ومنحه اقطاع الأمير طرنطاى نفسه . وكان أن ازداد نفوذ بيدرا فى الدولة ، فأخذ يتطلع بدوره إلى السلطنة وازداد العداء بينه وبين خليل ، وهو العداء الذى انتهى بالقضاء على السلطان خليل نفسه .

ثم إن السلطان الأشرف خليل عزل الأمير علم الدين سنجر الشجاعى من الوزارة وعين بدله شمس الدين محمد بن السلعوس . وقد ازدادت مكانة ابن السلعوس فى الدولة بعد أن فوض إليه السلطان خليل الإشراف على شئون الأمراء . وهكذا ظهر التنافس بين بيدرا نائب السلطنة وابن السلعوس الوزير ، فأخذ الأخير يوغر قلب السلطان على بيدرا وأوهمه أن أملاكه اتسعت ونفوذه ازداد حتى غدا خطراً على السلطان نفسه(٢) .

وقد أحس بيدرا بنية السلطان الأشرف خليل للغدر به ، ولكنه كان أقوى من أن يستطيع السلطان القضاء عليه فى سهولة . ثم إن بيدرا لم يكتف بالحيطة والتحرز على نفسه . وإنما أخذ يدبر مؤامرة للإيقاع بالسلطان قبل أن يوقع السلطان به . وكان أن اغتنم بيدرا فرصة ركوب السلطان خليل للصيد

---

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة جـ ٩ ورقة ١٦٧ .
(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٧٨٢ — ٧٨٣ .

فى ناحية تروجه ـ قرب أبى المطامير بمديرية البحيرة ـ وانقض عليه بالسيف ثم تبعه بقية الأمراء المتآمرين مثل حسام الدين لاجين المنصورى وشمس الدين قراسنقر وسيف الدين بهادر المنصورى . . . حتى خر السلطان قتيلا بين أيديهم سنة ١٢٩٣[١] . ويقال إن جثمان السلطان خليل ظل ملقى فى العراء يومين كاملين ، حتى حمل بعد ذلك إلى القاهرة ودفن فيها[٢] .

السلطان الناصر محمد بن قلاوون : (سلطنته الأولى ١٢٩٣ - ١٢٩٤)

وبمقتل السلطان خليل تكررت نفس التمثيلية التى حدثت عقب مقتل قطز من قبل ، إذ اجتمع الأمراء المتآمرون فى مسرح الجريمة وقبل أن تجف دماء ضحيتهم ليتشاوروا فى مصير السلطنة . وكان أن استقر رأيهم على تولية بيدرا سلطانا فحلفوا له وقبلوا الأرض بين يديه ، ولقبوه « الملك الرحيم » ! وقيل « الملك الأمجد » أو « الملك القاهر » أو الملك الأوحد »[٣]

ولكن المماليك الأشرفية - مماليك الأشرف خليل - لم يرضوا عن ذلك الوضع ، فهبوا بزعامة الأمير زين الدين كتبغا للثأر لأستاذهم ، وطاردوا بيدرا وأعوانه حتى لحقوا بهم فى الطرانه من قرى كوم حماده بالبحيرة[٤] . وهناك دارت معركة بين الطرفين انتهت بمقتل بيدرا وفرار معظم أعوانه . وبذلك يكون بيدرا قد أراد « السلطنة لنفسه ولكن المقادير قهرته والدنيا الغرور غدرته » (٥) .

---

(١) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ج ٢ ص ٤٠٥ - ٤٠٦ .
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٤ - ٢٥ .
(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٢٧ ؟
أبو الفدا : المختصر ج ١ ص ٣٠
(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٦ .
(٥) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ، ص ٥٧٤

وكان المنتظر أن يحاول الأمير زين الدين كتبغا بعد ذلك أخذ العرش لنفسه، ولكن الأمير علم الدين سنجر الشجاعي الذى كان السلطان خليل قد أنابه عنه بقلعة الجبل حال بينه وبين الوصول إلى القاهرة. ومن الواضح أن كلا من هذين الأميرين كان يطمع فى الاستئثار بالسلطنة لنفسه، ولما وجد كل منهما أنه أمام خصم قوى عنيد، اتفق الطرفان على مبايعة محمد بن قلاون — أخى خليل(١).

والواقع إن السلطان الناصر محمد بن قلاون يتمتع بأهمية كبيرة فى تاريخ دولة المماليك، نظراً لطول حكمه ولما حدث فى عهده من أحداث وتطورات هامة، فضلا عن شخصيته التى جعلت الناس يتمسكون به ويرون فى بقائه تحقيقاً للاستقرار والأمن والرخاء. ولا نكون مبالغين إذا قررنا إن أهمية بيت قلاون لا تنبع من شخص السلطان المنصور قلاون مؤسس تلك الأسرة، بقدر ما ترتبط بالسلطان الناصر محمد بالذات.

غير أن الناصر محمد بن قلاون كان صغير السن — لم يتجاوز التاسعة من عمره — وقت اعتلائه العرش. وكان من الصعب على ذلك الغلام أن يتحمل إدارة شئون تلك الدولة الواسعة، لذلك يمكن القول أن سلطنته الأولى — التى امتدت من ١٢٩٣ حتى ١٢٩٤ كانت اسمية وأن السلطة الفعلية تركزت فى أيدى مجموعة من الأمراء أهمهم زين الدين كتبغا نائب السلطنة وعلم الدين سنجر الشجاعى الوزير (٢).

وتمشياً مع التطور المألوف فى عصر المماليك كان المفروض أن يسعى كل من هذين الأميرين لانتزاع العرش لنفسه من السلطان الصغير. وفعلا

(١) المقريزى: السلوك ج١ ص ٧٩٣.
(٢) أبو المحاسن: النجوم ج ٨ ص ١٩٩ — ٢٠٠.

تركز النزاع بين الأمير كتبغا والأمير الشجاعى ، وانضم إلى كل منهما عدد كبير من الأنصار والأتباع . ويقال إن الأمير الشجاعى بدأ بالعدوان وسعى للتخلص من كتبغا ، ولكنه لم يوفق فى تحقيق هدفه . ولكن كتبغا كان أوفر قوة ، فأرسل إلى السلطان الناصر محمد يقول له ما نصه « إن الشجاعى قد انفرد برأيه فى القبض على الأمراء ولابد من حضوره ، فإنه بلغنا عنه ما أنكرناه » . ولما امتنع الشجاعى عن الحضور ، زحف كتبغا على رأس رجاله إلى القلعة وحاصروها وفيها السلطان الناصر والأمير الشجاعى ، وقطعوا عنها الماء يوما كاملا . ويبدو أن أم السلطان الناصر محمد خشيت عندئذ على ولدها ، وأدركت أن حقيقة النزاع بين الأميرين كتبغا والشجاعى هى الوصول إلى العرش ، فأرسلت إلى كتبغا تقول « إيش قصدك حتى نفعله ؟ إن كان قصدك أن تخلع ابنى من السلطنة فافعل ! » . ولكن كتبغا رد — على طريقة أمراء المماليك — متظاهراً بالزهد فى السلطنة وبالرغبة فى إقرار الأمور لا أكثر ، فقال « أعوذ بالله السميع العليم ! والله لو بقى من أولاد أستاذنا (المنصور قلاون) بنت عمياء ما أخرجنا الملك عنها ، ولا سيما ابن أستاذنا رجل وفيه كفاءة لذلك ، وإنما قصدنا الشجاعى لإخماد الفتنة ! »(١) .

وقد حاولت أم الناصر محمد التوسط بين الأميرين الثائرين لإخماد الفتنة ، فأوحت إلى ابنها بأن يعرض على الأمير الشجاعى نيابة حلب ، ولكن الشجاعى لم يعجبه الاقتراح ، وأغلظ على السلطان فى القول ، فقبض عليه المماليك الذين كانوا فى حضرة السلطان وقتلوه(٢) .

وبذلك أصبح كتبغا صاحب الكلمة الأولى فى شئون الدولة ، ولا حيلة للسلطان الصغير الناصر محمد معه ، ولم ينقص كتبغا سوى لقب السلطنة وشعارها . وصادف أن ظهر بالقاهرة عندئذ الأمير حسام الدين لاجين ، فأدى ظهوره إلى

---

(١) المقريزى : السلوك ؛ ج ١ ص ٨٠١

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٣١ .

ثورة المماليك الأشرفية - مماليك الأشرف خليل - واضطراب الأحوال فى القاهرة . وكان لاجين ماكراً ، فبادر بالاتصال بالأمير كتبغا وزين له إعلانه سلطانا بعد خلع الناصر محمد ، لأن الأشرفية مادام الملك الناصر فى الملك شوكتهم قائمة ، (١) . لذلك استغل كتبغا اضطراب الأحوال فى القاهرة نتيجة لثورة الأشرفية وجمع الأمراء للتشاور فى الموقف ، فقال بعضهم : « لقد فسدت الأحوال لكون السلطان صغير السن وطمع المماليك فى حق الرعية ، ومن الرأى أن نولى سلطانا كبيرا يقمع المماليك عن هذه الأفعال ! » (٢) وهكذا تم عزل السلطان الناصر محمد بعد سنة واحدة من توليه الحكم ، وأعلن كتبغا سلطاناً سنة ١٢٩٤ . على أن يكون حسام الدين لاجين نائباً للسلطنة .

السلطان العادل كتبغا : (١٢٩٤ - ١٢٩٦)

اعتلى كتبغا عرش سلطنة المماليك ، فأخذ يتقرب إلى أمراء المماليك بالقول والعمل . أما السلطان الناصر محمد فقد عزله كتبغا فى بعض قاعات القلعة ومعه أمه وحجبه عن الناس . وقد اختار كتبغا الأمير حسام الدين لاجين نائبا للسلطنة وفوض إليه جميع أمور الدولة ، كما عين الصاحب فخر الدين الخليلى وزيرا (٣) .

على أن الظروف شاءت أن تتجمع عدة عوامل لتجعل الناس يكرهون كتبغا ويتمنون زوال ملكه . وأول هذه العوامل أن اعتلاء كتبغا عرش السلطنة جاء مصحوبا بانخفاض النيل واشتداد الغلاء نتيجة للجدب ، حتى انتشرت المجاعة وفشت

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٤٨ - ٤٩ .
(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ، جـ ١ ص ١٣٢
(٣) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ص ٨٠٧ - ٨٠٨

الأمراض وصار الناس يسقطون صرعى فى الطرقات . ويروى المؤرخون أنه بلغ من حدة الأزمة التى نتجت عن الجوع والمرض أنه كان يموت فى القاهرة كل يوم بضعة ألوف ، ويبقى الميت مطروحاً فى الأزقة والشوارع ملقى فى الممرات اليوم واليومين لايوجد من يدفنه ، لاشتغال الأصحاء بأمواتهم والسقماء بأمراضهم »(١) ولم تقتصر الطامة على مصر وحدها ، بل امتدت إلى الشام حيث توقف نزول المطر ، وخرج النائب وسائر الناس مشاة للاستسقاء (٢).

وإذا كانت المجاعة التى صحبت اعتلاء كتبغا عرش السلطنة قد جعلت الناس يتشاءمون من حكمه وسوء طالعه ، فإن ثمة عاملا آخر كان له أثره فى ازدياد كراهية الناس لكتبغا . ذلك أن كتبغا كان مغولى الأصل أسره السلطان المنصور قلاون فى واقعة حمص الأولى وجعله فى زمرة مماليكه حتى شب وتحرر ووصل إلى مرتبة الإمارة ومن ثم شق طريقه إلى السلطنة (٣). ولكن وصول كتبغا إلى منصب السلطنة لم ينسه أصله وعشيرته ، فلم يكد يعلم أن طائفة كبيرة من التتار الوثنيين فروا صوب مصر خوفا على أنفسهم من غازان محمود ايلخان مغول فارس الذى اعتنق الإسلام ، حتى رحب كتبغا بهم وقد أطلق على تلك الطائفة من المغول اسم العويراتية أو الأويراتية ، وما كادوا يصلون إلى القاهرة حتى أمر كتبغا الأمراء والجند بالخروج لاستقبالهم ، ثم رحب بهم السلطان وأقطعهم الاقطاعات الوفيرة وأجرى عليهم الأرزاق السخية وأنزلهم بالحسينية (٤) .

ولاشك فى أن ترحيب كتبغا بذلك العدد الضخم من التتار الذين زادوا

---

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١٨٩

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٨٠٨

(٣) أبو المحاسن : المنهل الصافى ج ٣ ورقة ٤٧

(٤) المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢١ — ٢٣ .

عن عشرة آلاف ، واستضافته لهم فى الوقت الذى اشتد الغلاء فى البلاد وندرت الأقوات ومات الناس بسبب الجوع ، كل ذلك أدى إلى استياء الناس من كتبغا . وزاد سمعة كتبغا سوءاً بين الجند والشعب أن أولئك الأويراتية كان معظمهم وثنيين مما أظهر كتبغا فى صورة حامى الوثنيين . ولايخفى علينا أن المسلمين فى مصر والشام لم ينسوا للتتارعدوانهم على الوطن الإسلامى منذ أيام هولاكو ، لاسيما وأن خطر مغول فارس على بلاد الشام كان لايزال ماثلا حتى أيام كتبغا (١)

ثم كان أن زار كتبغا بلاد الشام سنة ١٢٩٥ لإقرار الأمور فيها ؛ وعندئذ اشتد غضب الأمراء عندما عزل السلطان كتبغا نائب السلطنة بالشام أغرلو العادلى (٢) هذا إلى أن كتبغا لم ينعم على أمراء الشام بالخلع والإنعامات والهدايا ، كما جرت به عادة السلاطين من قبل « فإن عادة الملوك إذا دخلوا مدينة مثل دمشق أن يغدقوا الهدايا والصلات على الأمراء » (٣)

ولايخفى علينا أن الأمير حسام الدين لاجين كان من وراء جميع مظاهر الاستياء ضد كتبغا فحسام الدين هو الذى حرض كتبغا على عزل السلطان الناصر محمد ، وهو شريكه فى المؤامرات التى انتهت بعزل الناصر ، ولهذا فإنه كان يعتقد أن حقه فى الملك لايقل عن حق كتبغا نفسه . وإذا كان حسام الدين لاجين قد تظاهر بالتعفف والزهد فى منصب السلطنة ورضى بأن يكون نائبا للسلطان ، فإن ذلك جاء نتيجة لإحساس لاجين عندئذ بحرج موقفه بوصفه من المتآمرين على قتل الأشرف خليل . ولكن مع مضى الأيام ثبت لاجين مركزه وضعف نفوذ المماليك الأشرفية الذين كان لاجين يخشى سطوتهم ، فلم يعد هناك

---

(1) Wiet : L,Egypte Arabe, p. 464.

(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٨١٧

(٣) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ٥٩٢ — ٥٩٤ .

مانع من أن يكشف لاجين عن وجهه الحقيق ويكيد للسلطان كتبغا لانتزاع السلطنة منه .

وفعلا أخذ لاجين يحرك عوامل البغض ضد كتبغا ، بل إنه رسم الخطة مع بعض أعوانه لقتله أثناء عودته من الشام إلى مصر ؛ مثلما فعل بيبرس مع قطز . ولما وصل كتبغا إلى اللجون — قرب طبرية — سنة ١٢٩٦ ، أحس بالمؤامرة ، ففر إلى دمشق ، ولم يتمكن المتآمرون إلا من قتل الأميرين بتخاص و بكتوت الأزرق ، وهما من أقرب أعوان كتبغا .

السلطان المنصور لاجين : (١٢٩٦ — ١٢٩٨)

فر كتبغا ليحتمى بقلعة دمشق ، فانضم رجال الجيش إلى حسام الدين لاجين الذى استولى على خزائن السلطان ؛ ثم حاول أن يسترضى الأمراء ليبايعوه بالسلطنة ؛ فجمعهم وقال لهم « أنا واحد منكم ولا أخير نفسى عنكم ولست موليا عليكم من مماليكى أحدا ولا أسمع فيكم كلاما أبدا ، ولا يصيبكم ما أصابكم من مماليك العادل (كتبغا) وأنتم خوشداشينى (زملائى) ومحل إخوتى ! »[(١)] . وبمثل هذه النغمة والعبارات المعسولة استطاع لاجين أن يكتسب تأييد الأمراء الذين تعودوا سماع تلك الأقوال من كل سلطان مغتصب جديد ، ثم عدم الارتباط بها بعد وصوله إلى السلطنة ، فاشترطوا على لاجين عدم الاستبداد برأيه أو تسليط مماليكه — وخاصة منكوتمر — عليهم[(٢)] .

وهكذا بايع الأمراء لاجين بالسلطنة سنة ١٢٩٦ ، فركب بشعار السلطنة

---

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١٦٥ .
(٢) أبو الفدا : المختصر ج ٤ ص٣٤٨ هـ .

قاصداً مصر حيث خف أمراء مصر للقائه قرب بلبيس وحلفوا له يمين الولاء ، ثم دخل القاهرة واستقر فى القلعة بعد أن تلقب بالسلطان الملك المنصور[١].

أما فى بلاد الشام فقد خطب أولا للمنصور لاجين فى غزة والقدس وصفد والكرك ونابلس ؛ لأن كتبغا كان لا يزال مقيما فى قلعة دمشق . ولكن لم تلبث أن جاءت الأخبار بسلطنة المنصور لاجين ، وعندئذ انفض الناس والأمراء فى شمال الشام عن كتبغا الذى لم يسعه سوى أن يتنازل عن السلطنة طائعاً مختاراً ؛ وأعلن أنه « يرضى بالمكان الذى عينه السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين »[٢] . وقد حدد له السلطان لاجين الإقامة فى صرخد — من أعمال دمشق — فذهب إليها معززاً — ولعله رأى ذلك الحل أوفق بكثير ، وأسلم عاقبة من المقاومة .

على أن مشكلة كتبغا لم تكن المشكلة الوحيدة التى واجهت لاجين فى مستهل حكمه ، إذ كانت أمامه مشكلة الناصر محمد الذى ظل مقيما فى القاهرة ينظر إليه الناس بوصفه صاحب الحق الشرعى الأول فى السلطنة . لذلك فكر لاجين فى إبعاد الناصر محمد إلى الكرك بعد أن أمنه على حياته وتعهد له بأنه سيعيده إلى السلطنة متى يبلغ سن الرشد[٣] .

وبعد أن استراح لاجين نسبياً من خطرى كتبغا والناصر محمد ، أخذ ينظم شئون الحكم ، فاختار الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى نائباً للسلطنة ولكن لم يلبث أن عزله وعين بدله الأمير سيف الدين منكوتمر[٤] . ولا يخفى علينا أن كبار الأمراء كانوا يخشون من أول الأمر أن يؤثر لاجين الأمير منكوتمر

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٨٢٢ — ٨٢٣ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٦٧ .

(٣) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٩ ورقة ٣١٥ .

(٤) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٥٩٩ .

عليهم وأنهم اشترطوا — كما سبق أن رأينا — على لاجين ألا « تخول مملوكك منكوتمر فى التحكم والتدبير ، فتضل »(١) . لذلك استاء الأمراء مما فعله لاجين وأخذوا يكيدون له . وزاد من سخطهم أن السلطان حسام الدين لاجين راك البلاد — وهو الروك المعروف باسم الروك الحسامى — وبمقتضاه قل نصيب الأمراء والجند من أرض مصر . أما عامة الناس فقد غضبوا من لاجين لإهماله « وتمنى كل أحد زواله وكثر الدعاء عليه ! »(٢) .

وفى ذلك الوقت كان مماليك الأشرف خليل يتحينون الفرصة للثأر من لاجين الذى تآمر على قتل أستاذهم ، وبذلك تكاملت عناصر المؤامرة . ولم يلبث المتآمرون — بزعامة الأمير كرجى مقدم البرجية — أن نجحوا فى قتل لاجين ومنكوتمر جميعاً سنة ١٢٩٨ ، وبذلك تجددت مشكلة ملء العرش مرة أخرى(٣) .

سلطنة الناصر محمد الثانية : (١٢٩٨ — ١٣٠٨)

اتجهت الأفكار عقب قتل لاجين إلى إحضار الناصر محمد وتنصيبه سلطاناً مرة أخرى ولكن ثمة ظاهرة لمسناها فى تاريخ دولة المماليك منذ مولدها ، هى أن قاتل السلطان يعتبر نفسه دائماً أحق الأمراء بمنصب السلطنة . لذلك حدث عندما اجتمع الأمراء — عقب مقتل لاجين — لبحث الموقف واختيار سلطان أن نهض الأمير كرجى وقال « يا أمراء ! أنا الذى قتلت السلطان وأخذت ثار أستاذى . والملك الناصر صغير ما يصلح . ولا يكون السلطان إلا هذا — وأشار للأمير طغجى — وأنا نائبه ! »(٤) . ولم يلبث أن كثر الطامعون واشتد

---

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١٧٢ .

(٢) ابن إياس : بدائع الدهور ، ج ١ ص ٣٧ .

(٣) أبو المحاسن : المنهل الصافى ج ٣ ورقة ٦٥ — ٦٨ (مخطوط) .

(٤) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٨٦٦ .

الشقاق . وكما هى العادة دائماً فى تاريخ المماليك — رؤى حسما للخلاف — اختيار السلطان الناصر محمد بن قلاون سلطاناً من جديد ، لا إيماناً من الأمراء بأحقيته ، ولكن حتى ينجلى الموقف ويظهر بين صفوف الأمراء الرجل القوى الذى يسهل عليه عزل الناصر محمد وفرض نفسه سلطاناً .

وكان أن استدعى الناصر محمد من الكرك سنة ١٢٩٨ ، فاستقبل فى القاهرة إستقبالا حماسياً رائعاً ، ورحب به أهالى مصر أجمل ترحيب ، ولا يخفى علينا أن عامة الناس رأوا فى حكم أسرة قلاون نوعا من الاستقرار وحسما للمنازعات بين الأمراء .

ومهما يكن من أمر ، فقد جددت أيمان الولاء للناصر محمد بالقلعة ، وعين الأمير سيف الدين سلار نائباً للسلطنة والأمير بيبرس الجاشنكير استاداراً . وقد استغل هذان الأميران بالذات صغر سن السلطان واستبدا بالأمور ، وضيقا على الناصر محمد ، حتى أنهما تدخلا فى أبسط أموره الشخصية مثل المصروف والمآكل والمشرب[1] .

وفى ذلك الوقت ظهر التنافس واضحاً بين الأمير بيبرس وسلار ، الأمر الذى أدى إلى عدم استقرار الأمور فى البلاد . وزاد من سوء الأحوال فى تلك الفترة إحتدام الصدام بين طوائف المماليك البرجية الذين أخذ نفوذهم يزداد تدريجياً ، فى حين كان الأمير سلار يشرف على أمور المماليك الصالحية والمنصورية . وهكذا اضطربت أحوال البلاد نتيجة لقيام سلطان قاصر فى الحكم ، وانشغال أمراء المماليك وطوائفهم بالمنافسات فيما بينهم وبين بعض ، فى الوقت الذى اشتد عبث العربان فى الداخل ، وتجدد خطر التتار على بلاد الشام .

وقد تكلمنا عما دار من حروب بين المماليك والتتار فى ذلك الدور .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٧٠ .

أما العربان ، فقد انتهزوا فرصة انشغال الحكام في العاصمة وأكثروا الفساد في البلاد ، وبخاصة في الوجه القبلي ، فقطعوا الطرق على التجار وفرضوا عليهم إتاوات ؛ بل إنهم امتنعوا عن أداء الخراج واختاروا اثنين منهم سموا أحدهما بيبرس والآخر سلار[١] . وكان أن أفتى العلماء والقضاة بقتالهم ، فخرج إليهم الأمراء ، « وضربوا على الوجه القبلي حلقة كحلقة الصيد » ، أى أحاطوا بالأعراب من جميع النواحي حتى أخضعوهم وقتلوا كثيراً منهم فضلا عن الأسرى[٢] .

أما السلطان الصغير الناصر محمد فقد عيل صبره من تضييق الأمراء عليه ، فاتصل بالأمير بكتمر الجوكندار وطلب منه مساعدته في التخلص من الأميرين بيبرس وسلار . ولكن هذين الأميرين عرفا خبر المؤامرة ، فأحاطوا بالسلطان في القلعة وعندئذ أرسل السلطان الناصر محمد إلى الأمراء يقول « ماسبب هذا الركوب على باب اسطبلي ؟ إن كان غرضكم في الملك فأنا متطلع إليه ، خذوه وابعثوني أى موضع أردتم ! » فرد الأمراء عليه قائلين : « إن السبب هو من عند السلطان ومن المماليك الذين يحرضونه على الأمراء ! »[٣]

وجدير بالذكر أن عامة الناس أظهروا عطفاً كبيراً على السلطان الناصر محمد في تلك الأزمة فتجمهروا وأخذوا يصيحون « يا ناصر يا منصور ... الله يخون من يخون ابن قلاون ! » الأمر الذى أدى إلى عدة اشتباكات بين المماليك والعامة[٤] .

وأخيراً نفد صبر الناصر محمد بعد أن شكا ضيق يده وحرمانه من أبسط الحقوق الشخصية دون أن يجد معيناً ، لذلك تظاهر برغبته في الحج حتى

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٩٢٠ .
(٢) المرجع السابق ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٤٩ — ١٥٢ .
(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٧٢
(٤) المرجع السابق ص ١٧٣ .

يسمح له بمغادرة البلاد ، ولكنه لم يكد يصل إلى قلعة الكرك حتى أعلن عزمه على اتخاذ ذلك المكان محلا لإقامته وكتب إلى الأميرين بيبرس وسلار باعتزاله الحكم سنة ١٣٠٨(١)، وبذلك انتهت سلطنة الناصر محمد الثانية التى استمرت نحو عشر سنين ونصف .

السلطان المظفر بيبرس الجاشنكير (١٣٠٨ — ١٣٠٩)

ولم يتوقع كبار الأمراء فى الدولة أن يغرر بهم الناصر محمد ، فغضبوا عندما تسلموا رسالته لأنهم فيما يبدو كانوا لا يستطيعون العثور على أداة سهلة فى أيديهم مثل الناصر محمد الصغير . لذلك بادروا بالكتابة إليه يطلبون منه العودة فوراً إلى مصر ومعه مماليكه ، وإلا طردوه من الكرك وحرموه من حقه فى العرش « نخل عنك الصبى وقم واحضر إلينا . وإلا بعد ذلك تطلب الحضور ولا يصح لك ، وتندم ولا ينفعك الندم ! »(٢) ولكن الناصر محمد أصر على موقفه وأبى العودة وكتب إلى الأمراء يقول لهم ما نصه « دعونى أنا فى هذه القلعة منعزلا عنكم إلى أن يفرج الله تعالى إما بالموت وإما بغيره » .

وهكذا تجددت مشكلة شغل العرش من جديد ، فعرض الأمراء منصب السلطنة على الأمير سلار بوصفه نائب السلطنة ، ولكنه امتنع عن قبول المنصب وخاف أن يحل به ما حل بكتبغا ولاجين ، فأشار سلار إلى زميله الأمير بيبرس الجاشنكير وقال « والله يا أمراء أنا ما أصلح للملك ولا يصلح له إلا أخى هذا » ، وكان أن بايع الأمراء بيبرس الجاشنكير — الذى تلقب بالمظفر سنة ١٣٠٨ ، واختير الأمير سلار نائباً للسلطنة « على عادته »(٣) .

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ، جـ ٨ ص ١٧٩ — ١٨٠ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٤٦ .

ومن الواضح أن المشكلة الأولى التي واجهت السلطان الجديد كانت مشكلة الناصر محمد الذي مازال يتمتع بعطف كثير من الناس داخل مصر وخارجها. وقد بادر السلطان المظفر بيبرس (الثاني) بكتابة تقليد بمنح الكرك للناصر محمد، ظنا منه أن ذلك الحل فيه ترضية كافية للناصر وأشياعه. ولكن عددا كبيراً من كبار الأمراء بالشام — وبخاصة قراسنقر نائب حلب وقبجق نائب حماه وأسندمر نائب طرابلس — رفضوا الاعتراف بسلطنة بيبرس الجاشنكير وأصروا على ولائهم للناصر محمد بن قلاون، الأمر الذي أثار مشكلة خطيرة في وجه المظفر بيبرس. ثم إن هؤلاء الأمراء الثلاثة عقدوا اجتماعا في حلب وقرروا مكاتبة الناصر محمد في الكرك ليعرضوا عليه مساعدتهم « فإما أن نأخذ له الملك وإما أن نموت على خيولنا ». ولكن الناصر محمد أشار عليهم بالتريث والصبر، لأن هذا الأمر ماينال بالعجلة»[١].

ومن هذا يبدو لنا أن الناصر محمد عندما استقال من السلطنة لم يكن زاهدا فيها، ولكنه آثر الانتظار في الكرك إلى أن تتضح الأمور وعندئذ يستطيع أن يسترد سلطانه في سهولة. هذا وإن كانت رغبة الناصر في التريث قد دفعت قراسنقر وقبجق وأسندمر إلى التظاهر بالدخول في طاعة المظفر بيبرس الذي اطمأن بعد ذلك على مصير عرشه وقال « الآن تم لي الملك »[٢].

على أن السلطان الناصر محمد لم يظل ساكناً في الكرك، إذ كان الصبي الصغير قد شب وأصبح فتى يافعا، فأخذ ينشط في مراسلاته مع الناس بالشام وأكثر من الركوب للصيد ومعه مماليكه[٣]. ويبدو أن ذلك النشاط أقلق مضاجع المظفر بيبرس، ففكر في الحد من نشاط الناصر، وأرسل إليه يطالبه بإرسال

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٣٨ — ٢٤٢.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٤٢.
(٣) المقريزي: السلوك ج ٢ ص ٥٢.

ماعنده من الخيل والمماليك وما استولى عليه من أموال الكرك ، « وإلا جرى عليك ماجرى على أولاد الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ونفيهم إلى القسطنطينية »[١] ، وعندئذ أخذ يظهر دهاء الناصر محمد الذى اشتهر به فى التاريخ ؛ فرأى «أن المغالطة أولى» وحاول أن يستر نياته فكتب إلى المظفر بيبرس فى مصر يسترضيه ويقول له « المملوك محمد بن قلاون يقبـــل الأرض ! . وإن مولانا السلطان هو الذى ربانى وما أعرف لى والدا غيره ، وكل ما أنا فيه فمنه وعلى يديه »[٢] ! وفى الوقت نفسه أرسل الناصر محمد إلى أمراء الشام — أعنى نواب حلب وطرابلس وحماه — يشكو لهم سوء وضعه وتهديد السلطان بيبرس الجاشنكير له ويستدر عطفهم عليه ويطلب مساعدتهم له ؛ فقال لهم مانصه « لما اشتد على الضنك من الأمراء خرجت لهم من مصر وتركت لهم الملك ورضيت من الدنيا بأحقر المساكن وأضيق الأماكن ليستريح خاطرى من النكد ؛ فما تراجعوا عنى وأرسل المظفر يهددنى بالنفى إلى القسطنطينية مثل أولاد الظاهر بيبرس ، وأرسل يطلب منى ما لا أقدر عليه ، وأنتم تعلمون ما لوالدى المنصور (قلاون) عليكم من حق العتق والتربية ، وما أظنكم ترضون لى بهذا الحال »[٣] !

• ولم يكن أمراء حلب وطرابلس وحماه فى حاجة إلى مزيد من التحريض ضد المظفر بيبرس ، فقد كان غرضهم الوثوب عليه وإعادة الناصر محمد إلى عرشه منذ إعلان المظفر بيبرس سلطاناً ، ولكن الناصر محمد هو الذى أشار عليهم بالتريث حتى يحين الوقت المناسب ، وهاهو الوقت المناسب قد حان ، فلم يبق إلا أن توجه ضربة قاصمة ضد بيبرس الثانى لإعادة الحق إلى صاحبه .

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٥١ .
(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٢ .
(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ١٥١ .

وكان أن انضم عدد كبير من أمراء الشام إلى الناصر محمد الذى أخذ يعد العدة للزحف على مصر . ولم يكد أهل مصر يعلمون بنية الناصر محمد فى الحضور إليهم حتى أظهروا سرورهم ، وانفض معظم الأمراء فى مصر ذاتها عن المظفر بيبرس ؛ وغادر بعضهم — مثل نوغاى — البلاد قاصداً الناصر محمد لمؤازرته فى استرداد عرشه . وقد أطلع هؤلاء الأمراء الناصر محمد على حقيقة الحال فى مصر وشجعوه على دخول البلاد حيث سيرحب به عامة الناس والجند ؛ الأمر الذى شجعه على اتخاذ تلك الخطوة[١] .

أما السلطان المظفر بيبرس ، فبدلا من أن يتدارك أموره ويرضى بالأمر الواقع ، حاول أن يبذل محاولة أخيرة للاحتفاظ بعرشه ، فطلب من الخليفة العباسى المستكفى بالله أن يجدد له عهد البيعة سنة ١٣٠٩ ، فتم ذلك وكان المنادون فى القاهرة يصيحون « سلطانكم الملك المظفر وطيبوا قلوبكم ومن تكلم فيما لا يعنيه قتل »[٢] ، ولكن كل هذه الإجراءات لم تفلح فى تغيير مجرى الأمور . وأخيراً وجد بيبرس الجاشنكير نفسه فى موقف لا يحسد عليه ، بعد أن انفض عنه الشعب ومعظم الأمراء وصار وحيداً أمام الأخبار التى أخذت تترى عن قرب تحرك الناصر محمد . ويقال إن الأمير سلار نائب السلطنة رأى من واجبه أن يبصر السلطان بحقائق الأمور ، فدخل عليه وقال له « يامولانا السلطان ، إن غالب الأمراء والمماليك السلطانية قد تسحبوا من القاهرة وتوجهوا إلى الملك الناصر بالكرك ، وقد وقع الاختيار على عوده ، ومن الرأى أن ترسل إلى الملك الناصر لتسأله فى مكان تتوجه إليه أنت وعيالك فلعله يجيبك إلى ذلك ؛ وإن لم تبادر إلى هذا دهمتك العساكر وهجموا علينا وأنت هنا »[٣] !

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٥٩ .

(٢) زيترشتين : تاريخ المماليك ص ١٣٩ .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ١٥٢ .

وفى تلك الأثناء جاءت الأخبار بأن الناصر محمد خرج من الكرك قاصداً دمشق حيث استقبله أهلها استقبالا حاراً وأقيمت له الخطبة وقدم له أمراء الشام فروض الولاء(١) . ولم يسع السلطان المظفر بيبرس إزاء تلك الأخبار سوى أن يعلن تنازله عن العرش ، فأرسل إلى الناصر محمد يسترضيه ويطلب منه العفو ويقول له ما نصه « إن حبستنى عددت ذلك خلوة وإن نفيتنى عددت ذلك سياحة وإن قتلتنى كان ذلك لى شهادة »(٢) ؛ وطلب من الناصر أن يمنحه الإقامة فى الكرك أو صهيون أو حماه . ويبدو أن بيبرس الجاشنكير أحس فعلا بأن بقاءه فى القاهرة صار متعذرا ، فقرر الخروج إلى أطفيح بعد أن استولى على مافى خزائن الدولة من أموال . وعندما سمع العامة خبر هروبه « تبعوه وهم يصيحون وراءه بهتافات عدائية ورجموه بالحجارة(٣) » .

سلطنة الناصر محمد الثالثة : (١٣٠٩ — ١٣٤٠)

وأخيراً خرج الناصر محمد من دمشق قاصداً القاهرة فوصلها فى سلام واستقبل فى جميع البلاد التى مر بها بالترحاب والسرور ، حتى دخل قلعة الجبل وبذلك بدأت سلطنته الثالثة .

وتعتبر هذه السلطنة الثالثة للناصر محمد على جانب كبير من الأهمية ، إذ ظهرت فيها شخصيته بعد أن أصبح شابا يافعاً ، فعزم من أول الأمر على القبض على زمام الأمور فى الدولة بنفسه وعدم الاستسلام لكبار الأمراء يتحكمون فيه كما حدث فى المرتين السابقتين . هذا إلى أن حكم الناصر محمد فى تلك المرة استمر مدة طويلة بلغت إحدى وثلاثين سنة (١٣٠٩ — ١٣٤٠) وهى مدة لم يتمتع

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٦٠ — ٢٦٥ .
(٢) المرجع السابق جـ ٨ ص ٢٧٠ — ٢٧١ .
(٣) العينى : عقد الجمان ، جـ ٢٢ ق ١ ص ١٦٨ (مخطوط) .

بها سلطان واحد من سلاطين المماليك السابقين أو اللاحقين ؛ الأمر الذى أعطى عصر الناصر محمد طابعاً خاصاً فريداً ، والذى جعل اسم الناصر محمد يحتل مكانة خاصة فى قلوب الناس . وساعد على بريق تلك الهالة التى أحاطت بعصر السلطان الناصر محمد ، أن دولة المماليك بلغت عندئذ أقصى درجات الاتساع والعظمة بعد أن نجحت فى قهر التتار وطرد الصليبيين من الشام وبدت فى صورة القوة العظمى فى الشرق الأدنى بوجه خاص والعالم الإسلامى بوجه عام . وأخيراً فإنه لا يخفى علينا أن شخصية الناصر محمد نفسه كان لها أثرها فى رسم صورة الإطار العام لعصره ؛ فقد وصف المؤرخون ذلك السلطان بأنه كان « ملكا عظيما ، محظوظاً ، مطاعا ، مهابا ، ذا بطش ودهاء ، وحزم شديد وكيد مديد ... »(١) .

وقد بدأ الناصر محمد سلطنته الثالثة بالانتقام من كبار الأمراء الذين أذلوه ، فألقى القبض على بيبرس الجاشنكير قرب غزة وهو يحاول الفرار إلى الشام ، واستحضر الناصر محمد غريمه ليؤنبه على سوء أفعاله ويذكره بمواقفه ، فقال له مانصه : « أذكر وقد صحت على وقت كذا بسبب فلان ، ورددت شفاعتى فى حق فلان ، واستدعيت نفقة فى وقت كذا من الخزانة فمنعتها ، وطلبت فى وقت حلوى بلوز وسكر فمنعتنى . . . . يا ركن الدين أنا اليوم أستاذك وأمس تقول لما طلبت أوز مشوى ما يعمل به ؟ »(٢) وبعد ذلك أمر السلطان الناصر محمد بقتله فقتل ؛ فى حين ألقى الأمير سلار فى السجن إلى أن مات(٣) .

وقد ظن بعض أمراء المماليك أن الناصر محمد فى ذلك الدور هو الناصر محمد الذى عهدوه فى الأدوار السابقة ، فحاول الأمير بكتمر الجوكندار نائب السلطنة

---

(١) أبو المحاسن : المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ج ٣ ورقة ٢٥٠ .

(٢) المقريزى : السلوك ، ج ٢ ص ٨٠ — ٨١ .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٥٦ .

تدبير مؤامرة لخلع الناصر محمد وإقامة ابن أخيه الأمير مظفر الدين موسى محله في السلطنة ؛ كما حاول المماليك الأشرفية إشعال نار الثورة من جديد . ولكن السلطان الناصر محمد قبض في تلك المرة بيد من حديد على شئون الحكم فأمسك بالأمير مظفر الدين موسى وزجه في السجن ، وقلم أظفار المماليك الأشرفية ، ولم يتساهل مع أي أمير - في مصر أو الشام - شك في ولائه وإخلاصه له[١].

وهكذا أثبت الناصر محمد كفاية نادرة ومقدرة في تصريف شئون الدولة مما أضفى عليه وعلى حكمه مهابة كبيرة في الداخل والخارج « فكاتبه سائر الملوك وهادوه وهابوه ، وصار جميع عسكر مصر في قبضته »[٢] ولا أدل على موجة الرخاء التي عمت مصر في ظل حكم الناصر محمد من المنشآت العديدة والعمائر الضخمة التي أقامها ذلك السلطان من مدارس ومساجد وخانقاوات وسبل وقصور ؛ ومازالت بقايا بعض هذه المنشآت قائمة في مصر والشام . وقد وصف المقريزي السلطان الناصر محمد بأنه كان « محبا للعمارة » كما ذكر أنه كان ينفق في كل يوم على العمارة « سبعة آلاف درهم فضة » أي ما يساوي ثلثمائة وخمسين ديناراً ، وهو مبلغ ضخم بالنسبة لمستوى الأسعار في ذلك العصر[٣] .

هذا كله بالإضافة إلى نضوج النظم المماليكية في عصر السلطان الناصر محمد ، فاستقرت دواوين الحكومة واستجدت كثير من التطورات في نظم الحكم ، وألغيت بعض الوظائف الكبرى — مثل وظيفة نائب السلطنة ووظيفة الوزير — واستحدثت بدلها وظائف أخرى مثل وظيفة ناظر الخاص واهتم كذلك السلطان الناصر محمد بتنظيم الموارد المالية وزيادة الدخل عن طريق

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ٢٤ - ٢٥ ؛
المقريزي : السلوك جـ ٢ ص ٩٩ - ١٠٠ .
(٢) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٧٣ .
(٣) المقريزي : المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٣٠٦ .

الإنعاش الاقتصادى ؛ مما سنشير إليه فى مواضع معينة من هذا الكتاب .

وفى جميع هذه الأعمال ، استعان السلطان الناصر محمد بن قلاون بمجموعة طيبة من أمرائه المخلصين . غير أنه يبدو أن الناصر محمد كانت لديه دائما عقدة من ناحية الأمراء ، فظلت علاقته بهم تتصف بالشك والريبة ، واشتهر عنه فى التاريخ أنه كان يقرب الأمير منه ويزيد من ألقابه ويضفى عليه الكثير من ألوان التشريف ، حتى إذا ما أحس بازدياد نفوذه غدر به فجأة وتخلص منه بطريقة أو أخرى . وتبدو تلك السياسة التى اتبعها السلطان الناصر محمد تجاه الأمراء بوضوح فى علاقته بالأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى الذى ولاه الناصر نيابة بالشام ثم غدر به بعد قليل ، وفى علاقته بالأمير تنكز الحسامى الناصرى الذى ولاه السلطان الناصر جميع بلاد الشام وزاد فى ألقابه الكثير وصاهره ، ثم أبعده عن مناصبه وتخلص منه فى نهاية الأمر[1] .

عصر أولاد الناصر محمد : (١٣٤٠ — ١٣٦١)

لم يكن السلطان الناصر محمد بن قلاون من شاكلة أولئك السلاطين الذين نسمع عنهم فى عصر المماليك والذين حكم الواحد منهم عاما أو بضعة أعوام وإنما استطاع الناصر محمد أن يحتفظ بالحكم سنين طويلة ، مما مكن لأولاده وأحفاده فى قلوب الناس . ثم إن الظروف التى أحاطت بعصر الناصر محمد وكيفية عزله مرتين وتوليه الحكم على ثلاث دفعات ، وما انتاب البلاد والعباد أثناء الفترات التى اعتزل فيها الحكم من مجاعات وشدائد وخوف ونقص فى الأموال والأقوات .. كل ذلك جعل المعاصرين يزدادون تعلقا بالناصر محمد وبيت قلاون ويرون فى بقائهم فى الحكم ضمانا كافيا للاستقرار والرخاء .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٢٧٣ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

ولعل هذا هو السر فى بقاء السلطنة سنين طويلة فى ذرية الناصر محمد - من أولاد وأحفاد - وهو أمر ليس له شبيه فى تاريخ سلطنة المماليك .

ولم يكن السلطان الناصر محمد نفسه أقل رغبة فى الاحتفاظ لذريته بالملك من بعده ؛ من ذلك أنه عهد بالملك لابنه الأمير ناصر الدين آنوك سنة ١٣٣١ فأقره الأمراء على ذلك « وأذعنوا لذلك كلهم » . وكان أن ركب آنوك بشعار السلطنة ووزعت الخلع على كبار الأمراء وكبار الموظفين . ولكن لم يلبث أن غير السلطان الناصر محمد رأيه « ورسم أن يلبس آنوك شعار الأمراء » ؛ وربما كان السبب فى ذلك صغر سنه إذ كان عندئذ فى التاسعة من عمره(١) . وكيفما كان الأمر ، فإن آنوك لم يلبث أن توفى بعد بضع سنوات فى حياة أبيه سنة ١٣٤٠ ، فى الوقت الذى اشتد المرض بالناصر محمد نفسه . فجمع كبار الأمراء وأوصاهم باختيار ابنه سيف الدين أبى بكر سلطانا من بعده ، فتعهدوا له بذلك(١) .

وبوفاة السلطان الناصر محمد سنة ١٣٤٠ دخلت دولة المماليك مرحلة جديدة فى تاريخها ، يمكن تسميتها عصر أبناء الناصر محمد وأحفاده . وأهم ما يلاحظ على هذه المرحلة - التى استمرت حتى سقوط دولة المماليك البحرية وقيام دولة المماليك البرجية أو الشراكسة سنة ١٣٨٢ — هو ازدياد نفوذ الأمراء وتعاقب عدد كبير من أبناء السلطان الناصر محمد ثم أحفاده فى منصب السلطنة ومعظمهم كانوا صغارا أو أحداثا مما جعلهم ألعوبة فى أيدى كبار الأمراء .

أما أبناء الناصر محمد الذين ولوا منصب السلطنة على التوالى من بعده فعددهم ثمانية حكموا إحدى وعشرين سنة (١٣٤٠ - ١٣٦١) وبذلك يكون

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٣٤٣ .
(٢) تاريخ ابن الوردى ج ٢ ص ٣٣٠ .

متوسط حكم الواحد منهم عامين ونصف تقريباً ، مما يشهد على مدى عدم الاستقرار الذى شهدته البلاد فى ذلك العصر .

وكان أول أولئك السلاطين من أولاد الناصر محمد السلطان سيف الدين أبو بكر الذى تلقب بالمنصور (١٣٤٠ — ١٤٣١) . ولم يكد هذا السلطان يلى السلطنة بعد وفاة أبيه حتى دب الخلاف بينه وبين الأمير قوصون أتابك العسكر . وكان سيف الدين أبو بكر شاباً فى العشرين من عمره ، ليست له خبرة بأخلاق كبار الأمراء وألاعيبهم، فاستثار قوصون بقية الأمراء ضده، وقال لهم ما نصه « هذا السلطان يريد أن يقتلكم ولا يخلى أحداً منكم »(١) وعندئذ استجاب الأمراء لقوصون الذى قبض على السلطان ونفاه إلى قوص حيث قتل بعد قليل ، قبل أن تمر ثلاثة أشهر على اعتلائه عرش السلطنة(٢).

وبعد قتل السلطان أبى بكر ، استحضر قوصون أخاه علاء الدين كجك وولاه السلطنة بلقب الأشرف (سنة ١٣٤١) . وكان السلطان الأشرف كجك فى الخامسة من عمره ، ولذا لم يكن منتظراً منه أن يكون له رأى مسموع فى إدارة شئون البلاد ، فظل فى السلطنة خمسة أشهر وعشرة أيام « لم يكن له فيها أمر ولا نهى . وتدبير أمور الدولة كلها إلى قوصون »(٣) .

وكان أن خلع الأمراء كجك وعينوا بدله أخاه أحمد الذى لقب بالناصر (١٣٤٢) . وكان أحمد وقت تعيينه سلطانا مقيما بالكرك . فلم يكد يحضر إلى مصر حتى رغب فى العودة إلى الكرك مرة أخرى ؛ وفعلا انتقل إليها وترك الدواوين فى مصر . وهكذا ساءت أوضاع البلاد بعد أن صار السلطان مقيما فى الكرك فى جوف الصحراء تاركا مصر والشام للأمراء الذين « شق عليهم غيبة

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٦٦٨ — ٦٧٠.

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٧٧ .

(٣) المقريزى : السلوك ، جـ ٢ ص ٥٩٣ .

السلطان منها، واضطربت أحوال القاهرة وصارت غوغاء » .. وعندما طلب الأمراء من السلطان الحضور إلى قاعدة ملكه بالقاهرة ، رد عليهم قائلا : « إنى قاعد فى موضع أشتهى، وأى وقت أردت حضرت إليكم ! »[١].

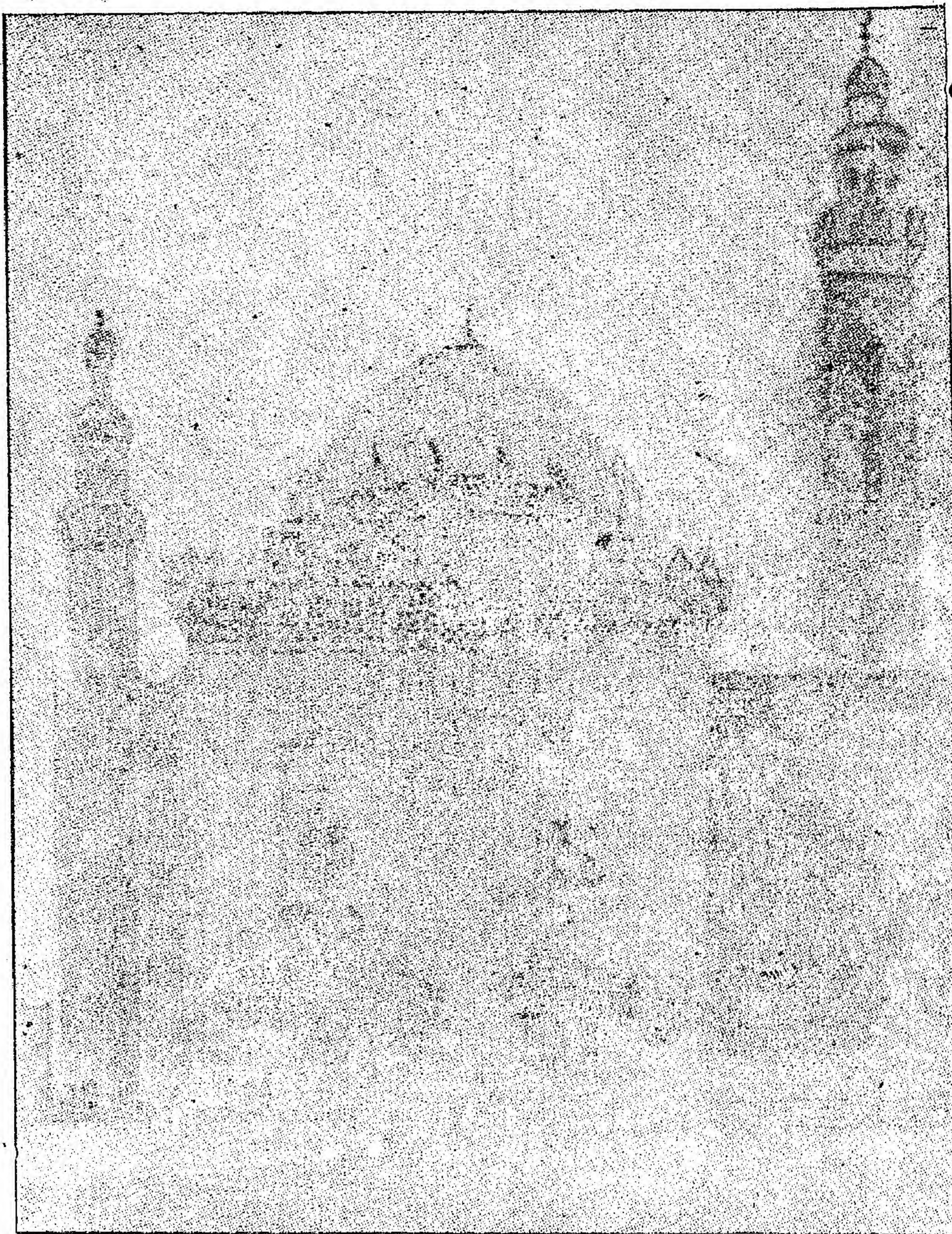
ولم يرض الأمراء عن ذلك الوضع فخلعوا الناصر أحمد من السلطنة — ثم قتلوه فيما بعد — وأحلوا محله أخاه اسماعيل الذى لقب بالصالح (١٣٤٢-١٣٤٥). وقد وصف المقريزى السلطان الصالح اسماعيل بأنه « أعرض عن تدبير الملك بإقباله على النساء المطربين » . ومع انخفاض إيرادات الدولة وقتئذ فإن العمائر والمنشآت ظلت تستأثر بمبالغ ضخمة من المال[٢] . وليست هناك أهمية خاصة لعهد الصالح اسماعيل سوى أنه شارك فى قتل أخيه السلطان السابق الناصر أحمد بعد أن ساءت سيرته فى الكرك . ولم يلبث الصالح اسماعيل نفسه أن مرض وتوفى سنة ١٣٤٥ .

أما السلطان الكامل شعبان (١٣٤٥ — ١٣٤٦) ابن الناصر محمد الذى تولى السلطنة بعد أخيه الصالح اسماعيل ، فلم يكن أقل من أخيه عبثاً ومجوناً واستهتاراً بمصالح الحكم ، فأغضب الأمراء ، وحاول قتل أخويه حاجى وحسين ولكن الأمر انتهى بالقبض عليه وعندئذ قتله أخوه حاجى الذى تولى السلطنة وتلقب بالمظفر (١٣٤٦ — ١٣٤٧)[٣] .

وكان المظفر زين الدين حاجى فى الحادية عشر من عمره عندما اعتلى عرش السلطنة ، فانشغل باللعب واللهو ، وتشاغل بلعب الحمام مع « الأوباش » الأمر الذى أغضب الأمراء فقتلوه قبل أن تمر سنة على اعتلائه العرش[٤] .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ١٠ ص ٦٩ .
(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٦٧٩ .
(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٨٦ — ١٨٨ .
(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ١٥٨ ، ١٧٢ — ١٧٣ .



جامع السلطان حسن بالقاهرة

ولم يكن السلطان الناصر حسن (١٣٤٧ — ١٣٥١) الذى ولى السلطنة بعد ذلك أفضل حالا من إخوته ، إذ تولى السلطنة وهو فى الحادية عشرة من عمره « فظل ألعوبة فى يد كبار الأمراء الذين رتبوا المصروف اليومى للسلطان بحيث لا يتعداه « ولم يسمح بمثل ذلك أن يكون ملك يجلس على تخت الملك، ويصرف الأمور بالعزل والولاية، وتحمل إليه أموال مصر والشام ولا يتصرف منها فى شىء ! »[1] وعندما حدث خلاف بين السلطان الناصر حسن والأمراء، لم يصعب على الأمراء إلقاء القبض على السلطان وحبسه ، وتعيين أخيه الصالح صلاح الدين بدله سلطاناً (١٣٥١ — ١٣٥٤) . وقد وصف المؤرخ أبو المحاسن السلطان الصالح بأنه « لم يكن له فى سلطنته إلا مجرد الإسم فقط، لغلبة (الأمراء) شيخون وطاز وصرغتمش على الأمر ، لأنهم كانوا هم حل المملكة وعقدها وإليهم أمورها لا لغيرهم »[2] . وسرعان ما انتهى أمر السلطان الصالح إلى العزل والحبس بالقلعة ، وعندئذ أعاد الأمراء الناصر حسن إلى السلطنة[3].

وقد قضى السلطان الناصر حسن فى سلطنته الثانية أكثر من ست سنوات (١٣٥٤ — ١٣٦٠) باشر فيها شئون الحكم بنفسه لأنه كان قد بلغ سن الرشد . وقد أجمع المؤرخون على وصف السلطان الناصر حسن بالشجاعة والكرم والعقل فكان « محباً للرعية ، وفيه لين جانب، حمدت سائر خصاله » . كما اهتم بالعمارة وأنشأ كثيراً من المبانى الفاخرة . ومع ذلك فإن الناصر حسن لم يكن بمنجاة من تدخل كبار الأمراء فى شئونه وبطشهم به ، حتى انتهى الأمر بأن قبض عليه الأمير يلبغا . وقد اختلفت الأقوال فيما حدث للناصر حسن بعد ذلك ، وإن كان الغالب أن مماليك يلبغا « قتلوه من غير مشاورة بعضهم لبعض »[4] .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٧٥١ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم ، ج ١٠ ص ٢٨٧ .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٩٤ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ؛ ج ١٠ ص ٣١٤

وبمقتل الناصر حسن انتهى عصر أولاد السلطان الناصر محمد بن قلاون، وانتقل الحكم إلى أحفاد الناصر محمد منذ سنة ١٣٦١ .

الوباء الأسود :

ومن هذه الصورة القاتمة التي يرسمها التاريخ لعصر أبناء الناصر محمد، يتضح لنا أن البلاد غدت نهباً لمجموعة من أمراء المماليك ، يتلاعبون بالسلاطين الأحداث حسبما يحلو لهم. أما عامة الأهالي في مصر فكانوا يقفون غالباً موقف المتفرج ، يبكون لمقتل سلطان ليقيموا الأفراح والزينات للسلطان الجديد . وهكذا عاش عامة أهل مصر والشام من الفلاحين والتجار وغيرهم في تلك الفترة بين تيارات داخلية متضاربة ومؤامرات بين الأمراء متعاقبة . وليس هناك ما يستحق الإشارة في تلك الفترة بالنسبة لأحوال البلاد الداخلية سوى انتشار الوباء الأسود في أنحاء الدولة سنة ١٣٤٩م (٧٤٩ هـ) .

والمعروف أن العالم - مشرقه ومغربه - شهد في العصور الوسطى كثيراً من الأزمات الاقتصادية التي جاءت مصحوبة بانتشار الأوبئة نتيجة لعجز الإنسان عن التحكم في قوى الطبيعة من ناحية ولانتشار الجهل وضعف وسائل العناية الصحية من ناحية أخرى . على أن وباء من الأوبئة لم يستأثر باهتمام المؤرخين مثلما استأثر الوباء الأسود، نظراً لقسوته وخطورة نتائجه واتساع انتشاره في بلاد الشرق والغرب جميعاً[1] . ويصف المؤرخ المقريزي كيفية انتشار هذا الوباء فيقول ما نصه « ولم يكن هذا الوباء كما عهد في إقليم دون إقليم، بل عم أقاليم الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، جميع أجناس بني آدم وغيرهم حتى حيتان

---

(١) عن الوباء الأسود وأثره في أوربا، انظر المؤلف: أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٦٠٩ .

البحر وطير السماء ووحش البر» ، ثم يشرح بعد ذلك كيف أصيبت بلاد المغول بالوباء الأسود، حتى «ماتت خيولهم وصاروا كلهم جيفا مرمية» ، ثم أخذ الوباء يزحف شرقاً عن طريق بلاد المغول وغربا عن طريق القسطنطينية ، حتى وصل إلى الشام ومنها إلى مصر. أما أعراض ذلك الوباء ، فكانت ظهور خراج صغير خلف أذن الإنسان وتحت إبطه ، ولا يلبث بعد ذلك أن يبصق المصاب دما ثم يموت بعد عدة ساعات .

وقد انتشر ذلك الوباء في مصر والشام انتشارا فتاكا فصار الناس يموتون كل يوم بالآلاف ، وغدت الأرض لا يوجد من يزرعها «وزهد أرباب الأموال في أموالهم وبذلوها للفقراء» ، وكان انتشار هذا الوباء في سلطنة الناصر حسن الأولى ، فبادر السلطان والأمراء إلى النجاة بأنفسهم وخرجوا جهة سرياقوس ولا تخفى علينا الآثار الخطيرة التي ترتبت على انتشار ذلك الوباء ، إذ أقفرت الأرض لعدم وجود من يفلحها ، وأقفرت الأسواق من البائعين والمشترين وانحلت إقطاعات كثيرة لوفاة أصحابها «وتوقفت الأحوال بالقاهرة ومصر ... وأبطل كثير من الناس صناعاتهم وانتدبوا للقراءة أمام الجنائز ... وبطلت الأفراح والأعراس من بين الناس ..» وفي ذلك قال بعض الشعراء (١) :

فهذا يوصى بأولاده	وهذا يودع إخوانه
وهذا يهيء أشغاله	وهذا يجهز أكفانه
وهذا يصالح أعداءه	وهذا يلاطف جيرانه

وخلاصة القول أن انتشار الوباء الأسود في عصر أبناء السلطان الناصر محمد جاء ليزيد أحوال البلاد سوءاً فوق سوء .

---

(١) المقريزي : السلوك ج ٢ ص ٧٧٠ — ٧٨٥ .

عصر أحفاد الناصر محمد (١٣٦١ — ١٣٨٢) :

لم يكد الأمير يلبغا يعزل السلطان الناصر حسن ابن الناصر محمد ويقتله حتى اختار صلاح الدين محمد ابن المظفر حاجى ابن الناصر محمد سلطانا سنة ١٣٦١ . وبذلك بدأ عصر أحفاد الناصر محمد ، وهم أربعة تعاقبوا فى منصب السلطنة بين سنتى ١٣٦١ ، ١٣٨٢ . ولم يختلف عصر أحفاد الناصر عن عصر أولاده فى صفاته العامة التى يمكن تلخيصها فيما يلى :—

١ — صغر سن السلاطين الذين تعاقبوا على دست السلطنة ، وهى الحقيقة التى تتضح إذا عرفنا أن السلطان المنصور صلاح الدين محمد (١٣٦١ — ١٣٦٣) تولى السلطنة وسنه ١٤ سنة ، والسلطان الأشرف زين الدين أبو المعالى شعبان (١٣٦٣ — ١٣٧٦) تولى السلطنة وسنه عشر سنوات والسلطان المنصور علاء الدين على (١٣٧٦ — ١٣٨١) تولى السلطنة وسنه ست سنوات والسلطان الصالح زين الدين أمير حاج (١٣٨١ — ١٣٨٢) تولى السلطنة وسنه إحدى عشر سنة .

٢ — كانت النتيجة الطبيعية لصغر سن السلاطين هى ازدياد نفوذ كبار الأمراء واشتداد سطوتهم ، وتحكمهم فى مصالح البلاد والعباد ، وتلاعبهم بالسلاطين الصغار — إما بالعزل أو بالتعيين — وفق أهوائهم .

٣ — اشتد الصراع بين كبار الأمراء بعضهم وبعض وازداد التنافر والعداء بين طوائف المماليك الذين انقسموا شيعا وأحزابا يتقاتلون فى شوارع القاهرة بين حين وآخر . مما أغرق البلاد فى حالة شديدة من الفوضى .

٤ — ازداد نفوذ طائفة المماليك البرجية ، أو الجراكسة ازديادا مضطردا وهو الأمر الذى سنتعرض له بالتفصيل فيما بعد . وتكفى الإشارة الآن إلى أن طائفة البرجية هى التى استطاعت أن تكسب الجولة النهائية فى الصراع الذى

احتدم بين طوائف المماليك ، حتى تم لها انتزاع السلطنة سنة ١٣٨٢ وتأسيس دولة المماليك البرجية أو الجراكسة وبذلك انتهت دولة المماليك البحرية وانتهت أسرة قلاون .

٥ — اشتد الانحلال الخلقي في ذلك العصر - عصر أحفاد الناصر محمد - بشكل واضح ، وكان السلاطين وكبار الأمراء هم مصدر البلاء فاشتهر سلاطين ذلك العصر بالإدمان في شرب الخمر ، حتى قيل عن السلطان المنصور صلاح الدين محمد (١٣٦١ — ١٣٦٣) إنه كان « لا يفيق من السكر ساعة وعنده جوقة مغنيات نحو عشرة من الجوارى يدقون بالطارات عند الصباح والمساء» كما أنه كان يفسق في حريم الناس ويخل بالصلوات .. »(١) .

حملة بطرس لوزجنان على الاسكندرية سنة ١٣٦٥ :

وإذا كانت البلاد قد ابتليت في عصر أولاد الناصر محمد بانتشار الوباء الأسود — كما سبق أن أشرنا ، فإن عصر أحفاد الناصر محمد ابتليت فيه مصر بحملة صليبية كبرى خربت الإسكندرية سنة ١٣٦٥ ، وتعتبر هذه الحملة من الحلقات الأخيرة في سلسلة الحروب الصليبية .

والواقع إن الحروب الصليبية - كما سبق أن أشرنا - لم تنته بطرد الصليبيين نهائيا من الشام سنة ١٢٩١ ، وإنما استمرت ذيول تلك الحروب أمدا طويلا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر . وفي ذلك الدور الختامي من أدوار الحروب الصليبية ، استمرت دولة المماليك تنهض بدورها كاملا في تلقى الضربات الصليبية من ناحية وفي الدفاع عن الوطن الإسلامي في الشرق الأدنى ضد هجمات الصليبيين من ناحية ثانية ، ثم في الثأر من المعتدين وتأديبهم من ناحية ثالثة .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٧ .

وكان لطرد الصليبيين كلية من الشام رد فعل عنيف فى الغرب الأوربى ، فنادى المتحمسون للحروب الصليبية — وعلى رأسهم البابوية — بأن دولة المماليك هى السبب وأنه لا سبيل لاستعادة بلاد الشام إلا بإضعاف دولة المماليك أولا . ولما كان معروفاً أن دولة المماليك تستمد ثروتها وقوتها من احتكار التجارة بين الشرق والغرب فقد نادى أصحاب المشاريع الصليبية فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر بضرورة فرض حصار اقتصادى شديد على شواطىء مصر والشام لمنع التجار الأوربيين من الوصول بسفنهم إليها والمتاجرة مع دولة المماليك ، فتصاب تجارة المماليك بالكساد والبوار ، وبالتالى يفقدون الأساس الأول لثروتهم وقوتهم (٢) .

وقد أصدرت البابوية عدة مراسيم تحرم على التجار الأوربيين الذهاب بسفنهم إلى شواطىء دولة المماليك والمتاجرة مع المسلمين . ولكن كثيرا من التجار الإيطاليين بصفة خاصة رفضوا تنفيذ الأوامر البابوية حرصا على مصالحهم الاقتصادية ، ومن ثم لم يعد هناك مفر أمام البابوية من إنشاء قوة بوليسية بحرية فى شرق البحر المتوسط تتصيد ذلك النفر من التجار الأوربيين الذين استمروا يغذون دولة المماليك بأموالهم ، ضاربين عرض الحائط بنداءات البابوية وأوامرها (٢).

ولم يكن هناك فى شرق حوض البحر المتوسط أفضل من جزيرة قبرس يتخذها الغرب الأوربى مركزا لمراقبة الشواطىء الإسلامية فى مصر والشام من جهة ، ولضرب المسلمين وشن إغارات على موانيهم من جهة أخرى . والمعروف أن جزيرة قبرس دخلت دائرة الحروب الصليبية فى أواخر القرن الثانى عشر

(١) سعيد عاشور . الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٩٩ ـ ١٢٠٨ .

(2) Heyd ; Hist du Commerce, II, p. 560 & I p. 26 .

عندما استولى عليها ريتشارد قلب الأسد فى الحملة الصليبية الثالثة . ومنذ ذلك الوقت وجزيرة قبرس — تحت حكم ملوكها الصليبيين من آل لوزجنان — تقوم بدور بارز فى النشاط الصليبى فى شرق حوض البحر المتوسط، وهو الدور الذى ازداد قوة وبروزا عقب طرد الصليبيين من الشام فى أواخر القرن الثالث عشر ، إذ غدت قبرس منذئذ أكبر قاعدة صليبية فى شرق البحر المتوسط(١).

ذلك أن ملوك قبرس من آل لوزجنان لم يكتفوا بتقديم المشاريع الصليبية التى استهدفت خنق دولة المماليك، ولم يقنعوا بجعل جزيرتهم مركزاً لتهديد التجارة المماليكية عن طريق إيواء القراصنة الذين دأبوا على مهاجمة السفن والموانى الإسلامية من ناحية ، وفرض رقابة على السفن الأوربية لمنعها من الوصول من موانى مصر والشام من ناحية أخرى .. لم يكتف ملوك قبرس من آل لوزجنان بكل ذلك ، وإنما شرعوا يهاجمون بأنفسهم المسلمين حيثما وجدوهم: فى آسيا الصغرى والشام ومصر ، وبذلك بدأوا صفحة جديدة فى تاريخ الحروب الصليبية أواخر العصور الوسطى(٢) .

ومن أبرز الهجمات الصليبية التى شنها ملوك قبرس على بلاد الإسلام فى القرن الرابع عشر، تلك الحملة الجريئة التى قام بها بطرس الأول لوزجنان ضد مدينة الإسكندرية سنة ١٣٦٥. وقد مهد الملك بطرس لحملته برحلة واسعة زار فيها كثيرا من بلدان الغرب الأوربى فضلا عن البابوية ؛ وحصل على مساعدات وإمدادات بشرية وحربية ومادية كبيرة وأخيرا اجتمعت تلك الحشود فى جزيرة رودس تمهيدا لاختيار أصلح نقطة فى دولة المماليك يمكن أن يوجه إليها الصليبيون ضربتهم . وكان أن أشار أحد الصليبيين على ملك قبرس بأن تتجه الحملة ضد

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٠٥ .

(٢) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٤٦ .

الإسكندرية على أن يهاجمها الصليبيون يوم جمعة والمسلمون فى المساجد [1].

وكان أن وصلت السفن الصليبية إلى الإسكندرية بقيادة بطرس لوزجنان ملك قبرس فى أكتوبر سنة ١٣٦٥ ؛ فى وقت كانت دولة المماليك تعانى خللا واضحا واضطرابا كبيرا نتيجة لقيام سلطان قاصر — هو السلطان الأشرف شعبان حفيد الناصر محمد بن قلاون — ووصى جائر متغطرس عسوف هو الأمير يلبغا الخاصكى [2]. هذا فى حين كان نائب الإسكندرية ، وهو الأمير خليل صلاح الدين بن عرام ، متغيبا فى أداء فريضة الحج . وفى مثل تلك الظروف لم يصعب على الصليبيين إنزال قواتهم إلى الشاطىء ، فاحتلوا الإسكندرية يوم الجمعة ١٠ أكتوبر وانسابت قواتهم فى شوارع المدينة يحرقون المساجد ويخربون الخانات ويدمرون المنازل ويعتدون على كل من صادفهم من النساء والأطفال والشيوخ ، وينهبون كل ما وصلت إليه أيديهم من بضائع وأموال [3] .

وهكذا قضى الصليبيون فى الإسكندرية نحوا من ثلاثة أيام كانت من أسود الأيام فى تاريخ الثغر ، ولم يغادروها إلى سفنهم إلا بعد أن أحسوا بقرب جيوش المماليك التى أسرعت من القاهرة لإنقاذ الإسكندرية . ويقال إن السفن الصليبية حملت معها عند رحيلها خمسة آلاف أسير منهم « المسلم والمسلمة واليهودى واليهودية والنصرانى والنصرانية ... » [4] . هذا فضلا عن المنهوبات والبضائع المسروقة ، حتى ضاقت السفن بما فيها وثقلت بما عليها فاضطر الصليبيون إلى إلقاء بعض حمولتها فى البحر لتخف من كثرة الوسق [5] .

(1) Machaut : La Prise de l' Alexandrie P. 91.

(٢) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٦٢ :

(٣) النويرى السكندرى : الإلمام بالأعلام ج ١ ص ٣٢٦ — ٣٣٥ (مخطوط) ؟

ابن حبيب : درة الأسلاك فى دولة الأتراك ج ٣ ورقة ١٣ وما بعدها .

(٤) المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٤٧ (مخطوط) .

(٥) النويرى : الإلمام ج ١ ص ٣٣٣ (مخطوط) .

وأخيراً وصل يلبغا الخاصكى إلى الإسكندرية فى جند كثيف « كالجراد المنتشر » بعد أن أخلاها الصليبيون ، فشهد ما حل بها من دمار وخراب ، ورأى جثث القتلى وقد انتفخت وجافت ، فأمر بدفن من استشهد من المسلمين وترميم ما خرب وأحرق[١]. وقد عاب المؤرخون المسلمون المعاصرون على ملك قبرس سرعة جلائه وعدم ثباته ودفاعه فوصفوه بأنه « دخلها لصا وخرج منها لصاً »[٢].

ثم إن بطرس لوزجنان لم يكتف بما فعله بالاسكندرية وإنما أغار على طرابلس بالشام سنة ١٣٦٧ ، وإن كانت تلك الإغارة قد منيت بالفشل[٣]. وهكذا تكرر عدوان الصليبيين على موانى مصر والشام وسفن المسلمين فى البحر المتوسط ، مما يدل على ضعف هيبة دولة المماليك فى عصر أحفاد الناصر محمد بن قلاون ، وعدم وجود قوة كبرى فى ذلك الوقت تزود عن البلاد وتثأر للعباد.

---

(١) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٦٩ .

(٢) النويرى : الإلمام جـ ١ ورقة ٥١٦ (مخطوط) .

(٣) المقريزى : السلوك جـ ٤ ورقة ٦٥ (مخطوط) .

الفصل السادس

دولة المماليك الجراكسة

أصل المماليك البرجية وتكوينهم :

إذا أردنا أن نختار صفة بارزة شاملة لعصر سلاطين المماليك ، فلن نجد أبرز من صفة العصبية . فعصر المماليك كان عصر عصبيات ، تقاسمت النفوذ والسلطان فيه عصبيات شتى ، لكل سلطان عصبيته من المماليك السلطانية ولكل أمير عصبيته من المماليك الذين ارتبطوا به ودانوا له بالفضل واعتبروه أستاذهم وولى نعمتهم . وبقدر ماتقوى عصبية السلطان ويزداد عدد مماليكه بقدر مايستطيع الصمود فى وجه منافسات الأمراء ومؤامراتهم وكذلك بقدر ماتقوى عصبية الأمير بقدر مايتمكن من مغالبة زملائه وأقرانه من الأمراء ، بل من مغالبة السلطان نفسه وانتزاع دست السلطنة منه ، كما حدث فى كثير من الحالات .

لذلك لاعجب إذا كثرت أسماء طوائف المماليك وعصبياتهم ، فنسمع عن الصالحية والظاهرية والمنصورية والأشرفية ..ثم تتعدد الأسماء فى كتب التاريخ بتكرر ألقاب السلاطين فنسمع عن الأشرفية خليل والأشرفية برسباى . وهكذا. وإذا كان السلطان شديد البأس كثير المماليك ، فإنه يستطيع أن يكتم أنفاس طوائف المماليك الأخرى المنسوبة إلى السلاطين السابقين أو الأمراء القائمين ، أما إذا كان السلطان ضعيفاً قليل الحيلة ، فمعنى ذلك احتدام المنافسات بين طوائف المماليك بعضهم وبعض من ناحية ، أو بين بعضهم والمماليك السلطانية من ناحية أخرى ، وبذلك تستمر البلاد غارقة فى حالة من الفوضى حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا . ولعل هذا هو السر فى أن كل سلطان بعيد النظر ، وكل

أمير حريص على تحقيق مطامعه كان يدأب دائماً على الإكثار من شراء المماليك الصغار وتربيتهم والحنو عليهم ليصيروا فى المستقبل عدته وأمله فى البقاء والوصول .

ومن أولئك السلاطين الذين قدروا تلك الناحية وحسبوا لها حساباً ، السلطان المنصور قلاون ، الذى سبق أن تكلمنا بالتفصيل عن قوة شخصيته وطموحه قبل أن يلى السلطنة وبعد أن وليها ، كما شرحنا أعماله الحربية الضخمة ضد التتار والصليبيين وفى النوبة . ويهمنا الآن أن نشير إلى أن السلطان المنصور قلاون أراد أن يكون طائفة جديدة من المماليك ، تختصه بولائها وترتبط به دون غيره من الأمراء المنافسين ؛ وتختلف فى أصولها عن الطوائف المماليكية الأخرى القائمـــة . وكان أن اختار قلاون أن ينشأ فرقته الجديدة من عنصر الجركس — الذين كانوا ينتشرون شمالى بحر قزوين وشرق البحر الأسود — حتى لا تربطهم روابط القربى والعصبية بغيرهم من طوائف المماليك السابقة ، والذين كان معظمهم من الخوارزميـــة والأتراك (١) .

ولا ندرى بالضبط الدوافع التى دفعت السلطان المنصور قلاون إلى اختيار مماليك فرقته الجديدة من الجركس بالذات ؛ فهل يرجع ذلك إلى توافرهم فى أسواق الرقيق بعد أن شردهم المغول من بلادهم ، أم أن السبب هو ما اشتهروا به من شجاعة وقوة جعلت السلطان قلاون يتوسم فيهم الأداة الصالحة لتحقيق أغراضه ؟ وسواء كان السبب الذى دفع قلاون إلى اختيار مماليكه الجدد من عنصر الجركس هو هذا أو ذاك من الأسباب ، فإن ثمة حقيقة هامة يجب ألا نسقطها من اعتبارنا هى أن الرقيق الجركس كانوا عندئذ — بسبب كثرتهم وتحكم قانون العرض والطلب — أرخص سعرا من عناصر الرقيق الأبيض الأخرى ،

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ١ ورقة ٢٤٧ .

حتى قرر بعض الباحثين أن متوسط ثمن الرأس من الجراكسة بلغ وقتذاك ١١٥ ديناراً فى حين أن متوسط ثمن الرأس من عنصر الترك بلغ ١٣٥ ديناراً (١).

ومهما يكن من أمر، فإن السلطان المنصور قلاون بدأ فى تنفيذ مشروعه حوالى سنة ١٢٨١، فأخذ يشترى أعداداً كبيرة من الجركس ليكونوا مثل «الحصون المانعة لى ولأولادى وللمسلمين» (٢)، وأسكنهم بجواره فى أبراج القلعة، ومن ثم لصقت بهذه الطائفة فى التاريخ تسمية «المماليك البرجية» (٣).

ولم يلبث أن أكثر قلاون من شراء الجراكسة حتى بلغوا فى أواخر عهده أكثر من ثلاثة آلاف مملوك (٤)، حرص على الفصل بينهم وبين غيرهم من طوائف المماليك الأتراك، وأشرف بنفسه على تدريبهم على استخدام الرماح ورمى النشاب، كما حباهم بعطفه ولم يضن عليهم بالمال الوفير والطعام الشهى والملبوس الجميل، فضلاً عن أنه — هو وأبناؤه من بعده — اختصهم بالترقية إلى بعض الوظائف الكبرى فى البلاط (٥).

وإذا كان السلطان المنصور قلاون قد أعلنها فى صراحة أنه كون فرقة المماليك البرجية لتكون حصناً مانعاً له ولأولاده، فإنه كان طبيعياً أن يهتم أولاد السلطان المنصور بتلك الطائفة التى أنشأها أبوهم لتكون حصناً لهم. وساعد على ذلك أن المنصور قلاون لم ينجح فقط فى تأسيس فرقة جديدة من المماليك، وإنما نجح أيضاً فى تأسيس بيت استمر يتوارث السلطنة نحو قرن من الزمان، وهو أمر فريد فى تاريخ المماليك. ولو كان الملك انقرض فى ذرية المنصور قلاون لضعف

(1) Heyd : Hist. du Commerce, 2, p. 559.

(٢) المقريزى : المواعظ والاعتبار ج٢ ص ٢١٣ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٥٦ .

(٤) المقريزى : المواعظ والاعتبار، ج ٢ ص ٢١٤ .

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور ج ١ ص ١٢٠ ؟

المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢١٤ .

شأن المماليك البرجية ، ولسمعنا فى التاريخ أن الأمير الذى اعتلى دست السلطنة بعد المنصور قلاون أهمل طائفة البرجية وكون لنفسه فرقة جديدة ولكن الذى حدث هو أن المنصور قلاون توفى ليخلفه ابنه الأشرف خليل فأتم بناء القوة التى أقامها أبوه المنصور — قوة المماليك البرجية — حتى أنه اشترى فى حكمه القصير (١٢٨٩ — ١٢٩٣) مايقرب من ألفى مملوك جركسى . وهكذا أضحى المماليك البرجية أو الجراكسة على درجة من وفرة العدد وحسن التدريب وشدة التماسك ، مما جعلهم يشقون طريقهم فى غير صعوبة كبيرة نحو السلطان .

ظهور المماليك البرجية على مسرح الحوادث :

والواقع إنه كان من المتعذر الاحتفاظ بالمماليك البرجية — بعد أن تكاثرت أعدادهم — بعيدين عن الحياة العامة . ونسمع أن السلطان خليل بن قلاون سمح لهم — لأول مرة — بمغادرة أبراجهم وطباقهم بالقلعة والنزول إلى القاهرة ومصر بشرط أن يتم ذلك أثناء النهار وأن يعودوا قبل الليل ليبيتوا فى القلعة(١) وقد ترتبت على ذلك نتيجتان هامتان : الأولى انغماس المماليك البرجية فى الحياة العامة ومشاكلها بعد أن خرجوا من عزلتهم واختلطوا بغيرهم من طوائف المماليك فضلا عن عامة الناس . والثانية أن المماليك البرجية أو الجراكسة لم يلبثوا أن استثاروا حقد بقية طوائف المماليك الأتراك ، بسبب ماغدا فيه المماليك البرجية من نعمة وما حظوا به عند السلطان قلاون وابنه خليل من مكانة .

وكيفما كان الأمر ، فإن هذين العاملين ترتب عليهما دخول المماليك البرجية دائرة الصراع والمنازعات التى كانت لاتهدأ لها ثائرة فى ذلك العصر . وأول ما نسمعه عن المماليك البرجية فى ذلك الشأن ، غضبهم لمقتل أستاذهم وابن أستاذهم

(١) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٢١٣ .

الأشرف خليل، فثاروا بالقلعة عندما سمعوا الخبر ولم تهدأ ثائرتهم إلا عندما انتقموا لمقتل خليل بقتل بيدرا وغيره من زعماء المؤامرة، ثم بإعلان الناصر محمد بن قلاون سلطانا سنة ١٢٩٣ رغم صغر سنه(١) .

ولم يكن فى استطاعة الناصر محمد فى سلطنته الأولى أن يصمد فى وجه كبار الأمراء، فغدت البلاد مسرحا لنزاع عميق بين الأميرين كتبغا وسنجر الشجاعى، وهو نزاع هدفه الحقيقى رغبة كل أمير فى الاستئثار بالسلطنة وعزل الناصر محمد . وفى ذلك النزاع ظهرت الطائفية المماليكية على أشدها ، فاستعان كتبغا بالمماليك الأتراك واستعان سنجر الشجاعى بالمماليك البرجية أو الجراكسة، الذين أطلق عليهم أحيانا فى بعض المراجع اسم الأشرفية نسبة إلى الأشرف خليل(٢) .

وقد سبق أن ذكرنا كيف حاصر كتبغا القلعة وقطع عنها الماء ، وعندئذ نزل البرجية من القلعة وأنزلوا الهزيمة بالأمير كتبغا وأعوانه من الأتراك الذين فروا من وجوههم ؛ وبذلك حقق البرجية نصراً جديداً أضفى عليهم أهمية خاصة ومهد لازدياد تدخلهم فى مشاكل السياسة الداخلية فى ذلك العصر(٣) .

على أن أمراء البرجية لم يلبثوا أن اكتشفوا نوايا سنجر الشجاعى ، وأنه لا يعمل من أجل ابن أستاذهم وإنما يعمل من أجل نفسه ، فانفضوا عنه ، الأمر الذى أدى إلى رجحان كفة كتبغا مرة أخرى ومقتل الأمير سنجر الشجاعى . ويبدو أن كتبغا أحس عندئذ بخطر البرجية بعد أن أخذ درسا على أيديهم، فعمل على تشتيت شملهم وتفريق صفهم ، وأنزل جماعات منهم من أبراج القلعة ووزعهم

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ١٩ — ٢٠ .
(٢) الكتبى : عيون التواريخ ج ٥ ورقة ٩٩ — ١٠١ .
(٣) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٨ ص ١٨١ ؛
المقريزى : السلوك ج ١ ص ٨٠٠ .

فى نواحى متباعدة من القاهرة ، ولم يترك فى القلعة إلا نحواً من أربعة آلاف منهم فرض عليهم رقابة شديدة[١] . ولعل هذه الإجراءات التى اتخذها كتبغا ضد البرجية كان لها أثرها فى إثارة أمراء البرجية ضد كتبغا والمماليك الترك جميعاً .

وهكذا تكررت ثورات المماليك البرجية المشردين فى القاهرة ، واتخذت هذه الثورات صورة عدائية صريحة ضد الترك وكتبغا . ومن الواضح أن المعركة بالنسبة للبرجية كانت من أجل البقاء . إذ رأوا فى إنزالهم من القلعة وتفريقهم بين أنحاء القاهرة تفتيتاً لعصبيتهم وإضعافاً لقوتهم . وعبثاً حاول البرجية أن يتمسحوا بالسلطان الناصر محمد بن قلاون ، إذ كان الناصر محمد فى سلطنته الأولى طفلا صغيراً لم يتجاوز العاشرة من عمره ، وكان كتبغا – كما سبق أن فصلنا – هو كل شىء فى الدولة . ولم يلبث أن اغتصب كتبغا السلطنة لنفسه (١٢٩٤-١٢٩٦) ثم أعقبه السلطان لاجين (١٢٩٦ - ١٢٩٨) ، وفى عهد هذين السلطانين المغتصبين اشتد الصراع بين البرجية من ناحية والترك من ناحية أخرى . ويبدو أن كلا من كتبغا ولاجين اعتمد على المماليك الأتراك فى مقاومة نفوذ البرجية ولذلك دأب هؤلاء الأخيرون على مقاومة الترك فى شخص كتبغا ولاجين[٢] .

وأخيراً استطاع الأمير سيف الدين كرجى أن يدبر مؤامرة لقتل السلطان لاجين ، ونجحت المؤامرة سنة ١٢٩٨[٣] ، ويبدو أن البرجية كانوا لايزالوا عندئذ على ولائهم الشديد لبيت قلاون ، أو ربما أحس البرجية عندئذ أن الأمور لم تهيأ بعد لاستئثارهم بالحكم ، فاختاروا أن يعيدوا ابن أستاذهم السلطان الناصر إلى السلطنة وتم ذلك سنة ١٢٩٨ - ١٢٩٩ . وعندما عارض بعض أمراء البرجية – مثل

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٣٢ .
(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٨٠٥ ، ٨٢٢ .
(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٣٧ — ١٣٨ .

كرجى وطغجى - إعادة الناصر محمد ، عارضهما جمهرة البرجية وعلى رأسهم بيبرس الجاشنكير الذى أخذ نفوذه يزداد بين صفوف البرجية من ناحية ، وفى سلطنة الناصر محمد الثانية من ناحية أخرى(١).

وهنا نلاحظ أن ثمة عوامل عديدة ساعدت على ازدياد نفوذ المماليك البرجية فى تلك الفترة . فبالإضافة إلى الدور النشيط الذى قاموا به فى السياسة الداخلية وظهورهم أمام الناس فى صورة حماة عرش بيت قلاون والناصر محمد بوجه خاص فى وقت اشتد تعلق الشعب بحكم الناصر محمد ، كما سبق أن رأينا ، فإن البرجية أظهروا شجاعة كبيرة فى ذلك الدور فى دفع خطر التتار عن بلاد الشام . الأمر الذى جعل المؤرخ أبا المحاسن يشيد ببطولتهم فى واقعة شقحب - قرب دمشق - سنة ١٣٠٢ ، فيقول « وصرخ (سلار) فى بيبرس الجاشنكير وفى البرجية فأتوه دفعة واحدة . . وأبلى سلار فى ذلك اليوم هو وبيبرس الجاشنكير بلاء حسناً وسلموا أنفسهم للموت . . وكانت لسلار والجاشنكير فى ذلك اليوم اليد البيضاء على المسلمين(٢)» فإذا أضفنا إلى ذلك أن كثيرا من المماليك الجراكسة كانوا قد أصبحوا أمراء فى ذلك الوقت - أى فى أوائل القرن الرابع عشر - أدركنا فى النهاية سر ما صار لهم من نفوذ ، ذلك أن أية فرقة من فرق المماليك كانت تتألف فى أول أمرها من رقيق أجلاب صغار ، يتعهدهم أستاذهم - سلطاناً كان أو أميراً - بالرعاية والعناية كما تتعهد الدجاجة أفراخها الصغار ، وفى ذلك الدور الأول من تكوين الطائفة أو الفرقة المماليكية لا تكون لهم قوة أو عصبية وإنما يعتمدون بحكم طبيعة دور النشأة الذين يمرون به على أستاذهم فى حمايتهم ، وهكذا حتى يترعرعون ويتحرر الكبار منهم تدريجياً ليؤمروا أى يصبحوا أمراء ، وعندئذ تصبح

---

(١) المقريزى : السلوك ؛ جـ ١ ص ٨٩٦

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٦٠ — ١٦١ .

لهم قيادة ذاتية تنبع من صفوفهم وتوجههم لتحقيق مصالحهم الخاصة وكانت طائفة البرجية أو الجراكسة عندما أسسها السلطان المنصور قلاون ، تتألف من مماليك صغار لاحول لهم ولا قوة ، ولكن مع مضى السنين والأيام نما هؤلاء الصغار وصار منهم الأمراء الكبار . وهكذا نسمع أن السلطان الناصر محمد عين فى سلطنته الثانية أحد أمراء البرجية - وهو الأمير عز الدين أيبك المنصورى - فى الوزارة(١) . أما المقريزى ، فيقول فى حوادث سنة ٦٩٨ هـ - أى فى سلطنة الناصر محمد الثانية - ما نصه « وقويت شوكة البرجية بدار مصر ، وصارت لهم الحمايات الكبيرة ، وتردد الناس اليهم فى الأشغال ؛ وقام بأمرهم الأمير بيبرس الجاشنكير وأمر منهم عدة... وصار فى قبالته الأمير سيف الدين سلار ومعه الصالحية والمنصورية (من الترك) ؛ إلا أن البرجية أكثر وأقوى... ووقع الحسد بين الطائفتين وصار بيبرس إذا أمر أحدا من البرجية وقفت أصحاب سلار وطلبت منه أن يؤمر منهم واحدا ... »(٢).

على أن طبيعة البشر كثيرا ما تجعل أخلاقه ومبادئه تتغير بازدياد نصيبه من الدنيا . وهكذا كان البرجية قد أحسوا فى دورهم الأول بأنهم أتباع بيت قلاون وأن واجبهم الأول هو حماية مصالح ذلك البيت ، إلا أن هذه النظرة المثالية أخذت تتبدل عندما أحس البرجية بأنهم هم الذين يحمون عرش بيت قلاون وليس عرش بيت قلاون هو الذى يحميهم . وبعبارة أخرى فإن أمراء البرجية أخذوا يعملون لحسابهم الخاص ويفكرون فى مصالحهم قبل مصالح السلطان الناصر محمد بن قلاون . وما دامت السلطنة غدت ضعيفة ومطمعا لكثير من أمراء الترك ، فلماذا لا يشارك البرجية فى تلك المطامع بعد أن غدا منهم الأمراء الكبار وبعد أن أحس الناس جميعاً بشجاعتهم وبسالتهم .

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٤٠ .

(٢) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٨٧٥ — ٨٧٦ .

أما السلطان فقد أحس فى سلطنته الثانية بتضييق زعماء الترك والجراكسة عليه . فأراد سنة ١٣٠٧ أن يعتمد على محبة الشعب له ويتخلص من سلار زعيم الترك وبيبرس الجاشنكير زعيم البرجية جميعاً . وربما دفع هذا الخطر المشترك الأميرين سلار وبيبرس الجاشنكير إلى العمل معاً مما جعل مؤامرة الناصر محمد تنتهى بالفشل(١) . وعندما يئس الناصر محمد من التخلص من سيطرة الأميرين سلار وبيبرس الجاشنكير وتضييقهما عليه لجأ إلى التنازل عن السلطنة ، وآثر البقاء فى الكرك ، كما سبق أن شرحنا .

وكان أن أدى تنازل الناصر محمد عن السلطنة سنة ١٣٠٨ إلى فتح الباب على مصراعيه أمام البرجية ، فاعتلى كبيرهم بيبرس الجاشنكير دست السلطنة فى تلك السنة ، وبذلك كان أول واحد من البرجية يلى هذا المنصب . على أن وصول أحد أمراء البرجية إلى العرش ، أثار أحقاد الترك الذين توجسوا خيفة من بطش الجراكسة ، فرفض كثير من نواب وأمراء الشام الاعتراف بالسلطان الجديد ، حتى قال بعضهم « إن هؤلاء الجراكسة متى تمكنوا منا أهلكونا وراحت أرواحنا معهم ، فقوموا بنا نعمل شيئاً قبل أن يعملوا بنا »(٢) . لذلك لم يوفق بيبرس الجاشنكير فى سلطنته نتيجة لمعارضة الترك له من ناحية وتآمر الناصر محمد ضده فى الكرك من ناحية ثانية ، ثم كراهية الناس لبيبرس الجاشنكير لا سيما وأن سنة اعتلائه دست السلطنة جاءت مصحوبة بانتشار الوباء وغلاء الأسعار « فتشاور الناس بسلطنة المظفر بيبرس »(٣) . وهكذا لم تطل سلطنة بيبرس الجاشنكير وتم للناصر محمد استرداد عرشه للمرة الثالثة سنة ١٣٠٩ ، كما سبق أن فصلنا .

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٣٥ — ٣٦ .

(٢) أبو المحاسن : المنهل الصافى جـ ١ ورقة ٣٥٩ (مخطوط) .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٤٣ .

وقد اعتلى الناصر محمد العرش فى تلك المرة بعد أن بلغ من العمر مامكنه من الوقوف على قدميه فى وجه كبار أمراء الترك والجراكسة جميعاً ، فقبض على بيبرس الجاشنكير وقتله ، واتبع سياسة صارمة تجاه الجراكسة جعلته يحرص على تقليم أظافرهم وعدم الإكثار منهم بالشراء . ولم تنجح مؤامرة الجراكسة للتخلص من الناصر محمد سنة ١٤٠٩ ، إذ قضى السلطان على المؤامرة قبل أن تولد ونكل بزعمائها من البرجية تنكيلا شديداً . ومن ذلك مايرويه المقريزى فى حوادث سنة ٧١٥ هـ من أن السلطان الناصر محمد « ارتجع ماكانت البرجية قد اشترته من أراضى الجيزة وغيرها »(١) . أما العينى فيحكى أن السلطان الناصر محمد لجأ سنة ٧٢٢ هـ (١٣٢١ م) إلى تغريق من خشى خطره من البرجية فى النيل(٢) !

ازدياد نفوذ الجراكسة:

ولكن إذا كان السلطان الناصر محمد قد استطاع فى سلطنته الثالثة أن يقبض بيد من حديد على شئون الحكم وأن يقلم أظفار الجراكسة ويقف بالمرصاد لمطامعهم ، فإن خلفاء الناصر محمد ـ من أولاد وأحفاد ـ لم تكن لهم تلك القوة والعزيمة وقد رأينا أن معظم من ولى السلطنة من أبناء الناصر محمد وأحفاده كانوا أحداثا وأطفالا ، الأمر الذى جعلهم أداة سهلة فى أيدى كبار الأمراء ، يلهون بهم وفقما شاءوا ويعزلونهم بنفس السهولة التى كانوا يولونهم بها . وهكذا أتيحت الفرصة للبرجية من جديد ، فظهروا على مسرح الحوادث ، وفى تلك المرة تكتلوا وازداد تعصبهم لجنسهم الجركسى ، بعد أن تعرضوا لأخطار المقاومة والكبت والتشريد فى عهد الناصر محمد .

---

(١) المقريزى : السلوك ، ج ٢ ص ١٥٦ .

(٢) العينى : عقد الجمان ج ٢٢ ورقة ٣٤٠ (مخطوط) .

وكان أن رفع الجراكسة رؤوسهم فى عهد السلطان شعبان بن الناصر محمد فثاروا سنة ١٣٤٥ بزعامة الأمير غرلو الجركسى شاد الدواوين، فى عزل السلطان شعبان وتولية أخيه المظفر حاجى سنة ١٣٤٦[١] . وقد أدى نجاح تلك الثورة إلى ازدياد نفوذ الجراكسة فى الدولة ، الأمر الذى أثار حقد الترك ، فأوقعوا بهم عند السلطان وقتلوا الأمير غرلو الجركسى ليحلوا محله الأمير أرقطاى التركى فى نيابة السلطنة[٢] . ولم يلبث أن أدى ذلك الانقلاب إلى زيادة نفوذ المماليك الترك . فحاول السلطان المظفر حاجى أن يستعين بالجراكسة مرة أخرى للحد من سطوة المماليك الترك ، ولكن محاولته جاءت بعد فوات الأوان إذ قبض عليه الترك وقتلوه سنة ١٣٤٧ وولوا بدله أخاه السلطان الناصر حسن .

وهكذا ساءت أحوال المماليك الجراكسة فى تلك الفترة نتيجة لرجحان كفة الترك وسيطرتهم على شئون الدولة ، بحيث لم يبق هناك أمل أمام الجراكسة إلا فى اختلاف أمراء الترك على أنفسهم . ومن أبرز أمراء المماليك الترك فى ذلك الدور الأمير يلبغا الخاصكى ، الذى زاد عدد مماليكه عن اربعة آلاف حتى غدا على جانب من القوة مكنته من قتل السلطان الناصر حسن سنة ١٣٦١ وتعيين ابن أخيه المنصور محمد سلطانا ، مما أدى إلى انتقال السلطنة من أولاد الناصر محمد إلى أحفاده[٣] . غير أن السلطان المنصور محمد لم يستمر طويلا فى الحكم ، إذ عزله يلبغا لسوء خلقه - كما سبق أن شرحنا - وعين بدله الأشرف شعبان سنة ١٣٦٣ ، وسنه عندئذ عشر سنوات .

---

(١) المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢٤٠ .

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٣٦٥ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٤ ص ٢٧٨ .

وهكذا صار يلبغا هو الحاكم الفعلى لدولة المماليك وبيده الأمر والنهى ، فى الوقت الذى ازداد عدد مماليكه وسيطروا على عدد كبير من الوظائف الكبرى . ولم يلبث طموح المماليك اليلبغاوية أن أدى إلى انقسامهم على أنفسهم مما أتاح فرصة للسلطان شعبان للتخلص من استبداد يلبغا الذى انتهى الأمر بقتله سنة ١٣٦٧ (١) . وقد أعقب مقتل يلبغا تشتيت المماليك اليلبغاوية فى أنحاء الدولة والتنكيل بهم . وهنا نلاحظ أن المماليك اليلبغاوية لم يكونوا من جنس واحد ، ولم يكونوا جميعا أتراك ، وإنما كان منهم الجركس ؛ لأن يلبغا عندما أخذ يدعم قوته ويتوسع فى شراء المماليك لم يراع الجانب العنصرى ، فجاء فى صفوف مماليكه الترك والجركس وغير ذلك من الجنسيات . وقد استاء المماليك اليلبغاوية مما حل بهم من تشريد بعد مقتل أستاذهم يلبغا الخاصكى ، وازداد هذا الاستياء بصفة خاصة بين صفوف الجركس من اليلبغاوية ، وهم الذين أصبح غضبهم مزدوجا لما حل بهم من اضطهاد بوصفهم جراكسة أولا ويلبغاوية ثانيا .

وكيفما كان الأمر ؛ فإن المماليك اليلبغاوية لم يلبثوا أن عبروا عن سخطهم بتدبير مؤامرة لقتل السلطان الأشرف شعبان سنة ١٣٧٦ (٢) . ومن وراء هذه المؤامرة كان الأمير برقوق ، أحد كبار الأمراء اليلبغاوية ، وأصله من الجركس .

برقوق وتأسيس دولة المماليك الجراكسة :

تزعم الأمير برقوق المؤامرة التى عصفت بالسلطان الأشرف شعبان ، ومن ثم يرجع إليه الفضل فى إمداد اليلبغاوية بفرصة جديدة للسيطرة على مقاليد الحكم فى دولة المماليك . هذا إلى أن برقوق لم يمهد لليلبغاوية فحسب ، بل مهد أيضا

---

(١) أبو المحاسن : ج ١١ ص ٣٩ — ٤٠ .

(٢) العينى : عقد الجمان ج ٢٤ ورقة ٢٠٦ ؟

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٧٦ .

لوصول الجركس إلى منصب السلطنة ، لأن برقوق نفسه كان جركسيا ، وهو أول من اعتلى دست السلطنة من الجراكسة، الأمر الذى جعله المؤسس الحقيقى لدولة المماليك الجراكسة فى التاريخ .

وتروى المراجع أن برقوق جركسى الجنس وأنه أحضر إلى مصر صحبة بعض تجار الرقيق ، فاشتراه الأمير يلبغا الخاصكى حوالى سنة ١٣٦٣، وأعتقه وجعله من جملة مماليكه[1]. ثم يروى أبو المحاسن أن برقوق استمر فى خدمة يلبغا حتى ثار بعض المماليك اليلبغاوية على أستاذهم ، وعندئذ لا يدرى أبو المحاسن هل كان برقوق ممن هو مع أستاذه يلبغا أم كان عليه ؟ . ومهما يكن من أمر فإن برقوق تعرض بعد مقتل يلبغا لما تعرض له جمهرة المماليك اليلبغاوية من اضطهاد وحبس بالكرك سنة ١٣٦٨ . وعند الإفراج عن برقوق سنة ١٣٧١ لم يسمح له بالعودة إلى مصر إلا سنة ١٣٧٣؛ وعندئذ أخذ يتحين الفرص لتحقيق أطماعه العريضة [2] . وعلى الرغم من أن برقوق كان عندئذ أمير عشرة فحسب — أى أميرا صغيرا — ؛ فإنه أسهم بسهم وافر فى المؤامرة التى انتهت بقتل الأشرف شعبان وإعلان المنصور على سلطانا سنة ١٣٧٦ [3] .

وقد أدرك برقوق أن انتصار اليلبغاوية ونجاحهم فى التخلص من السلطان الأشرف ومماليكه سيؤدى إلى صدام بين الأمراء اليلبغاوية بعضهم وبعض ، لاسيما وأن السلطان المنصور على كان فى السادسة من عمره، مما أغرى كبار الأمراء اليلبغاوية على التنافس حول الاستئثار بالسلطة . وهنا رسم برقوق لنفسه خطة ماكرة ، فانتقل إلى خدمة الأمير أينبك البدرى ، حتى يبدو بعيداً عن حلقة الصراع ؛ وفى الوقت نفسه عول على ضرب كبار الأمراء بعضهم ببعض حتى

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٢٣ .
(٢) المقريزى: المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢٤١.
(٣) العينى : عقد الجمان ج ٢٤ ورقة ٢٠٦ وما بعدها (مخطوط) .

يصفو له الجو وكان أخطر منافس للأمير أينبك البدرى هو الأمير قرطاى الطازى ، فاصطدم الأميران وتمكن أينبك من القبض على قرطاى ونفيه إلى غزه سنة ١٣٧٧ (١) . وظن أينبك بعد تلك الخطوة أن الأمور غدت ممهدة له للوصول إلى دست السلطنة ، فأخذ يرقى مماليكه وأتباعه ليخلق عصبية قوية ، ومن هؤلاء كان الأمير برقوق الذى رقى « دفعة واحدة » من أمير عشرة إلى أمير طبلخاناه (٢) .

غير أن مطامع الأمير أينبك البدرى فى اغتصاب السلطنة أثارت مخاوف الأمراء اليلبغاوية فى الشام ، فأعلنوا الثورة على أينبك سنة ١٣٧٧ بزعامة الأمير طشتمر الدوادار نائب دمشق وعندما سمع أينبك بنبأ تلك الثورة استشار الأمير برقوق فيما يجب عمله ، فأشار عليه برقوق بالخروج فوراً على رأس حملة إلى الشام لإخماد الفتنة . ومن الواضح أن برقوق وجد فى تلك الحملة فرصة نادرة للتخلص من أينبك ، فرسم خطوط المؤامرة مع بعض الأمراء الذين قرر أينبك استصحابهم معه فى حملته على الشام ، ومنهم يلبغا الناصرى وبركة الجوبانى (٣) . وكان أن خرجت الحملة إلى الشام وصحبتها السلطان المنصور على الصغير ، وعندئذ بدأت أولى حلقات المؤامرة فثار الجند على أينبك سنة ١٣٧٧ ولجأ أينبك إلى الفرار فى حين عاد الأمراء والسلطان الصغير بالعسكر إلى القاهرة ليترقى برقوق ويصبح أمير مائة مقدم ألف ، وهى أسمى درجات الإمارة فى نظام المماليك (٤) .

ومرة أخرى وجد برقوق نفسه أمام منافسين جدد ، هما يلبغا الناصرى وبركة الجوبانى ، فلجأ برقوق إلى التظاهر ليستعين به فى تحقيق مآربه ثم

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٣ ورقة ٣٠٧ (مخطوط)

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١١ ص ٢٢٣ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ٣ ورقة ٣٠٩ — ٣١٢

(٤) أبو المحاسن : النجوم ج ١١ ص ٢٢٣ .

يتخلص منه فى نهاية الأمر . وعندما تخوف بعض الأمراء الترك من نوايا برقوق وأشفقوا على مصير بيت قلاون ونادوا بتولية السلطنة أحد الراشدين من ذلك البيت ، تحايل برقوق لإحباط تلك الدعوة بتولية الأمير طشتمر الدوادار أتابكية مصر (١) . ومن يدرى ، فربما كان فى حضور الأمير طشتمر إلى مصر فرصة طيبة للتخلص منه ، فضلا عما فى اختيار طشتمر لذلك المنصب الكبير فى القاهرة من إرضاء للترك ؛ غير أن بركة وبرقوق لم يتركا طشتمر يحقق ما كان يطمع فيه الأتراك من سطوة ونفوذ ، وإنما ضيقا عليه الخناق حتى وقع صدام بين الطرفين سنة ١٣٧٧ انتهى بالقبض على طشتمر وحبسه بالإسكندرية ونفى عدد كبير من أتباعه (٢) .

وهكذا خطا برقوق خطوة جديدة نحو الأمام فتولى منصب أتابك العساكر فى مصر وأصبح زميله بركة رأس نوبة كبيرا أطابكا (٣) . أما يلبغا الناصرى فقد قبض عليه حينا ثم أرسل إلى نيابة طرابلس . ويصور أبو المحاسن الموقف فى ذلك الدور فيقول ما نصه « والمعول على الاثنين : برقوق وبركة ، حتى لهجت الناس بقولهم : برقوق وبركة نصبا على الدنيا شبكة ! » (٤) .

غير أن برقوق تعرض لثورة كادت تفسد عليه خط سيره ؛ إذ ثار أحد الأمراء الجراكسة — هو إينال اليوسفى — سنة ١٣٧٩ ضد برقوق وبركة جميعا . وتفصيل ذلك أن إينال كان يضمر كرها شديداً لبركة ، وحاول بشتى الطرق أن يؤلب برقوق ضد بركة ، ولكن برقوق كان شديد الحرص على

---

(١) السخاوى : الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع ج ٣ ص ١١ .
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ١٦٢ — ١٦٣ .
(٣) الأطابك هو أبو الأمراء ، وهو لقب شرف .
القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨ .
(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ١٦٣ .

ألا يتعجل الأمور، فرفض الاستماع لتأليب إينال وأخيراً أحنق إينال على بركة وبرقوق جميعاً فانتهز فرصة غيابهما عن القاهرة، وهاجم بيت برقوق ونهب ما فيه كما خدع صغار مماليك برقوق بأن مناهم بالأماني المعسولة ليعاونوه في خطته(١). ولكن برقوق عاد مسرعاً وتمكن من إخماد الثورة، ويقال إن مماليك برقوق ما كادوا يرونه حتى سرت مهابته في نفوسهم فخروا له طائعين، وتحولوا ضد إينال الذي ولى الأدبار. ولكن برقوق استطاع القبض على إينال وسجنه(٢).

وكان لا بد أن تصل العلاقة بين برقوق وبركة إلى درجة تجعل الأول يفكر في التخلص من الثاني. وقد فكر برقوق في استثارة الرأي العام ضد بركة، فحرضه على انتزاع بعض أراضي الأوقاف وتوزيعها على أتباعه، الأمر الذي أثار شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني وجماعة العلماء والمسلمين(٣). وفي الوقت الذي ثار الرأي العام ضد بركة، أخذ برقوق يتقرب إلى الناس عن طريق الإفراج عن بعض العامة الذين كان بركة قد حبسهم(٤). وكان برقوق يعرف جيداً أن استبعاد بركة يعني ثورة الترك الذين يتعصبون لزعيمهم، ولذلك استعد برقوق للمعركة القادمة بتقوية جانب الجراكسة وتوحيد صفوفهم وهكذا «صار العسكر فرقتين فرقة جراكسة وهم أصحاب الأمير الكبير برقوق، وفرقة ترك وهم أصحاب الأمير بركة» على قول المقريزي(٥). ولم يكن هناك مناصاً من الصدام بين هاتين الفرقتين، فوقع الصدام سنة ٧٨٢ وانتهى بالقبض على بركة وحبسه بالإسكندرية ومصادرة أمواله، حتى قتل بعد قليل(٦).

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور ج ١ ص ٢٤٢ — ٢٤٣.
(٢) ابن خلدون: العبر، ج ٥ ص ٤٦٨.
(٣) المقريزي: السلوك ج ٣ ورقة ٢٣٦ (مخطوط).
(٤) ابن حجر: أنباء الغمر ج ١ ص ١٠٩ — ١٢٦.
(٥) المقريزي: السلوك، ج ٣ ص ٦١٠ — ٦١١.
(٦) ابن حجر: أنباء الغمر ج ١ ص ٢٣٤؛
ابن إياس بدائع الزهور ج ١ ص ٢٥٢ — ٢٥٣.

ولم تمض على التخلص من بركة بضعة أشهر حتى توفى السلطان المنصور على سنة ١٣٨١ ، ولكن برقوق رأى أن يتريث قليلا ، فأقام فى السلطنة أخاه السلطان الصالح أمير حاج وكان فى الحادية عشرة من عمره(١) . ويبدو أن برقوق رأى أنه ليس من الحكمة أن يتعجل إعلان نفسه سلطانا قبل أن يكسر شوكة المماليك الترك الذين عز عليهم ماحل بزعيمهم بركة . لذلك ظل برقوق « على حاله قبل مسك بركة وقتله وإليه حل المملكة وعقدها ، ولم يجسر على السلطنة »(٢) . وفى الوقت نفسه أخذ برقوق يطارد الترك ويشردهم، « فانقرضت دولة الأتراك بأسرها وتتبعوا بالأخذ فقتلوا ونفوا وسجنوا »(٣) .

وطبيعى أن السلطان الصالح أمير حاج كان لا يستطيع وحده تدبير أمور الدولة وهو طفل صغير فى الحادية عشرة من عمره، لذلك جاء كتاب ولايته السلطنة مقرونا بشرط اشتراك الأمير برقوق معه فى تدبير أمور الدولة . ومعنى ذلك أن برقوق لم يعد مجرد أمير كبير أو موظف من كبار موظفى الدولة فحسب ، بل كانت له صفة عليا سامية فى الوصاية على السلطان وتوجيهه وتوجيه أداة الحكم نيابة عنه . وكان أن استغل برقوق هذه الصفة وتلك السلطات الواسعة التى غدت فى يده ليمكن لنفسه ويملأ الوظائف الكبرى بأتباعه ومماليكه ، هذا إلى أنه أخذ يتحبب إلى عامة الناس ويتقرب إلى قلوبهم عن طريق إلغاء بعض المكوس وتحسين النقد ، الأمر الذى أنعش الحالة الاقتصادية ، وجعل الناس يلهجون بشكره(٤) . أما فى الخارج فقد حدث سنة ١٣٨١ أن أغار التركمان على حلب

(١) ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٤٧٣ — ٤٧٤ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ١٨٨ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ٣ ورقة ٦١٣ .

(٤) العينى : عقد الجمان ج ٢٤ ورقة ٢٦٨ ؟

المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٠٦ ؟

أبو المحاسن : النجوم ج ١١ ص ٢١٠ — ٢١١ .

ولكن برقوق استطاع صدهم وطردهم، الأمر الذى أظهره فى صورة الرجل القادر على الدفاع عن الدولة وحمايتها وتوفير الأمن لأهلها(١).

وفى تلك الأثناء كان المماليك الترك يرقبون ازدياد نفوذ برقوق بعين القلق، ويعلمون أنهم لن يبقى لهم ظل من النفوذ والسلطان إذا نجح برقوق فى اغتصاب السلطنة. وكان أن دبر الترك مؤامرة لاغتيال برقوق، وكانت المؤامرة بزعامة أيتمش الخاصكى وبطا الأشرفى. ولكن عين برقوق اليقظة اكتشفت خيوط المؤامرة قبل حبكها، فبادر برقوق بالقبض على زعماء المؤامرة ونفيهم وجاء فشل هذه المؤامرة إعلاناً لزوال سلطان العنصر التركى وإيذاناً بقيام دولة المماليك الجراكسة(٢).

وكان برقوق يدرك جيداً مدى ما بين أمراء المماليك من منافسات وأحقاد فاحتاط على نفسه، وبالغ فى التخوف، الأمر الذى دفع بعض المقربين إليه إلى أن يقدموا له النصح «بأن يتسلطن ويحتجب عن الناس ويستريح ويريح من هذا الذى هو فيه من الاحتراز من قيامه وقعوده»(٣). ولكن برقوق ظل متخوفاً من الإقدام على تلك الخطوة لأنه خشى وقوف كبار الأمراء فى وجهه «فخاف عاقبة ذلك. واعتذر بأنه يهاب قدماء الأمراء بالديار المصرية والبلاد الشامية». وعندما لمس كبار الأمراء من أعوانه تخوفه، رأوا أن يبدأوا هم الخطوات الكفيلة بإجلاسه على العرش. وساعد الحظ برقوقاً بوفاة اثنين من كبار الأمراء الذين كان يخشى سطوتهم ويحترم سمو مكانتهم وهما الأمير آقتمر عبد الغنى والأمير أيدمر الشمسى. وعندما سمع برقوق بوفاة هذين الأميرين «طابت نفسه» واستجاب لمؤيديه، وإن ظل «يقدم رجلا ويؤخر أخرى»(٤).

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٣ ورقة ٤٠٤ (مخطوط).
(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٥٧.
(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢١٤.
(٤) المرجع السابق ص ٢١٥.

وأخيراً صعد إثنان من أعوان برقوق وأخذا السلطان الصالح أمير حاج من قاعة الملك وحملاه إلى أهله بالدور السلطانية بعد أن جرداه من شارات السلطنة . وفى الحال استحضر الخليفة العباسى المتوكل على الله وشيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقينى وغيرهما من العلماء والأمراء والقضاة فبايعوا برقوق الذى تلقب بالسلطان الظاهر(١) .

وباعتلاء برقوق منصب السلطنة سنة ١٣٨٢ انتهى ملك بيت قلاون ، كما انتهت دولة المماليك الترك ، وبدأت دولة المماليك الجراكسة التى استمرت فى الحكم حتى الفتح العثمانى سنة ١٥١٧ ، وقبل أن نتكلم عن سلطنة برقوق وغيره من مشاهير السلاطين فى تلك الدولة الجديدة ، يصح أن نعرض بإيجاز لخصائصها العامة فى التاريخ .

خصائص دولة المماليك الجراكسة :

امتازت دولة المماليك الثانية أو الجراكسة بأن سلاطينها جميعاً كانوا من أصل جركسى ، ما عدا إثنين هما خشقدم وتمربغا كانا من أصل يونانى .

هذا إلى أن مبدأ الحكم الوراثى الذى حاول بعض سلاطين دولة المماليك الأولى تطبيقه فى عناد وإصرار ، والذى ظهر بوضوح فى بيت قلاون ، هذا المبدأ لا نجد له أثراً فى دولة المماليك الجراكسة . والواقع إن سلاطين دولة المماليك الثانية كانوا زعماء أو أمراء كبار أكثر منهم سلاطين . وكان نجاح السلطان فى الحكم يتوقف على مدى توفيقه فى توجيه كبار الأمراء ، وضرب طوائف المماليك بعضها ببعض . فإذا استطاع السلطان الاحتفاظ بمنصبه حتى الوفاة ، فإن ابنه كان يخلفه عادة ، ولكن لمدة أشهر فقط ذلك أن اختيار ابن السلطان

---

(١) العينى : عقد الجمان ج ٢٤ ورقة ٢٧٩ (مخطوط) .

الراحل لم يتم بناء على إيمان الأمراء بمبدأ الوراثة، وإنما كحل موقت حتى ينجلي الموقف بين كبار الأمراء ويظهر من بينهم أمير قوي يستأثر بالعرش لنفسه.

وكان عمر دولة المماليك الجراكسة مائة وأربع وثلاثين عاما، تعاقب فيها على دست السلطنة خمسة وعشرين سلطانا. ومن هؤلاء السلاطين تسعة حكموا مائة وثلاث سنوات؛ في حين حكم الستة عشر سلطانا الباقون نحواً من تسع سنوات فقط. أما هؤلاء السلاطين التسعة الذين يرتبط بهم تاريخ دولة المماليك الجراكسة فهم: برقوق وفرج وشيخ وبرسباى وجقمق وإينال وخشقدم وقايتباى وقانصوه الغورى. ولا ترجع أهمية أولئك السلاطين إلى قوة بأسهم أو شجاعتهم بقدر ما ترجع إلى ذكائهم ومقدرتهم في الوصول إلى أهدافهم عن طريق ضرب خصومهم وطوائف المماليك بعضها ببعض(١).

وعرف كثير من سلاطين دولة المماليك الجراكسة بحبهم الأدب ومجالس العلم - مثل برقوق وشيخ وجقمق وقايتباى والغورى - كما بالغ بعضهم في العناية بإنشاء المؤسسات الخيرية من مساجد ومدارس ومستشفيات وسبل وغيرها. وربما كان الهدف من المبالغة في إنشاء هذه المؤسسات والإنفاق عليها هو محاولة بعض السلاطين - مثل برقوق وقايتباى - التكفير عن ذنوبهم ومحو أثر ما قاموا به من أعمال وحشية ضد خصومهم ومنافسيهم.

ولا شك في أن البلاد قاست كثيراً في عصر دولة المماليك الجراكسة من جراء المنازعات المستمرة بين طوائف المماليك وفرقهم، وما كان ينجم عن تلك المنازعات من حوادث وقتال في الشوارع، مما أوجد جواً من الرعب والفزع وعدم الاستقرار في البلاد. وزاد من البلاء أن السلاطين عجزوا في ذلك العصر عن كبح جماح مماليكهم، مما جعلهم لا يجدون وسيلة للاحتفاظ بمراكزهم

---

(1) Lane Poole : A Hist. of Egypt, pp, 325—326

سوى ضرب طوائف المماليك بعضها ببعض ، مثلما فعل السلطان خشقدم من ضرب الظاهرية بالأشرفية وضرب الناصرية بالمؤيدية ، وبذلك يخلو الجو للسلطان ومماليكه فيتحكمون فى البلاد والعباد .

على أننا نلاحظ مع كل ذلك ، وعلى الرغم من كثرة الاضطرابات والفتن والثورات ، أن سلاطين دولة المماليك الجراكسة عملوا دائماً على حصر تلك المنازعات فى دائرة داخلية بحتة ، بحيث لم يمكنوا قوة خارجية من التدخل فى شئون البلاد أو الانتقاص من سيادة الدولة . وهكذا استمرت دولة المماليك حتى نهاية القرن الخامس عشر محتفظة بهيبتها ومكانتها فى المحيط الدولى ، بل لقد تمكن المماليك فى ذلك العصر من إنزال ضربة قاصمة بتيمورلنك فى وقت اهتزت جميع الأطراف الغربية من القارة الآسيوية من هول ضرباته . ولا أقل من أن نتناول أعمال أهم السلاطين الجراكسة بدراسة سريعة ، لنقف على حقيقة الخصائص التى اتصفت بها دولة المماليك فى ذلك العصر .

السلطان الظاهر برقوق : (١٣٨٢ - ١٣٩٩)

كان برقوق أول سلاطين دولة المماليك الجراكسة . وكان منتظرا منه أن يبدأ حكمه باضطهاد المماليك الترك ، ولكنه أظهر حكمة كبيرة فحرص على استرضاء الترك فى أول حكمه واختار الأمير سودون الفخرى - وهو من الترك - نائبا للسلطنة فى مصر كما عفا عن يلبغا الناصرى وأقره فى نيابة حلب[1] .

على أن برقوق لم يستمر طويلا فى تلك السياسة ، وإنما أخذ تدريجيا - بعد أن استتبت له الأمور - يختص الجراكسة بالإقطاعات والوظائف الكبيرة على حساب المماليك الترك ، وبخاصة الأشرفية مماليك السلطان شعبان . وقد أدت

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٢٣١ .

هذه السياسة إلى نشوب كثير من الثورات التى اتصف بها عهد برقوق ، منها ثورة ألطنبغا السلطانى نائب أبلستين سنة ١٣٨٢ ، وهو أمير تركى قال « لا أكون فى دولة حاكمها جركسى » مما يشهد على مدى العداوة بين الترك والجراكسة فى ذلك الدور(١) . ولكن تلك الثورة باءت بالفشل وفرار ألطنبغا إلى بلاد التتار لعدم حصوله على ما كان يطمع فيه من تأييد نواب الشام .

ولم يكد برقوق يستريح من ثورة ألطنبغا حتى فوجىء بأن الخليفة العباسى المتوكل على الله يطمع فى السلطنة ، وأن أمراء الترك فى القاهرة دبروا مؤامرة لقتل برقوق وإعلان المتوكل سلطاناً . وقد اكتشف برقوق المؤامرة قبل الشروع فى تنفيذها فعزل الخليفة المتوكل وأحل محله الخليفة الواثق بالله ، وبدأ منذ ذلك الوقت يتخذ سياسة عنيفة ضد الترك ، الأمر الذى جعل الأشرفية واليلبغاوية يتعاونون جميعاً لمواجهة ذلك التهديد . وقد ظهر هذا التحالف بين صفوف الترك — من أشرفية ويلبغاوية — فى صورة ثورة كبرى اندلعت نارها سنة ١٣٨٨ وتزعمها منطاش نائب ملطية — وهو زعيم الأشرفية — ، ويلبغا الناصرى نائب حلب ، وهو زعيم اليلبغاوية(٢) .

وكان أن ساء موقف برقوق عندما سمع بخروج مدن الشام من طاعته وأن جيوش الثوار تنتقل من نصر إلى آخر فى طريقها إلى مصر ، بعد أن حلت الهزيمة بجيوش السلطان فى دمشق ، سنة ١٣٨٩ ، وفى تلك الأزمة أخذ برقوق يتخبط فى تصرفاته ، فهو تارة يحاول كسب الرأى العام فى مصر بإلغاء بعض المكوس وإعادة الخليفة المتوكل إلى منصبه ، وتارة أخرى يطلب من الناس أن يحصنوا

---

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ١١ ص ٢٢٩ .

(٢) ابن حجر : إنباء الغمر ج٢ ص ٢٠٠ .

(٣) المقريزى : السلوك ، ج ٢ ورقة ٤٨٩ وما بعدها (مخطوط).

الدروب وأن يساعدوه فى مقاتلة « العدو الباغى »(١) .

غير أن جميع هذه الإجراءات لم تفلح فى دعم مركز برقوق ، بل لقد أخذ الأمراء والمماليك يتسربون من القاهرة لينضموا إلى جيش يلبغا الناصرى . وكان ذلك فى الوقت الذى انتشر الطاعون فى القاهرة ، مما جعل البلاد تغرق فى الفوضى . وأخيراً لم يجد برقوق مخرجاً أمامه فانفجر باكياً وسط جنوده ، وأسرع بالاختفاء فى منزل خياط ، فى الوقت الذى دخلت جنود يلبغا الناصرى القاهرة وسيطرت على القلعة(٢) .

وكان منتظراً — حسب العادة عند المماليك — أن يعلن يلبغا نفسه سلطاناً ، بوصفه صاحب الدور الكبير فى عزل برقوق ، ولكنه خشى معارضة المماليك الأشرفية الترك له بوصفه زعيم الطائفة اليلبغاوية ؛ فرشح الملك الصالح أمير حاجى ابن الأشرف شعبان ، وتلقب السلطان الجديد بالمنصور بعد أن كان فى سلطنته الأولى يلقب بالناصر(٣) .

أما برقوق فقد ألقى القبض عليه ، وعندئذ خشى يلبغا انتقام المماليك الجراكسة إذا هو مسه بسوء ، فاكتفى بنفيه إلى الكرك سنة ١٣٨٩ . ولم تلبث الأيام التالية أن أظهرت للناس فساد حكم يلبغا الناصرى ، فى الوقت الذى بدأ الشقاق بين يلبغا وحليفه منطاش(٤) . وفى الصراع الذى دار بين يلبغا ومنطاش حانت الفرصة لبرقوق ، فبايعه أهل الكرك بالسلطنة سنة ١٣٨٩ ، والتف حوله الجراكسة من الشام ومصر فكون منهم جيشاً زحف به إلى دمشق(٥) .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٦٩ — ٢٨٠ ؛
ابن دقماق : الجوهر الثمين ، ج ٢ ورقة ١٨٣ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٧٣ — ٢٧٤ .

(٣) أبو المحاسن : مورد اللطافة ص ٩٦

(٤) ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٤٨٧ — ٤٨٨

(٥) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٨١ .

أما منطاش الذى آلت إليه السلطة فى مصر عندئذ بعد انتصاره على يلبغا الناصرى ، فقد وجد نفسه أمام خطر جسيم ، فأخذ يتحايل على جمع المال بمختلف الطرق ليعد جيشاً يحارب به برقوق فى الشام (١). وفى الموقعة التى دارت بين الطرفين عند دمشق سنة ١٣٩٠ ، لم ينفع منطاش وجود الخليفة والسلطان حاجى معه ، إذ وقع السلطان والخليفة فى قبضة برقوق ، مما صار له أبعد الأثر فى نفوس رجال منطاش لحلت بهم الهزيمة . وكان أن تنازل السلطان حاجى لبرقوق عن السلطنة ، فى حين احتمى منطاش بدمشق ؛ فترك برقوق بلاد الشام وعاد إلى القاهرة بعد أن بايعه الخليفة بالسلطنة (٢) . وكان أن استقبل برقوق فى القاهرة أجمل استقبال ، وجددت البيعة له فى القلعة ، فى حين انزوى المنصـــور حاجى حتى دس له السم بعض جواريه فمات مسموماً .

وقد امتدت سلطنة برقوق الثانية من سنة ١٣٩٠ حتى سنة ١٣٩٩ ؛ وامتازت بجهود برقوق فى تثبيت حكمه عن طريق القضاء على معظم المماليك الترك والتخلص من خصومه وعلى رأسهم يلبغا الناصرى ومنطاش . وفعلا قبض برقوق على يلبغا الناصرى وقتله سنة ١٣٩١ ، فى حين قتل منطاش فى حلب سنة ١٣٩٣ وحملت رأسه إلى القاهرة حيث طيف بها فى شوارعها ثم علقت على باب زويلة (٣) . هذا فى الوقت الذى استمر برقوق يتخلص من أمراء الترك واحد بعـــد آخر بعزلهم عما كانوا يلونه من وظائف ومصادرة إقطاعاتهم وتوزيع تلك الوظائف والإقطاعات على مماليكه من الجراكسة (٤) .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٣ ورقة ٥٧٣ (مخطوط) .
(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ١١ ص ٣٦٩ .
(٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٣٦٦
(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٣٦ — ٣٩

على أن المتاعب الداخلية التى صادفها برقوق فى سلطنته الثانية لم تكن كلها من جانب الترك وأمرائهم ، وإنما ثار العربان فى مصر والشام ثورة خطيرة سنة ١٣٩٤ . وأرسل زعيم العربان فى مصر — وهو الشريف العنانى — إلى موسى بن محمد بن عيسى شيخ العربان فى إقليم الكرك يطلب منه معاونته فى الحصول على الخلافة والسلطنة جميعاً ؛ على أن يتم تنفيذ تلك الخطة عند خروج برقوق من مصر لمقاتلة تيمورلنك . ولكن السلطان برقوق كشف المؤامرة، فألقى القبض على الشريف العنانى وموسى بن محمد ، وحبسهما حتى ماتا فى السجن ، كما أخضع عرب هوارة فى الصعيد(١) .

تيمورلنك ودولة المماليك :

وإذا كان السلطان برقوق قد نجح فى القضاء على الأخطار الداخلية التى هددت حكمه من جانب الترك والعربان ، وبذلك دانت لسلطانه مصر والشام ، فإن ثمة خطر خارجى كبير هدد دولة المماليك فى ذلك الدور — هو خطر تيمورلنك . هذا وإن كان الصدام بين المماليك وتيمورلنك قد تأخر إلى ما بعد عهد برقوق .

وكان تيمورلنك ينتمى إلى بيت من أشراف التتار ، ولد فى مدينة سمرقند وتألق نجمه فيها واتخذها قاعدة لأعماله التوسعية التى مكنته من الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر وخراسان وطبرستان حتى استولى على مدينة تبريز سنة ١٣٨٦ كما خرب الرها فى العام التالى(٢) . ولم يلبث حكام ماردين وبغداد وغيرهما أن كتبوا إلى السلطان برقوق يستنجدون به ضد ذلك الخطر التترى الجديد . ولكن

---

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ص ٣٧٦ — ٣٧٧ ؛
المقريزى : السلوك . حوادث سنة ٨٠١ هـ (مخطوط) .
(٢) ابن عربشاه : عجائب المقدور ص ٤٩ .

تيمورلنك كان أسرع فى العمل فاستولى على بغداد سنة ١٣٩٣ وخربها وقتل كثيراً من أهلها [١].

وبوصول تيمورلنك إلى تلك المرحلة صار الصدام بينه وبين دولة المماليك أمراً قريب الحدوث . وكان أن أرسل تيمورلنك رسالة إلى السلطان برقوق تحوى كثيراً من التهديد والترغيب؛ ولكن برقوق قتل رسل تيمورلنك، وأخذ يعقد اتفاقيات مع التركمان وبنى عثمان لصد ذلك الخطر الجديد [٢].

ومهما يكن من أمر ، فإن هناك عوامل عديدة أجلت الصدام بين تيمورلنك ودولة المماليك، أهمها رغبة تيمورلنك نفسه فى تأجيل ذلك الصدام بسبب انشغاله بتوطيد نفوذه فى دولته الواسعة من ناحية ، فضلا عن أنه فتح جبهة جديدة لجيوشه عندما هاجم الهند من ناحية أخرى [٣] وكان كل مافعله برقوق هو أنه استغل فرصة غياب تيمورلنك فى الهند، وكتب لأحمد بن أويس تقليدا بنيابة السلطنة فى بغداد، وزوده بالمال والعتاد والمماليك والأمراء، ثم أرسله سنة ١٣٩٤ إلى بغداد ، حيث تمكن بفضل تلك المعونة من استرداد عرشه والتغلب على الحامية التى تركها تيمورلنك فى بغداد [٤] .

وبمقتضى التقليد الذى كتبه برقوق لأحمد بن أويس أصبح الأخير تابعا لسلطنة المماليك فى مصر؛ ونائبا عن السلطان برقوق فى حكم بغداد ، فضرب السكة باسمه . ولاشك فى أن هذا الوضع الجديد قد أضفى مكانة كبيرة على سلطنة المماليك ، وإن كان تيمورلنك نفسه لم يرض عن ذلك الوضع فأسرع بالعودة من الهند سنة ١٣٩٩ ، فى الوقت الذى توفى فيه السلطان برقوق .

---

(١) المقريزى: السلوك ج ٣ ورقة ٤١٦ ومابعدها (مخطوط) .

(٢) ابن حجر : إنباء الغمر ج ١ ورقة ٣٦٧ — ٤٠٠ (مخطوط) .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١٢ ورقة ٥٦ .

(٤) المقريزى: السلوك ج ٢ ورقة ٧٣١ .

عصر أبناء برقوق :

وعندما أحس السلطان برقوق بدنو أجله ، جمع حوله الخليفة وكبار الأمراء والقضاة ، وطلب منهم أن يحلفوا بالسلطنة لأولاده من بعده — وهم فرج وعبدالعزيز وابراهيم — على التوالى . واختار برقوق مجلساً للوصاية على أبنائه برآسة الأمير أيتمش البجاسى أتابك العسكر ، يساعده الخليفة المتوكل وبعض كبار الأمراء . ولم يلبث برقوق نفسه أن توفى سنة ١٣٩٩[١] .

غير أن المماليك لم يؤمنوا — كما سبق أن رأينا — بمبدأ وراثة العرش ، ولم يلبث كبار الأمراء أن رأوا فرصتهم سانحة فى قيام فرج بن برقوق فى منصب السلطنة وسنه عشر سنوات فبدأت المنافسات والمنازعات بينهم ، الأمر الذى جعل السلطان فرج يزهد فى العرش ، فهرب الصبى من القلعة سنة ١٤٠٥ واختفى فى أحد البيوت ، وعندئذ بايع الأمراء أخاه عبد العزيز بالسلطنة[٢] .

وليست هناك أهمية خاصة لسلطنة فرج الأولى سوى ما حدث عندئذ من عودة تيمورلنك من الهند ، ففر أحمد ابن أويس من بغداد واحتمى بحلب ، فى حين واصل تيمورلنك غزواته فاستولى على سيواس ومرعش وعينتاب وبذلك وصلت قواته إلى أطراف الشام[٣] . ولم يستجب المماليك للإنذار الذى وجهه تيمورلنك بضرورة تسليم حلب ، فتجمعت الجيوش من نيابات الشام استعداداً للمقاومة . ولكن تيمورلنك أنزل الهزيمة بقوات المماليك واقتحمت جيوشه حلب سنة ١٤٠٠ لتعمل فيها قتلا وأسراً ونهباً[٤] . وقد اهتزت مصر لأنباء تلك

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج١٢ ص١٠٤

(٢) ابن حجر : انباء الغمر ج ١ ص ٦٨٨ (مخطوط) .

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٣٦ .

(٤) ابن عربشاه : عجائب المقدور ص٨٨ وما بعدها .

الهزيمة، وخروج السلطان فرج الصغير على رأس الجيش ومعه الخليفة والقضاة، ولكن تيمورلنك أنزل الهزيمة مرة أخرى بالمماليك قرب دمشق فى أواخر سنة ١٤٠٠ . وبعد ذلك عاد فرج إلى القاهرة ليستعد للقيام بمحاولة أخرى ضد تيمورلنك، فى حين تمكن الأخير — عن طريق الحيلة — من دخول دمشق حيث أقام بها قرابة ثلاثة أشهر جمع فيها كثيراً من أموالها فضلا عن أولى الخبرة من أصحاب الحرف والصناعات الذين بعث بهم إلى سمرقند .

ويبدو أن أخبار مافعله تيمورلنك بدمشق جعلت السلطان فرج يرضى بالصلح معه ، فتم الصلح سنة ١٤٠١ . وبعد ذلك خرج تيمورلنك من الشام لينزل الهزيمة بالسلطان بايزيد العثمانى فى موقعة أنقرة سنة ١٤٠٢[1] . ولم يلبث أن توفى تيمورلنك بعد ذلك سنة ١٤٠٥ فى سمرقند ، ثم تعرضت دولته الواسعة للتمزيق بسبب النزاع بين ورثته ، وبذلك خف حدة خطر التتار على دولة المماليك فى مصر والشام .

أما ما كان من أحوال سلطنة المماليك فى مصر، فقد رأينا كيف أن فرج ابن برقوق ترك العرش سنة ١٤٠٥ ليضع الأمراء محله أخاه عبد العزيز. ولكن الصراع بين أمراء المماليك فى تلك الفترة اتخذ صورة مؤازرة أحد أبناء برقوق ضد الآخر، فعندما أحس بعض الأمراء بأن الأمير بيبرس الأتابك علت مكانته بحكم وصايته على المنصور عبد العزيز، سعوا لعودة فرج إلى العرش. وقد عاد السلطان فرج إلى السلطنة بعد شهرين من اختفائه ، واستمر تلك المرة فى الحكم نحواً من سبع سنوات (١٤٠٥ — ١٤١٢) ، اتصفت بالاضطراب والفوضى وسوء تدبير الحكم، ذلك أن فرج عرف بالقسوة والوحشية ، فاستهل حكمه بقتل أخويه[2]، ولم يكن سكوت الأمراء عن فرج بدافع الرضى بحكمه، وإنما لأن

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ٣٣٦ .

(٢) ابن حجر: انباء الغمر ج ١ ص ٦٩٠ وما بعدها .

الموقف لم يسفر عن ظهور الرجل القوى بين صفوف الأمراء الذى يستطيع أن يضرب خصومه وينتزع السلطنة لنفسه .

وكان أن كثرت الفتن فى أنحاء الدولة — وبخاصة فى الشام — على عصر فرج بن برقوق . فنى سنة ١٤٠٧ ثار جكم نائب حلب وأضفى على نفسه لقب سلطان وتلقب بالعادل ولكن جكم قتل بعد شهرين ، فتحالف نوروز نائب الشام والأمير شيخ نائب طرابلس وأعلنا الثورة على السلطان فرج فى القاهرة ، بل لقد زحفا بجيوشهما نحو مصر سنة ١٤٠٨ . وعندما خرج السلطان فرج إلى الشام لقمع تلك الثورة حلت به الهزيمة قرب دمشق سنة ١٤١٢ وقبض على فرج ليقتل قتلة شنعة ، فى حين أدى التنافس بين الأميرين شيخ ونوروز إلى اختيار الخليفة المستعين العباسى سلطاناً سنة ١٤١٢ (١) .

السلطان المؤيد شيخ المحمودى : (١٤١٢ — ١٤٢١)

ومن الواضح أن اختيار المستعين للسلطنة لم يكن إلا إجراءاً شكلياً حتى يستقر الموقف بين الأميرين نوروز وشيخ . ولم يكن الأمير شيخ يطمئن على سلامة موقفه حتى عزل الخليفة بعد خمسة أشهر من سلطنته ، واحتل هو دست السلطنة بعد أن تلقب بلقب المؤيد ، وكان من الطبيعى أن تكون المشكلة الأولى التى واجهت السلطان المؤيد شيخ هى التغلب على نفوذ نوروز الذى أبى الاعتراف بالسلطان الجديد ؛ ولكن شيخ خرج إلى الشام وحارب نوروز وقتله وبذلك تخلص من منافس عنيد (٢) .

وفى عهد المؤيد شيخ حاولت الإمارات التركمانية الواقعة على الأطراف

---

(١) العينى : السيف المهند فى تاريخ الملك المؤيد ، ورقة ١٩٧ (مخطوط) .

(2) Wiet, , L'Egypte, Arabe, pp. 542—548.

الشمالية لدولة المماليك الخروج عن تبعيتها للسلطنة المماليكية ، ولكن المؤيد شيخ خرج لإخضاعهم مرتين سنة ١٤١٥ ، سنة ١٤١٧ . ولما تمرد التركمان مرة أخرى بعد عودة السلطان شيخ إلى مصر ، أرسل المؤيد شيخ ابنه ابراهيم سنة ١٤١٩ لإخضاع دلغادر . فأوغل إبراهيم حتى قونيه وضرب السكة باسم أبيه المؤيد شيخ وولى قيصرية حاكما موالياً لسلطان المماليك من بيت دلغادر . وقد استقبل إبراهيم استقبالا حماسياً فى القاهرة ، ولكنه لم يلبث أن مات فى العام التالى ؛ وقيل إن أباه حقد عليه لما ناله من شهرة ومجد ، فدس له السم ! (١) .

وقد توفى السلطان المؤيد شيخ سنة ١٤٢١ ، فخلفه ابنه أحمد تحت وصاية الأمير ططار ، الذى لم يلبث أن انتزع السلطنة لنفسه ؛ ولكنه لم يبق فيها إلا أربعة وتسعين يوماً ثم خلفه محمد بن ططر . وقد قضى محمد هذا فى الحكم بضعة أشهر تحت وصاية الأمير برسباى ، الذى انتزع السلطنة لنفسه سنة ١٤٢٢ .

السلطان الأشرف برسباى وفتح قبرس :

حكم السلطان الأشرف برسباى ما يزيد عن ستة عشر عاما (١٤٢٢ — ١٤٣٨) امتازت بالاستقرار وقلة الاضطرابات على الرغم مما قاساه الناس فى ذلك العهد بسبب سوء الأحوال الاقتصادية وسياسة برسباى الاحتكارية التى سنشير إليها فيما بعد .

وقد مكن ذلك الاستقرار الذى نعمت به دولة المماليك السلطان الأشرف برسباى من القيام بمشروع حربى كبير هو غزو جزيرة قبرص وإدخالها فى نطاق التبعية لسلطنة المماليك فى مصر . وقد رأينا فيما سبق كيف أن القبارسة اتخذوا من جزيرتهم مركزاً للوثوب على الموانى الإسلامية فى شرق البحر المتوسط وتهديد

(1) Lane — Poole : A Hist . of Egypt . p . 336 .

تجارة المسلمين ، حتى قام بطرس الأول لوزجنان ملك قبرص بحملته الصليبية الكبرى على الاسكندرية سنة ١٣٦٥ . وعلى الرغم من الصلح الذى تم بين جزيرة قبرص وسلطنة المماليك سنة ١٣٧٠ ، إلا أن الأعمال العدوانية التى تعرضت لها شواطىء مصر والشام لم تنقطع (١) . وليس من الضرورى أن يكون أهل جزيرة قبرص بالذات هم الذين قاموا بكل الإغارات التى تعرضت لها شواطىء سلطنة المماليك فى أواخر القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر ، ولكن كان يكفى أن القراصنة المسيحيين الذين دأبوا على مهاجمة الثغور الإسلامية فى تلك الحقبة اتخذوا جزيرة قبرص قاعدة لنشاطهم ، مما جعل من الصعب على المسلمين اقتفاء أثرهم والقبض عليهم .

والواقع أن سلاطين المماليك فى مصر حاولوا غزو قبرص أكثر من مرة لإحساسهم بخطارها ورغبتهم فى دفع ذلك الخطر . وقد رأينا كيف حاول السلطان الظاهر بيبرس غزو قبرص سنة ١٢٧٠ ، ولكن محاولته باءت بالفشل (٢) . كذلك حاول يلبغا الخاصكى أن ينتقم مما حل بالاسكندرية سنة ١٣٦٥ على يد بطرس الأول لوزجنان ، فقامت دولة المماليك فى عهد السلطان شعبان (١٣٦٣-١٣٧٧) ببعض إغارات على جزيرة قبرص ، ولكنها لم تتخذ شكل غزو شامل للجزيرة (٣) . وهكذا حتى كان اعتلاء السلطان برسباى دست السلطنة سنة ١٤٢٢ ، فرأى فى الجهاد ضد قبرص وسيلة لتحقيق مآربه وصرف منافسيه من الأمراء عن خلق المشاكل والفتن الداخلية . ودفع برسباى إلى المضى فى ذلك التفكير أن إغارات القبارسة لم تنقطع عن شواطىء دولة المماليك ، إذ اعتدى بعض القراصنة على مركب لأحد تجار دمياط سنة ١٤٢٣ ، وأسروه وساقوه

---

(١) سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ٨٧

(٢) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ص ٥٩٣ .

(٣) النويرى : الإلمام بالأعلام جـ ١ ص ٧٦ ، جـ ٢ ص ١٠٣ (مخطوط) .


قبرص
في العصور الوسطى
قرباص
القنطرة
كرينيا
نيقوسيا
فاماجوستا
رأس العجوز
لارنكا
الملاحة
خيروكيتا
ليماسول
رأس الباق
بافوس

إلى قبرس(١) ، ولم تجد محاولات السلطان برسباى فى عقد معاهدة مع جانوس ملك قبرس لضمان عدم التعدى على متاجر المسلمين ، إذ ظن جانوس أن حرص دولة المماليك على الصلح لا يعنى سوى ضعف سلطان المماليك وتخوفه (٢) .

وهكذا ظل سلاطين المماليك يتميزون غضبا ، حتى ورد الخبر على السلطان برسباى سنة ١٤٢٣ بأن الفرنج أخذوا مركبين من مراكب المسلمين قرب ثغر دمياط فيهما بضائع كثيرة وعدة من الناس يزيدون على مائة رجل ، وبأن جانوس ملك قبرس استولى على سفينة محملة بالهدايا مرسلة من برسباى إلى السلطان مراد العثمانى (٣) . وعند ذلك ثارت ثائرة السلطان فأمر بالاستيلاء على أموال التجار الفرنج المقيمين بالثغور المماليكية ومنعهم من السفر إلى بلادهم ، كما أخذ يعد العدة لغزو قبرس .

وقد أرسل السلطان برسباى ثلاث حملات لغزو قبرس الأولى سنة ١٤٤٢ والثانية سنة ١٤٢٥ والثالثة سنة ١٤٢٦ . وكانت الحملة الأولى صغيرة ، هى فى حقيقة أمرها حملة استكشافية غرضها تحديد مسئولية قبرس عن ذلك النفر من القراصنة « الذى كان يتحرم فى البحر » (٤) . وقد أغارت تلك الحملة على النواحى القريبة من ليماسول . ثم عادت إلى مصر فى أواخر سنة ١٤٢٤ بعد أن غنم المسلمون غنائم كثيرة ودمروا وأحرقوا ما صادفوه من سفن قبرسية (٥) .

وربما كانت أهمية هذه الحملة الأولى هى أنها أعطت السلطان برسباى

---

(١) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٢١٩ — ٢٢٠ .
(٢) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٨٨ .
(٣) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٣٨ .
(٤) المقريزى : السلوك ج ٤ ص ٣٦٢ (مخطوط) .
(٥) Makhtaras ; Recital Concsrning the Sweet Land of Cyprus d.633.

فكرة واضحة عن ضعف جزيرة قبرس من ناحية، وعن مدى مسئولية قبرس وملكها عن أعمال القرصنة من ناحية أخرى . ولم يشأ برسباى أن يضيع الوقت أو يعطى خصومه فرصة للاستعداد، فأخذ يستعد عقب عودة الغزاة لإرسال حملة جديدة لغزو قبرس، ودأب السلطان على زيارة دار صناعة السفن ببولاق كل يوم ليتفقد سير العمل فى بناء السفن (١) . ومما زاد من حماسة السلطان برسباى وتصميمه أن أعمال القرصنة لم تنقطع بل استمرت على ما هى عليه، فهاجمت أربع سفن قبرسية مركبا قرب اللاذقية كان مشحوناً بالمجاديف المرسلة إلى مصر؛ ثم قتلت بحارتها وأشعلت النار فيها (٢) .

وأخيرا غادرت حملة برسباى الثانية الشواطىء المصرية فى يوليو سنة ١٤٢٥ فاتجهت إلى الشام ومنها إلى قبرس . وقد رست السفن الإسلامية أولا قرب فاماجوستا على شاطىء قبرس، حيث هاجم الغزاة المناطق القريبة ودمروها وبعد ذلك أبحرت السفن إلى الملاحة فى حين سار شطر من جيش المماليك على الشاطىء . وقد أراد جانوس ملك قبرس أن يصد المسلمين فأرسل بعض السفن لمناوشة السفن الإسلامية، من ناحية، كما أرسل جيشاً صغيراً ليقضى على القوة البرية المماليكية التى كانت تسير فى البر بحذاء السفن الإسلامية من ناحية أخرى . ولكن مشاة المسلمين أنزلوا الهزيمة بفرسان القبارسة، فى حين فرت السفن القبرسية فى عرض البحر (٣) .

وبعد تلك الانتصارات السريعة، أمر قائد الحملة - الأمير جرباش - بإنزال بقية القوات التى كانت بالسفن إلى البر، فأخذ المماليك يحرقون القرى

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٥٨٢ (طبعة كاليفورنيا) .
والعينى : عقد الجمان ج ٢٥ ق ٣ ص ٥٧٢ (مخطوط) .
(٢) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٩٢ .
(٣) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٢٢٣ .

ويعملون فى الأهالى قتلا وأسرا ، حتى ضاقت مراكبهم عن حمل الأسرى وامتلأت أيديهم بالغنائم (١). وبعد ذلك توجه المسلمون إلى ليماسول فوصلوها صباح أول أيام عيد الفطر (سنة ٨٢٨هـ) ، فاستولوا هناك على أحد الحصون وأحرقوه ، ثم أخذوا يتأهبون للعودة إلى مصر بعد أن حققوا كثيراً من أغراض الحملة الاستكشافية الانتقامية . وكان أن وصل الغزاة إلى القاهرة فى سبتمبر سنة ١٤٢٥ ، فاستقبلوا استقبالا حافلا ، وشقوا طريقهم إلى القلعة وصحبتهم أكثر من ألف أسير ، فضلا عن الغنائم التى حملت على الجمال والبغال (٢) .

على أن السلطان برسباى لم يقنع بذلك ، لأنه عندما فكر فى غزو قبرس من أول الأمر ، لم يكن هدفه إرسال حملة لمجرد السلب والنهب والعودة ببضع مئات من الأسرى وبعض أكوام من الغنائم . والواقع إن برسباى لم يكن يود أن تعود جيوشه من قبرس قبل أن تخضع الجزيرة نهائيا ، ولذلك بدا غير قانع بتلك النتائج التى حققتها جيوشه فى الحملتين السابقتين ، وقرر إرسال حملة ثالثة إلى قبرس فى العام التالى (٣) . وكانت هناك عوامل أخرى دفعت برسباى إلى الإصرار على إخضاع قبرس لسيادته ، منها استمرار تحريض الجنوية له ضد جانوس بسبب عدائهم لملك قبرص ، ومنها استنجاد بعض قوى المسلمين الأتراك على شاطىء آسيا الصغرى بدولة المماليك لحمايتهم من عدوان قبرس وملوكها . هذا فضلا عما وصل إلى مسامع السلطان برسباى من أن جانوس ملك قبرس استنجد بملوك غرب أوربا ضد دولة المماليك (٤) .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٣٦٨ (مخطوط) .

(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٥٩٣ طبعة (كاليفورنيا) .

(٣) سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ١٠٣ .

(٤) ابن حجر : انباء الغمر ج ٢ ورقة ١١١ ؟

Makhiaras : op. cit., p. 653 .

وقد وجد السلطان برسباى فى تلك العوامل مجتمعة حافزاً قوياً لإرسال حملة كبرى ثالثة لفتح قبرس، عهد بقيادة جيوشها البرية إلى الأمير تغرى بردى المحمودى، وبقيادة قواتها البحرية إلى الأمير إينال الجكمى، وحدد اختصاصات كل منهما «حتى لا يعارض أحدهما الآخر»[١]. وفى أول يونيو سنة ١٤٢٦ أقلعت الحملة من الأسكندرية، وعدتها أكثر من مائة سفينة تحمل نحواً من خمسة آلاف مقاتل. ولم تكد الحملة تصل إلى منطقة ليماسول حتى بدأت العمل فوراً، فهاجم الغزاة مدينة ليماسول واستولوا عليها وعاثوا فيها نهباً وهدماً وإحراقاً[٢].

وفى تلك الحملة لم يكتف المسلمون بحصر نشاطهم فى الأقاليم الساحلية لجزيرة قبرس، وإنما أوغلوا داخل الجزيرة حيث كان الملك جانوس قد جمع قواته فى سهل خيروكيتا إلى الشمال الشرقى من ليماسول. وفى الموقعة الفاصلة التى دارت بين الطرفين فى ذلك السهل حلت الهزيمة ساحقة بالقبارسة، فظلت سيوف المماليك تعمل فى صفوفهم «وأسنة الرماح تطعن فى أعضائهم فصارت كثرتهم قلة وقوتهم ضعفاً»[٣]. وقد حاول جانوس ملك قبرس النجاة بنفسه عندما وجد ما حل بجيشه ولكن المماليك تبعوه وقبضوا عليه مع جملة من الأسرى. وقد رأى قائد الحملة الأمير تغرى بردى المحمودى — أن يتبع تلك الضربة بالزحف على نيقوسيا عاصمة قبرس؛ فدخلها المماليك دخول الظافر ورفعوا على مبانيها الرايات السلطانية، وتقدم لهم هناك أعيان الجزيرة بالأموال الكثيرة للحصول على الأمان[٤].

وأخيراً عاد الغزاة إلى مصر فشقوا القاهرة فى موكب حافل وخلفهم الأسرى وقد امتطى الملك جانوس «بغلا أعرجا». ويقال إن جانوس عندما

(١) السيوطى : غزوات قبرس ورودس ص ٩ .
(٢) المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٣٧٤ (مخطوط) .
(٣) العينى : عقد الجمان ج ٢٥ ق ٣ ورقة ٥٨١ .
(٤) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ١١٤ — ١١٥ .

دخل على السلطان برسباى قبل الأرض وأخذ يستعطف السلطان ، حتى وافق برسباى أخيراً على إطلاق سراحه مقابل مائتى ألف دينار دفع منها جانوس النصف عاجلا على أن يرسل الباقى بعد عودته إلى بلاده (١) . كذلك اشترط السلطان برسباى أن تظل قبرس تابعة لسلطنة المماليك ، وأن يكون جانوس نائبا عنه فى حكمها . وقد وافق جانوس على جميع تلك الشروط ، فأفرج عنه وسمح له بالسفر إلى جزيرته التى وصلها فى مارس سنة ١٤٢٧ (٢) .

وبذلك يكون السلطان برسباى قد حقق نصرا كبيرا لدولة المماليك ، بما أضفى عليه وعلى حكمه أهمية كبرى على أنه لا يمكن أن نتخذ الهدوء والاستقرار اللذين سادا عهد برسباى بأنهما دليل على سعادة الشعب ، إذ الواقع أن الناس قاسوا كثيراً فى ذلك العهد بسبب كثرة الاحتكارات والضرائب ، الأمر الذى جعل برسباى يموت غير مأسوف عليه سنة ١٤٣٨ (٣) .

السلطان الظاهر جقمق وغزو رودس : (١٤٣٨ — ١٤٥٣)

لم يستطع العزيز يوسف بن برسباى (١٤٣٧ — ١٤٣٨) أن يحمى عرشه من أطماع الوصى عليه وهو الأمير جقمق ذلك أن العزيز يوسف كان فى الرابعة عشرة من عمره ، فسهل على الأمير جقمق عزله بعد عدة أشهر — كما هى عادة المماليك — وتولى هو السلطنة بلقب الظاهر . وكان جقمق معتدلا فى حكمه ، إذا قيس بسلفه برسباى ، كما عرف عن جقمق تدينه وورعه فحرم المعاصى وشرب الخمور (٤) .

---

(١) ابن حجر : إنباء الغمر ج ٢ ورقة ١١٢ .

(٢) Maktiaras op. cit, p. 673 .

(٣) Lane-poole : op. cit, p.340 .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة : ج ٧ ق ١ ص ٢٤٥ (طبعة كاليفورنيا) .

وكما اشتهر عهد السلطان برسباى فى التاريخ بغزو جزيرة قبرس، فكذلك اشتهر عهد السلطان الظاهر جقمق بغزو جزيرة رودس . والواقع إن جزيرة رودس كانت عندئذ مركزاً هاماً للصليبيين فى شرق البحر المتوسط ، بعد أن استولى عليها فرسان الاسبتارية سنة ١٣٠٨ واتخذوها قاعدة لنشاطهم وأعمالهم (١). ولم يكن الاستبارية أقل تحمساً لحرب المسلمين من آل لوزجنان فى قبرس، الأمر الذى جعل المماليك يفكرون جديا فى غزو جزيرة رودس للقضاء على ذلك الخطر .

ولاشك فى أن الاسبتارية فى رودس أحسوا بالخطر عقب نجاح المماليك فى فتح قبرس ، فأسرعوا بتقديم الهدايا للسلطان برسباى فى القاهرة، وعرضوا عليه عقد معاهدة صداقة وعدم اعتداء، ولكن ذلك لم ينس السلطان برسباى موقف رودس والاسبتارية من المسلمين، ولو طال به الأجل لقام فعلا بغزو تلك الجزيرة ومن جهة أخرى يقال إن السلطان مراد الثانى العثمانى سمع بمحاولات لضم فرسان الاسبتارية برودس إلى الحلف المسيحى الكبير الذى أوشك أن يتكون فى أوربا لشن حرب صليبية كبرى ضد العثمانيين المسلمين، فقام السلطان العثمانى بتحريض جقمق سلطان المماليك فى مصر على غزو رودس ليشغل الاسبتارية عن الانضمام لذلك الحلف (٢). هذا إلى أن إغارات القراصنة على شواطىء مصر لم تنقطع عقب استيلاء المماليك على قبرس سنة ١٤٢٦، مما لم يدع مجالا للشك فى أن أولئك القراصنة اتخذوا جزيرة رودس قاعدة لهم بعد أن سقطت أرمينيا الصغرى وقبرس من ذلك أن أربع سفن للصليبيين دخلت فرع رشيد سنة ١٤٣٩ ، وبعد أن نهبت ودمرت عادت أدراجها ، مما أثار السلطان

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٣٣ — ١٢٣٤ .

(٢) محمد مصطفى زيادة : المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس، ص ١٩٨ .

جقمق (١). فإذا أضفنا إلى ذلك رغبة السلطان جقمق فى أن يحذو حذو برسباى ليحقق لنفسه مجداً يغطى به حقيقة اغتصابه للسلطنة من ناحية، ويصرف أنظار المماليك عن المنازعات الداخلية ويوجه طاقتهم نحو الغزو والجهاد من ناحية ثانية، أدركنا مجموعة الأسباب التى حركت جقمق لغزو جزيرة رودس.

وقد أرسل السلطان جقمق ثلاث حملات ضد رودس فى سنوات ١٤٤٠، ١٤٤٣، ١٤٤٤. وكانت الحملة الأولى صغيرة، لم تستطع أن تقوم بعمل يسترعى الانتباه، بل على العكس تصدى لها أسطول الاسبتارية برودس وأنزل بالسفن الإسلامية بعض الخسائر (٢). أما الحملة الثانية التى أرسلها جقمق بقيادة الأمير إينال العلائى ضد رودس فقد كانت أكثر توفيقاً. فدمرت بعض الحصون الساحلية فى رودس ثم قفلت راجعة إلى مصر بعد أن اضطرتها عواصف الشتاء إلى ذلك (٣). وأخيراً كانت الحملة الثالثة وهى كبرى حملات جقمق ضد رودس وأوفرها عدة وعتاداً، فاتجهت صوب مدينة رودس عاصمة الاسبتارية وحاصرتها نحواً من أربعين يوماً. ولكن على الرغم من مما أبداه المماليك من شجاعة نادرة، فإنهم عجزوا عن الاستمرار فى القتال بسبب شدة مقاومة الاسبتارية الذين كانوا قد ألفوا أساليب المسلمين فى الحرب ببلاد الشام. هذا فضلاً عن المساعدات التى تلقاها الاسبتارية من العالم المسيحى الغربى، وبخاصة برجنديا وقطالونيا. وهكذا رأى قائدا الحملة - وهما الأميران إينال العلائى وتمرباى - الانسحاب والعودة إلى مصر حرصاً على سلامة قواتهما (٤). ولم يلبث أن تم الصلح بين

---

(1) Wiet : L'Egypte, Arabe, p. 582.

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ق ١ ص ١٢٢ (طبعة كاليفوورنيا).

(٣) السيوطى : غزوات قبرس ورودس ص ١٤.

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ق ١ ص ١٣٦ (طبعة كاليفورنيا).

الاسبتارية فى ردوس والسلطان جقمق فى مصر بعد أن تعهد الاسبتارية بعدم العدوان على السفن والمتاجر الإسلامية (١).

هذا عن نشاط السلطان جقمق فى الميدان الخارجى . أما فى الميدان الداخلى فقد امتاز عهده بالهدوء ، إذا استثنينا ثورتين فى بداية حكمه قام بالأولى الأمير قرقماس الشعبانى الناصرى وقام بالثانية إينال الحكمى نائب دمشق . وقد نجح جقمق فى القضاء على هاتين الثورتين فى سهولة (٢) . كذلك حدث فى عهد جقمق أن ثار العبيد السود فى منطقة الجيزة سنة ١٤٤٢ وأقاموا عليهم سلطانا من بينهم ، ولكن السلطان جقمق قضى تلك الفتنة وباع من فى القاهرة من العبيد السود ، فى حين أرسل الباقين فى سفينة إلى بلاد العثمانيين حيث بيعوا هناك (٣) .

دولة المماليك فى أواخر أيامها :

توفى السلطان جقمق سنة ١٤٥٣ وهو فى الثمانين من عمره ، بعد أن أعلن أثناء مرضه - وهو على فراش الموت - ولاية العهد لابنه عثمان . غير أن السلطان المنصور عثمان لم يستطع البقاء فى الحكم أكثر من شهر ونصف ، فخلعه الجيش لأنه وزع عليهم النفقة بنقود مغشوشة غير سليمة (٤) .

وقد ولى السلطنة بعد المنصور عثمان السلطان الأشرف إينال (١٤٥٣- ١٤٦٠) . ولعل أوضح ظاهرة اتصف بها تاريخ المماليك فى ذلك الدور هى كثرة

---

(١) محمد مصطفى زيادة . المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس ص ٢٠٢ وما بعدها .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ق ١ ص ٤٩ — ٥٨ (طبعة كاليفورنيا)

(٣) ابراهيم طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ، ص ٣٥ .

(4) Wiet : op. cit., p. 587.

ثورات المماليك الجلبان أو الأجلاب الذين كان يجلبهم كل سلطان جديد .
والمعروف أن سلاطين المماليك الأوائل اعتادوا منذ منتصف القرن الثالث عشر أن يشتروا مماليكهم صغاراً أطفالا ويتعهدون تربيتهم وتنشأتهم نشأة خاصة، فيشب المملوك وقد اختص بولائه أستاذه الذى اشتراه وقام على تربيته وحباه بعطفه. أما فى ذلك الدور الأخير من تاريخ دولة المماليك - أى فى القرن الخامس عشر — فقد دأب السلاطين على شراء المماليك كباراً فى سن البلوغ، مما جعل أولئك الجلبان لا يتشربون روح النظام والولاء لأستاذهم فى طفولتهم، فصاروا مصدر خطر عـلى السلطان نفسه ، وتعددت ثوراتهم حتى صار السلاطين أنفسهم ألعوبة فى أيديهم . ولعل هذا هو السر فيما نلحظه فى ذلك الدور بالذات من سهولة عزل السلاطين وإقامة غيرهم ، فلا يكاد السلطان يبقى فى منصبه أياماً بل ساعات حتى يعزل ويقام غيره . ومن وراء جميع هذه الحركات الثورية والفتن والقلاقل كان الجلبان فى ذلك الدور الأخير من تاريخ دولة المماليك الجراكسة(١).

ولا أدل على مدى ما أصاب البلاد من اضطراب نتيجة لثورات الجلبان فى ذلك الدور ، من أن الجلبان ثاروا سبع مرات فى عهد السلطان إينال البالغ طوله ثمان سنوات(٢) !

ولم يستطع أحمد بن إينال البقاء فى الحكم سوى أربعة شهور فقط ثم خلفه سنة ١٤٦١ السلطان الظاهر خشقدم الذى امتاز عهده بالهدوء. ولم يعكر صفو هذا الهدوء سوى المحاولة التى قام بها جانم بك نائب الشام لانتزاع العرش . ولكن خشقدم استطاع فى سهولة أن يتخلص من مؤامرة جانم بك وأعوانه، حتى قتله(٣) .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ق ١ ص ٣٩٠ وما بعدها (طبعة كاليفورنيا) .

(٢) ابن إياس : صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ص ٢٨ ، ٥٧ ، ٦٥ .

(٣) إبراهيم طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ص ٣٦ .

وبعد خشقدم تولى السلطنة يلباى المجنون سنة ١٤٦٧ ، ثم الظاهر تمربغا الرومى فى العام نفسه . ولم يستطع تمربغا إرضاء المماليك الخشقدمية وزعيمهم خير بك فعزله بعد شهرين . ومن الواضح أن خيربك عندما دبر عزل تمربغا إنما كان يبغى الاستئثار بالعرش لنفسه ، وفعلا صعد خير بك إلى دست السلطنة أثناء الليل ولقب نفسه بالسلطان الظاهر تشبهاً بأستاذ الظاهر خشقدم . ولكن الأتابك قايتباى أسرع إلى القلعة وسيطر على الموقف ، وتولى السلطنة بعد عزل خير بك الذى أطلق عليه لقب « سلطان ليلة » لأنه لم يظل فى دست السلطنة سوى ليلة واحدة[1] .

ويعتبر السلطان قايتباى (١٤٦٨—١٤٩٦) من أبرز سلاطين دولة المماليك الجراكسة لأنه حكم مدة طويلة بلغت تسعة وعشرين عاما ، وهى مدة لم يحكمها أحد من سلاطين المماليك ، عدا السلطان الناصر محمد . وفى تلك المدة أثبت السلطان الأشرف قايتباى أنه أمهر السلاطين الجراكسة فى ميدان الحرب ، وأوسعهم خبرة بشئون العالم ، وأكثرهم مقدرة وشجاعة وحكمة ؛ حتى لقد وصفه المؤرخ ابن إياس بأنه كان « وافر العقل سديد الرأى ، عارفا بأحوال المملكة ، يضع الأشياء فى محلها . . . موصوفاً بالشجاعة عارفاً بأنواع الفروسية . . »[2] . حقيقة إنه تعسف — مثل غيره من السلاطين — فى جمع الأموال وفرض الضرائب ؛ ولكن آثاره ومنشآته العديدة تثبت أنه كان ينفق تلك الأموال فى المنشآت العامة أو فى حروبه الواسعة . ويعتبر مسجدا قايتباى بالقاهرة والوكالات التى شيدها من أجمل المبانى العربية فى ذلك العصر . هذا إلى أنه حرص على ترميم وإصلاح المنشآت التى أقامها أسلافه ، كما تشهد على ذلك الكتابات العديدة

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج٢ ص٨٩ ومابعدها .
(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج٣ ص ٣٢٥ (نشر محمد مصطفى) .

المدونة على جدران المساجد والمدارس والقلعة وغيرها(١).

وقد عرف عن السلطان قايتباى حب الرحلات والأسفار، فطاف بلاد الشام وشمال الفرات والوجهين البحرى والقبلى بمصر؛ بالإضافة إلى الحج وزيارة الأماكن المقدسة بالحجاز وفلسطين. وكان أينما ذهب يخلد اسمه بإنشاء الطرق والجسور والمساجد والمدارس والتحصينات وغيرها من الأعمال الخيرية والمرافق العمرانية(٢).

على أن هناك مهاماً أخرى واجهت السلطان قايتباى؛ أخطر بكثير من الإنشاء والتعمير. ذلك أن عدم استقرار الأوضاع على الحدود الشمالية سبب دائماً مصاعب جمة لسلاطين المماليك الجراكسة. وفى النصف الثانى من القرن الخامس عشر لم تقتصر المتاعب التى واجهت دولة المماليك فى تلك الجهات على الثورات التى قام بها التركمان، وإنما أدت القلاقل التى ظهرت فى تلك الجهات إلى تدخل قوة جديدة هى قوة العثمانيين الذين أخذ نفوذهم يزداد ويتضخم، وخاصة بعد استيلائهم على القسطنطينية سنة ١٤٥٣(٣).

أما عن أحوال مصر فى أواخر عهد السلطان قايتباى فقد امتازت بكثرة الضرائب وجمع الأموال للحروب، هذا عدا انتشار الوباء انتشاراً فتاكاً سنة ١٤٩٢؛ حتى أنه كان يموت فى القاهرة فى اليوم الواحد أكثر من عشرة آلاف شخص. وقد مات بسبب ذلك الوباء ثلث المماليك، فضلاً عن زوجة السلطان قايتباى وابنته. ثم إن ذلك الوباء ترتب عليه القحط الشديد وانتشار طاعون المواشى، مما أدى إلى ندرة القوت وغلاء الأسعار(٤). وليت المماليك قدروا

(١) Lane-poole: op. cit., p. 344.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور ج٣ ص ٣٢٩ (نشر محمد مصطفى).

(٣) Wiet: op. cit., pp. 590-592

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور ج٣ ص ٢٨٧ (نشر محمد مصطفى).

عندئذ خطورة تلك المحنة التى كانت تمر بها البلاد والعباد ، وإنما استمرت المنازعات والخلافات بين طوائفهم ، كما حدث سنة ١٤٩٥ .

وأخيراً ساءت صحة السلطان قايتباى بعد أن جاوز الثمانين من عمره ، فتنازل عن السلطنة لابنه ، ثم توفى فى اليوم التالى مباشرة سنة ١٤٩٦[١] .

وقد تعاقب فى منصب السلطنة بعد السلطان الأشرف قايتباى ابنه محمد (١٤٩٦ — ١٤٩٧) ثم قانصوه خمسمائة الذى لم يثبت فى العرش سوى ثلاثة أيام ؛ ثم عاد محمد بن قايتباى مرة أخرى (١٤٩٧ — ١٤٩٨) ، ثم قانصوه الأشرف (١٤٩٨ — ١٥٠٠) ؛ ثم جانبلاط (١٥٠٠ — ١٥٠١) ، ثم العادل طومان باى الأول (١٥٠١) . وجميع هؤلاء حكموا مدداً قصيرة مما يشهد على مدى حالة الفوضى وعدم الاستقرار التى سادت البلاد فى ذلك الدور الأخير من حياة دولة المماليك[٢] . ولا أدل على تلك الفوضى التى عمت جهاز الحكم فى الدولة من أن معظم السلاطين الذين تولوا السلطنة فى ذلك الدور انتهى أمرهم بالقتل أو السجن أو الخنق ، مما جعل كبار الأمراء لا يرغبون فى تولى منصب السلطنة الذى غدا ملطخاً بدماء الأبرياء . وعندما قتل السلطان العادل طومان باى سنة ١٥٠١ ، تمنع الغورى — رغم أنه أقوى الأمراء — عن قبول المنصب بل إنه أخذ يبكى ! ويقال إن الغورى قبل أخيراً أن يلى منصب السلطنة بعد أن « سحبوه وأجلسوه وهو يمتنع من ذلك ويبكى » ؛ ولكنه اشترط على الأمراء ألا يقتلوه ، وأن يصرفوه بالمعروف إذا أرادوا عزله ، فقال لهم « أقبل ذلك بشرط ألا تقتلونى ؛ بل إذا أردتم خلعى وافقتكم »[٣] .

---

(١) Lane-poole : op. cit., p. 349 .
(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج٣ ص٣٣٢ — ٤٦٣ (نشر محمد مصطفى) .
(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ج٣ ص٤ (نشر محمد مصطفى) .

السلطان الأشرف قانصوه الغورى (١٥٠١ – ١٥١٦)

أثبت السلطان قانصوه الغورى أنه رجل قوى صلب رغم أنه كان قد جاوز الستين من عمره عندما ولى منصب السلطنة . ذلك أنه عمل بسرعة على إعادة النظام والاستقرار إلى العاصمة ، وملأ مناصب الدولة بمن يثق فيهم من كبار الأمراء ؛ ثم اتجه إلى علاج الأزمة المالية المستحكمة التى كانت تعانيها خزانة الدولة المفلسة .

وقد اتبع السلطان الغورى لإنعاش الخزانة العامة سياسة تعسفية لم يسبقه إليها أحد من سلاطين المماليك . ذلك أنه جمع ضرائب ومكوس عشرة أشهر مقدما دفعة واحدة ، ولم يكتف بفرض هذه الضرائب على الأراضى والحوانيت والعقارات ، وإنما تجاوز ذلك إلى الطواحين والمعديات والسفن ودواب النقل وخدم القصور ، بل حتى الأوقاف الخيرية . هذا إلى أنه ضاعف من الرسوم الجمركية ، كما تلاعب فى العملة لتستفيد الخزانة من الفارق ، مما أضر بالتجار ضرراً بليغاً[١] . وكانت النتيجة أن حقق الغورى أغراضه وحصل على ما كان رغب فيه من أموال ، ولكن على حساب الشعب الذى ازدادت حالته سوءا ، وأخذ يئن من قسوة الضرائب الباهظة .

وقد أنفق الغورى من تلك الأموال - التى جد فى جمعها - على مماليكه الذين أكثر من أعدادهم عن طريق الشراء ، كما شيد مسجدا ومدرسة فى الحى الذى سمى بعد ذلك باسمه ، وهو حى الغورية . كذلك عنى السلطان الغورى بطريق الحج ، فأقام به كثيراً من الاستراحات والآبار . هذا فضلا عن حفر بعض الترع وتحصين الإسكندرية ورشيد وإصلاح القلعة . ومن المعروف عن السلطان

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٨٩ — ٩٠ (نشر محمد مصطفى) .

الغورى أنه عنى بفخامة بلاطه وعظمة مظهره ، فأصبحت مماليكه وخيوله وجواهره ومطبخه السلطانى مضرب الأمثال ، كما اشتهرت مجالسه الأدبية بمن ضمنهم من شعراء وأدباء وعلماء (١) .

ولم تحدث قلاقل ذات أهمية فى الفترة الأولى من حكم السلطان الغورى ، إذا استثنينا بعض الثورات من جانب المماليك الأجلاب والعربان . أما فى الميدان الخارجى ، فكان الخطر الكبير الذى هدد مصالح البلاد فى ذلك الدور الأول من حكم السلطان الغورى آتيا من ناحية البحر الأحمر . ذلك أن فاسكو دى جاما اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٧ ، وسرعان ما ثبت البرتغاليون أقدامهم فى كلكتا سنة ١٥٠٠ ، مما هدد مركز مصر الاقتصادى كطريق رئيسى للتجارة بين الشرق الأقصى والغرب الأوربى ، وآذن بانتقال زمام التجارة من أيدى المماليك إلى أيدى البرتغاليين (٢) وإزاء هذا الخطر الجسيم ، استنجد أمراء المسلمين فى الهند وجنوب شبه الجزيرة العربية بالسلطان الغورى ، الذى رأى فى الخطر الجديد تهديداً مباشراً للمورد الأساسى الذى اعتمدت عليه دولته واستمدت منه قوتها .

وقد لجأ الغورى أولا إلى الأساليب السياسية فوجه نداء إلى البابا يطالب منه منع البرتغاليين والأسبان من التعرض بسوء للمسلمين فى الشرق والغرب ويبدو أن القوى الأوربية لم تتأثر بذلك التهديد الأجوف مما جعل الغورى يشيد أسطولا جديداً فى البحر الأحمر . وفى الصراع الذى نشب بين المماليك والبرتغاليين فى المحيط العربى — غربى الهند — انتصر المماليك فى أول الأمر سنة ١٥٠٨ ، ولكن لم يلبث أن ثار البرتغاليون لأنفسهم فى العام التالى فى

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٨٩ ، ٩٤ — ٩٥ (نشر محمد مصطفى)

(2) wiet : op. cit. p. 616 — 617.

موقعة ديو البحرية ، بل لقد هاجم البرتغاليون عدن نفسها سنة ١٥١٣ وهكذا ضاعت مكانة مصر فى الوساطة التجارية بين الشرق والغرب، الأمر الذى أدى إلى ذبول دولة المماليك ذبولا سريعاً متواصلا(١).

على أنه إذا كان الخطر الخارجى من جانب البرتغاليين قد ترتب عليه ذبول دولة المماليك ، فإن ثمة خطر خارجى آخر تفاقم فى أواخر عهد الغورى ، وترتب عليه سقوط سلطنة المماليك نفسها . ونعنى بهذا الخطر الجديد ، خطر بنى عثمان .

سقوط دولة المماليك :

والواقع إن الدولة العثمانية وصلت فى أوائل القرن السادس عشر إلى نقطة يمكن تسميتها مفترق الطرق ، بالنسبة لحركة التوسع الضخمة التى شرع فيها العثمانيون منذ عدة قرون . ففى أوائل القرن السادس عشر كان العثمانيون قد فرغوا من احتلال آسيا الصغرى والبلقان ووصلوا إلى أواسط أوربا ، وعندئذ صار أمامهم أن يختاروا بين أمرين ، إما الاستمرار فى التوسع فى أوربا على حساب الأوربيين المسيحيين مما أضفى على حركتهم التوسعية فى ذلك الاتجاه طابع الجهاد الدينى ، وإما الاكتفاء بما أصابوه من تقدم فى وسط أوربا أوصلهم إلى مدينة فييناذاتها ، والتوسع شرقا على حساب الدول الإسلامية المجاورة .

وكان أن اختار السلطان سليم العثمانى الاتجاه الأخير لاسيما وأن الخلاف المذهبى والسياسى كان على أشده بين العثمانيين السنيين من ناحية والصفويين الشيعة فى فارس والعراق من ناحية أخرى . ولم يلبث السلطان سليم العثمانى أن حقق انتصاراً كبيراً على الشاه اسماعيل الصفوى فى موقعة جالدران سنة ١٥١٤

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ٨٧ ، ٢٨٦ ، ٤٥٨ ، ٤٦٦ (نشر محمد مصطفى)

ومن الواضح أن انتصار العثمانيين على الصفويين، واستيلاء سليم الأول على الجزيرة والموصل وديار بكر ، وغيرها من النواحي ذات العلاقات الاقتصادية والسياسية القديمة بدولة المماليك ، جعل العثمانيين قاب قوسين أو أدنى من أطراف دولة المماليك في شمال الشام والعراق .

وقد استاء السلطان الغوري والأمراء لأخبار انتصار السلطان سليم العثماني على الصفويين « وخشوا من سطوته وشدة بأسه لما يحدث منه بعد ذلك إلى جهة بلاد السلطان »[١] ولم يخفف من مخاوف السلطان الغوري ما تردد من أخبار بعد ذلك بأن الصفويين انتصروا على العثمانيين ، لأنه أدرك أن بقاء دولة المماليك في ذلك الدور صار رهيناً باستمرار الصراع بين القوتين . لذلك صمم الغوري على الخروج إلى حلب « حتى نرى ما يكون من أمر الصوفي وابن عثمان ، فإن كل من انتصر منهما على غريمه لابد أن يزحف على بلادنا ... »[٢] .

ثم كان أن قضى سليم سنة ١٥١٥ على إمارة دلغادر ، وهي الإمارة التركمانية المشمولة بحماية المماليك ، الأمر الذي جعل السلطان الغوري يحس إحساساً قوياً بخطر العثمانيين الذي ازداد ملامسة لحدود دولته[٣] . وكان أن اتخذ السلطان الغوري عدة خطوات إيجابية ، فتحالف مع اسماعيل الصفوي من ناحية[٤] ، كما أوى الأمير قاسم العثماني — ابن أخي السلطان سليم — الذي فر من وجه عمه بعد أن قتل السلطان أباه أحمد (أبو القاسم وأخو سليم)[٥] .

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٣٩٧ ، وكذلك ص ٢٧٨ ، ٣٩٦ ، ٤٠٠ (نشر محمد مصطفى) .

(٢) المرجع السابق ج ٥ ص ٢٢ .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٤٦٢ — ٤٦٣ (نشر محمد مصطفى) .

(٤) المرجع السابق ، ج ٥ ص ٣٥ ، ويذكر ابن إياس أن الغوري أرسل للصفوي عدة أفيال يستعين بها في حرب سليم العثماني وكان إرسال هذه الأفيال في الخفية في خبر سر بينه وبين الصوفي » .

(٥) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٤٩ (نشر محمد مصطفى) .

وهكذا أصبح الصراع المكشوف متوقعاً بين لحظة وأخرى بين دولتى المماليك والعثمانيين . وسرعان ماجاءت الأخبار إلى السلطان الغورى بعظم الحشود والاستعدادات التى يجريها السلطان سليم العثمانى قرب حدود دولة المماليك ، ولم يصدق الغورى الإشاعات التى أطلقها السلطان سليم بأن تلك الاستعدادات إنما قصد بها محاربة الصفويين ، وإنما أوجس الغورى خيفة من نيات سليم وأخذ يحشد قواته على عجل لمواجهة الموقف . وفى تلك الأوقات العصيبة لم يتخل المماليك عن عبثهم ولم يقدروا خطورة الموقف الذى أوشك أن يعصف بهم جميعاً ، فثار الجلبان فى القاهرة لتأخر رواتبهم ، الأمر الذى أغضب السلطان الغورى فترك القلعة واعتزل فى المقياس وقال للأمراء « أنا مابقيت أعمل سلطاناً ، ولوا عليكم من تختاروه غيرى ! » . وقد استغل المماليك الجلبان تلك الفرصة ، فتمادوا فى العبث ونهبوا الدكاكين فى القاهرة ، واستمروا « يشوشون على الناس ويخطفون العمائم ... وحصل منهم الضرر الشامل »[1] وأخيراً استطاع كبار الأمراء أن يسترضوا السلطان الغورى ، فأنب المماليك قائلا : « لاتشمتوا العدو فينا ، وابن عثمان متحرك علينا »[2]

وفى الوقت الذى أخذ الغورى يكمل استعداداته ويصدر أوامره إلى الخليفة العباسى المتوكل والقضاة الأربعة بالتأهب لمصاحبته على رأس الجيش إلى حلب لمواجهة تهديد بنى عثمان ، إذا برسالة تصل من خاير بك نائب حلب تطمئن السلطان الغورى وتخبره أنه مخدوع فيما لديه من أخبار بصدد الاستعدادات العثمانية ، لأن تلك الاستعدادات إنما قصد بها حرب الشاه اسماعيل الصفوى . وستكشف الأحداث فيما بعد عن خيانة خاير بك هذا إذ أنه فى الواقع كان متصلا بالعثمانيين منذ وقت مبكر وقام بدور خطير

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور جـ٤ ص٤٨٤ (نشر محمد مصطفى) .

(٢) المرجع السابق جـ٥ ص ٧ .

فى تسهيل مهمة العثمانيين فى احتلال الشام ، ولكى يسبك خاير بك أكذوبته ، فإنه أخذ يروى فى رسالته إلى السلطان الغورى تاريخ الحرب بين العثمانيين والصفويين[١] ، كما اتصل بالأمير سيباى نائب الشام وطلب منه أن يطمئن السلطان الغورى ، فكتب سيباى إلى الغورى يخبره أن الأحوال الاقتصادية فى الشام سيئة بحيث لا تحتمل البلاد مجىء السلطان ومعه جيشه الغفير ، لاسيما وأن العثمانيين لم يتحركوا على الحدود « وإن كان العدو متحرك فنحن له كفاية »[٢] ! .

ولكن السلطان الغورى لم يأخذ بكلام خاير بك الخائن ومضى فى استعداداته فحشد الجند والأمراء فى الريدانية استعداداً للخروج إلى الشام. وفى تلك المرحلة وصلت السلطان الغورى رسالة ثانية من خاير بك يقول فيها إن رسولا جاءه من قبل السلطان العثمانى لمفاوضته فى الصلح ، ومع رسالة خاير بك رسالة من السلطان سليم نفسه إلى الغورى ، كلها ألفاظ معسولة لمحاولة بث الطمأنينة فى قلبه وصرفه عن الاستعداد للحرب ، إذ يقول السلطان سليم للغورى فى رسالته « ... أنت والدى وأسالك الدعاء ... وجميع ماترونه ويريده السلطان فعلناه »[٣] ... ومرة أخرى لم ينخدع الغورى بتلك الحيلة ، فلم يمض على تسلمه رسالة السلطان سليم يومان حتى خرج على رأس جيشه إلى الشام ، بعد أن أناب عنه أثناء غيبته الأمير طومانباى .

وعند غزة سمع السلطان الغورى لأول مرة بخيانة خاير بك ، ولكنه رفض تصديق التهمة ، ومضى فى طريقه حتى وصل حلب فى يوليو سنة ١٥١٦[٤] .

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور جـ٥ ص٢٣ (نشر محمد مصطفى)
(٢) ابن إياس : بدائع الزهور جـ٥ ص٢٦ (نشر محمد مصطفى) .
(٣) المرجع السابق جـ٥ ص٤٥ (نشر محمد مصطفى)
(٤) ابن زنبل : آخرة المماليك ص١٥ .

وهناك فى حلب اعتدى جيش الغورى على الأهالى وأخرجوا الناس من بيوتهم وسبوا حريمهم وأولادهم « وكان ذلك سببا (فيما بعد) لقيام أهل حلب مع السلطان سليم على الجراكسة ، لشدة ما حل بهم من الضرر منهم »[١] . وكان أن وصل معسكر الغورى فى حلب رسولان من قبل السلطان سليم العثمانى يطلبان المفاوضة فى الصلح ، وذلك بقصد خديعته وإحاطته بجو من السلامة والطمأنينة حتى يأخذه سليم على غرة . وقد تمادى الرسولان فى التمويه على الغورى فقالا له « نحن فوض لنا أستاذنا الأمر ، وقال مهما اختاره السلطان افعلوه ولا تشاورونى » . ويرى ابن إياس أنه « من جملة مخادعة ابن عثمان إلى السلطان أنه أرسل يطلب منه سكر وحلوى فأرسل إليه السلطان مائة قنطار سكر وحلوى فى علب كبار ، وكل ذلك حيل منه ! »[١] ومع أن الغورى استقبل الرسولين استقبالا حسنا وأرسل بدوره للسلطان سليم يؤكد رغبته هو الآخر فى الصلح ، إلا أن سلطان المماليك كان يحس بنية العثمانيين بدليل أن الغورى استدعى أمراءه جميعا — ومن جملتهم خاير بك — وحلفهم على القرآن فى حضرة الخليفة العباسى بأنهم لن يخونوه فى ساعة الشدة ، مما يدل دلالة واضحة على أنه توقع الشر من سليم[٣] .

ولم تلبث أن تحققت مخاوف الغورى ، إذ لم تكد تصل الإمدادات بقيادة الصدر الأعظم سنان باشا إلى سليم ، حتى أساء معاملة الرسول الذى أوفده الغورى إليه ورفض الحديث معه فى الصلح وقال له « قل لأستاذك يلاقينا على مرج دابق » وهكذا عاد رسول الغورى إليه « وهو فى حال نحس ، ليخبره بما حدث ، وبأن العثمانيين تحركوا فعلا واستولوا على ملطيه وكركر وبهسنا

---

(١) ابن زنبل : آخرة المماليك ص٢٢

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور جـ٥ ص٦٠ (نشر محمد مصطفى) .

(٣) ابن زنبل : ص٢٤

وغيرها من القلاع(١) وفى ذلك الموقف أدرك الأمير سيباى نائب الشام أن خاير بك غرر به عندما استحثه على الكتابة للسلطان الغورى فى مصر يطمأنه من ناحية سليم ، فهجم سيباى على خاير بك وأمسك به صائحاً « يامولانا السلطان إن أردت أن تنتصر على عدوك بإذن الله ، فاقتل هذا الغادر الخائن فى الحال ! »(٢) ، ولكن خاير بك لم يكن وحده فى الخيانة إذ كان له شريك هو الأمير جانبردى الغزالى نائب حماه ، الذى أسرع بالتدخل وأقنع السلطان بعدم السماع لتلك التهم حتى لا يؤدى ذلك إلى بعثرة الجهود وفرقة الصفوف وبذلك ترك خاير بك حراً طليقاً ليتم الدور الذى بدأه (٣) .

وكان أن خرج الغورى على رأس جيشه متجهاً شمالا لملاقاة العثمانيين . وعند دابق — إحدى قرى بلدة عزاز — أخذ الغورى ينظم جيشه ويصدر تعليماته النهائية استعداداً للمعركة المقبلة . ولم تلبث أن لاحت مقدمة الجيش العثمانى ثم دارت المعركة بين الطرفين فى أغسطس سنة ١٥١٦ . وفى تلك المعركة أبدى المماليك وسلطانهم الغورى شجاعة نادرة أفاضت فى وصفها كتب التاريخ ، فقتلوا كثيراً من العثمانيين واستولوا على بعض عددهم وأعلامهم ، حتى لقد فكر السلطان سليم نفسه فى « الهروب أو طلب الأمان » عسى أن يتمكن من إعادة تنظيم صفوفه(٤) وفى تلك الساعة الحرجة ظهر خاير بك ليتم دوره الآثم فأخذ يطلق الإشاعات الكاذبة بين صفوف المماليك المقاتلين ، فهو حيناً يشيع إن السلطان الغورى أمر مماليكه الأجلاب بألا يتقدموا ، الأمر الذى جعل بقية طوائف المماليك يستاءون من السلطان ويظنون أنه إنما يبغى أن يجعلهم وحدهم

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٦٤ ، ٦٨ .
(٢) ابن زنبل : آخرة المماليك ص ٣٥ .
(٣) زيادة : نهاية السلاطين المماليك فى مصر ص ٢١٨ .
(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٦٩ (نشر محمد مصطفى) .

وقود تلك الحرب ويحتفظ بمماليكه سلاماً معافين(١) ؛ وحيناً آخر يشيع خاير بك أن السلطان الغورى سقط قتيلا فى المعركة ويتراجع هو وجنوده مولين الأدبار ، ليحذو حذوهم بقية الجيش المماليكى(٢) .

وأخيراً أدرك السلطان الغورى حقيقة الخيانة، بعد أن وجد معظم جيشه ولى الفرار وعبثاً حاول الغورى أن يستحث جيشه على الثبات، فأخذ يصيح « يا أغوات ! هذا وقت المروءة هذا وقت النجدة ! يا أغوات ! الشجاعة ! صبر ساعة ! (٣) » وكان أن تقدم الأمير تمر الزردكاش إلى السلطان وأخذ العلم السلطانى وطواه خشية أن يقع فى يد الأعداء ، ثم نظر إلى السلطان الغورى وقال له « يامولانا السلطان ! إن عسكر ابن عثمان قد أدركنا ، فانج بنفسك واهرب إلى حلب ! » ويقال إن الغورى لم يحتمل قسوة الموقف فأصيب بفالج وطلب بعض الماء ليشرب ، ثم سقط من فوق فرسه ميتاً على الأرض(٤) .

وهكذا انتهت موقعة مرج دابق ، وهى الموقعة الفاصلة بين المماليك والعثمانيين والتى حددت مستقبل مصر والشام لعدة قرون تالية ذلك أن فلول الجيش المماليكى أسرعت إلى حلب ومنها إلى دمشق فمصر دوهم فى أتعس حال، فوصلوا القاهرة فى أكتوبر سنة ١٥١٦ ، وعندما تأكد أهل القاهرة من خبر

---

(١) ابن زنبل : آخرة المماليك ص ٢٨ .

(٢) ويفهم من كلام المؤرخ ابن إياس (ج ٥ ص ٧٩) أن خاير بك لم يكن وحده فى جريمة الخيانة ، وإنما وجد كثيرون من أمراء الغورى وخصيانه كانوا موالين عليه ... وكانوا مع ابن عثمان فى الباطن ويكاتبونه بأحوال السلطان وما يقع من أخبار المملكة » . ويشهد هذا على مدى انحلال المماليك فى أواخر أيامهم .

(٣) ابن زنبل آخرة المماليك ص ٣٠ .

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ص ٧٠ (نشر محمد مصطفى) .

(ويروى ابن إياس أنه لم يعثر على أثر لجثة السلطان الغورى فيما بعد « فكأن الأرض انشقت وابتلعته فى الحال » ، فى حين روى ابن زنبل (ص ٣١) أن بعض أمراء المماليك قطعوا رأس الغورى ورموا بها فى جب حتى لا يعرف مكان جثته) فيعبث بها .

الهزيمة بعد أن رأوا بأعينهم فلول المماليك وقد عادوا فى حالة سيئة من الكسرة والهزيمة ، سرت فيهم موجة من الرعب والخوف « فقام العزاء والصراخ ... ورجت القاهرة فى ذلك اليوم وكثر الاضطراب والقال والقيل ... » ولم تكن هناك فسحة من الوقت للبحث والنقاش ، فأسرع الأمراء فى مصر باختيار طومان باى — نائب السلطنة — سلطاناً خلفاً للغورى فتمنع طومان باى فى أول الأمر غاية الامتناع حتى قال له الأمراء « ماعندنا سلطان إلا أنت طوعاً أو كرهاً »[1] . ومن الواضح أن منصب السلطنة فى تلك الظروف كان غير مرغوب فيه ، مما جعل كبار الأمراء يزهدون فيه . هذا إلى أن طومان باى — وهو أحد أمراء المماليك — كان يعرف ما اعترى أخلاق المماليك فى ذلك الدور من تدهور وفساد، فلم يقبل السلطنة إلا بعد أن أحضر مصحفاً شريفاً وحلف الأمراء « بأنهم إذا سلطنوه لا يخونونه ولا يغدرونه ولا يغامرون عليه ويرضون بقوله وفعله »[2] .

ولم تلبث أن جاءت الأخبار بأن العثمانيين استولوا على الشام فقال الناس « مابقى بعد أخذ الشام إلا مصر » ؛ فاشتد الهلع وأخذ كثيرون يفكرون فى الهروب إلى الصعيد ، فى الوقت الذى كان الناس « جرحهم طرى بسبب موت السلطان (الغورى) وكسرة العسكر (مرج دابق) » .

وفى تلك الأزمة الخطيرة لم يقدر جنود المماليك الموقف ، فاشترطوا على طومان باى للخروج والحرب مصاريف باهظة، فى الوقت الذى استولى العثمانيون على دمشق ودخلوا فملا غزة « وأحرقوا منها بعض بيوت ، وأن نائب غزة هرب » . وهكذا أخذ طومانباى يستحث العوام من « الذعر والصبيان

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٨٥ .
(٢) المرجع السابق ص ٨٦ .

والشطار ، حيناً ، ويتوسل إلى المماليك أحياناً ويقول لهم «اخرجوا وقاتلوا عن أنفسكم وأولادكم وأزواجكم ، فإن بيت المال لم يبق فيه درهم ولا دينار، وأنا واحد منكم ، إن خرجتم خرجت معكم ، وإن قعدتم قعدت معكم ، وما عندى نفقة أنفقها عليكم[١] !!» .

ولم يتحرك المماليك لدفع خطر الأعداء عن حدود مصر إلا فى ديسمبر سنة ١٥١٦ ، فخرجت حملة على رأسها جان بردى الغزالى - وهو الأمير الخائن شريك خاير بك . وقد رأى جان بردى الغزالى أن يسبك دوره فى الخيانة ، فلما رأى أن العثمانيين استولوا على غزة عرج عنها واتجه شمالا حيث تظاهر باشتباك مع العثمانيين فى معركة تمثيلية قرب بيسان ، وانهزم فيها[٢] .

وفى أوائل سنة ١٥١٧ تسلم طومان باى رسالة من السلطان سليم العثمانى يعيره فيها بأصله المماليكى ، ويقول له «إنك مملوك تباع وتشترى ولا تصح لك ولاية ملك» ويطلب منه أن يكون نائباً عنه فى مصر ، ويهدده إذا رفض ذلك بأنه سيدخل مصر ويقتل جميع من فيها من المماليك «أشق بطون الحوامل وأقتل الجنين الذى فى بطنها من الأتراك[٣]» وفى الوقت الذى أرسل السلطان سليم رسله وسفراءه لمطالبة طومانباى بالدخول فى طاعته ، دأب خاير بك الخائن على تسهيل مهمة العثمانيين ، فواصل إرسال الكتب إلى أمراء مصر «يرغبهم فى الدخول تحت طاعة ابن عثمان ويطنب فى محاسنه وعدله فى الرعية»[٤] .

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ١١٩ — ١٢١ (نشر محمد مصطفى) .
(٢) ابن زنبل : آخرة المماليك ص ٤٥ — ٤٦ ؟
محمد مصطفى زيادة : نهاية سلاطين المماليك ص ٢٢١ .
(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ١٢٥ .
(٤) ابن إياس بدائع الزهور ج ٥ ص ١٢٥ .
ويروى ابن زنبل (ص ٤٢) أن السلطان سليم لم يكن فى نيته أن يغزو مصر وأنه بعد أن استولى على حلب والشام فكر فى العودة إلى بلاده لولا خاير بك الذى حرضه على —

وقد أحس السلطان طومان باى بحرج موقفه وعظم الخطر الذى يهدده ويهدد مصر، حتى يقال إنه عندما تسلم رسالة سليم العثمانى « بكى وحصل له غاية الرعب » ومع ذلك فقد صمم طومان باى على الخروج لدفع العثمانيين، ولكنه لم يجد استجابة من المماليك الذين تخاذلوا ورفضوا الخروج، بل تطاولوا على السلطان طومان باى وقالوا له « إن رحت لعنة الله عليك؛ غيرك يجى يعمل سلطاناً! »[1] وعندئذ لم يسع طومان باى سوى الوقوف عند الريدانية - قرب العباسية بظاهر القاهرة - واتخاذ تلك البقعة مركزاً للدفاع ضد الغزو العثمانى للبلاد، ولكن العثمانيين الذين وصلوا عن طريق الشرقية فى أواخر يناير سنة ١٥١٧ حاولوا دخول القاهرة وتحاشى الاصطدام بالمماليك، فلحق بهم طومانباى وأظهر « همة عالية » ودارت معركة عنيفة بين الطرفين قتل فيها سنان باشا الصدر الأعظم، واستمر طومانباى يقاوم فى شجاعة نادرة؛ حتى ألفى نفسه وحيداً فى نهاية الأمر، فاضطر إلى الفرار[2]. والواقع أنه لم يكن هناك ثمة مناص من هزيمة الريدانية، لأن الأمير جان بردى كان متصلا بشريكه الخائن خاير بك، ولم يقنع بإفشاء خطة المماليك عن طريق خاير بك إلى السلطان سليم مما أدى إلى تجنب العثمانيين تحصينات الريدانية؛ بل نجح فى إقناع طومانباى بضرورة إخفاء الطوارق والمكاحل حتى المرحلة الأخيرة من مراحل القتال، مما كان له أسوأ الأثر فى الجند حين وجدوا أنفسهم وراء الخندق معرضين لبنادق العثمانيين[3].

ومن الواضح أن هزيمة المماليك فى الريدانية جعلت القاهرة تحت رحمة

— فز ومصر، وقال له: « نركب إلى مصر نأخذها، ونقطع هذه الطائفة الجراكسة من أرض مصر جملة واحدة، وأنا ضامن لك هذا الأمر بعناية الله! »

(١) ابن إياس: بدائع الزهور ج ٥ ص ١٢٦.

(٢) محمد مصطفى زيادة: نهاية السلاطين المماليك ص ٢٢٤.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور ج ٥ ص ١٤٥ — ١٤٦ (نشر محمد مصطفى).

العثمانيين ، فدخلت الجيوش العثمانية مدينة القاهرة فى اليوم التالى لموقعة الريدانية - وهو يوم الجمعة ٢٣ يناير سنة ١٥١٧ - دون أن تلق مقاومة ؛ وفى ذلك اليوم بالذات دعى فى خطبة الجمعة فى مساجد القاهرة للسلطان « الملك المظفر سليم شاه » وكان طبيعياً أن يعمل العثمانيون السيف فى كل من صادفوه من المماليك فى شوارع مصر ؛ كما استباحوا لأنفسهم نهب القاهرة « فانفتحت للعثمانية كنوز الأرض بمصر من نهب قماش وسلاح وخيول وبغال وجوار وعبيد وغير ذلك من كل شيء فاخر ... »[1] . أما طومانباى الذى فر من الريدانية فإنه لم يلق السلاح فى سهولة ، وإنما استمر يقاوم المعتدين ، واشتبك معهم فى معركة الصليبة ، ولكنه هزم وفر إلى البهنسا بالصعيد حيث فكر فى الصلح مع سليم ؛[2] فأرسل يعرض عليه أن يكون نائباً عنه فى حكم مصر ويعمل الخطبة والسكة بإسمه ، ويعمل له خراج البلاد ؛ بشرط أن يرحل سليم وجنوده عن مصر « وإن كنت ما ترضى بذلك فاخرج ولاقيني فى بر الجيزة »[3] وكان طبيعياً أن يرفض سليم العثمانى الجلاء عن البلاد بعد أن تمكن منها ، فعاد طومانباى إلى الجيزة حيث دارت اشتباكات بينه وبين العثمانيين عبر النيل ؛ ثم التق الفريقان فى معركة عنيفة عند وردان فى أول أبريل سنة ١٥١٧ ، ولكنها انتهت أيضاً بانتصار العثمانيين .

وهكذا لم ييأس طومانباى من المقاومة واستمر فى ذلك الدور ينزل أفدح الخسائر بالعثمانيين ، الأمر الذى أغاظ السلطان سليم ، فصب جام غضبه على خاير بك الذى حرضه على فتح مصر ، وقال له « أنت أغررتنى وطمعتنى فى أخذ

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ١٥١ — ١٥٥ .

(٢) المرجع السابق ص ١٥٩ — ١٦٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٦٦ .

هذا الإقليم ، فانظر كيف تصنع ودبر نفسك كيف تعرف ، وإلا فيا برأسك !! »[1] .

أما طومان باى فقد تعرض فى ذلك الدور لعقبات شديدة بسبب تفرق رجاله وانفضاضهم عنه ، فضلا عن خيانة البدو والأعراب الذين دأبوا على مهاجمته مما أوقعه بين نارين . وأخيراً وجد طومان باى نفسه وحيداً عاجزاً عن المقاومة ، فجمع من حوله من أفراد المماليك وقال لهم « لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم !! اعلموا ياأغوات أن دولتنا قد دالت وآجالنا قد مالت ، وما بقى لنا فى هــــذه الديار نصيب !! » ولم يجد طومان باى مخرجاً سوى أن يحتمى فى مدينة سخا بالشيخ حسن بن مرعى ـ أحد مشايخ العربان وكان بينه وبين طومان باى صداقة قديمة ـ ولكن الشيخ خانه ، وأرسل إلى سليم وسلمه إليه[2] . وما كاد السلطان سليم يتحقق من خبر القبض على طومان باى حتى فرح فرحاً شديداً وقال « الآن ملكنا ملك مصر ! »[3] . وكان أن أحضر طومان باى مقيداً بالحديد فى حضرة السلطان سليم الذى أخذ يوبخه ويقرعه على مقاومته وأعماله ، ولكن طومان باى لم يفقد رباطة جاشه ووقف أمام سليم ليدافع فى شجاعة عن سلوكه ويعلن فى صراحة أنه لم يفعل إلا ما يمليه عليه واجبه وشرفه . ومما يؤثر عن طومان باى فى ذلك الموقف أنه قال للسلطان سليم العثمانى « الأنفس التى تربت فى العز لا تقبل الذل ، وهل سمعت أن الأسد يخضع للذئب ؟ لا أنتم أفرس منا ولا أشجع منا ، وليس فى عسكرك من يقايسنى فى حومة الميدان !! » ويذكر ابن إياس أن السلطان سليم أعجب فعلا بشجاعة غريمه فأشار إلى طومان باى وقال « والله مثل هذا الرجل لا يقتل » ، وأوشك

---

(١) ابن زنبل : آخرة المماليك ص ٧٠ .

(٢) ابن زنبل : آخرة المماليك ص ١٢٢ — ١٣١ .

(٣) ابن زنبل : آخرة المماليك ص ١٣٢ .

أن يبقى على حياته فيرسله منفياً إلى مكة أو يصطحبه معه إلى القسطنطينية ، لولا تحريض الخائنين خاير بك وجانبردى للسلطان سليم ، مما جعله يأمر بإعدام طومانباى[1] .

وقد تلقى آخر سلاطين المماليك القرار بإعدامه فى يسر وثبات ، فحمل الى باب زويلة فى اليوم المحدد لإعدامه ، وأخذ يسلم على الناس على طول الطريق ، حتى أرخى له المشاعلى حبل المشنقة ، وعندئذ طلب طومان باى من الناس أن يقرأوا له الفاتحة ثلاث مرات ، وبسط يديه إلى السماء وقرأ الفاتحة من نفسه فى صوت مسموع ، ثم التفت إلى المشاعلى وقال له « اعمل شغلك ، فوضع الحبل فى رقبته ، وما هى إلا لحظات حتى سقط آخر سلاطين المماليك ميتاً على عتبة باب زويلة . وبذلك انتهت سلطنة المماليك لتظل مصر والشام بضعة قرون تحت السيادة العثمانية[2] .

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ١٧٥ ؟
ابن زنبل : آخرة المماليك ص ١٣٦ .
(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ١٧٦ .

الفصل السابع

بلاد الشام فى عصر سلاطين المماليك

امتداد نفوذ المماليك إلى الشام :

رأينا عند كلامنا على قيام دولة المماليك ، كيف أن بنى أيوب لم يرضوا عما فعله المماليك فى مصر من قتل توران شاه واغتصاب حكم مصر من أصحابها الشرعيين من بنى أيوب . وقد حاول الملك الناصر يوسف الأيوبى صاحب حلب ودمشق غزو مصر والقضاء على المماليك سنة ١٢٥٠ ، ولكن أقطاى هزمهم عند غزة . وعندما تكررت المحاولة فى نفس العام ، أنزل أيبك هزيمة كبرى بالجيوش الأيوبية عند العباسة قرب الصالحية[١] .

والواقع أنه لم يخفف من حدة الصراع فى ذلك الدور بين الأيوبيين فى الشام والمماليك فى مصر سوى اشتداد خطر التتار بزعامة هولاكو على الوطن العربى فى الشرق الأدنى . وكانت الخلافة العباسية فى بغداد أشد إحساساً بذلك الخطر ، بحكم تطرف العراق نحو الشرق ، فأسرع الخليفة العباسى بإصلاح ذات البين بين الأيوبيين بالشام والمماليك بمصر ، حتى تم الصلح بين الطرفين فى أبريل سنة ١٢٥٣ ، وبمقتضى ذلك الصلح تم الاتفاق على أن يكون لسلطنة المماليك نهر الأردن بما فى ذلك غزة والقدس ونابلس والساحل ، فى حين تكون بقية بلاد الشام للأيوبيين[٢] .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٧٢ — ٣٧٤ ؛
أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ص ١٨٤ .
(٢) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٣٨٥ .

وترجع أهمية ذلك الصلح إلى أنه جاء بمثابة اعتراف رسمي من الأيوبيين وعلى رأسهم الملك الناصر يوسف الأيوبي بدولة المماليك . وليس معنى ذلك أن الأيوبيين رضوا عن حقيقة قيام دولة المماليك على حساب جزء من ممتلكات بنى أيوب ، بل ظل الأيوبيون رغم صلح سنة ١٢٥٣ في حالة قلق وعدم رضى ، بدليل أنهم انتهزوا فرصة هرب بعض زعماء البحرية إلى الشام عقب مقتل أقطاى وقاموا بمحاولة جديدة لهدم دولة المماليك والاستيلاء على مصر سنة ١٢٥٥ (١) . ومرة أخرى أسرع الخليفة العباسى إلى التوفيق بين الطرفين ، وتجديد الصلح بين الناصر يوسف والمعز أيبك . هذا وإن كان زعماء البحرية بالشام قد حرضوا الملك المغيث عمر الأيوبي في الكرك على مهاجمة مصر ، ولكن المحاولتين اللتين قام بهما المغيث عمر سنتى ١٢٥٧، ١٢٥٨ باءتا بالفشل (٢) .

ثم كان أن حدث ما توقعته الخلافة العباسية ، فاجتاح التتار العراق وسقطت بغداد في أيديهم سنة ١٢٥٨ ، وبعد ذلك جاء دور الشام ومصر . وفي تلك الأزمة التي ألمت بالوطن العربي في الشرق الأدنى أظهر الأيوبيون تخاذلا واضحا ، فأرسل الناصر يوسف ابنه العزيز إلى هولاكو يطلب منه مساعدته في القضاء على دولة المماليك وفتح مصر . حقيقة إن الناصر يوسف عاد فأحس بخطر التتار على ممتلكاته في بلاد الشام ، ولكن ذلك كان بعد فوات الأوان ، فنجح هولاكو في امتلاك حلب ودمشق ، وزحف التتار جنوبا في فلسطين صوب مصر (٣) .

ومن المعروف أن الوظيفة الأولى لأى حاكم أو أية حكومة هي توفير الأمن

---

(١) أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ص ١٩٠ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٤٥ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ص ١٩٩ ؟

المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤١٩ .

والسلام والاستقرار للرعايا وحمايتهم من الأخطار الخارجية والداخلية التي قد يتعرضون لها . فإذا فشل الحاكم أو فشلت الحكومة في تحقيق ذلك الغرض فقدت أهميتها التي قامت من أجلها ، وبدت في نظر الشعب في صورة غير شرعية فلاداعي لتقديم الولاء والطاعة لحاكم ليس أهلا للنهوض بالمهمة الأساسية التي رشحته الأحداث لها . ومعنى ذلك أنه إذا كان ملوك البيت الأيوبي بالشام قد نادوا دائما بأنهم ورثة صلاح الدين وأنهم هم أصحاب الحق الشرعي في حكم مصر والشام ، فإن هذه الدعوى لم يعد لها سند واضح بعد أن عجز الأيوبيون عن دفع خطر التتار ، فسقطت بلاد الشام مدينة بعد أخرى في قبضة رجال هولاكو ، بل لقد انضم بعض ملوك بني أيوب إلى صفوف التتار وعاونوهم في زحفهم . وتروي لنا المراجع أن حلب لم تكد تسقط في أيدي التتار حتى أسرع الأشرف موسى الأيوبي صاحب حمص إلى حلب ليقدم فروض الطاعة لهولاكو ، في حين فر الملك المنصور صاحب حماه إلى مصر ومعه حريمه وأولاده تاركا حماه وشأنها (١). أما الناصر يوسف فقد فر من دمشق إلى غزة عن طريق نابلس بنية الهروب إلى مصر ، وترك دمشق خالية (٢) ! ولكن الناصر يوسف لم يلبث أن وقع في قبضة التتار فصفا عنه هولاكو ووعده بإعطائه حكومة الشام بعد أن يستولي التتار على مصر ، فاستمر الناصر يوسف تابعا لهم ، ولقي معهم في ذل وهوان إلى أن قتل(٣) . كذلك وقع الملك السعيد - ابن الملك العزيز عثمان الأيوبي - في قبضة هولاكو الذي ولاه على الصبيبة وبانياس . ولم يخجل الملك السعيد بعد ذلك من معاونة التتار ومصاحبتهم ، فصار معهم وأعلن الفسق

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٤٢٣ ؛
أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٥٨ هـ .

(٢) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٤٢٣ ؛

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٧٧ .

والفجور وسفك دماء المسلمين .. »(١) .

ولاشك فى أن ذلك السلوك الشائن الذى سلكه ملوك الأيوبيين فى الشام جاء بمثابة فصل الختام لدولتهم ، وإعلانا لتنازلهم عن حقوقهم فى الملك بعد أن تقاعسوا عن حماية ذلك الملك . وصار منطق الأحداث يحتم أن تدول دولة بنى أيوب ليرثهم فى ملكهم إما التتار وإما المماليك ، حسبما تقرره المعركة المنتظرة بين هاتين القوتين (٢) .

وفى الوقت الذى أثبتت الاحداث ضعف الأيوبيين وعجزهم عن حماية المسلمين فى بلاد الشام من خطر التتار ، إذا بالمماليك يظهرون على المسرح لينزلوا بالتتار ضربة كبرى فى موقعة عين جالوت سنة ١٢٦٠ ، وبذلك ظهر المماليك فى صورة القوة الكبرى فى الشرق الأدنى التى استطاعت أن تحمى كيان أهل مصر والشام من ذلك الخطر الوثنى الرهيب . ولاشك فى أن فشل الأيوبيين فى صد خطر التتار ، ونجاح المماليك فى القضاء على ذلك الخطر ، جاء بمثابة فصل الخطاب بين المماليك والأيوبيين ، وخاتمة لحركة التنافس بين هاتين القوتين على مسرح الشام ، بعد أن صار من الواضح أن قوة الايوبيين المتداعية لن تستطيع بحال الصمود فى وجه قوة التتار .

وكان أن استطاعت جيوش المماليك بعد عين جالوت إجلاء التتار عن دمشق وحماه وحلب ومطاردتهم حتى أطراف بلاد الشام . ومعنى ذلك أن نفوذ المماليك امتد إلى بلاد الشام فجأة بعد عين جالوت ، فأناب السلطان المظفر قطز الأمير سنجر الحلبى فى دمشق . وإذا كان المظفر قطز قد أقر بعض ملوك بنى أيوب فى حكم بلاد الشام — مثل الأشرف موسى صاحب حمص والملك المنصور

---

(١) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٥٨ هـ ؛
المقريزى السلوك ج ١ ص ٤٢٠

(2) Grousset : Hist des Croisades, III, p. 586 - 587 .

صاحب حماه — فإن هؤلاء الملوك الأيوبيين تغير وضعهم وأصبحوا تابعين لسلطان المماليك فى مصر(١) . ولم يبق من ملوك الأيوبيين بالشام من ظل خارجا عن نفوذ سلطنة المماليك سوى الملك المغيث عمر صاحب الكرك والشوبك ، فأرسل السلطان الظاهر بيبرس سنة ١٢٦١ من نوابه من تسلم الشوبك من الملك المغيث . كما قبض على الملك المغيث نفسه سنة ١٢٦٣ واعتقله فى قلعة الجبل وعين أحد أمرائه نائبا للكرك (٢) .

وإذا كان المماليك قد ظهروا فى صورة ورثة الأيوبيين فى حكم مصر والشام ؛ فإن معنى ذلك أن المماليك لم يرثوا الأيوبيين فى ملكهم العريض فحسب ، بل أيضا فى سياستهم الخاصة بالجهاد . هذا بالإضافة إلى أن المماليك كانت عندهم عقدة كبيرة من ناحية أصلهم غير الحر ، فضلا عن اغتصابهم الحكم من أصحابه الشرعيين وهم الأيوبيون ، ولذلك حرص المماليك منذ أن استقرت لهم الأوضاع فى مصر والشام على أن يظهروا أمام أهل مصر والشام فى صورة حماة المسلمين وزعمائهم فى حركة الجهاد ضد الصليبيين . ولم يلبث سلاطين المماليك أن استأنفوا سياسة الأيوبيين ، بحيث أنه لم يكد يمضى على قيام دولة المماليك نحوا من أربعين سنة حتى تم طرد الصليبيين نهائيا من بلاد الشام ، وبذلك أصبحت لا توجد قوة تهيمن على بلاد الشام غير قوة المماليك .

ذلك أن السلطان الظاهر بيبرس استولى على قيسارية سنة ١٢٦٥ ، ثم استولى على أرسوف بعد قليل وعلى صفد فى العام التالى(٣) . ولم يلبث أن أخذ يتابع انتصاراته فى سرعة مذهلة ، فاستولى على طبرية وعلى قلعة يافا سنة ١٢٦٨

(١) المقريزى السلوك ج ١ ص ٤٣٢ .
(٢) المرجع السابق ص ٤٤٧
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقة ٤١٣ (مخطوط) .
(٣) ابن أبى الفضائل : النهج السديد ص ١٣٢ ، ١٤٨ .

ثم على المقيف ، حتى توج انتصاراته على الصليبيين بالاستيلاء على أنطاكية — كبرى المدن الصليبية فى شمال الشام — فى مايو سنة ١٢٦٨ (١) .

ولم يكن خلفاء بيبرس من سلاطين المماليك أقل حماسة لمحاربة الصليبيين فاستطاع السلطان المنصور قلاون الاستيلاء على طرابلس سنة ١٢٨٩ ، وبذلك لم يبق للصليبيين من ملكهم العريض ببلاد الشام سوى عكا وصيدا وصور وعثليث ، وقد استولى السلطان الأشرف خليل بن قلاون على عكا سنة ١٢٩١ ، ولم تكد تنتهى تلك السنة حتى استسلمت آخر البقايا الصليبية بالشام وبذلك تم طرد الصليبيين نهائيا من تلك البلاد (٢) .

وبتطهير بلاد الشام من التتار والصليبيين جميعا ، استقرت الأمور نسبياً للمماليك فى بلاد الشام كما أن تلك البلاد دخلت دوراً جديداً فى تاريخها يتناسب وأهميتها الجغرافية والسياسية والاقتصادية من ناحية ، فضلا عن أهميتها بوصفها إقليما هاماً من الإقليمين الكبيرين اللذين تألفت منهما دولة المماليك من ناحية أخرى .

التقسيم الادارى ببلاد الشام فى عصر المماليك :

قسم المماليك بلاد الشام من الناحية الإدارية إلى ستة أقسام تسمى نيابات ، تخضع للحكومة المركزية فى القاهرة . أما هذه النيابات فهى نيابة دمشق ونيابة حلب ونيابة طرابلس ونيابة حماه ونيابة صفد ونيابة الكرك ، ويبدو أن هــــذا التقسيم فى حد ذاته كان ضرورياً لأنه يتفق مع طبيعة بلاد الشام الجغرافية حتى أن معظم تلك النيابات التى نراها فى بلاد الشام على عصر سلاطين المماليك ، إنما كانت فى حقيقة أمرها أقساما إدارية واضحة فى

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٤
(٢) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٩٠ هـ .

العصور السابقة ، بل لقد وصل بعضها فعلا - قبل عصر المماليك - إلى درجة الدول المستقلة ، مثل طرابلس ودمشق وحلب[١] على أنه ينبغى من باب الدقة التاريخية أن نشير إلى أثر عصر الحروب الصليبية بالذات فى إبراز أهمية بعض أقاليم الشام ، مما تطلب جعلها نيابات ، وذلك مثل نيابة الكرك ذات الموقع الهام على ملتقى الطرق البرية بين مصر والشام والحجاز ، مما جعلها تقوم بدور خطير بالنسبة لمواصلات المسلمين على عصر الحروب الصليبية .

وثمة ملحوظة أخرى هى أن تلك النيابات الست لم تنشأ فى وقت واحد أو سنة واحدة ، لأن طبيعة انتشار النفوذ المماليكى على بلاد الشام اتصفت بالتدرج ، الأمر الذى جعل ظهور التقسيم الإدارى لبلاد الشام فى عصر المماليك يأتى على مراحل . من ذلك أن تاريخ إنشاء نيابتى دمشق وحلب يأتى سنة ١٢٦٠ عقب هزيمة التتار فى عين جالوت مباشرة . أما حماه - فكما سبق أن ذكرنا - اختار المماليك عقب عين جالوت أن يبقوا على الأيوبيين فيها ، فعفا السلطان قطز عن الملك المنصور الثانى الأيوبى صاحب حماه وأقره على حكمها[٢] ، وبذلك لم تصبح حماه نيابة فى عصر المماليك إلا سنة ١٣٤١ ، أى بعد وفاة المؤيد على آخر ملوكها من بنى أيوب . وأما نيابة الكرك فيبدأ تاريخها فى عصر المماليك سنة ١٢٦٣ على عهد السلطان بيبرس أيضاً ، ومثلها نيابة صفد التى ترجع إلى سنة ١٢٦٦ ، أما نيابة طرابلس فترجع نشأتها إلى عهد السلطان قلاون الذى استولى على تلك المدينة من الصليبيين سنة ١٢٨٩[٣] .

---

(١) Demombynes : La Syrie a l'epoque des Mamelouks, p. 106.

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٣٣ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٤٧ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ، ص ٣٢١

ولما كانت كل من هذه النيابات الشامية لها وضعها الخاص ، وتمتد لتشمل مساحة كبيرة ، ويتبعها من الناحية الإدارية عدد من المدن أو الموانى أو القلاع الهامة ؛ فإنه روعى أن تقسم كل نيابة منها إلى أقسام إدارية صغيرة هى التى أطلق عليها القلقشندى اسم « النيابات الصغار »(١). ولكى تتضح صورة كل نيابة من هذه النيابات فى عصر المماليك يحسن تناولها بكلمة موجزة :-

أولا : نيابة دمشق . . وهى كبرى نيابات الشام فى عصر المماليك ، حتى أطلق عليها القلقشندى اسم « نيابة الشام » أو « مملكة الشام » ؛ ووصفها بأنها « أجل نيابات المملكة الشامية وأرفعها فى الرتبة »(٢). وقاعدة هذه النيابة مدينة دمشق التى اختصها سلاطين المماليك بعنايتهم وأقاموا فيها كثيرا من المنشآت . من ذلك مايقال من أن الظاهر بيبرس جدد شرفات قلعة دمشق ورءوس أبراجها التى كان التتار قد هدموها ، وبنى فيها حماما ، كما جدد مشهد زين العابدين رضى الله عنه بجامع دمشق ، وأمر بترخيم الحائط الشمالى وتجديد باب البريد وفرشه بالبلاط . هذا كله عدا القصر الأبلق الذى شيده بيبرس بالميدان فى دمشق ، وما حوله من العمائر(٣).

وكان يتولى أمر مدينة دمشق والى ينظر فى شئون المدينة ويتحدث فى أمر الشرطة ، فى حين كان يتولى أمر ضواحى دمشق - وهو الإقليم الذى يعرف باسم البر - والى آخر(٤). وكان يتبع نيابة دمشق عدة نيابات صغرى وولايات . أما النيابات الصغرى فأهمها غزة والقدس وصرخد وعجلون وبعلبك وحمص ومصياف والرحبة ، مع ملاحظة أن غزة صارت أحيانا نيابة قائمة بنفسها

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٢ ص ٩ .
(٢) المرجع السابق : ج ٤ ص ١٨٠ ، ١٨٤ .
(٣) ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات - ترجمة بيبرس .
(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨٧ .

فى القرن الرابع عشر(١). وأما ولايات نيابة دمشق فعديدة أهمها الرملة وبيسان والبقاع وبيروت وصيدا وقارا وغيرها.

ثانيا : نيابة حلب ، وكانت تتمتع هى الأخرى بأهمية خاصة فى عصر المماليك نظراً لخطورة موقعها على الأطراف الشماليه لدولة المماليك مما جعلها محورا لكثير من أحداث العلاقات المضطربة بين المماليك من ناحية وجيرانهم مثل التتار والتركمان والعثمانيين من ناحية أخرى. لذلك اشتملت نيابة حلب على عدد كبير من النيابات الصغرى ليس له مثيل فى بقية نيابات الشام ؛ ومن هـــذه النيابات الصغرى التابعة لنيابة حلب نيابة قلعة الروم أو قلعة المسلمين غربى الفرات فى مواجهة البيرة ، ونيابات الكختا وكركر وبهسنى وسميساط وعينتاب ودربساك والراوندان وبغراس والقصير والشغر وبكاس، هذا فضلا عن عدد آخر من النيابات الصغرى كانت تقع خارج حدود الشام ولكنها تتبع نيابة حلب بحكم ملكية دولة المماليك لها. ومعظم هذه النيابات الصغرى الأخيرة كانت داخل بلاد الأرمن ، مثل ملطية و دبركى ودرنده والأبلستين وإياس وطرسوس وأذنه وغيرها(٢).

أما ولايات النيابة الحلبية فأهمها بر حلب وكفرطاب وعزاز وتل باشر ومنبج وتيزين والباب وبزاعا وأنطاكية(٣).

ثالثا : نيابة طرابلس ؛ وكانت تشمل من النيابات الصغرى نيابة حصن الأكراد ونيابة حصن عكار ونيابة بلاطنس ونيابة صهيون ونيابة اللاذقية ؛ هذا فضلا عن ست نيابات صغرى أخرى أسماها القلقشندى « نيابات قلاع

---

(1) Demombynes, op cit., p 174

ابن فضل الله العمرى : التعريف ص ١٧٧ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ص ٢٢٦ ومابعدها .

(٣) المرجع السابق ج ٤ ص ٢٣ .

الدعوة ، ؛ أى أنها كانت مراكز جماعة الاسماعيلية الباطنية ، وهى نيابة الرصافة ونيابة الخوابى ونيابة القدموس ونيابة الكهف ، ونيابة المنيقة ونيابة القليعة .

أما الولايات التابعة لنيابة طرابلس فعددها ست هى : أنطرطوس ، وجبة المنيطرة ، والظنين ، وبشرية ، وجبلة وأنفة[١] .

رابعا : نيابة حماه ، ومركز هذه الولاية مدينة حماه ، ولا يتبعها نيابات صغرى ، وإنما يتبعها ثلاث ولايات هى : ولاية بر حماه ، وولاية بارين ، وولاية المعرة[٢] .

خامسا : نيابة صفد ، وهى المدينة الحصينة التى ترتفع عن سطح البحر نحوا من ألف وستمائة قدم ، والتى جدد بيبرس قلعتها بعد أن استولى عليها من الصليبيين ، وليس لهذه النيابة نيابات صغرى — مثل نيابة حماه — وإنما تتبعها إحدى عشرة ولاية هى ولاية بر صفد ، وولاية الناصرة وولاية طبرية ، وولاية تبنين وهونين وولاية عثليث وولاية عكا ، وولاية صور وولاية الشاغور وولاية الإقليم ، وولاية الشقيف ، وولاية جينين[٣] .

سادسا : نيابة الكرك ، وليس لها نيابات صغرى هى الأخرى وإنما تتبعها أربع ولايات هى ولاية بر الكرك ، وولاية الشوبك ، وولاية زغر ، وولاية معان[٤] .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٣٥ — ٢٣٦ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٣٩ .
(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٤٠ — ٢٤١ .
(٤) المرجع السابق ص ٢٤٢ .

وبعد ، فهذا عرض سريع لنيابات الشام في عصر المماليك . أما عن أنظمة الحكم في تلك النيابات ، فأول ما يلاحظ عليها أن كلا منها كانت صورة مصغره لسلطنة المماليك الكبرى في مصر ، حتى لقد أطلق القلقشندى على تلك النيابات اسم « الممالك الشامية » وقال إن « كل مملكة منها قد صارت نيابة سلطنة مضاهية المملكة المستقلة » .

والتفصيل ذلك نقول إن كل نائب من حكام النيابات الشامية كان في حقيقة أمره « سلطانا مختصرا » ، مع تبعيته لسلطان مصر ، فكان لكل نائب حاشيته ومماليكه وأتباعه ، وأطلق عليه أحيانا اسم « ملك الأمراء » لقيامه مقام السلطان في التصرف وقيام الأمراء على خدمته كخدمة السلطان(١) .

وكان لكل نائب من نواب الشام بيوت خدمة مثل بيوت خدمة السلطان ، كالشراب خاناه . والفراش خاناه ، والزرد خاناه ، والطبلخاناه . وغيرها . واحتوت بيوت نواب الشام على وظائف مثل وظائف بيوت السلطان مثل رأس نوبة وأمير مجلس وأمير أخور وأمير جاندار ... وغير ذلك . كذلك كان لكل نيابة من النيابات الشامية وزير يتمتع بما يتمتع به الوزير في مصر ، هذا وإن لم يسمح للوزير في نيابات الشام بلقب وزير إلا إذا كانت قد سبقت له ولاية الوزارة بمصر ، أما إذا لم يكن قد سبق له تولى منصب الوزارة في مصر ، فإنه كان يلقب بلقب « ناظر النظار »(٢) .

كذلك كان في كل نيابة من نيابات الشام أربعة قضاة يمثلون المذاهب الاربعة ، مثلما كان الحال تماماً في مصر منذ أيام الظاهر بيبرس . هذا فضلا عن الوظائف الأخرى المتعددة التى وجدت في كل نيابة من نيابات الشام والتى كان

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٥ .
(٢) المرجع السابق ج ٥ ص ٤٦٥ .

بعضها يتعلق بأرباب السيوف والبعض الآخر يتعلق بأرباب القلم، والقسم الثالث يشمل الوظائف الدينية .

أما الدواوين التى وجدت فى كل نيابة من نيابات الشام ، فكان أهمها ديوان الإنشاء وديوان النظر وديوان الجيش وقد اختص ديوان الإنشاء بجميع المراسلات التى ترد إلى النائب أو تصدر منه . ولقب صاحب ديوان الإنشاء بكاتب السر . ويبدو أن كاتب السر فى النيابات الشامية كان يقوم أيضا بمهمة التجسس على النائب لحساب السلطان ، ويطلع الأخير على ما قد يخفيه النائب منه (١) . وأما ديوان النظر فكان يمثل الإدارة المالية فى النيابة ، بحيث له الاشراف التام على المصروفات والايرادات . وأما ديوان الجيش ، فكان يشرف على جيش النيابة وتوزيع الاقطاعات وترتيب الجوامك الخاصة بالمماليك . ومن الثابت أن أراضى الشام قد مسحت وقسمت من جديد سنة ١٣١٣ ؛ وهذا ما يسمى بالروك الناصرى ببلاد الشام ، نسبة إلى السلطان الناصر محمد بن قلاون . أما عن عدد الجند ببلاد الشام فقد ذكره خليل بن شاهين الظاهرى على الوجه التالى : —

١٥٫٠٠٠	أجناد الحلقة بدمشق ومماليك الكافل والأمراء
٨٫٠٠٠	أجناد الحلقة بحلب ومماليك الكافل والأمراء
٥٫٠٠٠	أجناد الحلقة بطرابلس ومماليك الكافل والأمراء
٢٫٠٠٠	أجناد الحلقة بصفد ومماليك الكافل والأمراء
١٫٠٠٠	أجناد الحلقة بحماه ومماليك للكافل والأمراء

على أن هذه الأعداد لم تكن ثابتة وإنما تعرضت للتغيير والتبديل فى عصر المماليك ، وكذلك عدد الاقطاعات وتوزيعها ببلاد الشام (٢) .

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨٩ .
(٢) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٠٣ — ١٠٦ .
ويلاحظ أن خليل بن شاهين أغفل ذكر عدد الأجناد بنيابة الكرك .

وإذا كان هذا هو الوضع بالنسبة لكافة النيابات الشامية فى عصر المماليك فإننا نحب أن نؤكد مرة أخرى أن نائب دمشق بالذات تمتع بأهمية خاصة فاقت أهمية بقية النواب فى النيابات الشامية الأخرى؛ حتى لقد قال القلقشندى عن نائب دمشق إنه « قائم بدمشق مقام السلطان فى أكثر الأمور المتعلقة بنيابته ، ويكتب عنه التواقيع الكريمة ، ويكتب عنه المربعات بتعيين إقطاعات الجند ، وتجهز إلى الأبواب الشريفة فيشملها الخط السلطانى الشريف »(١) .

ومن الواضح أن تلك المكانة الضخمة التى تمتع بها نائب دمشق فى عصر المماليك كان من الممكن أن تصبح مصدر خطر على السلطان نفسه، كما حدث فى بعض الحالات. لذلك حرص سلاطين المماليك على فرض رقابة خفية على نوابهم فى الشام عامة وفى دمشق خاصة ، فكان السلطان يحرص أحيانا على التدخل فى شئونهم لاشعارهم بوجوده . هذا إلى أن السلطان لم يكتف بأن يكون صاحب ديوان الإنشاء عينا له على النائب ، وإنما كان السلطان أيضا يجعل من نائب القلعة أو الحصن الموجود فى الاقليم عينا له على النائب، ويقاومه إذا حدثته نفسه بالخروج على السلطان(٢) . ولهذا السبب كان لنائب القلعة أجنادا مقيمين معه ولا يتصلون بدار النيابة فى المدينة(٣) .

والواقع أنه على الرغم مما تمتع به نواب النيابات الشامية من سلطان ونفوذ كبير ، إلا أنهم كانوا قبل كل شىء تابعين لسلطنة المماليك فى القاهرة؛ وبالتالى فإنهم لم يكونوا مطلقى التصرف فى كثير من النواحى . من ذلك أن سلطان

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨٤ .

(2) Demombynes ; op. cit., p. 108.

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨٥ ؟

العمرى : التعريف ص ١٤٨.

المماليك احتفظ بحقه فى شغل الوظائف الكبرى بالنيابات الشامية ؛ فكان النواب يعينون فى وظائف أرباب السيوف من إمرة عشرة فما دونها ، فى حين كان التعيين فى الوظائف من إمرة طبلخاناه فما فوقها من حق السلطان . أما وظائف أرباب القلم فكان النواب لا يعينون إلا صغار الموظفين مثل كتاب الدرج ، فى حين كان السلطان يعين كبار الموظفين مثل الوزارة وكتابة السر ونظر الجيش ونظر المال وغيرها . كذلك فى الوظائف الدينية كان من حق السلطان وحده أن يعين كبار الموظفين مثل قضاة القضاة ، فى حين ترك للنواب تعيين صغار الموظفين ، كالذين يقومون بالخطابة فى الجوامع الصغيرة(١).

وهكذا ظل سلطان المماليك هو القوة الكبرى التى تسيطر على مصر والشام وتشرف إشرافا تاما على سير الأمور فى مختلف أرجاء الدولة المماليكية الواسعة .

المجتمع الشامى فى عصر المماليك :

كان أهل الشام فى عصر المماليك لا يختلفون عن أهل مصر من حيث أنهم مغلوبون على أمرهم ، يخضعون لارستقراطية حاكمة استأثرت بالحكم وبالوظائف وحرمتهم من المشاركة مشاركة ذات قيمة فى أمر من أمور بلادهم . وهكذا كان المماليك فى بلادهم الشام هم أصحاب السيادة والطبقة المسيطرة ذات النفوذ والسلطان ، فى حين خضع أصحاب البلاد الأصليين من أهل الشام للأمر الواقع ، ورضوا بما فعله المماليك بهم .

وقد انقسم أهل بلاد الشام الأصليون إلى حضر وبدو ، فالحضر هم أهالى المدن والقرى الشامية ، وقد اشتغلوا بالنشاط الاقتصادى من صناعة وتجارة

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٢ ص ٦ — ٧ .

وزراعة ، وكان كل ما يطمعون فيه هو أن يلى أمرهم نائب عادل من المماليك يحسن معاملتهم ولا يحرمهم حقوقهم . ومن الواضح أن النشاط الاقتصادى الذى نهض به الحضر من أهل الشام تطلب نوعا من الاستقرار والهدوء ، مما جعلهم يجنحون إلى مسالمة المماليك ولا يحاولون الخروج عن طاعتهم أو المشاركة فى الثورات التى اعتاد أن يقوم بها بعض نواب الشام بين حين وآخر ، وبخاصة عند قيام سلطان جديد فى مصر .

أما البدو ، فقد تألفوا من العشائر المنتشرة فى بادية الشام ، وكان لكل عشيرة أفخاذها وبطونها . وعلى رأس تلك العشائر كان « آل فضل » من ربيعة ، الذين امتدت منازلهم من حمص إلى قلعة جعبر إلى الرحبة ، بمعنى أنهم انتشروا بين العراق والشام على جانبى نهر الفرات[١] . ومن الواضح أن آل فضل اضطروا — بحكم موقع منازلهم — إلى توزيع ولائهم بين القوى العديدة التى تقاسمت السلطان فى شمال العراق والشام . ومن ذلك ما نسمعه عن زعيمهم عيسى بن مهنا الذى داب على مناصرة التتار حينا والمماليك أحيانا حتى ضاق السلطان الناصر محمد بن قلاون ذرعا بآل فضل وطردهم ليحل محلهم إخوتهم من « آل على » ، ولكن الناصر محمد عاد فعفا عن آل فضل وردهم إلى بلادهم واقطاعاتهم[٢] .

ويلاحظ أنه إذا كانت عشائر البدو الضاربة على أطراف دولة المماليك بالشام قد لجأت أحيانا إلى الخروج عن سلطان الدولة ، فإنه وجد قسم آخر من تلك العشائر انتشرت فى داخلية بلاد الشام ، وهذه كانت أكثر ارتباطا بشعور الولاء للدولة وخضوعا لسلطانها . ومن هذه العشائر آل مرة فى حوران

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٠٤ .

(٢) المرجع السابق ج ٤ ص ٢٠٦ .

وآل على فى المرج والغوطة حول دمشق ؛ وغيرهم كثيرون[1] ، وقد حاول سلاطين المماليك إدخال عشائر البدو ببلاد الشام فى النظام الاقطاعى ، فأضفوا على زعماء تلك العشائر ألقاب الإمارة وأقطعوهم الإقطاعات ، وفرضوا عليهم التزامات معينة أهمها الولاء للدولة وحراسة الطرق والدروب الصحراوية وتقديم الرجال وقت الحرب . ولكن عشائر البدو أنفت الخضوع لذلك النوع من التنظيمات الحكومية التى تفقدها كثيراً من حريتها فأخذت ما فى النظام من مميزات ، وفى الوقت نفسه تخلصت مما فيه من التزامات .

وبالإضافة إلى العصبيات العنصرية التى وجدت ببلاد الشام على عصر سلاطين المماليك — مثل الأكراد والتركمان والأرمن — ؛ فإنه وجدت ببلاد الشام فى ذلك العصر عصبيات عديدة مذهبية ودينية كان لها دور كبير فى الأحداث التى شهدتها بلاد الشام . ونستطيع أن نلخص أهم هذه الطوائف أو العصبيات فيما يلى :

أولاً : الكسروانيون : وهم أهل جبل (جبال) كسروان وكانوا من النصيرية والعلويين والمتأولة[2] . ويبدو من خلال ما ذكرته المراجع أن الكسراونيين وقفوا موقفاً عدائياً من المماليك ، وبخاصة أثناء الصراع بين هؤلاء الأخيرين والصليبيين بالشام . من ذلك ما حدث أثناء حصار السلطان المنصور قلاون لمدينة طرابلس سنة ١٢٧٩ ، إذ خف الكسروانيون لنجدة بوهيموند السابع أمير طرابلس . وقد أغضب ذلك السلطان قلاون ، فزحف المماليك على جبل كسروان لتأديب أهله ونجحوا فى كسر شوكتهم[3] .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٢٠٨ — ٢١٠ .

(2) Lammens ; La Syrie, 2, p. 16.

(٣) محمد كرد على : خطط الشام جـ ٢ ص ١٢٦ .

وعند ما استولى السلطان الأشرف خليل على عكا وغيرها من البقايا الصليبية بالشام ، لجأ بعض الصليبيين إلى جبل كسروان وحاولوا استثارة أهله ضد سلطنة المماليك ، فبادر السلطان الأشرف خليل بإرسال حملة فى بداية ١٢٩٢ بقيادة الأمير بدر الدين بيدرا ، ولكن الكسراونيين أنزلوا الهزيمة بالعسكر المماليكى فى تلك الواقعة، الأمر الذى زاد من نفوذ الكسروانيين وبطشهم(١) وفى سنة ١٣٠٠ - أى فى سلطنة الناصر محمد بن قلاون الثانية — سار أقوش الأفرم من دمشق إلى جبال كسروان لقتال أهلها عقوبة لهم عن موقفهم من دولة المماليك ، بعد أن كان « ضررهم اشتد » . وقد تحصن الكسروانيون بجبلهم المنيع ، واجتمعوا — نحو اثنى عشر ألف رام — لقتال المماليك ، فاستمر القتال بينهم وبين المماليك ستة أيام ألقى الكسروانيون بعدها السلاح ونادوا « الأمان » . وكان أن فرض عليهم أقوش (أقش) الأفرم مبلغ مائة ألف درهم جبوها بعد أن تعهدوا بالطاعة(٢) .

وثمة أهمية أخرى لتلك الحملة هى أن التنوخيين عاونوا جيش الأفرم ، الأمر الذى أثار العداء بين الكسروانيين والتنوخيين . وقد أرسل الأمير الأفرم نائب دمشق إلى الكسروانيين يأمرهم بأن يصلحوا شئونهم مع التنوخيين ويدخلوا فى طاعتهم بوصفهم أصحاب الأراضى والإقطاعات ، ولكن الكسروانيين رفضوا تلك الدعوة . ونتيجة لذلك خرج الأمير أقوش الأفرم فى جيش كبير بلغ خمسين ألفاً من الرجال سنة ١٣٠٥ (٧٠٥ هـ) ، فهاجم الكسروانيين « وخرب ضياعهم وقطع كرومهم ومزقهم بعد ما قاتلهم أحد عشر يوماً ... وملك الجبل عنوة ، ووضع فيهم السيف وأسر ستمائة رجل ، وغنمت العساكر منهم مالا عظيماً ... »(٣) . وقد ساعد

(١) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٣٠ .
(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٩٠٢ — ٩٠٣ .
(٣) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ١٥ .

الأفرم فى جهوده لإخضاع الكسروانيين الأمير اسندمر نائب طرابلس ، الذى تذكر عنه المراجع مبالغته فى التنكيل بالكسروانين وقتلهم[1] ، ويبدو أن حملات الأمير أقوش الأفرم على جبال الكسروانيين نجحت فى إخضاعهم والقضاء على كيانهم وعصبيتهم، فيروى المقريزى أن السلطان الناصر محمد أقطع « جبال كسروان بعد فتحها » لبعض أمراء المماليك ، فذهبوا إليها « فزرعها لهم الجبلية ورفعت أيدى الرفضة عنها »[2].

ثانياً : التنوخيون ، وهم عشائر كثيرة اعتنقت الدرزية وانتشروا فى جهات متفرقة من لبنان ، وظلوا يتأرجحون بين الولاء للصليبيين حينا وللمسلمين أحيانا ، كما تأرجحوا بين الولاء للمماليك من ناحية وخصوم المماليك من أيوبيين وتتار من ناحية أخرى . وكان من أشهر عشائر التنوخيين جماعة البحتريين الذين غضب عليهم السلطان الظاهر بيبرس بسبب تقلبهم ، فاعتقل بعض زعمائهم فى مصر ورفض أن يطلق سراحهم حتى ينتهى من حروبه ، حتى إذا ما تم للسلطان بيبرس فتح أنطاكية أطلق سراحهم . ومع ذلك فقد ظل بيبرس يتشكك فى ولاء البحتريين ، حتى أرسل ضدهم حملة قوية اجتاحت بلادهم وعاقبتهم فى عنف[3] . وبعد بيبرس لجأ السلطان قلاون إلى إضطهاد البحتريين عاقبة عنادهم فعادوا إلى الولاء لدولة المماليك ، وعندئذ ردت إليهم الدولة إقطاعاتهم وعهدت إليهم بحراسة بيروت وشواطئها ؛ وكان ذلك سنة ١٢٩١ على عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاون . كذلك ساعد البحتريون المماليك فى قتال غازان خان

---

(١) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٣٢ — ٣٣ ؛
أبو الفدا : المختصر حوادث سنة ٧٠٥ هـ

(٢) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ١٦٠ .

(٣) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٧٥ .

تتار فلوس ، وذلك على عهد السلطان الناصر محمد بن قلاون(١) .

وثمة فريق آخر من التنوخيين ، هم الارسلانيون ومركزهم قرب بيروت وكانوا موالين لدولة المماليك ؛ واشتهروا بمواقفهم ضد الصليبيين، الأمر الذى جعلهم يظفرون برضاء سلاطين المماليك(٢) .

ثالثا : بنو معن أو المعنيون ؛ وقد بدأظهورهم فى القرن الثانى عشر ، حين ندبهم أمراء السلاجقة لقتال الصليبيين على الساحل السورى،فأبلوا فى ذلك بلاء حسنا ؛ كوفئوا عليه بمنحهم إقليم الشوف،وقد حالفوا أقرباءهم التنوخيين فى الغرب والشهابيين فى وادى التيم(٣) .

رابعا : الشهابيون الدروز ؛ وكانت منازلهم فى وادى التيم منذ سنة ١١٧٣ واشتركوا بنجاح فى قتال الصليبيين ثم التتار ، وبخاصة أثناء إغاراتهم على بلاد الشام فى عهد السلطان المنصور قلاون سنة ١٢٨١. وقد حالف الشهابيون بنى معن وأصهروا إليهم .

خامساً : المتاولة ؛ وهم فرقة من غلاة الشيعة ، كانت زعامتهم فى الجهات الشمالية من لبنان لبنى حمادة . ويبدو أن التنافس كان قويا بينهم وبين الشهابيين الدروز حول الزعامة على لبنان(٤) . وقد حنق المماليك على المتاولة بسبب شذوذهم المذهبى ، مما جعلهم يتعرضون لبعض الاضطهاد فى ذلك العصر .

سادساً : النصيرية أو العلويون ؛ وقد عاشوا فى شبه عزلة فى القسم الشمالى من جبل لبنان تحت زعامة شيوخهم(٥) .

---

(١) أحمد عزت عبد الكريم : التقسيم الإدارى لسورية فى العصر العثمانى ص ١٣٦ .
(٢) الشدياق : أخبار الأعيان فى جبل لبنان ص ١٧٤ .
(٣) أحمد عزت عبد الكريم : التقسيم الإدارى ص ١٣٦ .

(4) Lammens : op. cit., vol. 2, p. 13.
(5) Demombynes : op. cit., p. 227.

سابقاً. الإسماعيلية، وكانوا يعرفون أيضاً باسم الباطنية، وكانت لهم قلاع عديدة أهمها مصياف (أو مصياب) والقدموس والكهف والخوابي والمنيقة والرصافة . وقد قام الإسماعيلية الباطنية بدور مشهور في تاريخ بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية[١] ؛ ولم يتورعوا عن اغتيال كثير من الشخصيات الإسلامية والصليبية سواء . ولم يرض المماليك عن الباطنية بسبب شذوذهم المذهبي من ناحية ، ثم بسبب موقفهم المائع بين الصليبيين والمسلمين من ناحية أخرى . لذلك فرض السلطان الظاهر بيبرس ضرائب باهظة على الهدايا التي اعتاد أن يبعث بها الصليبيون إلى شيخ الباطنية ، وذلك « إفساداً لنواميس الإسماعيلية وتعجيزاً لمن اكتفى شرهم بالهدية[٢] » . ثم إن السلطان الظاهر بيبرس لاحظ أن طائفة الإسماعيلية لجأت — عندما أخذ نفوذها يضعف في بلاد الشام — إلى دفع الأموال للصليبيين ، وبخاصة الاسبتارية في حصن الأكراد . لذلك انتهز السلطان فرصة الصلح الذي عقده مع الاسبتارية سنة ١٢٦٧ واشترط عليهم الامتناع عن أخذ الجزية التي كان يدفعها لهم الإسماعيلية الباطنية . ويروى المقريزى أن رسل الإسماعيلية وفدوا على السلطان الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٧ ومعهم جملة من الذهب وقالوا « هذا المال الذي كنا نحمله قطيعة للفرنج قد حملناه لبيت المسلمين لينفق في المجاهدين[٣] » .

على أنه يبدو أن الإسماعيلية ببلاد الشام لم يلبثوا أن ضاقوا بالجزية التي كانوا يدفعونها للسلطان الظاهر بيبرس، بدليل أن نجم الدين حسون بن الشعرانى مقدم الإسماعيلية ببلاد الشام أرسل مبعوثاً إلى السلطان سنة ١٢٦٩ يطلب منه إنقاص المال الذي كان يحمله الإسماعيلية إلى بيت المال . وفي ذلك الوقت كانت العلاقة سيئة بين السلطان وأحد زعماء الإسماعيلية ـ وهو صارم الدين مبارك

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٥٥٠ وما بعدها .
(٢) العينى : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٢٩ .
(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٥٧ .

ابن الرضى صاحب العليقة ـ فتوسط صارم الدين للسلطان حتى رضى عنه بيبرس؛ وعندئذ قلده زعامة الإسماعيلية بدلا من نجم الدين الشعرانى . وكان أن توجه صارم الدين إلى مصياف — المركز الرئيسى للدعوة الإسماعيلية ببلاد الشام ـ حيث أخذ يباشر مهام منصبه[1] .

ويدل ذلك على مدى ما صار لسلاطين المماليك من هيمنة على الإسماعيلية ببلاد الشام على عهد بيبرس ، بل إن السلطان بيبرس اشترط على الإسماعيلية أن تكون مصياف وبلادها للسلطان : وأرسل صحبة صارم الدين نائبا عن السلطان بمصياف ولم يكن صعبا على بيبرس بعد ذلك أن يستولى على حصون الإسماعيلية ببلاد الشام واحدا بعـــد آخر ، حتى استولى عليها جميعا (١٢٧٠ — ١٢٧٣) ؛ وعندئذ انتهى أمرهم ببلاد الشام ، وأقطعهم السلطان بدلا من قلاعهم الشامية بعض الجهات فى مصر ليعيشوا فيها[2] .

ثورات الشام فى عصر المماليك :

لم تكن الشام فى عصر المماليك مجرد إقليم من أقاليم الدولة ، وإنما كانت أهم من ذلك بكثير . لقد كانت بلاد الشام الجناح الأيمن الذى بدونه يتعذر على دولة المماليك الاحتفاظ بكيانها وتوازنها ، والثبات فى وجه الأخطار الآسيوية الضخمة التى هددت تلك الدولة ، حينا من جانب الأيوبيين والتتار والصليبيين ، وأحيانا من جانب الأرمن والتركمان ثم العثمانيين . وهكذا أدرك سلاطين المماليك منذ أن أقاموا دولتهم فى مصر أنه لا بقاء لهم ولا دولتهم إلا فى ظل وحدة تربط بين الشام ومصر تحت حكمهم ، وتضمن لهم مراقبة التيارات العديدة التى يمكن

---

(١) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس : ص ٨٢ .
(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٦٠٨ .

أن تؤثر فى كيانهم ، فضلا عن مراقبة الطرق الرئيسية التى سلكها الأعداء فى تهديدهم لمصر والشام فى العصور الوسطى .

وإذا كان سلاطين المماليك قد نظروا إلى بلاد الشام نظرة خاصة ، فوضعوا لها تقسيما إداريا يشهد على مدى إدراكهم لأهمية تلك البلاد ، فإننا نلاحظ فى نفس الوقت أن نواب الشام وأمراء المماليك فى تلك البلاد أدركوا أهميتهم ، واستغلوا موقع البلاد من ناحية وبعدها عن مركز السلطنة من ناحية أخرى فى محاولة فرض إرادتهم وإملاء كلمتهم على السلاطين وكثيرا ما أحس أمراء المماليك فى الشام بنفوذهم وقوتهم فأعلنوا الثورات فى وجه السلاطين فى مصر ، بل لقد طالب بعض أمراء الشام بالسلطنة لأنفسهم معتمدين على ما عرف عن المماليك من بغض للنظام الوراثى وإيمان بأن الملك للأقوى . ولم ير بعض أمراء الشام - عندما استفحل النزاع أحيانا بينهم وبين سلاطين المماليك - مانعا من الاتصال بأعداء الدولة من تتار وعثمانيين ، مما عرض دولة المماليك لكثير من الأخطار . هذا كله فضلا عما نلمسه فى عصر المماليك من فرار كثير من خصوم السلاطين ومنافسيهم من مصر إلى الشام ، حيث يجدون ملاذا ويعملون على تأليب الأعداء وإثارة المتاعب فى وجه السلاطين .

ومع قيام سلطنة المماليك عند منتصف القرن الثالث عشر انطلق أول صوت للمعارضة من دمشق ، حيث رفض المماليك الأكراد (القيمرية) أن يقسموا يمين الولاء للسلطان شجر الدر ، كما امتنع الأمير جمال الدين يغمور - نائب السلطنة بدمشق - عن الاعتراف بشجر الدر . وكان من الطبيعى أن ينضم أولئك المتمردون إلى جانب الملك الناصر يوسف الأيوبى ، مما سبب لسلطنة المماليك فى مصر كثيرا من المتاعب فى دورها الأول ، ولم يخفف من حدة هذه المتاعب ، سوى الأصوات التى ارتفعت للمطالبة بتوحيد الكلمة فى وجه خطر التتار[1] .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٦٦ وما بعدها .

على أنه حدث فى ذلك الدور — وقبل أن يواجه المماليك خطر التتار — أن انقسم المماليك فى مصر على أنفسهم ، فلجأ السلطان أيبك إلى قتل أقطاى زعيم المماليك البحرية ، مما جعل هؤلاء يفرون إلى الشام وعلى رأسهم من زعمائهم بيبرس وقلاوون وسنقر وبيسرى وغيرهم من الأمراء . وقد ظل زعماء البحرية فى الشام ثلاث سنوات (١٢٥٤ — ١٢٥٧) يسببون المتاعب لسلطنة المماليك فى مصر ؛ حتى كان سقوط الخلافة العباسية على يد التتار سنة ١٢٥٨ وظهور خطر التتار فى صورة جدية على الشام ومصر ؛ وعندئذ دخل البحرية فى طاعة السلطان قطز ليواجهوا جميعاً الخطر الجديد(١) .

والواقع إن سيادة سلطنة المماليك لم تمتد على بلاد الشام إلا بعد موقعة عين جالوت سنة ١٢٦٠ كما سبق أن رأينا . ومنذ تلك السنة أصبحت المتاعب التى صادفها سلاطين المماليك فى بلاد الشام لا تأتى من جانب الأيوبيين والتتار والصليبيين فحسب ، بل أيضاً من جانب أمراء المماليك أنفسهم بالشام . من ذلك أن الأمير علم الدين سنجر الحلبى نائب دمشق ثار فى وجه بيبرس سنة ١٢٦٠ ، أى بعد شهر واحد من توليته السلطنة ، بل إن الأمير سنجر طالب لنفسه بمنصب السلطنة ، فتلقب بالملك المجاهد ووضع اسمه على النقود ودعا لنفسه فى خطبة الجمعة ، وصار يركب فى دمشق بشعار السلطنة(٢) . ولكن الظاهر بيبرس أخمد حركة الأمير سنجر عن طريق الحيلة ، وذلك بعد أن حرض أمراء الشام فانفضوا عن سنجر وقاوموه ، ثم قبض عليه بعد ذلك . كذلك ثار الأمير شمس الدين أقوش البرلى ووطد مركزه فى حلب ، ولكن السلطان الظاهر أخمد حركته(٣) .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقة ٣٩٤ (مخطوط) .
(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٣٩ .
(٣) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ٢٠٩ — ٢١١ .

ولم تكن المتاعب التى صادفها بيبرس فى بلاد الشام فى ذلك الدور التأسيسى لدولته كلها ناشئة من جانب أمراء المماليك، وإنما ظل بعض بقايا ملوك بنى أيوب يشكلون خطراً على سلطان دولة المماليك. من ذلك أن الملك المغيث عمر الأيوبى صاحب الكرك استعان بجموع الأكراد الفارين من وجه التتار وأخذ يغير على الشوبك وغيرها من المناطق القريبة التابعة لسلطنة المماليك. ولم يهدأ بيبرس إلا بعد أن قبض على المغيث عمر سنة ١٢٦٢ واعتقله بقلعة الجبل إلى أن قتل بعد ذلك[١].

ولما اعتلى المنصور قلاون دست السلطنة سنة ١٢٧٩، خرج عليه شمس الدين سنقر نائب الشام وامتنع عن مبايعته ؛ بل إنه دعا أهل دمشق إلى طاعته وتلقب بالملك الكامل وخطب له فى الجامع الأموى . وفى أثناء النزاع بين السلطان قلاون والأمير سنقر لم ير الأخير حرجاً فى الاتصال بالتتار، فاتصل بخان مغول فارس — وهو أبغا بن هولاكو — وحرضه على مهاجمة بلاد الشام، ثم انتهى الأمر بفرار الأمير سنقر إلى صهيون[٢]. ولم تنته المتاعب التى واجهها السلطان قلاون فى بلاد الشام عند ذلك الحد ؛ إذ حدث سنة ١٢٨١، والسلطان قلاون مشغول بمحاربة الصليبيين، أن دبر الأمير سيف الدين كوندك وجماعة من الأمراء الظاهرية وبعض التتار مؤامرة لاغتيال السلطان[٣]. ولم يتردد المتآمرون فى الاتصال بالصليبيين، ولكن المنصور قلاون علم بالمؤامرة فى الوقت المناسب فأحبطها وأعدم زعماءها وفر عدد كبير من أتباعهم إلى صهيون ليلحقوا بالأمير شمس الدين سنقر الأشقر[٤].

(١) ابن شاكر الكتبى : عيون التواريخ ج ٢ ورقة ٢٣٠ — ٢٣١ .
(٢) النويرى : نهاية الأرب، ج ٢٩ ورقة ١٧٠ ا .
(٣) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ج ٢ ص ٣٢٢ .
(٤) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٢٧٨ ب .

والملاحظ أنه لم تحدث اضطرابات فى الشام عقب وفاة السلطان قلاون وقيام ابنه الأشرف خليل فى السلطنة سنة ١٢٩٠ ، أو عقب مقتل الأشرف خليل وقيام أخيه الناصر محمد بن قلاون فى السلطنة سنة ١٢٩٣ . وفى الفترة المضطربة التى أعقبت وفاة المنصور قلاون وامتدت حتى قيام الناصر محمد فى السلطنة المرة الثالثة سنة ١٣٠٩ ، شهدت بلاد الشام بعض الأحداث ، من ذلك أن السلطان كتبغا الذى اغتصب السلطنة سنة ١٢٩٤ زار بلاد الشام حيث عزل الأمير عز الدين أيبك الحموى نائب دمشق وعين بدله الأمير سيف الدين أغرلو العادلى . ولم يكد السلطان كتبغا يعود إلى مصر حتى عزله حسام الدين لاجين وولى السلطنة بدله سنة ١٢٩٦ ، وعندئذ هرب كتبغا إلى دمشق(١) .

وقد لجأ السلطان المنصور لاجين إلى تعيين الأمير سيف الدين قبجق نائباً بالشام ، كما أرسل السلطان السابق الناصر محمد بن قلاون إلى الكرك ليأمن خطره(٢) . غير أن السلطان لاجين أوغر صدور أمراء مصر والشام عليه بسبب سياسته . فخرج عليه الأمير قفجق بالشام (قبجق) ثم رحل قفجق إلى بلاد التتار حيث رحب بهم غازان محمود(٣) .

ولم يلبث أن عاد السلطان الناصر محمد إلى عرشه سنة ١٢٩٨ ليضيق عليه الأميران بيبرس الجاشنكير وسلار ، الأمر الذى جعل الناصر محمد يتظاهر بالخروج إلى الحجاز ، حتى إذا بلغ الكرك أعلن تنازله عن السلطنة . وإزاء إصرار الناصر محمد على رغبته ، اختار الأمراء بيبرس الجاشنكير سلطاناً سنة ١٣٠٨ . غير أن أمراء الشام لم يرضوا جميعاً بحكم السلطان الجديد ، فأقسم بعضهم يمين الولاء

(١) أبو المحاسن : النجوم جـ ٨ ص ٦٣ ، ٦٤ ؛
المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٨١٩ — ٨٢٢ .
(٢) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٩ ورقة ٣١٥ .
(٣) محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاون فى مصر ص ٤٠ .

لبيبرس الجاشنكير ، فى حين راسل البعض الآخر الناصر محمد وأفهموه أنهم على ولائهم له .

وزاد الموقف فى بلاد الشام تعقيداً ، أن بيبرس الجاشنكير أخذ يضيق الخناق على الناصر محمد بالكرك ؛ الأمر الذى جعل الأخير يكتب إلى نواب الشام يذكرهم بأنهم مماليك أبيه وأنه طالما أحسن إليهم ، فلا أقل من أن يساعدوه فى استعادة عرشه وإلا فإنه سيلجأ إلى التتار ، ويطلب مساعدتهم . وبفضل مساعدة أمراء الشام تمكن الناصر محمد من العمل لاستعادة عرشه ، فسار إلى دمشق حيث استقبله أهلها استقبالا طيباً ، وأقيمت له الخطبة وقدم له أمراء الشام فروض الولاء(١) . وبعد ذلك عاد الناصر محمد إلى مصر حيث اعتلى دست السلطنة للمرة الثالثة سنة سنة ١٣٠٩

وكان أن عين الناصر محمد الأمير قراسنقر المنصورى نيابة السلطنة بالشام ، فأغضب ذلك المماليك الأشرفية لاتهامهم الأمير قراسنقر هذا بالمشاركة فى فى قتل السلطان الأشرف خليل . وقد أحس الأمير قراسنقر بأن المماليك الأشرفية يوغرون صدر السلطان الناصر ضده ، فاتفق مع بعض أمراء الشام - مثل الأمير أقوش الأفرم نائب طرابلس - إلى بلاد التتار ، حيث رحب بهم أولجاتيو إيلخان التتار فى فارس(٢)

ولم يلبث أن عين السلطان الناصر الأمير تنكز الحسامى الناصرى نيابة الشام سنة ١٣١٢ ، ثم ولاه جميع بلاد الشام وكتب إلى كل من نائب حماه وحمص وطرابلس وصفد بالرجوع إليه ولم يلبث أن ازداد نفوذ تنكز فى الدولة ، وبخاصة بعد أن ارتبط مع السلطان الناصر محمد برباط المصاهرة ؛ ويروى

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٦٠ — ٢٦٥ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٣١ — ٣٢ .

أبو المحاسن أن تنكز طلب من السلطان عزل يلبغا نائب حلب فعزله على الفور(١). غير أن الناصر محمد لم يلبث أن أوجس خيفة من ازدياد نفوذ تنكز فحقد عليه وعزله وتخلص منه وأحل محله فى نيابة الشام الأمير ألطنبغا الصالحى(٢).

وإذا كانت سلطنة الناصر محمد الثالثة قد امتازت بطول المدة الزمنية (١٣٠٩ — ١٣٤١) والاستقرار النسبى فى أوضاع الدولة الداخلية ، فإن عصر أولاد الناصر محمد وأحفاده شهد كثيراً من التقلبات والفتن فى مصر والشام جميعاً من ذلك أنه حدث فى عهد الملك الصالح صلاح الدين (١٣٥١ — ١٣٥٤) ، أن خرج عن طاعته معظم نواب الشام مثل نائب حلب ونائب طرابلس ونائب حماه ونائب صفد ، وبذلك لم يبق على طاعة السلطان سوى أرغون الكاملى نائب دمشق الذى اضطر إلى الهرب إلى غزة فاستولى بيبغا أرس نائب حلب على دمشق ، حتى نجح السلطان فى القضاء على الفتنة(٣).

وفى عهد المنصور صلاح الدين محمد بن حاجى (١٣٦١ — ١٣٦٣) أعلن الأمير بيدمر الخوارزمى نائب دمشق العصيان وملك قلعة دمشق وقتل نائب القلعة ، وشاركه فى حركته جماعة من نواب الشام ؛ فخرج السلطان إلى الشام سنة ١٣٦١ وقبض على بيدمر وأرسله مقيداً إلى الاسكندرية وعين اثنين من أمرائه نواباً على دمشق وحلب ثم رجع إلى القاهرة(٤).

وفى عهد المنصور على بن الأشرف شعبان (١٣٧٦ — ١٣٨١) خرج الأمير بيدمر نائب دمشق عن الطاعة مرة أخرى ولكن نائب قلعة دمشق تمكن من القبض عليه(٥).

---

(١) المرجع السابق ج ٩ س ١٢٩.
(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٩ س ١٤٥ — ١٤٧ .
(٣) المرجع السابق ج ١٠ س ٢٧١ — ٢٧٢ .
(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢١١ (بولاق).
(٥) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ١ س ٥١٣ — ٥١٤ .

وقد استمرت بلاد الشام فى عصر دولة المماليك الجراكسة مسرحاً لكثير من الثورات والحركات التى قام بها بعض الأمراء ضد السلطنة ، ففى الأحداث التى أدت إلى انتقال الحكم من المماليك الترك إلى المماليك الجراكسة ، نسمع كيف ثار الأمير طشتمر الدوادار نائب دمشق الذى سبق لليلبغاوية إبعاده إليها ، وإن كانت الأمور قد هدأت بسرعة فى الشام سنة ١٣٧٧ ، وفى النزاع الذى دب سنة ١٣٧٧ بين الأميرين برقوق وبركة من ناحية وطشتمر من ناحية أخرى ، لجأ برقوق وبركة إلى العمل على إضعاف شأن طشتمر بنقل أنصاره إلى وظائف النيابة بالشام .

ثم كان نجاح برقوق فى القضاء على سلطنة الترك وإقامة دعائم دولة المماليك البرجية سنة ١٣٨٢ ، ليجعل بلاد الشام مسرحاً جديداً للنزاع بين الترك والجراكسة ، إذ سار ألطنبغا التركى نائب أبلستين ضد برقوق سنة ١٣٨٢ ، وإن كان نواب الشام لم يؤيدوه فى ثورته مما اضطره إلى الفرار إلى بلاد التتار(١) . ويفهم من المراجع أن الأمير يلبغا الناصرى نائب حلب وقف موقفاً عدائياً من برقوق ، فحرص على الاحتفاظ بصداقة سولى بن دلغادر التركمانى — وهو ألد أعداء دولة البرجية — مما جعل برقوق يعزل يلبغا نائب حلب سنة ١٣٨٥(٢) . غير أن برقوق لم يكد يفرغ من أمر يلبغا حتى سمع بمؤامرة جديدة فى دمشق سنة ١٣٨٦(٣) . وفى الوقت نفسه أخذ منطاش نائب ملطية يجمع عناصر المقاومة ضد برقوق ، الأمر الذى جعل الأخير يعيد يلبغا الناصرى إلى نيابة حلب ليتخذه أداة فى محاربة منطاش . على أن يلبغا الناصرى لم يقف موقفاً حاسماً من منطاش ، الأمر الذى دعم نفوذ الأخير وزاد من خطورة حركته(٤) .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم جـ ١١ ص ٢٢٩ .

(٢) ابن حجر : إنباء الغمر ج ١ ص ٢٢٤ — ٢٢٥ .

(٣) المقريزى : السلوك جـ ٣ ورقة ٤٧٠ .

(٤) العينى : عقد الجمان جـ ٣٤ ق ٢ ورقة ٢٢٨ .

ولم يلبث الأمير يلبغا الناصري أن أعلن ثورته علنا على السلطان في حلب ، فاستمال منطاش إليه ، وسيطر على شمال الشام . وفي ذلك الوقت جاءت الأخبار إلى السلطان برقوق من دمشق بأن بعض الأمراء الترك في الشام هاجموا طرابلس وقتلوا من فيها من أمراء موالين لبرقوق(١) . وهكذا لم تكد تنتهي سنة ١٣٨٩ حتى كانت معظم مدن الشام - فيما عدا دمشق وبعلبك والكرك - قد دخلت في طاعة يلبغا الناصري . وقد بادر السلطان برقوق بإرسال جيش إلى دمشق لمحاربة يلبغا الناصري ، ولكن الهزيمة حلت بجيش السلطان قرب دمشق ، مما مكن يلبغا الناصري من دخول دمشق والاستيلاء على قلعتها(٢) .

وهكذا غدت بلاد الشام في ذلك الدور مسرحاً لنزاع مرير ، هو في حقيقة أمره صراع بين المماليك الترك والمماليك الجراكسة حول السلطنة ، أما يلبغا الناصري ، فإنه لم يضع الوقت ، وإنما زحف إلى غزة ومنها دخل أرض مصر إلى الصالحية ، الأمر الذي جعل برقوق مضطراً إلى التنازل عن السلطنة ؛ فنفي إلى الكرك سنة ١٣٨٩ (٣) .

غير أن برقوق استغل وجوده في بلاد الشام ليجمع الأنصار ، في الوقت الذي اشتد النزاع في مصر بين يلبغا الناصري ومنطاش . ولم يلبث أن خرج برقوق من الكرك إلى دمشق . وقوى مركز برقوق في حصاره لدمشق انضمام الأمير كمشبغا الحموي نائب حلب إليه ، الأمر الذي جعل برقوق يطمئن إلى جبهته الشمالية ، ويترك حصار دمشق ليتفرغ لمواجهة الجيش الكبير الذي خرج من مصر بقيادة منطاش لمحاربته . وفي المعركة التي دارت بين الطرفين سنة ١٣٩٠

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٥٩ .
(٢) ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٤٧٥ .
(٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٤٤١ .

تغلب برقوق وإن لم يستطع دخول دمشق ، فزحف على مصر ليدخل القاهرة ويسترد عرشه (١) . وسرعان ما استطاع برقوق بعد ذلك توطيد نفوذه بالشام ، وإن كان ذلك لم يتم إلا بعد أن غدت بلاد الشام مسرحا لصراع مرير بين يلبغا الناصرى ومنطاش سنة ١٣٩١ ، مما أثر تأثيراً سيئـــاً فى أوضاعها الاقتصادية (٢) .

وإذا كانت الأمور قد استقرت نسبياً فى بلاد الشام فى أواخر عهد برقوق ، فإن ثورة الأمراء لم تلبث أن تجددت بعد وفاته . من ذلك ما نسمعه عن ثورة الأمير تنم نائب الشام فى عهد السلطان فرج بن برقوق سنة ١٤٠٠ ؛ وانضم إليه فى ثورته نواب صفد وطرابلس وحماه وحلب (٣) . وقد استطاع السلطان إخماد هذه الثورة ، ولكن ذلك الانتصار لم يكن معناه استقرار الأمور فى بلاد الشام ، إذ حدث بعد قليل أن تعرضت بلاد الشام لغزو التتار بزعامة تيمورلنك ، الذى أباد جيش المماليك عند حلب سنة ١٤٠٠ واستولى على حلب ، ثم أنزل الهزيمة بالسلطان فرج عند دمشق فى أواخر سنة ١٤٠٠ ودخل دمشق نفسها (٤) . والمعروف أن تيمورلنك جمع مهرة صناع وأرباب الحرف فى الشام ورحلهم إلى سمرقند ، مما أضر بحضارة الشام ضررا بليغا .

واستمرت أحوال بلاد الشام فى اضطراب بعد الصلح مع تيمورلنك والمماليك ، إذ ثار نائب غزة ونائب طرابلس ضد السلطان فرج سنة ١٤٠٥ . وفى عهد السلطنة الثانية للسلطان فرج ثار نائب حلب الأمير جكم سنة ١٤٠٧ وأعلن سلطنته وتلقب بالملك العادل ، وضرب السكة باسمه ولم يكد يقتل جكم بعد

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٧٨ — ٢٧٩ ،
المقريزى : السلوك ج ٣ ص ٦٣٤ — ٦٣٥ .
(٢) المقريزى : السلوك ج ٣ ص ٦٦٦ وما بعدها .
(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٣١٩ — ٣٢٤ (بولاق)
(٤) ابن عربشاه : عجائب المقدور فى أخبار تيمور ص ٩٨ وما بعدها .

شهرين حتى انضم نوروز نائب الشام إلى شيخ نائب طرابلس واستبدا ببلاد الشام ، بل لقد زحفا على مصر سنة ١٤٠٨ . وقد حلت الهزيمة بالسلطان فرج قرب دمشق سنة ١٤١٢ ، ثم قبض عليه وقتل بعد قليل (١) .

وهكذا ظلت بلاد الشام مسرحا لكثير من الفتن والمؤامرات والثورات طوال عصر المماليك . وقد درس الأستاذ جاستون فييت تراجم أربعة وسبعين نائباً لنيابة دمشق فى عصر المماليك ، فتبين له أن تسعة وعشرين منهم خرجوا على السلطنة وأعلنوا الثورة ، واستطاع اثنان منهم — هما لاجين وشيخ - أن يصلا إلى السلطنة ، وتمكن إثنان من الهرب إلى خارج الدولة ، وحصل خمسة على عفو السلاطين ، وسجن خمسة ثم أفرج عنهم ، فى حين أعدم خمسة عشر (٢) ، هذا فى دمشق فقط وهى إحدى نيابات الشام !

أثر نيابات الشام فى أحوال دولة المماليك :

أما عن نصيب نواب الشام فى سياسة دولة المماليك العامة ، فيلاحظ أنهم كانوا قوة يخشاها السلاطين فى مصر ؛ حتى أن كل سلطان جديد من سلاطين المماليك كان عليه أن يفكر فى مدى إخلاص نواب الشام له . ولعل هذا هو السر فيما لجأ إليه سلاطين المماليك من كثرة تغيير نواب الشام بين حين وآخر وبخاصة فى أوائل حكم كل سلطان .

ولا أدل على قوة نواب الشام ومدى إدراك سلاطين المماليك لخطورتهم من أن السلطان بيبرس الجاشنكير لم يتمالك نفسه من الفرح عندما حلف له نواب الشام عقب توليته السلطنة سنة ١٣٠٨ ، وقال : « الآن تم لى الملك ! » (٣)

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٣٥٣ — ٣٥٥ .

(٢) Hauteceour et wiet· les mosquees du caire p.56.

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٤٢ .

ثم إن كل سلطان جديد من سلاطين المماليك كان يحرص بمجرد اعتلائه دست السلطنة ، على أن يرسل خبر سلطنته إلى الشام ليطمئن إلى أن نواب الشام وأمراءها جميعا يؤيدونه .

وهناك أربع حالات فى دولة المماليك الترك اشترك فيها أمراء الشام مع بعض أمراء مصر فى خلع أربعة سلاطين وتولية غيرهم من الأمراء الموالين لهم . وأول هؤلاء السلاطين هو بركة خان بن بيبرس ، وسبب خلعه قيام خلاف بينه وبين أمراء الشام ومصر . ويقال إن بركة خان كان بالشام سنة ١٢٧٨ عندما علم بمؤامرة أمراء الشام ضده ، فأرسل إليهم ملتمسا منهم العفو متلطفا إليهم بأنواع الخضوع (١). ولكن الأمراء لم يهتموا بكلامه وساروا إلى مصر ليعملوا على خلعه ، وعندئذ رحل بركة خان عن دمشق قاصدا مصر حيث حاصره الأمراء حتى اضطروه إلى التنازل عن السلطنة . ويقول النويرى إن بركة خان أرسل إلى الأمراء أثناء الحصار « وسألهم أن يكون الشام بكماله لهم ، فأبوا ذلك إلا أن يخلع نفسه » (٢) .

أما السلطان الثانى الذى خلع عن السلطنة عندما غضب عليه أمراء الشام فهو كتبغا (١٢٩٤ — ١٢٩٦) ، الذى استثار أمراء الشام عندما عزل الأمير أيبك الحموى نائب دمشق وعين بدلة مملوكه أغرلو العادلى ، فضلا عن أنه لم يمنح أمراء الشام الإقطاعات والهدايا عند زيارته الشام لأول مرة ، كما جرت بذلك عادة السلاطين فى مصر المماليك (٣) .

وأما السلطان الثالث الذى خلع عن السلطنة بسبب غضب أمراء الشام عليه ، فهو بيبرس الجاشنكير (١٣٠٨ — ١٣٠٩) الذى لم يرض عنه نواب

---

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ ورقة ٦٨ (مخطوط) .

(٢) النويرى نهاية الأرب ج٢٨ ورقة ١٢٦ .

(٣) تاريخ ابن الوردى ج ٣ ص ٢٤٠ .

الشام وكاتبوا الناصر محمد فى الكرك يخبرونه بتأييدهم له حتى يسترد ملكه(١) وكان أن خرج الناصر محمد من الكرك إلى دمشق — كما سبق أن ذكرنا — وخرجت عساكر دمشق إلى طاعته وتلقوه ؛ وبفضل هذه المعونة تمكن الناصر محمد من استعادة عرشه سنة ١٣٠٩ (٢).

وأخيرا فإن السلطان الرابع الذى خلع بسبب قيام أمراء الشام ضده هو علاء الدين كجك بن الناصر محمد سنة ١٣٤١ ؛ وقد تسلطن بعده أخوه أحمد(٣)

ومهما يكن من أمر ، فإن قيام بعض الحركات فى الشام لمساعدة سلطان أو عزل آخر لا ينبغى أن تجعلنا ننسى إطلاقا المساعدات القيمة التى أمدت بها نيابات الشام مصر فى أوقات الحرج أثناء حروبها الطويلة ضد الصليبيين والتتار . ولا شك فى أن الملاحظة الهامة التى يخرج بها الدارس لتاريخ مصر سلاطين المماليك فى مصر والشام هى أن أمراء المماليك — فى مصر والشام — كانوا غالبا ما يتناسون ما بينهم من خلافات لمواجهة الأخطار الخارجية ، وأن وحدة مصر والشام كانت ضرورة حتمية لمواجهة خطر الأعداء الذين هددوا كيان العروبة فى الشرق الأدنى فى ذلك العصر .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٤١ .
(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ٥٦ — ٥٨
(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٢١ وما بعدها

الفصل الثامن

العلاقات الخارجية

استطاعت دولة المماليك التى قامت فى مصر والشام سنة ١٢٥٠ أن تثبت أنها أعظم قوة معاصرة فى الوطن العربى من المحيط إلى الخليج ؛ فنظر إليها حكام وشعوب الدول الإسلامية والعربية نظرة إكبار وإجلال ، فى حين نظرت إليها القوى الأخرى — خارج المحيطين العربى والإسلامى — نظرة خوف واحترام . وحسب دولة المماليك أنها استطاعت أن تواجه الأخطار الخارجية التى هددت الوطن العربى فى الشرق الأدنى فى شجاعة وبأس ؛ فحمت الشام ومصر من خطر التتار ، وطاردت الصليبيين كلية من أرض الشام بل لاحقتهم فى مراكزهم القريبة مثل أرمينية الصغرى وقبرس ورودس . هذا فضلا عن أن نجاح سلاطين المماليك فى احياء الخلافة العباسية فى مصر - بعد سقوطها فى بغداد - جعل لهم ولدولتهم مكانة مرموقة فى العالم الإسلامى أجمع ، اذ جعلهم يبدون فى صورة الزعماء الحقيقيين للعالم الإسلامى أجمع بوصفهم حماة الخلافة المتمتعين ببيعتها .

وهكذا غدت القاهرة فى عصر سلاطين المماليك قبلة الأصدقاء والأعداء جميعا ، الأصدقاء يطلبون تأييدها وينشدون مساعدتها ، والأعداء يبغون ملاطفتها ومسالمتها ، أو مهادنتها اتقاء لبطشها . وبين هذا وذاك من التيارات السياسية ظهر تيار التجارة والمال أشد ما يكون قوة وانطلاقا فى ذلك العصر ليجعل التجار والسفراء يترددون على مصر بين فينة وأخرى ، يبغون عقد اتفاقية تجارية أو الغاء مكس أو تخفيف ضريبة . وبذلك شهدت القاهرة نشاطا دبلوماسيا ضخما فى عصر المماليك ، وصارت مركزا لشبكة واسعة من العلاقات

الخارجية مع الدول الصديقة وغير الصديقة ، بحيث أننا لانبالغ إذا قلنا إن ديوان الإنشاء فى عصر المماليك غدا يمثل أضخم وزارة خارجية شهدها العالم أجمع فى ذلك العصر . ولا أقل من تتبع هذا النشاط بإلقاء نظرة سريعة على العلاقات بين سلطنة المماليك فى مصر والشام من ناحية وأهم الدول التى ربطتها بها علاقات دبلوماسية من ناحية أخرى[1] .

المماليك ومغول القفجاق :

عندما قسم جنكزخان دولته الواسعة بين أبنائه الأربعة كانت الأجزاء الواقعة قرب بحر قزوين وفى حوض نهــر الفولجا من نصيب جوجى ابن جنكزخان ، فأقام هناك دولة عرفت باسم دولة مغول القفجاق أو القبيلة الذهبية نسبة إلى اللون الذهبي الذى اشتهرت به خيامها . ولم يلبث الإسلام أن انتشر بين ذلك الفرع من التتار ، وذلك بعد أن اعتنق رئيسهم بركة خان الإسلام ، الأمر الذى ترتب عليه ازدياد أواصر التقارب والصداقة بين مغول القفجاق والقوى الإسلامية المجاورة وبخاصة دولة المماليك من ناحية ؛ وازدياد العداء والتنافس بين مغول القفجاق وبقية طوائف المغول الوثنيين وبخاصة مغول فارس من ناحية أخرى .

وفى موجة العداء بين سلطنة المماليك فى مصر وتتار فارس ، كان طبيعياً أن يزداد التقارب بين المماليك وتتار القفجاق المسلمين من ذلك أن السلطان الظاهر بيبرس لم يكد يعلم بإسلام بركة خان حتى كتب إليه « يغريه بقتال هولاكو ويرغبه فى ذلك »[2] . ثم إن الظاهر بيبرس أخذ يكرم وفود المغول

(١) استبعدنا من هذه الدراسة الدول التى لم تربطها بدولة المماليك سوى علاقات حربية واضحة مثل مغول فارس وأرمينية الصغرى وقبرس ورودس وغيرها ، وقد سبق الكلام عما كان بين دولة المماليك وتلك الدول من علاقات يغلب عليها الطابع الحربي .

(٢) المقريزى : السلوك جـ١ ص ٤٦٥ .

الوافدين على بلاده من القبيلة الذهبية ، وكان بعض هؤلاء خاضعين لهولاكو ففروا إلى الشام عندما لمسوا العداء المستحكم بين زعيمهم بركة خان وحاكمهم هولاكو[١] .

ولم يلبث أن وفد على مصر سنة ١٢٦٣ رسل بركة خان يحملون رسالة للسلطان بيبرس جاء فيها « فليعلم السلطان أنى حاربت (هولاكو) الذى من لحمى ودمى لإعلاء كلمة الله العليا تعصباً لدين الإسلام لأنه باغى والباغى كافر بالله ورسوله ... »[٢] ، وكان أن رد الظاهر بيبرس على بركة خان برسالة طويلة جمع فيها « من الترغيب والاستمالة والإغراء على هولاكو وإظهار الميل إليه ... »[٣] ، ولم يكتف بيبرس بتلك الرسالة ، وإنما أمر بالدعاء لبركة خان بعد الدعاء للسلطان على منابر مكة والمدينة والقدس والقاهرة ، كما أرسل صحبة الرسل هدية ثمينة للملك بركة ، من جملتها فيل وزرافة ، ويقال إن رسل بيبرس قوبلوا بالحفاوة البالغة فى بلاد بركة خان ، وحكوا عند عودتهم إلى مصر أن لكل أمير وأميرة فى بلاط بركة خان إماما ومؤذناً خاصاً ، وأن الأطفال كانوا يحفظون القرآن فى المدارس[٤] .

---

(١) توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٢٥٩ ،
المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ١١٧ — ١٩٨ .
(٢) العينى : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٤٩٤ .
(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٤٢٢ (مخطوط) .
(٤) توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٢٦٠ .
ويلاحظ أن بعض الكتاب ذكروا أن الظاهر بيبرس تزوج من ابنة بركة خان ملك القفجاق (انظر مثلا جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس فى مصر ، ص ١٠٦) ، وأخذوا هذا الرأى من : Lane - Poole : op-Cit.p266
ولكن هذا الرأى يبدو لنا خاطئا ، إذ لا يوجد فى المراجع المعاصرة أدنى إشارة إلى ارتباط الظاهر بيبرس بملك القفجاق بركة خان بصلة المصاهرة . وربما كان سبب ذلك الخطأ الذى وقع فيه لين بول ومن أخذ عنه ، أن المراجع عندما ذكرت زوجات الظاهر بيبرس قالت إن أولى زوجاته هى ابنة حسام الدين بركة خان التترى وأنها كانت خوندالكبرى فى حريم بيبرس وأم ولده وولى عهده السعيد بركة خان . ولكن الأمير حسام الدين بركة خان غير بركة خان ملك

ومهما يكن من أمر ، فإن العلاقة بين الظاهر بيبرس في مصر وبركة خان ملك مغول القفجاق لم تكن مجرد « علاقة شخصية » بين رجلين وإنما كانت علاقة بين دولتين ربطت بينهما روابط روحية قوية وأحستا بخطر واحد مشترك هو خطر مغول فارس . وهكذا لم تؤد وفاة بركة خان سنة ١٢٦٧ إلى انقطاع صلات الود بين مغول القفجاق ودولة المماليك ، إذ تبودلت السفارات والكتب بين بيبرس ومنكوتمر — خليفة بركة خان — بقصد توجيه القوى ضد مغول فارس وزعيمهم أبغا(١) . واستمرت هذه السياسة نافذة بعد بيبرس ، إذ حدث سنة ١٣٠٤ أن أرسل طقطاى ملك القفجاق سفارة إلى السلطان الناصر محمد بن قلاون تحمل هدية ورسالة خلاصتها استعداده لمشاركته في محاربة غازان إيلخان مغول فارس ؛ فأجابه الناصر محمد بأن الله قد كفاهم شر غازان وأن أخاه أولجايتو رضى بالصلح(٢) .

وقد أراد السلطان الناصر محمد بن قلاون أن يدعم الصلات بين دولتي المماليك والقفجاق ، فواصل إرسال الرسل والهدايا إلى أزبك خان ؛ بل لقد أرسل سفارة سنة ١٣١٦ إلى أزبك خان ليطلب الزواج من « بعض الجهات الجنكزية » أى أميرة من بيت جنكزخان ، وذلك توثيقا لصلات الود بين سلطنة المماليك ومغول القفجاق . ولكن يقال إن رجال أزبك خان تمنعوا في أول الأمر ، واشتطوا « في طلب المهر وطول المدة وكثرة الشروط(٣) » الأمر الذي جعل السلطان الناصر محمد يعدل مؤقتا عن ذلك المشروع حتى عاد

= القفجاق ؛ ولا يعدو الأمر مجرد تشابه في الاسم أوجد ذلك الخلط (المقريزى : السلوك ج ١ ص ٦٤٠ — ٦٤٤) .

(١) العينى : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٣٥٧ .

(٢) المقريزى : السلوك ، ج ٢ ص ٧ ؛

محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاون في مصر ص ٢١٨ .

(٣) النويرى نهاية الأرب ج ٢٠ ورقة ١٣٧ ؛

المقريزى : السلوك ، ج ٢ ص ٢٠٤ .

أزبك خان إلى تلبية رغبة السلطان الناصر فقال « قد جهزت لأخي السلطان الملك الناصر ما كان قد طلب وعينت له ابنة من البيت الجنكزخاني » . وفي سنة ١٣٢٠ وصلت الأميرة التترية واسمها دلنبية — ويقال طولونية — إلى الإسكندرية عن طريق البحر فاستقبلت أحسن استقبال ، ودخل بها السلطان الناصر بعد أيام(١) .

وهكذا استمرت العلاقات أقوى ما تكون صفاء بين سلطنة المماليك في مصر ودولة مغول القفجاق . ويفهم مما ذكره القلقشندي أن المراسلات استمرت بين السلطان الحسن ابن الناصر محمد وجاني بك ابن أزبك ، وأن جاني بك كان يخاطب في رسائل المماليك بعبارات التشريف والتقدير والمبالغة في الاحترام(٢). ويبدو أن انحلال إيلخانية مغول فارس بعد ذلك قلل من إحساس كل من مغول القفجاق والمماليك في مصر والشام بذلك الخطر المشترك . هذا إلى أن دولة مغول القفجاق نفسها أخذت في الانحلال والضعف البطيء ، في الوقت الذي شغلت سلطنة المماليك بأعداء جدد مما أضعف صلاتها مع مغول القفجاق .

المماليك والدول الإسلامية في آسيا :

حرصت مصر في عصر المماليك على بسط نفوذها السياسي والديني على الحجاز ، أسوة بما كان عليه الوضع منذ أيام الطولونيين . وكان شرفاً عظيماً ودعامة كبرى لكل حاكم مسلم أن يظهر أمام المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها في صورة حامي الحرمين والمدافع عن الحجاز وأرضه الطيبة . ومنذ قيام سلطنة المماليك في مصر ، وسلاطين المماليك يبدون اهتماماً خاصاً بالحجاز وعناية كبرى بشئونه . ولم يقتصر ذلك الاهتمام وتلك العناية على العناية بعمارة الحرم النبوي وإرسال

---

(١) المقريزي : السلوك ج ٢ ص ٢٠٤ — ٢٠٥ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٧ ص ٢٩٥ — ٢٩٦ .

المكسورة إلى الحجاز (١)، وإنما امتدت تلك العناية إلى بسط نفوذ المماليك السياسى على الحجاز. ومن ذلك ما يقال من أن السلطان الظاهر بيبرس إنما قصد بإحياء الخلافة العباسية فى مصر، أن يستغل هذه القوة الجديدة فى بسط سيادته على الحجاز مثلما كان الحال أيام الأيوبيين(٢).

والواقع إن الخلافات بين أشراف الحجاز هى التى أتاحت فرصة طيبة لسلاطين المماليك لتحقيق أغراضهم. ذلك أنه حدث سنة ١٢٦٦ أن قدم إلى مصر الشريف بدر الدين مالك بن منيف بن شيحة ليشكو إلى السلطان بيبرس من أن الشريف جماز أمير المدينة حرمه من المشاركة فى الإمرة التى كانت مناصفة بين أبيه ووالد جماز. وهكذا وجد السلطان فرصة طيبة للتدخل، فكتب إلى جماز يطلب منه تسليم بدر الدين نصف الإمرة، وتسلم الشريف بدر الدين تقليداً بذلك من بيبرس، «فامتثل جماز».

ثم حدث سنة ١٢٦٨ أن وقع خلاف فى مكة بين الشريف نجم الدين أبى نمى وبين عمه وشريكه فى إمارة مكة الشريف بهاء الدين إدريس. وقد انتهز السلطان بيبرس تلك الفرصة لتسوية النزاع بينهما وتأكيد سلطانه عليهما جميعاً، فرتب السلطان لهما عشرين ألف درهم كل سنة، بشرط ألا يجمعوا من أحد مكوساً وألا يمنع أحد من زيارة البيت وألا يتعرض التاجر. وأهم من هذا كله، فإن السلطان بيبرس اشترط على أميرى مكة أن يخطب باسمه فى الحرم والمشاعر، وأن تضرب السكة باسمه، مما يضمن له سيادة سياسية فعلية على الحجاز. وبعد أن وافق أميرا مكة على كل ذلك، كتب لهما بيبرس تقليداً بالإمارة وسلمت لنوابهما أوقاف الحرم التى بمصر والشام(٣).

---

(١) المقريزى: السلوك ج ١ ص ٤٤٥.

(2) Van Berchem: Titres Califiens pp. 286—292.

(٣) المقريزى: السلوك ج ١ ص ٥٦٠، ٥٧٩.

ولم يبق بعد ذلك أمام بيبرس سوى أن يذهب بنفسه إلى الحجاز لتأكيد سلطانه على تلك البلاد من ناحية ولتأدية فريضة الحج من ناحية أخرى ، وكان أن نفذ بيبرس عزمه سنة ١٢٦٩ (٦٦٧ هـ) فزار المدينة ، وغسل الكعبة بيديه . وانتهز تلك الفرصة ليعين أحد أمرائه — وهو الأمير شمس الدين مروان — نائباً عنه في مكة ليكون الحل والعقد على يديه»[١] . على أنه يتضح من خلال أحداث زيارة بيبرس للحجاز أن العلاقة بينه و بين أشراف الحجاز لم تكن على ما يرام ، بدليل أن أميرى المدينة جماز ومالك رفضا مقابلة السلطان بيبرس « وفرا منه » مما يشهد على أن أمراء الحجاز أحسوا بثقل وطأة حكم بيبرس عليهم[٢] .

ولم تستقر الأوضاع لدولة المماليك في الحجاز بعد عهد بيبرس ، إذ استمرت الخلافات بين الأشراف في مكة والمدينة تثير مشاكل عديدة في وجه دولة المماليك . من ذلك ما حدث في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاون من استنجاد الشريف منصور ضد ابن أخيه ماجد بن مقبل الذى انتزع منه إمارة المدينة ، فأرسل السلطان الناصر محمد بعضاً من جنده لمعاونة الشريف منصور[٣] .

أما في مكة فقد علت الشكوى من الأخوين حميضة وأسد الدين رميثة ، مما جعل السلطان الناصر محمد يرسل حملة سنة ١٣١٤ لإحلال أخيهما أبي الغيث محلهما في الحكم[٤] . ولم يكتف أمراء مكة بالاستعانة بسلطنة المماليك في مصر لفض ما بينهم من منازعات ، بل بلغ الأمر ببعضهم أن فر إلى أولجاتيو إيلخان

---

(١) العيني ، عقد الجمان ج ٢٠ مجلد ٣ ورقة ٥٥١ (مخطوط) ؛ النويرى ، نهاية الأرب ج ٢٨ ص ٥١ — ٥٢ (مخطوط) .

(٢) المقريزى ، السلوك ج ١ ص ٥٨٠ — ٥٨٢ .

(٣) محمد جمال الدين سرور ، دولة بني قلاون في مصر ص ١١٨ ،

(٤) أبو الفدا ، المختصر ج ٤ ص ٧٣ .

المغول فى فارس لطلب النجدة منه(١) . وهكذا ظلت مكة مسرحاً لمنازعات عديدة الأمر الذى جعل سلاطين المماليك يرسلون بين حين وآخر بعض القوات إلى هناك لإقرار الأمور أو لمناصرة أمير على آخر. هذا إلى أن سلاطين المماليك كثيراً ما قصدوا الحجاز لأداء فريضة الحج ، وعندئذ كانوا يغتنمون فرصة وجودهم هناك لبحث المشاكل التى يعانى منها أهل الحرمين ، وتوزيع القمح والغلال على المحتاجين ، فضلا عن إقرار الأمن والنظام بالأراضى المقدسة(٢) .

أما بلاد اليمن فقد ارتبط حكامها من بنى رسول بعلاقات الود مع سلاطين المماليك فى مصر ، ويفهم من المراجع أن عدة سفارات أتت من اليمن تحمل الهدايا إلى السلطان الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٨ ، ١٢٧٠ ، ١٢٧٥ (٦٦٦هـ ، ٦٦٩هـ ، ٦٧٤هـ) ومن هذه الهدايا التحف والفيلة والحيوانات والطيور . وكان السلطان الظاهر بيبرس يحسن استقبال تلك السفارات ويرد على تلك الهدايا بأحسن منها(٣) .

ويبدو أن ملوك اليمن من بنى رسول كانوا يخشون سطوة سلاطين المماليك فى مصر ، لأنه كان من المفرض أن تظل بلاد اليمن تابعة لمصر منذ أن فتحها توران شاه أخو صلاح الدين الأيوبى سنة ١١٧٣ . هذا إلى أن قيام الخلافة العباسية فى مصر جعل لسلاطين المماليك نوعا من الولاية على بقية ملوك العالم الإسلامى ، وبخاصة البلاد التى ورد ذكرها فى التقليد الذى منحه الخليفة المستنصر بالله العباسى للسلطان الظاهر بيبرس ، وهى « الديار المصرية والبلاد الشامية والديار بكرية والحجازية واليمنية والفراتية » . ولعل هذا هو السر فى حرص ملوك بنى رسول باليمن على علاقاتهم الودية مع سلاطين المماليك

---

(١) النويرى . نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٨٩ ؛

Howorth : Hist. of the Mongols, III, p. 572.

(٢) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ١٩٧ ، ص ٢٣٨ .

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٥٦٣ ، ٥٩٠ ، ٦٢١ .

فى مصر ، فأرسل المظفر شمس الدين على سفارة سنة ١٢٨١ إلى السلطان المنصور قلاوون تحمل هدية قيمة من العنبر والعود والصينى وغيرها . وقد ألح ذلك الوفد فى الحصول على أمان من السلطان قلاوون لملك اليمن ، فلبى السلطان رغبتهم وأعطاهم أمانا نص فيه على ألا « تناله منا مضرة مدى الدهر وأعمارنا ، ما دام ملازما لشروط مودتنا . . »[1] .

وفى الوقت نفسه حرص سلاطين المماليك فى مصر على إرسال الرسل إلى اليمن ليذيعوا على أهلها ما أحرزه سلاطين مصر من انتصارات باهرة رفعت شأن الإسلام والمسلمين . من ذلك أن السلطان الناصر محمد بن قلاون أرسل أحد أمرائه إلى اليمن ليبشر بانتصاره على التتار فى موقعة مرج الصفر سنة ١٣٠٢[2] .

على أنه حدث سنة ١٣٠٣ أن تولى ملك اليمن المؤيد هزبر الدين داود ، الذى لم يتبع أسلافه من ملوك اليمن فى التودد إلى سلاطين مصر ، بل على العكس ضايق التجار المصريين وامتنع عن إرسال المال المقرر إلى مصر . لذلك أرسل إليه كل من السلطان الناصر محمد والخليفة المستكفى بالله ينذرونه ويهددونه ؛ بل لقد أخذ الناصر محمد يعد العدة لإرسال قوة حربية لتأديب صاحب اليمن ، لولا اضطراب الأحوال الداخلية فى مصر مما حال دون تنفيذ ذلك المشروع[3] .

على أن الأمور لم تلبث أن انتظمت بين سلطنة المماليك من ناحية وملوك اليمن من ناحية أخرى . ومن الثابت أن المنازعات بين أمراء اليمن بعضهم

---

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١٢٣ (مخطوط) .

(٢) محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاون فى مصر ص ١٣٠ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٣٤ — ٣٨ .

وبعض من جهة ، أو بين الأمراء والأئمة الزيدية من جهة أخرى . أتاحت لسلاطين المماليك فرصة دائمة للتدخل بين حين وآخر فى شئون اليمن وادعاء هيمنتهم على ملوكها . من ذلك أن الملك المجاهد سيف الدين طلب من السلطان الناصر محمد سنة ١٣٢٥ أن يمده بقوة تنصره على ابن عمه عبد الله ابن المنصور الذى سيطر على معظم أنحاء اليمن ، فأمده السلطان الناصر محمد بحملة كبيرة تحت قيادة الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب(١) . وهكذا ظل ملوك اليمن يعترفون بالولاء لسلاطين المماليك فى مصر ويحرصون على إرضائهم مما حقق لأولئك السلاطين سيادة على أهم أجزاء شبه الجزيرة العربية .

وثمة دولة إسلامية أخرى فى آسيا ربطتها بسلطنة المماليك علاقات المودة والصداقة ، هى دولة هندستان . وقد نجح محمد بن تغلق ملك هندستان وسلطان دهلى (١٣٢٥ — ١٣٥١) فى توطيد دعائم دولته عن طريق التوسع على حساب الصين وخراسان من جهة ، ومحالفة سلطنة المماليك فى مصر بوصفها أكبر دولة إسلامية مناهضة لمغول فارس من جهة أخرى(٢) . ولهذا الغرض أرسل محمد بن تغلق فى أوائل حكمه سفارة مزودة بالهدايا الثمينة ، وإن كانت هذه السفارة لم تصل إلى مصر بسبب ما دب بين أعضائها من نزاع مما مكن الملك المجاهد صاحب اليمن من الاستيلاء على ما معهم من هدايا . ولما سمع محمد بن تغلق بما حدث لسفارته الأولى ، عاد وأرسل إلى السلطان الناصر محمد بن قلاون سنة ١٣٣١ يطلب معونته ضد المغول(٣) .

ثم إن محمد بن تغلق لم يكتف بالسعى لكسب تأييد السلطان الناصر

---

(١) المقريزى : السلوك ، جـ ٢ ص ٢٥٩ — ٢٦٥ .

(2) Lane — Poole : Med. India under Mohammedan Rule, pp. 116—120:

(٣) محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون ص ١٤٠ — ١٤١ .

محمد ، بل حاول أيضا الحصول على تقليد بولايته على بلاده من الخليفة العباسى بالقاهرة ، فأجابه الخليفة المستكفى بالله العباسى إلى رغبته . وقد حرص فيروز شاه الثالث - الذى خلف محمد بن تغلق فى الحكم سنة ١٣٥١ - على اتباع نفس السياسة ، فطلب تفويضا من الخليفة العباسى ، وأرسله له الخليفة المعتضد بالله سنة ١٣٥٦[1] .

وهكذا يتضح لنا كيف أن سلطنة المماليك أيام ذروة مجدها حققت لنفسها من اتساع النفوذ وهيبة السلطان ما جعل حكام الدول الإسلامية حتى بلاد الهند شرقا يخطبون ودها ويسعون لكسب تأييدها .

سلطنة المماليك والدول الإسلامية فى شمال أفريقية :

أما الدول الإسلامية بشمال أفريقية فقد ربطتها بسلطنة المماليك فى مصر علاقات قوية أدت إليها رابطة الجوار والإسلام من جهة ، ورابطة الخلافة من جهة ثانية ، ورابطة الخطر المشترك الذى هدد العالم الإسلامى من جانب الغرب الأوروبى من جهة ثالثة ، ثم رابطة الحج ، نظرا لأن مصر تقع على الطريق الرئيسى الذى يوصل حجاج المغرب إلى أرض الحجاز من جهة رابعة .

وكانت مشكلة الخلافة سببا من أسباب فتور العلاقات فى وقت ما بين سلطنة المماليك فى مصر وبنى حفص فى تونس (١٢٢٨ - ١٥٧٣) . ذلك أن ملوك بنى حفص لم يطلبوا من الخليفة العباسى فى بغداد تفويضا بالحكم مثل غيرهم من غالبية الحكام المسلمين ، مما يشير إلى شىء أضمروه فى نفوسهم . ولم يلبث أن ظهر ذلك الشىء عند ما اتخذ أبو عبد الله محمد الأول الحفصى الملقب بالمنتصر (١٢٤٩ - ١٢٧٦) لقب الخلافة والإمامة ، وتلقب بلقب

(1) Allan : The Cambridge Shorter Hist. of India, p. 246.

المستنصر بالله المنصور بفضل الله أمير المؤمنين أبى عبدالله محمد ابن الأمراء الراشدين»[١]. وبذلك كان أسبق ملوك شمال أفريقية — بعد الموحدين — إلى اتخاذ لقب أمير المؤمنين.

وتشير المراجع إلى أن الذى شجع الحفصيين على الإقدام على تلك الخطوة كان شريف مكة أبو نمى بن الحسن، الذى أسرع بالاعتراف بسيادة الحفصيين على مكة[٢]، ولم تكن سفارة أبى نمى هى الوحيدة التى وصلت إلى تونس، وإنما أعقبتها أيضا سفارتان إحداهما من سلطان بنى مرين والأخرى من ملك التكرور.

ولم يمض على اتخاذ أبى عبد الله الحفصى لقب الخلافة مدة طويلة حتى قام السلطان الظاهر بيبرس بإحياء الخلافة العباسية فى القاهرة سنة ١٢٦٠، مما أوجد نوعا من الضغينة بين سلطنة المماليك فى مصر وملوك الحفصيين فى تونس. والواقع إن سلطنة المماليك فى مصر حاولت دائما أن تقلل من شأن خلافة الحفصيين، بدليل ماذكره العمرى من أن ملك تونس يخاطب بأمير المؤمنين فى بلاده»[٣]. كذلك شكك القلقشندى فى دعوى انتساب الحفصيين لقريش، وقال إنهم ليسوا من العرب فى شىء، وحقر من شأنهم وشأن خلافتهم[٤]. أما المؤرخ أبو المحاسن فقد بلغ من تحقيره للحفصيين وخلافتهم أن قال مانصه «وفيها (٦٥٢هـ) وصلت الأخبار من الغرب باستيلاء إنسان على إفريقية وادعى أنه خليفة وتلقب بالمستنصر ...»[٥].

---

(1) Van Berchem : Titres Califieu, p. 292.

(٢) القيروانى : المؤنس فى أخبار افريقية وتونس ، ص ١٢٨.

(٣) العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٢

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٨ ص ٧٩.

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢.

ويبدو لنا موقف سلطنة المماليك فى مصر من الحفصيين فى المكاتبات الصادرة عن ديوان الإنشاء ، إذ ليس فى هذه المكاتبات مايشير إلى اعتراف سلاطين المماليك بخلافة الحفصيين . ولم يحاول سلاطين المماليك تلقيب الحفصيين بلقب أمير المؤمنين ، وإنما لقبوهم فقط بلقب « أمير المسلمين » وهو لقب دون الأول فى المرتبة ولا يعنى أنه خليفة شرعى على المسلمين ، وإنما هو مجرد حاكم أو أمير من أمراء المسلمين يعمل تحت لواء الخلافة[1] . وليس فى القلقشندى سوى رسالة واحدة بعث بها الظاهر برقوق إلى أحد ملوك الحفصيين لقبه فيها بلقب « أمير المؤمنين » ، وربما كانت عبارة المؤمنين فيها تحريفا عن المسلمين نتيجة لخطأ النساخ ، أو ربما كان سوء العلاقات بين الخلفاء العباسيين فى القاهرة وسلاطين المماليك عندئذ سببا دفع الظاهر برقوق إلى الاعتراف بالخلافة الحفصية نكاية فى الخلافة العباسية .

على أن مشكلة الخلافة بين المماليك والحفصيين لم تصل إلى درجة من الحدة تحول دون تكاتف القوتين لمواجهة الخطر الكبير الذى هدد العالم الإسلامى عندئذ من جانب الصليبيين . من ذلك أن أخبار حملة لويس التاسع على تونس سنة ١٢٧٠ أثارت اهتمام السلطان بيبرس ، فأخذ يستعد بسرعة لدفع عادية الصليبيين عن تونس ، بل يقال إن السلطان الظاهر بيبرس بادر بإرسال رسول إلى فرنسا لتحذير لويس التاسع من عاقبة مشروعه ، وذلك بمجرد وصول أخبار استعدادات لويس التاسع إلى مصر[2] . وعند نزول القوات الصليبية فى تونس بادر السلطان الظاهر بيبرس بإرسال رسالة إلى ملك الحفصيين يخبره بأنه سيرسل إليه مايستطيع من عسكر ، كما طلب من عربان برقة المبادرة

---

1) Van Berchem : Titres Califiens. p. 261.

(٢) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ٢٩١

بمساعدة المستنصر الحفصى . هذا إلى أن بيبرس أمر بحفر الآبار فى الصحراء الغربية ليعتمد عليها جنوده فى طريقهم لنجدة تونس [١].

على أن السلطان بيبرس لم يكد يمضى فى استعداداته حتى جاءت الأخبار بموت لويس التاسع فى تونس وفشل حملته ، الأمر الذى جعل بيبرس يوقف استعداداته الحربية لمساعدة تونس ويرسل البشائر إلى سائر بلدان المسلمين ابتهاجاً بالخلاص من ذلك الخطر [٢]. ومع ذلك فإن السلطان بيبرس لم يفته أن يتخذ تلك الحملة الصليبية وسيلة للتشنيع على المستنصر الحفصى والحط من شأنه ويروى المقريزى أن رسول صاحب تونس قدم إلى مصر سنة ١٢٧١ يحمل هدية وكتاباً للسلطان الظاهر بيبرس ، ولكن بيبرس استاء من أسلوب المخاطبة وظن أن صاحب تونس تعمد عدم مخاطبة سلطان مصر بما يستحقه من تقدير . لذلك تعمد السلطان بيبرس من ناحيته أن يفرق هدية صاحب تونس على الأمراء دون أن يحتفظ لنفسه بنصيب منها ، كما رد على ملك الحفصيين مستقبحاً تظاهره بالمنكرات واستخدامه الفرنج ، فضلا عن تقاعسه فى الجهاد وعدم خروجه لمقاتلة الصليبيين عندما هاجموا بلاده . ويروى المقريزى أن السلطان بيبرس قال للمستنصر الحفصى « مثلك لا يصلح أن يلى أمور المسلمين [٣] » .

* * *

هذا عن العلاقة بين سلطنة المماليك ودولة الحفصيين فى تونس ؛ أما عن علاقة المماليك ببقية بلاد المغرب الإسلامى - مثل بنى زيان فى تلمسان وبنى مرين فى فاس - فيلاحظ أنها تأثرت بما كان هناك من صداقة بين سلطنة المماليك وبنى مرين فى فاس ، فى الوقت الذى ساءت العلاقات بين بنى زيان وبنى مرين .

---

(١) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٥٩٠
(٢) سعيد عاشور . الظاهر بيبرس ص ١١٤
(٣) المقريزى ، السلوك ، ج ١ ص ٦٠١

والواقع إن الزيانيين تطلعوا فى أول الأمر إلى سلاطين المماليك للحصول على تأييدهم ضد أطماع بنى مرين ، ولكن سلاطين المماليك فى مصر كانوا على درجة من بعد النظر جعلتهم يدركون أن بنى مرين هم أضخم قوة فى بلاد المغرب ، فحرصوا على إظهار الود نحوهم واكتساب صداقتهم ، الأمر الذى أدى إلى نفور بنى زيان من سلطنة المماليك . وليست هناك بداية محددة لذلك النفور ، وإن كانت المراجع تشير إلى أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون أرسل سفارة سنة ١٣٠٥ إلى أبى يعقوب يوسف المرينى ، ومع السفارة هدية جليلة ، وبعد أن لقيت السفارة من بنى مرين كل ترحاب وحفاوة ، تعرضت وهى فى طريق عودتها إلى مصر لعدوان الأعراب فى تلمسان ، على الرغم من أن أعضاء السفارة كانوا قد طلبوا من بنى زيان فى تلمسان حمايتهم فى أراضيهم [١] . وكان أن غضب السلطان الناصر محمد بن قلاوون لما أتاه صاحب تلمسان - وهو عندئذ أبو حمو موسى (١٣٠٧-١٣١٨) فأرسل يعتب عليه ويؤنبه ، كما بعث له بهدية صغيرة تحقيراً لشأنه . وقد رد التلمسانى على السلطان الناصر محمد محتجا ، كما رفض قبول الهدية [٢] . وعلى الرغم من أن أباتاشفين عبد الرحمن بن موسى التلمسانى حاول أن يصلح الأمور بعد ذلك مع سلطنة المماليك ، وأرسل إلى السلطان الناصر محمد سنة ١٣٢٥ معبرا عن حسن نواياه ويوضح له أن سبب استياء أسلافه هو « ميلكم إلى غيرنا » (يقصد بنى مرين) [٣] ، فإن دعوته لم تجد ترحيبا من سلطنة المماليك ولم يلبث بنو مرين أن بسطوا سيادتهم على تلمسان سنة ١٣٣٧ ، وكتب أبو الحسن على المرينى رسالة إلى السلطان الناصر محمد يخبره بما تم على يديه من فتوح ، فرد عليه السلطان الناصر مؤيدا ومهنئا [٤] .

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ ورقة ٥٥ (مخطوط)
(٢) ابن خلدون العبر ج ٧ ص ٣٢٧
(٣) القلقشندى صبح الأعشى ج ٨ ص ٨٦
(٤) المرجع السابق ج ٨ ص ٨٧ — ٩٩ ؟ ج ٧ ص ٣٩٥ — ٤٠٧

وهكذا يبدو لنا كيف نظر سلاطين المماليك فى مصر إلى بنى مرين نظرة احترام وإجلال ، بوصفهم أكبر قوة فى المغرب العربى ، فضلا عن دورهم البارز فى حماية الإسلام بالمغرب وجهاد المسيحيين بأسبانيا(١) .

والواقع إن مظاهر العلاقات الوثيقة التى ربطت مصر بالمغرب العربى فى أواخر العصور الوسطى بوجه عام وفى عصر سلاطين المماليك بوجه خاص عديدة ومتنوعة . ومن هذه المظاهر حرص سلاطين المماليك على إرسال البشائر إلى المغرب كلما أحرزوا انتصاراً على أعداء المسلمين فى الشرق ، مثل التتار أو الصليبيين . ولا يخفى علينا أن ملوك المغرب كانوا ينظرون إلى سلاطنة المماليك نظرة أمل بوصفهم حماة العالم الإسلامى ضد الأخطار التى هددته من جهة المشرق . وهناك فى المراجع ما يشير إلى أن ملوك المغرب كانوا يقفون موقف المترقب عندما دهم خطر التتار المشرق العربى على أيام هولاكو ثم تيمورلنك ، وأنهم كانوا يسارعون إلى تهنئة المماليك عقب كل انتصار أحرزوه على خصومهم(٢) .

كذلك كانت مصر فى عصر سلاطين المماليك ملجأ لكثير من المغاربة اللاجئين إليها فراراً من حكام بلادهم . ولم يقتصر الأمر على الأمراء المغاربة الفارين من بلادهم ، وإنما تعدى ذلك إلى هجرة بعض أفراد وطوائف من أهل المغرب إلى مصر يلتمسون فيها العلم والرزق . وكان بعض أولئك المغاربة من الفقراء والصوفية ، فتركوا أثراً عميقاً فى أحوال مصر الاجتماعية نتيجة لما ترتب على مجيئهم من انتشار حركة التصوف فيها . ولا يخفى علينا أن مرور ركب الحجاج المغاربة بمصر فى طريقهم إلى الحجاز أو إلى بلادهم بعد إداء الحج

---

(١) العمرى : التعريف ص ١٦ — ٣٣

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٢٧

القلقشندى : صبح الأعشى ج ٨ ص ٧٩ — ٨٤ ، ١٠٣ ج ٧ ص ٤٠٧ — ٤١١ .

كان فرصة طيبة لإطلاع نسبة كبيرة من أهل المغرب على أوضاع مصر ، ولا شك فى أن تلك العلاقات الطيبة بين مصر والمغرب مهدت لانتعاش التبادل التجارى والثقافى بين الطرفين . أما عن النشاط التجارى فثمة إشارات فى المراجع إلى أن مصر كانت تستورد من المغرب الخيول والزيوت وتصدر إليه المنسوجات الحريرية والكتانية . وقد روى ابن خلدون أنه أتى إلى مصر سنة ١٣٨٢ على ظهر سفينة مصرية كانت قد قصدت تونس للتجارة[١] ، كما ذكر فى موضع آخر « إن تجار المغاربة إلى المشرق ثروتهم بعيدة لبعد الشقة وغلو أسعار بضائعهم »[٢] . وأما عن التبادل الثقافى فالمعروف أن مصر فى عصر المماليك « صارت محل سكن العلماء ومحط رحال الفضلاء » كما وصفها السيوطى[٣] . لذلك قصدها فى ذلك العصر كثير من المغاربة لطلب العلم ؛ فضلاء العلماء المغاربة الذين حظوا بعطف سلاطين المماليك وسمحوا لهم بالتدريس فى الأزهر[٤] . وعلى رأس هؤلاء العلماء يذكر التاريخ اسم ابن خلدون الذى أتى إلى مصر لاجئاً بها سنة ١٣٨٢ ، وظل يواصل نشاطه العلمى فى التأليف والتدريس حتى وفاته فى مصر سنة ١٤٠٥ ، أما ابن بطوطه ـ الرحالة المغربى الشهير ـ فقد وفد على مصر فى عهد السلطان الناصر محمد سنة ١٣٢٤ ؛ وسجل إعجابه بها ووصفه لما شاهده بين ربوعها فى رحلته المعروفة .

وهكذا تدل جميع الشواهد على تنوع الصلات وقوتها بين مصر فى عصر المماليك والمغرب العربى ، مما ترك أثراً كبيراً فى التاريخ ويعتبر شاهداً قوياً على وحدة التاريخ العربى .

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ٤٥١ .
(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٩٤ .
(٣) السيوطى . حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٦ .
(٤) ابن حجر . الدرر الكامنة ج ٣ ص ٣٦١ — ٣٦٢ ؟ ج ٤ ص ٣٢٧ .

العلاقة بين سلطنة المماليك والسودان الغربي :

أما دول السودان الغربي ، فلم تقم بينها وبين سلطنة المماليك في مصر علاقات سياسية قوية مباشرة وذلك لبعد الشقة بين الطرفين ، وليس معنى ذلك انعدام الصلات بين سلطنة المماليك والسودان الغربي ، فقد كانت هناك صلات قوية . ولكنها كانت أكثر وضوحا في نواحي الحج والتجارة والجوانب الثقافية .

والواقع إن الحج ظل يمثل أقوى الروابط التي ربطت سلطنة المماليك بدول السودان الغربي ، حيث أن سكان تلك النواحي اعتادوا في طريقهم إلى الحجاز أن يسلكوا الدرب الصحراوي المعروف بطريق غانة ، وهو يبدأ من مدينة غانة نفسها وينتهي عند الأهرام(١) ، فإذا وصل حجاج السودان الغربي إلى مصر فإنهم اعتادوا أن يقضوا فيها وقتاً حتى يتهيأ ركب الحجاج والمحمل إلى مكة . ولاشك في أن تلك المدة التي كانوا يقضونها في مصر أثناء طريقهم إلى الحجاز ، كانت فرصة طيبة يتصلون فيها بالمصريين ويتصل المصريون بهم ويتعرف كل طرف على الآخر .

وأول من مر بمصر في طريقه إلى الحجاز من ملوك مالي والتكرور هو منساولي الذي حج أيام السلطان الظاهر بيبرس(٢) . وتخبرنا المراجع أن ثمة وفداً من الحجاج التكاررة وفد بعد ذلك إلى مصر سنة ١٣٢٣ ، وكان يتألف من عشرة آلاف تكروري على رأسهم منساموسى(٣) . وقد أحاط

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٥ ص ٤٣٤

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٢٩٣ . ويذكر القلقشندي أن منسا معناها السلطان وولى معناها على .

(٣) ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي جـ ٢ ص ٢٧٥ .

ذلك الملك نفسه بمظاهر الترف ، وأخذ ينفق في مصر عن سعة استرعت نظر المعاصرين ، وقدم هدايا جليلة للسلطان الناصر محمد بن قلاوون من بينها حمل جليل من الذهب المعدني الخام . أما السلطان الناصر محمد فقد أكرمه وبعث إليه وإلى أفراد حاشيته بالخلع والسيوف وغيرها ، كما أمده بالخيول والجمال والمؤونة ليتمكن من مواصلة سفره إلى الحجاز(١) .

ولم يلبث سلاطين مالى أن أدركوا أهمية الحصول على تقليد من الخلافة العباسية بالقاهرة في توطيد نفوذهم . من ذلك أن محمد أبو بكر سلطان مالى انتهز فرصة مروره بمصر سنة ١٤٩٤ في طريقه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، ورأى أن يدعم ملكه ويكسبه صبغة شرعية ، فطلب من الخليفة العباسي تقليداً بتفويضه حكم بلاده ، ومنحه الخليفة ما أراد . ويقال إنه عند وصوله إلى مكة ، نادى به شريف مكة « سلطانا وخليفة بأرض التكرور ، وأن كل من خالفه فقد خالف الله ورسوله(٢) » .

ويبدو أن نفوذ مصر السياسي صار معترفاً به في تلك الجهات منذ أواخر القرن الرابع عشر ، إذ حاول ملوك الكانم الحصول على تأييد شرعي لحكمهم من سلطنة المماليك(٣) . هذا مع ملاحظة أن ملوك السودان الغربي ظلوا في نظر سلاطين المماليك في مرتبة أقل من ملوك شمال أفريقية ، بدليل أن الفريق الأول كانوا يخاطبون في المكاتبات السلطانية الصادرة عن ديوان الإنشاء بلقب « الجناب الكريم العالى » في حين أن الفريق الثاني كانوا يخاطبون بلقب « المقام العالى(٤) » .

---

(١) العمرى : مسالك الأبصار ص ٩٤٣ ، ٩٥٤ — ٩٥٥ .

(٢) محمد كعت التنبكتي : تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس ص ١٢ — ١٣ .

(3) Ziada : Foreign Relations, p. 113.

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٨ ص ٧ .

والواقع إن المراسلات المتبادلة بين سلاطين المماليك فى مصر وملوك السودان الغربى تلق ضوءاً هاماً على العلاقة بين الطرفين ، وتدل على مدى عناية دولة المماليك بتعرف أحوال تلك البلاد من ناحية ، ومدى اهتمام بلاد السودان الغربى بأخبار دولة المماليك من ناحية أخرى وما تتعرض له من أحداث وبخاصة من جهة التتار . ويستشف من كلام العمرى أنه يأسف لعدم العناية عناية تامة بأحوال التكرور الذين تربطهم بمصر روابط الإسلام ، ويطالب بمزيد من الاهتمام بأخبارهم(١) .

ولاشك فى أن روابط الإسلام بين مصر ودول غرب إفريقية أدت إلى نمو الروابط العلمية والثقافية بين الطرفين . من ذلك ما يقال من أن السلطان منسا موسى انتهز فرصة وجوده فى مصر فابتاع جملة من الكتب ليوفر لأهل بلاده جانباً من الثقافة الإسلامية(٢) . كذلك يقال إن جامعة تنبكتو الدينية التى أنشئت حوالى سنة ١٣٣٥ حاولت دائماً أن تحتذى أساليب الأزهر فى التعليم . ويبدو أن بعض المصريين من العلماء وغيرهم استقروا فى السودان الغربى ، بدليل ما يذكره ابن بطوطه من أنه عنـــدما مرض فى مدينة مالى لم يسعفه بالعلاج إلا أحد الأطباء المصريين(٣) .

ومن جهة أخرى ، فإن بعض طوائف من بلاد التكرور أقامت فى مصر لطلب العلم والدراسة على مشايخ العصر المبرزين أمثال ابن جوزى وأبى حيان وغيرهما(٤) . وقد نبغ من التكاررة فى مصر صبيح بن عبدالله التكرورى الملقب بالكاوتاتى الذى اشتغل بتدريس الحديث فى دمشق حيث مات سنة ١٣٣٠(٥) .

---

(1) Demombynes : Masalik Alabsar, Intr ; IX.

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٣٨٣ .

(٣) رحلة ابن بطوطة ج ٤ ص ٣٩٧ .

(٤) السخاوى : الضوء اللامع ج ٧ ص ٢ .

(٥) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٢ ص ٢٠٥ .

كذلك ابتنى تجار التكارور بمصر مدرسة للمالكية عرفت بمدرسة ابن رشيق [١]؛ وأصبحت هذه المدرسة المالكية مركزاً لطلاب العلم الوافدين من بلاد التكرور، حتى أن الخيرين من أهل تلك البلاد اعتادوا أن يبعثوا لتلك المدرسة بالمال والتبرعات [٢]. ولا يخفى علينا أن كثيراً من التكارورة فى مصر كانوا على درجة شديدة من الفقر، وهؤلاء كان لهم نصيب من عطف سلاطين المماليك، إذ يروى المقريزى أن السعيد بركة خان ابن الظاهر بيبرس «عمل للتكاررة خوان حضره كثير من أهل الخير» [٣].

وأخيراً، فإنه لا يخفى علينا أن التجارة كانت تمثل رباطاً قوياً دعم العلاقات بين دولة المماليك ودول السودان الغربى. وسنتكلم عن النشاط التجارى بين الجانبين فى مكان آخر من هذا الكتاب، ولذلك نكتفى بالإشارة هنا أن الأمر لم يقتصر فى عصر المماليك على مجىء التجار التكاررة إلى مصر يحملون حاصلات السودان، وإنما تعدى ذلك إلى تردد بعض التجار المصريين على بلاد الكانم والتكرور، الأمر الذى قوى الصلات بين دولة المماليك ودول السودان الغربى.

العلاقة بين سلطنة المماليك والحبشة:

أما عن العلاقة بين سلطنة المماليك والحبشة فكانت من نوع آخر. ذلك أن الحبشة دولة مسيحية تتبع كنيستها الكنيسة المرقسية بالإسكندرية؛ ثم إنها كانت بعيدة عن مصر لا تربطها بها حدود مباشرة مما حال دون وقوع

---

(١) سميت بهذا الاسم لأن علم الدين ابن رشيق هو الذى أشرف على بنائها قبيل منتصف القرن السابع الهجرى، وهو أيضاً أول من درس بها.

(٢) المقريزى المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٣٦٥.

(٣) المقريزى: السلوك ج ١ ص ٦٤٩.

صدام مباشر بين القوتين ، مثلما حدث بين مصر ومملكة النوبة المسيحية فى عصر المماليك ، أو بين سلطنة المماليك من ناحية والقوى الصليبية القريبة فى الشام وأرمينية الصغرى وقبرس ورودس من ناحية أخرى .

والواقع أنه منذ أن تأكدت تبعية الكنيسة الحبشية للكنيسة المصريه فى أوائل العصور الوسطى ، والعادة جرت بأن تستورد الحبشة مطارنتها من مصر ؛ فإذا خلا منصب مطران الحبشة أرسل ملكها رسالتين إحداهما لحاكم مصر والأخرى لبطرك الاسكندرية طالباً تعيين من يشغل كرسى المطرانية فى الحبشة . كذلك جرت العادة أن يرفق ملك الحبشة رسالته بمبلغ ضخم من المال يجمعه على شكل ضريبة من رعاياه[1] . وعند وصول هاتين الرسالتين والمال ، يتصل بطرك الاسكندرية بالسلطان أو الحاكم فى مصر ويستأذنه فى رسامة أحد الرهبان الأكفاء ليشغل كرسى مطران الحبشة .

وهكذا وجد عامل دينى قوى ربط بين الحبشة وسلطنة المماليك ، وحقق قدراً كبيراً من الاتصالات بين الدولتين . ويفهم من المراجع أن السلطان الظاهر بيبرس أرسل سفارة إلى الحبشة ، ولكن هذه السفارة تأخرت فى العودة بسبب الحروب الداخلية التى كانت دائرة هناك حول العرش ، الأمر الذى أغضب بيبرس. وقد أحس ملك الحبشة بغضب سلطان مصر ، فلم يجرؤ على طلب مطران منه مباشرة ، وإنما اتصل بسلطان اليمن وطلب وساطته لكى يصدر بيبرس أوامره إلى البطرك غبريال الثالث ليبعث إلى الحبشة « مطرانا رجلا جيدا عالما لا يحب ذهبا ولا فضة » . ونخرج من رسالة ملك الحبشة إلى بيبرس بنتيجتين أولاهما أنه اشترط فى المطران أن « لا يحب ذهبا ولا فضة » مما يفهم منه أن بعض المطارنة

1) Coulbeaux : Hist. Politque et Religieuse de l'Abysinie, S, I, p. 179.



دولة المماليك
في أقصى اتساعها

المصريين الذين كانوا يوفدون إلى الحبشة أظهروا تكالباً على المال ، وثانيهما أن ملك الحبشة حرص على أن يحشو رسالته لسلطان مصر بعبارات الملق والزلفى ، ومن ذلك قوله « ... وهذه الخلق كلهم يقولون آمين بطول بقاء عمر سلطاننا مالك مصر ، ويهلك الله عدوه ... »(١) .

ومع ذلك فإنه يبدو أن العلاقة استمرت سيئة بين السلطان الظاهر بيبرس وملك الحبشة ، فامتنع بيبرس عن إرسال المطران المطلوب ، مما دفع الحبشة إلى استحضار مطرانا سورياً من بلاد الشام (٢) .

غير أن الأحباش لم يرتاحوا للمطارنة السوريان ، فكتب ملك الحبشة يجباصيون (صهيون) إلى السلطان المنصور قلاون يعتذر له ويسأله « إنفاذ مطران لإصلاح بلاد الحبشة التي فيها النصارى والمسلمين » . كذلك كتب ملك الحبشة إلى بطرك الاسكندرية يقول له « وهؤلاء السريان المطارنة الذين عندنا من غير مصر بغضناهم وما حببناهم ، ولأجل محبتنا فى بطركية مصر ما خليناهم عندنا أساقفة وطردناهم »(٣) .

وقد تكررت رسائل ملك الحبشة إلى السلطان قلاون بعد ذلك ، وكلها رسائل مليئة بالتوسلات والتضرعات ، حتى أنه قال فى إحدى رسائله « ... اسمع ياسلطان مصر — نصرك الله — : إعطى البطرك الدستور يبعث لى أسقفا ، فنحن وهم أمانتنا واحدة من زمن مرقص وإلى اليوم ... » (٤) وكان أن استجاب السلطان المنصور قلاون لرجاء ملك الحبشة فسمح بترسيم المطران المطلوب وسفره إلى الحبشة .

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ ص ٤٦ (مخطوط) .

(2) Coulbeaux : op. cit., T. I, pp. 288—290.

(٣) محيى الدين بن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ص ١٧٠ — ١٧٣ .

(٤) المرجع السابق ص ١٧٣ .

ومن هذا يبدو أن علاقة كنيسة الحبشة بالكنيسة المرقصية بالاسكندرية كانت سبباً فى اتصالات دائمة بين دولة المماليك والحبشة . وجدير بالذكر أن سلاطين المماليك فى مصر كانوا يرتابون أحياناً فى العلاقة بين بطاركة الإسكندرية وملوك الحبشة ، ولهذا أصروا أن يكون الاتصال بين الطرفين عن طريق سلطنة المماليك نفسها وليس اتصالا مباشراً . ويدل ذلك على أن بعض سلاطين المماليك أخذوا عهداً على بطرك النصارى بأن « لا يكتب إلى ملك الحبشة بنفسه ولا بوكيله ولا ظاهراً ولا باطناً ، ولا يولى أحداً فى بلاد الحبشة ولا قسيساً ولا أعلى منه ولا دونه إلا بإذن من السلطان ووقوفه على كتابته ... »[1] . كذلك كان سلاطين المماليك يوجهون دائماً النصح إلى بطرك النصارى فى مصر بأن « يتوقى ما يأتيه سراً من تلقاء الحبشة »[2] ، ولا شك فى أن تلك المخاوف التى سادت سلاطين المماليك فى مصر من الاتصالات بين بطرك مصر وملوك الحبشة إنما كانت أمراً طبيعياً فى عصر الحروب الصليبية ، وهو العصر الذى طفح بروح التعصب الدينى من ناحية والذى ظهرت فيه دولة المماليك فى صورة القوة الإسلامية الكبرى التى تزعمت حركة الجهاد ضد الصليبيين من ناحية أخرى .

على أن موضوع تعيين مطران للحبشة من قبل بطرك الإسكندرية لم يكن السبب الوحيد للاتصال بين سلطنة المماليك ودولة الحبشة . ذلك أنه ثمة مظهر آخر للعلاقات بين الطرفين ارتبط بمرور الحجاج الأحباش بمصر وهم فى طريقهم إلى بيت المقدس . والمعروف أن الأحباش كانت لهم جالية كبيرة مقيمة فى بيت المقدس ، كما كان لهم دير كبير فى تلك المدينة المقدسة اتخذوه مقراً لهم . وقد اعتاد ملوك الحبشة إرسال الهدايا والهبات إلى رهبان ذلك الدير ، فضلا عن التماس كرم سلاطين المماليك فى رعاية أولئك الرهبان . من ذلك ما جاء فى رسالة ملك

---

(١) السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك ص ٢١٠ .

(٢) العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ص ٤٨ .

الحبشة يجباصيون (١٢٨٤ — ١٢٩٣) إلى السلطان المنصور قلاون ؛ من أن ذلك الملك أرسل ثوباً ومائة شمعة « وسأل إنقاذ ذلك الرهبان الحبوش المقيمين بالقدس الشريف ، ويوصى عليهم بالا يمنعوا من دخول الهياكل »[١].
كذلك أرسل ملك الحبشة المذكور إلى رهبان دير الأحباش فى بيت المقدس يقول لهم « سلام عليكم يارهبان الحبوش الذين صبروا على العبادة والزهد إلى هذه الأيام ، وصبرتم على الحر والبرد . وقد سيرت لكم ثوب أحمر ديباج ، ومائة شمعة ، وثيابى وهو زنارى الذى تلبسه السلاطين حتى تلبسونه وقت القربان . . فعرفونى بوصول هذا ، واكتبوا أسماءهم ، واذكرونى فى صلواتكم بدعواتكم ... »[٢] .

ويبدو أن جموع الحجاج الأحباش الذين كانوا يمرون بمصر فى طريقهم إلى بيت المقدس بلغوا درجة من الكثرة تطلبت نوعاً من دوام الاتصال بين ملوك الحبشة من ناحية وسلاطين مصر من ناحية أخرى ، لإعفاء أولئك الحجاج من رسوم المرور . وقد ذكر ألفارى أنه شاهد قافلة تضم نحواً من الثمانمائة من حجاج الأحباش تمر بالأراضى المصرية قرب شواطىء البحر الأحمر فى طريقهم إلى بيت المقدس[٣] .

والمتواتر فى المراجع أن السلطان صلاح الدين الأيوبى شمل دير الأحباش برعايته عندما استولى على بيت المقدس سنة ١١٨٧ ، ولذلك دأب ملوك الحبشة فى عصر المماليك على إرسال السفارات والكتب لسلاطين المماليك ، راجين أن يشملوا حجاج الأحباش بعطفهم ولا يمنعوهم من زيارة كنيسة القيامة

---

(١) محيى الدين بن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ص ١٧٠ .
(٢) المرجع السابق ص ١٧٣ .
(٣) Alvarez : Portugeuee Embassy, pp. 243—244.

بالقدس(١).

والواقع إن وجود جالية كبيرة من الأحباش مقيمة إقامة دائمة في بيت المقدس، ووجود ديرلهم في تلك المدينة على اتصال دائم بدولة الحبشة، أمر له أهميته من حيث اطلاع ملوك الحبشة على أخبار الحروب الصليبية أولا بأول. ولم تغب عن البابوية وأصحاب المشاريع الصليبية في غرب أوربا فكرة الاستفادة من تلك القوة المسيحية الكبرى - وهي الحبشة - في محاربة المسلمين، وبخاصة في الدور الأخير من الحروب الصليبية بعد طرد الصليبيين نهائياً من الشام في أواخر القرن الثالث عشر(٢). ومن الثابت أن البابوية أرسلت عدة سفارات في القرن الرابع عشر إلى ملوك الحبشة لحثهم على المشاركة في محاربة المسلمين. وكان أن أفلحت تلك الاتصالات في استثارة ملوك الحبشة، فيقال أنهم أعدوا حملة كبيرة لمهاجمة مصر من ناحية الجنوب في الوقت الذي هاجمها بطرس لوزجنان ملك قبرس من ناحية الشمال سنة ١٣٦٥. كذلك فكر اسحق الأول ملك الحبشة (١٤١٤ — ١٤٢٩) في غزو مصر، وبخاصة عندما سمع بأن المماليك غزوا جزيرة قبرس وأسروا ملكها جانوس سنة ١٤٢٦. وقد دارت بين ملك الحبشة وملوك غرب أوربا مباحثات في هذا الشأن، ولكنها باءت بالفشل(٣). كذلك فشلت محاولات ملوك الحبشة لتحويل مجرى النيل وتجويع مصر، وهي الفكرة التي ولدت نتيجة لاتصالات طويلة بين ملوك أرغونه والبرتغال من ناحية وملوك الحبشة من ناحية أخرى(٤).

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور ج ٥ ص ١٢.

(٢) سعيد عاشور: الحركة الصليبية ج ٢، ص ١٢٠٩

(٣) المقريزي: الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ص ٤

أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٦٣٧ — ٦٤٠ (طبعة كاليفورنيا)

(٤) سعيد عاشور: الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢١٣ - ١٢١٤.

العلاقة بين سلطنة المماليك ودول التركمان :

عاشت على الأطراف الشمالية لدولة المماليك جماعات من شعوب متنوعة مثل الأرمن والكرج والأكراد والتركمان ، وهؤلاء جميعاً ربطتهم بسلطنة المماليك علاقات متقلبة بين الخضوع والتبعية حينا والثورة والعدوان أحيانا، وفقها أملته الظروف الخاصة والعامة التى أحاطت بمنطقه الشرق الأدنى وشعوبها منذ منتصف القرن الثالث عشر .

وقد عرف عن التركمان بالذات أنهم ساهموا بنصيب بارز فى حركة الجهاد ضد الصليبيين منذ وقت مبكر ، فعملوا جنوداً فى جيوش أتابكة السلاجقة ثم فى جيوش الأيوبيين فالمماليك . على أنه بصرف النظر عن تلك الأعداد من التركمان الذين عملوا جندا مرتزقة فى جيوش المماليك ، فإن التركمان أقاموا لأنفسهم دولا أودويلات على أطراف آسيا الصغرى وبلاد النهرين ، اشتهرت منها دولة بنى دلغادر ودولة بنى رمضان ودولة بنى قرمان ودولة الشاه البيضاء ودولة الشاه السوداء . وكان المفروض أن تكون هذه الدول التركمانية تابعة لسلطنة المماليك فى مصر والشام ، ولكن الحاصل فعلا هو أنها لم تظل على ولائها للماليك ، وإنما دأبت على استغلال الظروف للخروج على سلطنة المماليك بل ومهاجمة أراضيها ، مما سبب لدولة المماليك كثيراً من المتاعب على حدودها الشمالية .

وقد اشتد تهديد الدول التركمانية لسلطنة المماليك فى القرن الخامس عشر ، عندما كثرت القلاقل والفتن داخل دولة المماليك وظهر ضعف هذه الدولة وعجزها عن الاحتفاظ بهيبتها والدفاع عن كيانها ضد الأخطار الخارجية التى هددتها ، وبخاصة من جهة تيمورلنك . وكان أن أحس السلطان المؤيد شيخ بخطر التركمان ورأى ضرورة تأديبهم فقام بحملتين ضدهم سنة ١٤١٥ ، سنة ١٤١٧ ،

ولكنهم أعلنوا ثورتهم من جديد عقب عودة السلطان ، فأرسل السلطان المؤيد شيخ ابنه إبراهيم على رأس حملة كبرى سنة ١٤١٩ ؛ فوصلت هذه الحملة إلى قونية ، وخرب ابراهيم بلاد التركمان ثم عاد محملا بالغنائم (١) .

ولم يغفر التركمان لسلطنة المماليك ما حل ببلادهم من تخريب وتدمير ، فقام عثمان قرايلوك زعيم الشاه البيضاء بمهاجمة خرتبرت سنة ١٤٢٩ كما أوغل داخل حدود دولة المماليك . ويبدو أن قرايلوك أقدم على مهاجمة دولة المماليك بتحريض من شاه رخ ابن تيمورلنك ، الأمر الذى جعل السلطان الأشرف برسباى يبادر بإرسال حملة خربت الرها — التابعة للشاه البيضاء — وأسرت حاكمها هابيل بن عثمان قرايلوك (٢) .

وقد بلغ من استخفاف عثمان قرايلوك زعيم الشاه البيضاء بسلطنة المماليك أنه أرسل إلى السلطان برسباى سنة ١٤٣٣ سفارة تحمل هدية تشمل مرآة وخروف وخلعة . وكان أن فهم برسباى ما يعنيه قرايلوك من تلك الهدية ، إذ يرمز الخروف إلى السلطان والمرآة إلى أن السلطان وأمراءه كالنساء ، فى حين تشير الخلعة إلى أن برسباى تابع لقرايلوك . ولم يستطع السلطان برسباى أن يخفى غضبه فأمر بذبح الخروف أمام الرسل وألبس الخلعة لأحد الهرليين فرقص بها فى حضرة السلطان وحطم المرآة ، ثم صرف رسل قرايلوك بعد أن أهانهم وقص أذناب خيولهم وقال لهم «قولوا لأستاذكم يلاقينى على الفرات» فكان ذلك إعلاناً للحرب (٣) .

ومع أن الحرب التى شنها برسباى ضد قرايلوك سنة ١٤٣٣ انتهت بصلح سريع تعهد فيه زعيم الشاه البيضاء بأن يكون تابعا مخلصا لسلطان المماليك ، إلا

(1) Wiet : op cit., pp. 546—547

(٢) ابراهيم طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ص ٢٢١ — ٢٢٢ .

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٩ — ٢٠

أن قرايلوك كان ينكث دائما بوعوده ، الأمر الذى سبب للسلطان برسباى متاعب كثيرة . ولم يلبث برسباى أن انتهز فرصة استحكام الخلاف بين دولتى الشاه البيضاء والشاه السوداء وأعلن تأييده الأخيرة . وقد انتهى ذلك النزاع بتغلب دولة الشاه السوداء فتمكن زعيمها من هزيمة قرايلوك وقتله ، وعندئذ أرسل رأسه إلى السلطان برسباى سنة ١٤٣٥ فعلقها السلطان على باب زويلة وأمر بإقامة الزينات فى القاهرة ابتهاجا بالخلاص من ألد خصومه[١] .

وفى سنة ١٤٣٨ اعتلى دست سلطنة المماليك السلطان جقمق الذى اتصف عهده بهدوء العلاقات مع التركمان أصاهر أمراء دلغادر ، وتدخل سنة ١٤٤٩ فى النزاع بين أبناء عثمان قرايلوك الذين دب فيما بينهم الخلاف ، وفر أحدهم وهو الأمير قاسم إلى السلطان جقمق فنصره وساعده[٢]. كذلك يروى السخاوى أن تركمان الشاه السوداء خطبوا ود السلطان جقمق وأرسلوا له هدية ثمينة سنة ١٤٥١ ، فقبلها السلطان وأكرم الرسل ورد على الهدية بأحسن منها[٣]. وفى العام التالى - أى سنة ١٤٥٢ - أرسل أوزون حسن — أمير الشاه البيضاء — مفاتيح آمد إلى السلطان جقمق بعد أن انتزع تلك المدينة من أخية جهانكير المعادى لسلطنة المماليك فشكره جقمق ورد إليه المفاتيح[٤] .

على أنه يلاحظ منذ منتصف القرن الخامس عشر ازدياد المتاعب التى سببتها دول التركمان لسلطنة المماليك وذلك بسبب ظهور قوة العثمانيين وتدخلهم فى شئون الإمارات التركمانية من ناحية وفى العلاقات بينهم وبين سلطنة المماليك من ناحية أخرى . من ذلك أنه حدث سنة ١٤٥٤ أن اعتدى السلطان محمد الفاتح

---

(1) Wiet : op. cit., p. 565.

(٢) السخاوى : التبر المسبوك ص ٣٠٩ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٤٤ — ٢٤٥ .

(٤) المرجع السابق ص ٣٨٤ .

العثمانى على إمارة دلغادر، فأرسل أميرها ابراهيم بن قرمان مستنجدا بالسلطان إينال ، فما اكترث السلطان بذلك ، بسبب صلة الصداقة بين الدولة العثمانية وسلطنة المماليك عندئذ . ويبدو أن موقف إينال السلبي من أمير قرمان - وهو مشمول بالحماية المماليكية - أثار ابراهيم بن قرمان فخرج على سلطنة المماليك ، الأمر الذى جعل السلطان إينال يبادر بإرسال حملتين ضده حتى تم القضاء على تلك الفتنة [1] .

ولم يلبث أن اتخذ التنافس بين سلطنة المماليك من ناحية وسلطنة العثمانيين من ناحية أخرى شكل مناصرة قوة أو أخرى من القوى التركمانية الواقعة على الحدود بين دولتى المماليك والعثمانيين . من ذلك أنه حدث نزاع سنة ١٤٦٦ فى إمارة دلغادر بين شاه سوار وأخيه بوداق ، فناصر السلطان محمد الفاتح شاه سوار وناصرت سلطنة المماليك أخاه بوداق وكان أن انتصر شاه سوار على أخيه فخطب له فى العاصمة أبلستين وأخذ يهاجم أطراف دولة المماليك، الأمر الذى أثار السلطان قايتباى وجعله يرسل حملة سنة ١٤٦٧ لتأديب شاه سوار . ولكن جيش قايتباى انكسر كسرة شنيعة ، [2] . ولم تفلح الحملة التى أرسلها قايتباى فى العام التالى ضد سوار ، إذ منيت بنفس المصير من الفشل والهزيمة .

ويبدو أن سوار تمادى فى الاستخفاف بدولة المماليك والعبث بحدودها فضلا عن أنه اعتدى على الدول التركمانية المحالفة لسلطنة المماليك مثل دولة بنى رمضان . لذلك لم يستطع السلطان الاشرف قايتباى السكوت عن ذلك التهديد الخطير لهيبة دولة المماليك ، فأرسل حملة كبرى ضد سوار سنة ١٤٧٠ بقيادة الامير يشبك الدوادار . وقد زود قايتباى قائد هذه الحملة بسلطات استثنائية واسعة ليوفر

---

(١) ابن إياس : صفحات لم تنشر ص ٢٣ ، ٤٧ (نشر محمد مصطفى) .
(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ١٢ (نشر محمد مصطفى) .

له إمكانيات النصر، «فقوض إليه السلطان أمور البلاد الشامية والحلبية وغير ذلك من البلاد، وجعل له الولاية والعزل فى جميع أحوال المملكة...»(١).
وفعلا انتصر الأمير يشبك على شاه سوار واستولى منه على قلعة عينتاب، كما استرد منه أذنه وطرسوس، حتى اضطر سوار إلى الاستسلام سنة ١٤٧١.
ولم يلبث أن عاد يشبك إلى مصر منتصرا ومعه سوار مقيدا فى الأغلال، وذلك بعد أن عين بوداق أميرا على إمارة دلغادر بدلا من أخيه سوار.

ومع ذلك، فإن سلطنة المماليك استمرت تعانى كثيرا من المتاعب من جانب إمارة دلغادر، لاسيما بعد أن خلف علاء الدولة أخاه بوداق فى حكم الإمارة سنة ١٤٨٠. ذلك أن علاء الدولة وقع تحت تأثير العثمانيين وتحريضهم وإن كان تفوق الجيوش المماليكية على الجيوش العثمانية فى ذلك الدور قد جعل علاء الدولة يلتزم جانب الحرص فى معاملاته مع دولة المماليك ويتودد إليها.

أما أوزون حسن - أو حسن الطويل - زعيم قبيلة الشاه البيضاء، فقد استغل المتاعب التى سببها شاه سوار لدولة المماليك وأغار على إقليم حلب كما وصلت جيوشه إلى الرها، وبعد سقوط سوار حاول إثارة أخيه بوداق ضد سلطنة المماليك لذلك بادر السلطان قايتباى بإرسال حملة بقيادة يشبك الدوادار ضد حسن الطويل سنة ١٤٧٢(٢). على أنه رغم الانتصارات الجزئية التى حققها المماليك على حسن الطويل، فإن دولة الشاه البيضاء لم تخضع فى سهولة، ولاسيما وأن الأمير خليل الذى خلف أباه حسن الطويل فى حكم الشاه البيضاء سنة ١٤٧٨ لم يكن أقل عنادا. وقد حدث فى الحروب التى شنها الأمير يشبك فى شمال الشام والعراق فى ذلك الدور أن أسر يشبك نفسه وقتل سنة ١٤٨٠. ولما سمع السلطان قايتباى

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور ج ٣ ص ٥٩ (نشر محمد مصطفى).
(٢) ابن إياس: بدائع الزهور ج ٣ ص ٨٠، ٨٦ (نشر محمد مصطفى).

ذلك الخبر واضطربت أحوالها وماجت القاهرة عن آخرها وكان يوماً مهولا »(١).
وقد بادر السلطان قايتباى بإرسال حملة للانتقام بقيادة الأمير أزبك ولكن دولة الشاه البيضاء بادرت بالاعتذار عما سلف ، ومن ثم هدأت العلاقات بين سلطنة المماليك وتلك الدولة إلى أن التهم الأتراك العثمانيون دول التركمان ودولة المماليك جميعا .

المماليك والعثمانيون :

أما العلاقة بين سلطنة المماليك وسلطنة العثمانيين فقد بدأت أتم ما تكون صفاء ، لاسيما وأن الدولة العثمانية وجهت جهودها فى الدور الأول من حركتها التوسعية ضد القوى المسيحية المجاورة ، وبخاصة الدولة البيزنطية . وهو أمر قوبل بالارتياح الكبير من جانب المماليك وغير المماليك من القوى الإسلامية فى الشرق الأدنى . وزاد من ذلك الشعور الودى المتبادل بين المماليك والعثمانيين تعرض الدولتين لخطر واحد مشترك هو خطر تيمورلنك مما حتم ضرورة الاتصال والتفاهم بينهما لمواجهة ذلك الخطر .

وثمة إشارة فى المراجع إلى أن السلطان مراد الأول العثمانى أرسل سنة ١٣٨٨ سفارة إلى السلطان برقوق تحمل إليه هدية وتحذره من تحركات تيمورلنك من تبريز نحو الغرب مما يهدد الدولتين المماليكية والعثمانية(٢) . وإذا كان السلطان برقوق قد أكرم وفادة رسل السلطان العثمانى ، وأظهر استعداده للتضامن معه لصد خطر تيمورلنك إلا أنه لم يستطع أن يخفى مخاوفه من أطماع العثمانيين وخطورتهم على مستقبل دولته ، فقال « إنى لا أخاف منه (تيمورلنك) فان

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور جـ٣ ص ١٧٤ (نشر محمد مصطفى) .
(٢) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٦ .

كل أحد يساعدنى عليه ، وإنما أخاف من ابن عثمان ! » [1] .

ولم تلبث الأحداث أن أثبتت صدق ظن برقوق إذ أغار بايزيد الأول العثمانى على قيصرية سنة ١٣٩١ وقبض على صاحبها الذى كان مشمولا بحماية دولة المماليك . هذا وإن كان تخوف بايزيد من خطر تيمورلنك الذى أخذ يزداد اقترابا من حدود دولته قد جعله يسارع إلى إصلاح الأمور مع السلطان برقوق فاعتذر له عما حدث وأرسل له هدية ثمينة [2] ويبدو أن بايزيد العثمانى لم يجد له حليفاً قوياً يساعده فى دفع خطر تيمورلنك سوى دولة المماليك، فأرسل إلى السلطان برقوق يحذره من ذلك الخطر ويقول إنه وضع تحت تصرفه مائتى ألف فارس ليستعين بهم فى محاربة تيمورلنك، فضلا عن أنه طلب من السلطان برقوق أن يرسل إليه طبيبا « حاذقا فى صنعة الطب » ليداويه . وقد قابل برقوق كل تلك العروض فى حذر ، فشكر السلطان العثمانى واحتفى برسله وأوفد إليه الطبيب شمس الدين محمد بن صغير ومعه من الأدوية والعقاقير ما يكفى لعــــلاجه [3] .

وثمة مظهر آخر من مظاهر تمسح السلاطين العثمانيين فى ذلك الدور بدولة المماليك فى مصر هو طلب بايزيد العثمانى تفويضاً شرعيا بالسلطنة من الخليفة العباسى بالقاهرة سنة ١٣٩٤ . ومع أن سلطنة المماليك وقفت موقف المتحفظ من ذلك الطلب، إلا أن بايزيد أرسل إلى تيمورلنك حوالى سنة ١٣٩٩ يذكره بأن الخلافة العباسية ما زالت قائمة فى مصر وبأن هذه القوة الكبيرة

---

(١) ابن حجر : إنباء الغمر جـ ١ ورقة ٣٨٥ .

(٢) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام ورقة ٦٩ .

(٣) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٧٠٨ ؟

الخطيب : نزهة النفوس ورقة ٤٥ .

كفيلة بردعه إذا حاول العدوان(١) ومن جهة أخرى فإن السلطان بايزيد حرص على إرسال سفارة إلى مصر ليبشر المسلمين بانتصاره على الأوربيين فى موقعة نيقوبوليس سنة ١٣٩٦ كما أرسل إلى السلطان برقوق هدية من أسرى الفرنج بلغ عددهم مائتى أسير (٢) .

على أن تلك العلاقة الطيبة بين سلطنة العثمانيين وسلطنة المماليك أضعفت من شأنها أطماع العثمانيين . وكان ذلك فى مطالع عهد السلطان فرج بن برقوق عندما أغار بايزيد العثمانى على أطراف دولة المماليك واستولى سنة ١٤٠٠ على ملطية ودارندة(٣) . ولا شك فى أن ذلك العدوان كان كافيا فى حد ذاته لتحذير سلطنة المماليك من نوايا بنى عثمان ؛ هذا وإن كان خطر تيمورلنك ظل يدفع العثمانيين دفعا إلى الاحتفاظ بود المماليك، بدليل أن بايزيد عاد بعد قليل يطلب محالفة السلطان فرج لإقامة جبهة متحدة فى وجه تيمورلنك ؛ ولكن كبار الأمراء فى مصر رفضوا محالفة ابن عثمان وأرسلوا إليه يذكرونه بعدوانه على ملطية. وهكذا أتيحت الفرصة لتيمورلنك لكى ينزل ضربته بكل من القوتين الكبيرتين فى الشرق الأدنى على انفراد فزحف على دولة المماليك وأنزل الهزيمة بجيوشها قرب دمشق فى أواخر سنة ١٤٠٠ ، كما أوقع بالسلطان بايزيد وأنزل به كارثة أنقرة سنة ١٤٠٢ .

على أن وفاة تيمورلنك سنة ١٤٠٥ وتفكك دولته أتاح فرصة لدولتى المماليك والعثمانيين للتخلص من أثر الضربات التى أنزلها بهما تيمورلنك . وكان أن تجددت علاقات الود بين السلطنة العثمانية والسلطنة المماليكية، فأرسل السلطان

(1) D'Ohsson : Tableau de l'Empire Othoman, VI, p. 223 & Arnold : The Caliphate, p. 106.

(٢) ابن قاضى شهبة ، ذيل تاريخ الإسلام ج ٣ ورقة ١٢٣ ؟
ابن حجر : إنباء الغمر ج ١ ص ٤١٤ .

(٣) العينى : عقد الجمان ج ٢٥ ورقة ٧٨ .

مراد الثانى العثمانى سفارة إلى القاهرة سنة ١٤٢٣ لتهنئة السلطان الأشرف برسباى بالسلطنة ، ومعها هدية . وقد رد السلطان على الهدية بأحسن منها ، وإن كانت هدية سلطان المماليك لم تصل إلى السلطان العثمانى بسبب وقوعها فى أيدى قراصنة البحر من الأوربيين[1]. ومع ذلك فإن هذا لم يمنع السلطان مراد الثانى من إرسال سفارة عثمانية أخرى إلى السلطان برسباى سنة ١٤٢٦ ، وقد أقامت هذه السفارة فى القاهرة لحين شهدت مجىء ثالث حملات السلطان برسباى على قبرص سنة ١٤٢٧ ، وهى الحملة التى نجحت فى غزو الجزيرة وأسر ملكها جانوس لوزجنان . ويبدو أن أخبار هذا النصر الذى أحرزته سلطنة المماليك أثار غيرة السلطان مراد الثانى العثمانى ، فبادر فى العام التالى - ١٤٢٨ - بإرسال خمسين أسيراً مسيحياً أوربياً هدية للسلطان برسباى[2] .

وعندما ارتقى جقمق دست سلطنة المماليك (١٤٣٨ — ١٤٥٣) ازدادت أواصر الصداقة بين الدولتين العثمانية والمماليكية فتبودلت المراسلات والسفارات والهدايا بين مراد الثانى العثمانى وجقمق ، وحرص السلطان مراد الثانى على أن يبعث إلى مصر عدة من أسرى انتصاره على الحلف الأوربى عند فارنا سنة ١٤٤٤ . وقد استمرت هذه السياسة الودية قائمة بين السلطان محمد الثانى والسلطان إينال ، فاحتفلت القاهرة احتفالا رائعاً لسقوط القسطنطينية فى قبضة العثمانيين سنة ١٤٥٣ ، فزينت الأسواق والحارات وأوقدت الشموع فى الشوارع والمآذن ودقت البشائر السلطانية بالقلعة عدة أيام[3] .

غير أنه لم يكد يتم للعثمانيين الاستيلاء على القسطنطينية والسيطرة على البلقان ، حتى عادوا يوجهون بصرهم تجاه الشرق بغية الاستيلاء على الأجزاء التى مازالت

---

(١) محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين المماليك فى مصر ص ٢٠٠ .

(٢) محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين المماليك ص ٢٠٠

(٣) محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين المماليك ص ٢٠٢ .

خارج قبضتهم فى آسيا الصغرى . والمعروف أن الإمارات التركمانية القائمة فى آسيا الصغرى وشرقيها — وأهمها إمارة قرمان وإمارة دلغادر — كانت مشمولة بالحماية المماليكية ؛ فأنذر تطلع الدولة العثمانية إلى بسط سيطرتها على تلك الإمارات بصدام مقبل بين العثمانيين والمماليك . وقد اتخذ الصدام بين العثمانيين والمماليك فى ذلك الدور الأول شكل قيام كل دولة بمساعدة بعض الأطراف المتنافسة على الحكم فى الإمارات التركمانية ، فتساعد سلطنة العثمانيين أميراً منافساً للأمير الذى تؤيده سلطنة المماليك ، مما أوجد حالة من الصدام غير المباشر بين العثمانيين والمماليك . وازدادت العلاقة توتراً بين سلطنتى المماليك والعثمانيين عندما رحب السلطان قايتباى بأخ صغير للسلطان بايزيد الثانى العثمانى اسمه جم ، وكان هذا الأخ قد هرب من المذبحة التى اعتاد كل سلطان عثمانى أن يدبرها للتخلص من منافسيه [1] .

ولم يلبث التنافس بين سلطنة المماليك وسلطنة العثمانيين أن اكتسب شكلا سافراً ، فأخذ السلطان بايزيد يمد يد العون للأمير علاء الدولة أمير دلغادر الخارج على سلطنة المماليك ١٤٨٣ ، وساعده بجنود عثمانية فى الإغارة على نيابة ملطية التابعة للمماليك فى آسيا الصغرى ولم تفلح جهود السلطان قايتباى فى إصلاح العلاقات بين دولتى المماليك والعثمانيين ، بل لقد أخذت جموع من العثمانيين تهاجم حدود الشام دون سابق إنذار . وإذا كانت جيوش المماليك قد أحرزت عدة انتصارات فى الجبهة الشمالية فى أواخر القرن الخامس عشر فإن هذه الانتصارات لم يكن لها نتيجة سوى إيغار صدر السلطان العثمانى وتحريك الرغبة فى الانتقام عنده .

وعندما توفى السلطان قايتباى سنة ١٤٩٦ ، أرسل ابنه محمد — الذى ولى

(١) محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤

السلطنة بعده - رسولا اسمه خاير بك إلى السلطان بايزيد الثانى ليعلمه بنبأ سلطنته . وخاير بك هذا هو صاحب دور الخيانة الذى سبقت الإشارة إليه عند الكلام عن سقوط دولة المماليك ، وربما وجدت الخيوط الأولى لمؤامراته وخياناته إلى ذلك الوقت الذى أوفده فيه محمد بن قايتباى إلى القسطنطينية .

وفى الوقت الذى اضطربت أحوال سلطنة المماليك فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر نتيجة لثورة المماليك والأمراء وكثرة تغيير السلاطين والتخلص منهم بالقتل أو العزل ، كانت السلطنة العثمانية تستعد استعدادا جدياً للمعركة الفاصلة التى ستحدد مستقبل الزعامة السياسية على العالم الإسلامى فى الشرق الأدنى وقد سبق أن رأينا كيف استطاع السلطان سليم الأول العثمانى إسقاط سلطنة المماليك عقب موقعة مرج دابق سنة ١٥١٦ ثم موقعة الريدانية سنة ١٥١٧ .

المماليك والدولة البيزنطية :

أثبت سلاطين المماليك أنهم على جانب كبير من المهارة السياسية والقدرة على اكتساب الحلفاء فى الخارج ضد أعدائهم الذين هددوا دولتهم تهديدا مباشرا فى مصر والشام . وهكذا حالف المماليك مغول القفجاق ليضربوا بهم مغول فارس الذين طالما هددوا بلاد الشام . ولكن مغول فارس لم يكونوا الخطر الوحيد الذى هدد نفوذ المماليك وأمن دولتهم فى بلاد الشام ، وإنما كان هناك الخطر الصليبى ما زال قائماً عند قيام دولة المماليك ليمثل خطراً حقيقياً لا يستهان به .

وكان طبيعياً أن يحالف المماليك أعداء الصليبيين ، مثلما حالفوا أعداء مغول فارس ، فلم تكد سلطنة المماليك تقف على قدميها فى عهد الظاهر بيبرس حتى أخذت تسعى للتقارب مع الإمبراطورية البيزنطية ، وهى العدو التقليدى للصليبيين بالشام منذ قيام الحروب الصليبية فى نهاية القرن الحادى عشر . ولم تلبث أن توطدت

العلاقات بين السلطان الظاهر بيبرس والإمبراطور ميخائيل باليولوجس ، فأرسل الإمبراطور إلى سلطان المماليك يطلب منه إيفاد بطرك من الملكانيين ليرعى شئون الطائفة الملكانية في دولته. وكان أن استجاب بيبرس لرغبة الامبراطور فأرسل إليه سنة ١٢٦٢ الرشيد الكحال ـ وهو أحد رجال المذهب الملكانى ـ صحبة الأمير فارس الدين أقوش المسعودى وهناك في القسطنطينية احتفى الإمبراطور البيزنطى بالسفارة المماليكية ، واطلع الأمير أقوش على مسجد المسلمين الذى كان الصليبيون قد هدموه في الحملة الصليبية الرابعة والذى شرع الإمبراطور في تجديده[1] وكان أن أسهم بيبرس في تعمير مسجد القسطنطينية فأرسل إليه الحصر العبدانى والقناديل المذهبة والستور المرقومة ، والمباخر والسجادات والعود والعنبر والمسك وماء الورد[2] .

ومع أن الامبراطور أقوش المسعودى عاد من القسطنطينية يحمل هدايا الإمبراطور البيزنطى للسلطان الظاهر ؛ إلا أن الأخير استاء عند ما علم أن الإمبراطور عاق رسله أثناء سفرهم سنة ١٢٦٤ عبر بلاده إلى بركة خان زعيم مغول القفجاق . وقد غضب بيبرس لذلك الأمر وجمع رجال الدين ليشهدهم على أن الإمبراطور البيزنطى «خالف الأيمان» . على أن الإمبراطور ميخائيل باليولوجس لم يلبث أن استدرك غلطته في سرعة ، فأطلق رسل بيبرس وسمح لهم بالسفر إلى بركة خان وفي الوقت نفسه ، بادر بإرسال الهدايا إلى بيبرس ليسترضيه[3] .

وقد استمرت العلاقات الودية بين سلطنة المماليك والإمبراطورية البيزنطية بعد عهد بيبرس ، إذ تروى المراجع أن السلطان المنصور قلاون أرسل إلى

---

(١) العينى : عقد الجمان المجلد الثالث ورقة ٤٨١ ؟
محمد جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس ص ١١٠
(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٧١ — ٤٧٢ .
(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥١٤ ، ٥٣٧ .

الامبراطور ميخائيل الثامن سفارة على رأسها الأمير ناصر الدين الجزرى وبطرك الأقباط حنا السابع ، وحملت تلك السفارة رسالة تفيد الإمبراطور باعتلاء السلطان قلاون دست السلطنة ورغبته فى الإبقاء على مودة الامبراطور وصداقته . وكان أن أجاب الامبراطور ميخائيل الثامن على السلطان قلاون مؤكداً حرصه على الصداقة بين الدولتين ويطلب منه أن يبعث إليه يميناً يتمسك بها فأرسل إليه قلاون من حلفه على ذلك اليمين[1] .

ولم تتغير سياسة الدولة البيزنطية تجاه سلطنة المماليك فى مصر عندما اعتلى عرش الدولة الامبراطور أندرونيق الثانى سنة ١٢٨٢ ، إذ بادر هذا الامبراطور الجديد بإرسال هدية إلى السلطان قلاون تشتمل حلا من الحرير الأطلس وأربعة أحمال من البسط ، فسر قلاون بتلك الهدية سروراً كبيراً وغمر الرسل بالعطايا[2] .

والمعروف أن سلطنة المماليك بلغت أقصى درجات النفوذ والسلطان على عهد السلطان الناصر محمد بن قلاون وكان طبيعياً أن يكون للدولة البيزنطية نصيب كبير من النشاط الخارجى الضخم الذى ميز دولة المماليك فى ذلك العصر . ويقال إن الإمبراطور البيزنطى أندرونيق الثانى أرسل سفارة إلى الناصر محمد سنة ١٣٠٥ تحمل هدية له وتسأله إعادة كنيسة المصلبة فى بيت المقدس إلى أصحابها ، وكان المسلمون قد حولوا هذه الكنيسة إلى مسجد فى عهد السلطان بيبرس[3] . على أنه يبدو أن الناصر محمد لم يستجب فى سرعة لتلك الرغبة فكرر الإمبراطور رجاءه بعد ذلك بعدة سنوات ، وعندئذ أعاد الناصر محمد تلك الكنيسة إلى المسيحيين بعد أن أفتى علماء المسلمين بأنه لا يجوز اغتصابها ، كما استجاب السلطان الناصر محمد لرغبة الإمبراطور البيزنطى فى التسامح مع أهل الكتاب

---

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ، ص ١٢٣ - ١٢٤ .
(٢) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٩ ورقة ٢٨٥ ب .
(٣) المرجع السابق جـ ٣٠ ورقة ٢٨ .

وسمح لهم بإنشاء عدة كنائس فى دولته(١) . ويبدو أن الإمبراطور البيزنطى ارتاح لاستجابة السلطان الناصر محمد له ، فأرسل له هدية ثمينة من الجوخ والأطلس وغير ذلك من التحف الجميلة(٢) .

والملاحظ أن الإمبراطور أندرونيق الثانى بالذات أظهر حرصاً شديداً على صداقة دولة المماليك ، فاستمر فى إرسال الهدايا إلى السلطان الناصر محمد بين حين وآخر . ويبدو أن الإمبراطورية البيزنطية كانت تعمل حساباً فى ذلك الدور لازدياد نفوذ الدول التركمانية فى آسيا الصغرى مما شكل خطراً جديداً عليها ، لذلك سعى الإمبراطور البيزنطى لعمل تحالف مع سلطنة المماليك ضد التركمان(٣) . ولا أدل على حرص الإمبراطور البيزنطى أندرونيق الثانى على مسالمة سلطنة المماليك ، من أنه رفض المشاركة فى تنفيذ المشروع الصليبى الذى وضعه أحد دعاة الحروب الصليبية من البنادقة — واسمه مارينو سانودو — وهو المشروع الذى استهدف خنق دولة المماليك إقتصادياً تمهيداً لاحتلالها حربياً ثم الاستيلاء على الأراضى المقدسة بالشام(٤) .

وقد استمرت العلاقات الطيبة بين الدولتين المماليكية والبيزنطية قائمة فى عصر أولاد السلطان الناصر محمد وأحفاده . من ذلك ما تشير إليه المراجع من أن الامبراطور حنا الخامس أرسل سفارة إلى مصر سنة ١٣٦٩ لإزالة الأثر السيء الذى تركته حملة بطرس لوزجنان على الاسكندرية سنة ١٣٦٥(٥) .

وكان أن قامت دولة المماليك الجراكسة سنة ١٣٨٢ ، فاستأنفت علاقاتها

---

(١) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ج ٣ ص ١٩٥ .

(٢) المرجع السابق : ج ٣ ص ٢٢٩ .

(٣) محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاون فى مصر ص ٢٩١ .

(٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٩٨، ١١٩٩ .

(٥) المقريزى : السلوك ج ٣ ورقة ٩٦ (مخطوط) .

الخارجية على نفس الأسس التي اتبعتها دولة المماليك البحرية. ويقال إن الامبراطور حنا الخامس أرسل سفارة سنة ١٣٨٥ إلى السلطان الظاهر برقوق تحمل إليه الهدايا وتطلب منه أن يكون للبيزنطيين قنصل بالاسكندرية أسوة بالبنادقة، فأجاب السلطان الامبراطور البيزنطي إلى طلبه[١]. على أن الملاحظ هو أن الامبراطورية البيزنطية أخذت تتعرض لضغط شديد من جانب العثمانيين منذ أواخر القرن الرابع عشر، وعندئذ ضعف نشاطها الخارجي وبات واضحاً أن تلك الدولة تسير في طريقها إلى الموت البطيء. ولم يكن بوسع الأباطرة البيزنطيين الاعتماد على مساعدة سلطنة المماليك أو تأييدها ضد العثمانيين لأن المسلمين جميعاً — داخل دولة المماليك وخارجها — كانوا ينظرون إلى توسع العثمانيين على حساب القوى المسيحية في شرق أوربا نظرة ارتياح ويعتبرون الفتوحات العثمانية جزءاً من حركة الجهاد الديني في ذلك الدور الأخير من العصور الوسطى. وهكذا حتى جاءت الأخبار إلى القاهرة باستيلاء العثمانيين على القسطنطينية سنة ١٤٥٣، فاحتفل السلطان إينال بذلك الحدث احتفالا كبيراً «ودقت البشائر بالقلعة، وزينت القاهرة إبتهاجاً بسقوط عاصمة الروم، وأرسل إينال إلى محمد الفاتح العثماني «يهنئه بهذا الفتح العظيم»[٢].

سلطنة المماليك والقوى الأوربية :

وأخيراً، فإن سلطنة المماليك ربطتها صلات عديدة — تجارية أو عدائية — مع بعض القوى الأوربية وبخاصة في حوض البحر المتوسط. ولم يكن منتظراً من سلطنة المماليك — وهي إحدى قوى البحر المتوسط وذات السيطرة

---

(١) ابن حجر : إنباء الغمر جـ ١ ورقة ٢٢٣.
(٢) ابن إياس : صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ص ١٥ (نشر محمد مصطفى).

على أهم طرق التجارة بين الشرق والغرب وصاحبة الدور الرئيسى فى الحروب الصليبية فى أواخر العصور الوسطى — لم يكن منتظراً من تلك الدولة أن تعيش مقطوعة الصلة بالدول الأوربية ذات المصالح التجارية والسياسية والصليبية فى البحر المتوسط .

* * *

والمعروف أن صقلية ربطتها بحكام مصر من بنى أيوب علاقات ودية كانت أبرز أركانها الصداقة بين الامبراطور فردريك الثانى والسلطان الكامل الأيوبى ، وهى الصداقة التى استمرت قائمة بعـــد الحملة الصليبية السادسة سنة ١٢٢٨ ، واتخذت صورة هدايا وسفارات متبادلة بين الجانبين ، ولا أدل على استمرار عرى هذه الصداقة من أن الامبراطور فردريك الثانى لجأ إلى تحذير السلطان الصالح نجم الدين أيوب عندما علم بخروج لويس التاسع على رأس حملته الصليبية لمهاجمة دمياط سنة ١٢٤٨ — ١٢٤٩[١] . ويبدو أن سقوط دولة الأيوبيين لم يغير من تلك الصداقة بين ملوك صقلية وسلاطين مصر ، إذ حرص مانفرد ابن فردريك الثانى على مصادقة سلاطين المماليك ، كما حرص سلاطين المماليك على الاحتفاظ بعلاقة الود التى ربطت مصر بمملكة الصقليتين . من ذلك ما تشير إليه المراجع من تبادل الهدايا بين مانفرد ملك الصقليتين والسلطان الظاهر بيبرس ، حتى أن بيبرس أرسل سنة ١٢٦١ وفداً برئاسة المؤرخ جمال الدين ابن واصل إلى ملك صقلية[٢] . وكان وفد بيبرس يحمل هدية جليلة إلى مانفرد منها بعض الزراف وبعض أسرى عين جالوت من التتار . وقد رد مانفرد على تلك السفارة بسفارة مشابهة تحمل الهدايا إلى السلطان بيبرس[٣] . وليس هنالك ما يشير إلى تغير هذه العلاقة بين ملوك صقلية وسلاطين المماليك بعد عهد

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٥٥ .

(2) Lane-Poole : op cit'. p. 266 & Enc. of Islam,

(٣) محمد جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس ص ١١٢ .

ما نفرده وإنما استمرت العلاقات الودية بين الطرفين قائمة في عهد البيت الأنجوى الذى تولى حكم صقلية منذ سنة ١٢٦٦ . ويشير المقريزى إلى أن شارل الأنجوى ملك صقلية أرسل إلى الظاهر بيبرس هدية وكتاباً على لسان أحد كبار موظفيه يقول فيه « بأن مخدومه أمره أن يكون أمرُ الملك الظاهر نافذاً في بلاده ، وأن أكون نائب الملك الظاهر كما أنا نائبه »(١) . ويبدو أن الغرض من هذا الكتاب كان عقـــد معاهدة تجارية بين دولة سلاطين المماليك ومملكة صقلية(٢) .

* * *

أما الجمهوريات الايطالية التجارية – وبخاصة البندقية وجنوا – فقد ربطتها بدولة المماليك علاقات تجارية قوية ، فكان لكل جمهورية قنصل في المدن والمواني الكبرى يرعى مصالحها . ولم يكن منتظراً من الجمهوريات الايطالية أن تضحى بمصالحها التجارية الكبرى مع سلطنة المماليك من أجل التيار الصليبي العام ، ولذلك نسمع أن البندقية بالذات اهتزت لنبأ إغارة بطرس لوزجنان ملك قبرس على الاسكندرية سنة ١٣٦٥ وأرسلت رسلها إلى السلطان شعبان في إبريل سنة ١٣٦٦ تؤكد له أن السفن التي أغارت على الاسكندرية لا تمت إلى البندقية بصلة ، وأن البنادقة لم يساعدوا الملك بطرس ولم يشتركوا معه(٣) .

وكان الجنوية لا يقلون عن البنادقة حرصاً على مصالحهم التجارية في مصر واستياء مما فعله ملك قبرس بالاسكندرية ، بعد أن تأثرت تجارتهم المتجهة لذلك مع جميع البلدان الاسلامية ، من ذلك ما يرويه النويرى السكندرى من أن البنادقة والجنوية قصدوا بلاد العراق براً بعد واقعة الاسكندرية للتجارة كعادتهم ،

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥١٣

(2) Lane—Poole : op: cit., p. 266.

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور . قبرس والحروب الصليبية ص ٧١ .

فنعهم السلطان أويس من دخول بغداد والمتاجرة بها وقال لهم «ارجعوا أولا إلى سلطان مصر واستدركوا ما أفسدتم فى الاسكندرية ، وأتونى بخط ملك مصر بدخولكم تحت طاعته وحينئذ تبيعون ببلدى وتبتاعون منه»[1]. وهكذا ألح البنادقة والجنوية فى الصلح على الملك بطرس لوزجنان من ناحية وعلى سلطان المماليك من ناحية أخرى ؛ وبفضل وساطتهم تم الصلح بين الطرفين فى ديسمبر سنة ١٣٧٠ ، وعندئذ أخذت التجارة تعود إلى ما كانت عليه بين قبرس والبندقية وجنوا من ناحية ومصر والشام من ناحية أخرى ؛ وأخذت سفن الفرنجة تفد إلى الإسكندرية بكثرة « واطمأنت الناس وما فات فات »[2].

والمعروف أن التنافس التجارى بين البندقية وجنوا انتهى فى القرن الرابع عشر بتفوق البنادقة الذين احتكروا معظم النشاط التجارى فى البحر المتوسط . ولم يرض الجنوية عن ذلك الوضع فأخذوا يغيرون على موانى وشواطىء دولة المماليك الجراكسة ، وشاركهم فى تلك الإغارات بعض قراصنة القطلان والروادسة والقبارسة . ويبدو أن إغارات الجنوية على شواطىء مصر والشام اشتدت فى عهدى السلطان برقوق وابنه فرج ، فهاجموا صيدا وبيروت ورشيد ودمياط ، الأمر الذى جعل السلطان برقوق يهتم بتدعيم قوته البحرية فى البحر المتوسط لدفع خطر القراصنة عن شواطىء دولته من ناحية وتأديب الجنوية من ناحية أخرى . وقد حدثت عدة اشتباكات قرب دمياط بين الأسطول المماليكى والسفن الجنوية سنة ١٣٨٥ ، انتهت بهزيمة الجنوية وأسر بعضهم[3] .

---

(١) النويرى : الإلمام بالاعلام ج ٢ ورقة ٨٢ (مخطوط) .

(٢) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص٨٢ &.

النويرى : الإلمام ج ٢ ورقة ٢٨٣ ب

(٣) ابن حجر : انباء الغمر ج ١ ورقة ٧٢٤ ؟

المقريزى : السلوك ج ٣ ورقة ٤١٦ .

وعلى الرغم من أن الجنوية أسرعوا إلى مصالحة السلطان برقوق سنة ١٣٨٦، إلا أنهم عادوا بعد قليل إلى أعمال القرصنة والاعتداء على سفن المسلمين فى شرق البحر المتوسط. من ذلك أن بعض سفن تابعة للسلطان برقوق كانت قادمة إلى مصر وعليها شحنة من الرقيق الجراكسة، فضلا عن أخت السلطان برقوق نفسه وبعض أقاربه، ولكن الجنوية أغاروا على تلك السفن وأسروا من فيها، الأمر الذى أغضب برقوق وجعله ينتقم من التجار والقناصل الأجانب فى دولته[1] ومرة أخرى عاد الجنوية إلى طلب الصلح، فأطلقوا سراح الأسرى وأرسلوا هدية إلى السلطان برقوق سنة ١٣٨٨ [2].

وهكذا استمرت العلاقة بين سلطنة المماليك وجمهورية جنوا تتأرجح بين الصلح حيناً والعداء والحرب أحيانا. وقد حدث سنة ١٤٠١ — على عهد السلطان فرج بن برقوق — أن أغار بعض القراصنة من الجنوية على طرابلس واستولوا على سفينتين كانتا فى طريقهما إلى مصر تحملان قدراً كبيراً من البضائع[3] وبعد ذلك بعامين أعد حاكم جنوا قوة بحرية كبيرة واعتزم ضرب الاسكندرية، ولكن حملته سنة ١٤٠٣ باءت بالفشل بسبب الاحتياطات التى اتخذها السلطان فرج. ولم يستطع الجنوية بعد ذلك إعادة العلاقات الصافية بينهم وبين سلطنة المماليك [4]. وزاد من سوء العلاقات بين جنوا ودولة المماليك فى أواخر القرن الخامس عشر أن جنوا مدت أطماعها إلى جزيرة قبرس واستولت على ميناء فاماجوستا فعلا فى الوقت الذى كانت جزيرة

---

(١) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك ج ٩ ق ١ ص ٣٣.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر ج ١ ص ٢٦٥-٢٧٤.

(٣) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الاسلام مجلد ٣ ورقة ١٩٥.

(4) Piloti : L'Egypt au Commencement dn Quinzieme Siecle. pp. 89-90.

قبرص تخضع لحماية سلطنة المماليك منذ أن فتحها السلطان برسباى سنة ١٤٢٦ (١).

ويبدو أن سوء العلاقات بين سلطنة المماليك وجنوا فى ذلك الدور هو الذى دفع الجنوية بالذات إلى البحث عن طريق آخر — غير طريق دولة المماليك — يوصل إلى الهند. وقد نجح الجنوية إلى كشف بعض أجزاء الساحل الغربى لإفريقية فى مواجهة جزر كناريا مما يعتبر مقدمة للجهود التى أدت إلى كشف طريق رأس الرجاء الصالح فيما بعد (٢).

* * *

وإذا كانت الجمهوريات الإيطالية قد اضطرتها ظروفها التجارية وما كان بينها من مشاحنات إلى الدخول فى منازعات أحيانا مع دولة المماليك فإن الوضع اختلف بالنسبة لدول أسبانيا المسيحية مثل أرغونة وقشتالة واشبيلية. ويبدو أن حرص الدول المسيحية فى أسبانيا على عدم وصول نجدات من دولة المماليك للمسلمين فى أسبانيا جعل ملوك تلك الدول يسالمون سلاطين المماليك من ذلك أن جيمس الأول ملك أرغونة تودد إلى السلطان بيبرس وبادله الهدايا. وقد استمرت هذه العلاقات الطيبة قائمة بين مملكة أرغونة من ناحية ودولة المماليك من ناحية أخرى ؛ فأرسل جيمس الثانى ملك أرغونة (١٢٩١ — ١٣٢٧) عدة سفارات إلى السلطان الناصر محمد يسأله تسهيل مهمة الحجاج الذين يذهبون لزيارة بيت المقدس، وكذلك يطلب منه تشجيع التجارة بين البلدين عن طريق رعاية تجار كل بلد فى البلد الآخر. وكانت طلبات ملك أرغونة تجاب كلها لدى سلطنة المماليك مما ساعد على بقاء العلاقة طيبة بين الطرفين (٣).

---

(١) سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ١٢٥ — ١٢٦.

(2) Beazley : Note Book of Middle Ages'. p. 156.

(3) Atiya : Egypt and Aragon. pp. 60—62.

كذلك تبودلت الرسل والهدايا بين السلطان المنصور قلاون من ناحية والفونس العاشر صاحب قشتالة(١). أما أشبيلية فيروى النويرى أن صاحبها الفونس أرسل رسالة إلى الظاهر بيبرس يطلب صداقته ، فرد عليه بيبرس بإرسال سفارة تحمل هدايا جليلة وقد قوبلت سفارة بيبرس بالحفاوة والإكرام فى أشبيلية ، وعند انتهاء مهمتها أعد لها صاحب أشبيلية سفينة حملتها إلى الاسكندرية (٢) .

وجدير بالذكر أن القوى الغربية التى طالما ناصبت سلطنة المماليك العداء بسبب السياسة الصليبية كانت أحياناً تلجأ إلى مسالمة المماليك رغبة فى التخفيف عن أهل الذمة فى مصر أو طمعاً فى تحقيق سياسة الصليبيين فى السيطرة على الأماكن المقدسة عن طريق مسالمة المماليك وكسب ودهم . من ذلك أن البابا حنا الثانى والعشرين اشترك مع ملك فرنسا شارل الرابع فى ارسال سفارة إلى القاهرة سنة ١٣٢٧ تطلب من السلطان الناصر محمد بن قلاون معاملة المسيحيين فى دولته برفق ، حتى يمكن أن يلقى المسلمون نفس المعاملة فى غرب أوربا ، « وأنه مهما حصل معهم (مع المسيحيين) بمصر والشام عاملوا من عندهم من المسلمين بمثله »(٣). كذلك أرسل فيليب السادس ملك فرنسا سفارة ضخمة تألفت من مائة وعشرين رجلا إلى السلطان الناصر محمد سنة ١٣٣٠ ، ومع السفارة كتاب يلتمس فيه ملك فرنسا إعادة بيت المقدس وسواحل الشام إلى الصليبيين

---

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١٢٩ .
(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ ق ١ ورقة ٢٢٧ .
(٣) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٢٨٧ .

ولكن السلطان الناصر غضب لذلك الطلب وأهان سفراء ملك فرنسا وأمر بردهم إلى بلادهم (١) .

* * *

وهكذا يبدو كيف اتسع نطاق العلاقات الخارجية لسلطنة المماليك، حتى أن بلاط سلاطين المماليك غدا مقصد الرسل والسفراء من حكام الشرق والغرب جميعاً .

(١) النويرى . نهاية الأرب ج ٣١ ورقة ١٠٤ .

الفصل التاسع

النشاط الاقتصادى

الزراعة :

اهتم سلاطين المماليك فى مصر بالزراعة اهتماما كبيرا ، حيث أن الزراعة فى تلك العصور كانت الحرفة الأولى لغالبية السكان والمورد الأول الذى عاش عليه معظم الأهالى. والمعروف أن أراضى مصر الزراعية توزعت فى ذلك العصر إقطاعات على السلطان والأمراء والأجناد بعد أن قسمت إلى أربعة وعشرين قيراطا ، اختص السلطان نفسه بأربعة قراريط والأمراء بعشرة، وما تبقى كان من نصيب الأجناد .

على أن الأراضى الزراعية قيست ومسحت أكثر من مرة فى عصر المماليك وتبع ذلك فك الزمام وتعديله، وهى العملية المعروفة باسم الروك[1]. واشتهر فى عصر المماليك الروك الحسامى الذى أجراه السلطان حسام الدين لاجين سنة ١٢٩٦ والروك الناصرى الذى أجراه الناصر محمد بن قلاون سنة ١٣١٥.

أما عن الروك الحسامى فيقال إن السلطان المنصور لاجين لاحظ أن الأمراء يأخذون كثيرا من إقطاعات الأجناد ولا يدفعون عنها الحقوق والمقررات الديوانية ، مما يجعلها مغنما لأعوانهم ومستخدميهم لذلك ندب السلطان لاجين الأمير بدر الدين بيليك الفارسى الحاجب والأمير بهاء الدين قراقوش الظاهرى وجماعة من الكتاب على رأسهم تاج الدين عبد الرحمن الطويل مستوفى الدولة لروك

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٣٢ .

أراضى مصر . وبعد أن قام هؤلاء بفك زمام الأراضى المصرية وتعديله وزعت الوثائق الخاصة بحدود الإقطاعات على الأمراء والأجنادسنة ١٢٩٨ (٦٩٧ هـ) [١] .

على أن توزيع الأراضى المصرية لم يلبث أن تعرض للتغيير والتبديل ، الأمر الذى جعل السلطان الناصر محمد بن قلاون يلجأ فى سلطنته الثالثة إلى فك زمام الأرض وتوزيعها من جديد وهى العملية المعروفة باسم الروك الناصرى سنة ١٣١٥ (٧١٥ هـ) . وقد عهد السلطان الناصر محمد إلى بعض أمرائه بهذه المهمة ، فأرسل جماعة من أمرائه إلى كل جهة من جهات البلاد ، فى حين توجه السلطان الناصر نفسه إلى الصعيد ليشرف على العملية التى استغرقت خمسة وسبعين يوما [٢] .

* * *

وانقسمت الأراضى الزراعية فى مصر إلى أقسام حسب جودتها ومايتبع ذلك من قيمة محصولها . وأهم هذه الأقسام هى :ـ [٣] .

١ — الباق ؛ وهو خير الأراضى وأعلاها قيمة وأوفاها سعرا ؛ لأنها تصلح لزراعة الكتان والقمح ، وكان يؤجر الفدان منه بأربعين درهما وذلك سنة ١٣٨٨ م .

٢ — البرائب ؛ وسعرها دون الباق لضعف الأرض وتصلح لزراعة القرط والمقاثى ، ويؤجر الفدان منها بثلاثين درهما .

٣ — البرش ؛ وهو عبارة عن كل أرض خلت من أثر ما زرع فيها للسنة الماضية .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٨٤٢ — ٨٤٤ .
(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ص ٩١ .
(٣) محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاون فى مصر ص ٢٩٢ — ٢٩٣ .

٤ — الوسخ ، وهو عبارة عن الأرض التى استحكم وسخها ولم يتمكن المزارعون من إزالته ، بل حرثوها وزرعوها ، فجاء زرعها مختلطا بالحلفاء ونحوها .

٥ — الخرس ؛ وهو عبارة عن الأرض التى فسدت بما استحكم فيها من موانع قبول الزرع واستخدم مراعى للدواب .

٦ — الشراق ؛ وهو الأراضى التى لا يصل إليها الماء لقصور النيل أو علوها أو لسد طريق الماء عنها .

٧ — المستبحر ؛ وهو الأرض الوطئة التى إذا سار فيها الماء لا تجد مصرفاً له .

٨ — السباخ ؛ وهو الأرض التى غلب عليها الملح ، فأصبح لا ينتفع بها فى زراعة الحبوب . وقد يزرع فيها الباذنجان والقصب الفارسى .

* * *

ويبدو أن محصول الأرض الزراعية فى مصر ازداد على عصر المماليك نتيجة للعناية بمرافق الزراعة من جسور وترع ومقاييس النيل وغيرها . وقد قسم القلقشندى الجسور فى ذلك العصر إلى نوعين : الجسور السلطانية ، « وهى الجسور العامة الجامعة للبلاد الكثيرة التى تصرف كل سنة من الديوان السلطانى بالوجهين القبلى والبحرى » . والجسور البلدية « وهى الخاصة ببلد دون بلد ويتولى عمارتها المقطعون بالبلاد من الأمراء والأجناد وغيرهم ، من أموال البلاد الجارية فى إقطاعهم »[١] .

وقد بلغ من عناية سلاطين المماليك بالجسور أنهم كانوا يرسلون فى كل سنة عددا من الأمراء إلى مختلف الأعمال لعمارة الجسور ، ويعبر عن الأمير منهم باسم

(١) القلقشندى صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٨ — ٤٤٩ .

«كاشف الجسور» ، كما كان «للجسور خولة ومهندسون لكل عمل، يقومون في خدمة الكاشف في عمارة الجسور إلى أن تنتهى عمارتها»[1]. فإذا عاد الأمراء المعينون لكشف جسور الوجهين القبلى والبحرى من مهمتهم خلع عليهم السلطان تقديراً لأهمية العمل الذى نهضوا به[2]. وعرف عن بعض سلاطين المماليك أنهم كانوا يخرجون بأنفسهم أحيانا لتفقد أحوال مرافق الزراعة وبخاصة الجسور. من ذلك ما يرويه المقريزى من أن السلطان الناصر محمد ما كاد يسمع بتشريق بعض الجهات قرب شبين حتى سار بنفسه سنة ١٣٣٦ (٧٣٧ هـ) ومعه بعض المهندسين لكشف تلك النواحى. ولم يلبث أن أمر السلطان الناصر محمد ببناء جسر يمتد من شبين القصر إلى بنها العسل، وجمع له اثنى عشر ألف رجل ليعملوا على إنجازه، ثم أقام به عدة قناطر وبذلك أمكن وصول المياه إلى الأراضى المرتفعة بتلك الناحية[3].

* * *

أما عن أهم الحاصلات الزراعية فى مصر فى ذلك العصر، فمنها القمح الذى كان محصوله يفيض عن حاجة البلاد أحيانا وعندئذ كان السلاطين يمدون بلاد الشام والحجاز والنوبة بمقادير وفيرة منه، كذلك كان الكتان من أهم مزروعات مصر فى عصر المماليك وكانت تصدر كميات كبيرة من المنسوجات الكتانية إلى البلاد المجاورة. واشتهرت مصر فى ذلك العصر بزراعة قصب السكر - لاسيما فى مناطق ملوى وقفط ونجع حمادى -، هذا عدا أنواع الفواكه والخضروات لسد حاجة السوق المحلية[4]. هذا كله فضلا عن الزهور والرياحين

(١) المرجع السابق ج ٤ ص ٤٤٩.
(٢) المقريزى: السلوك ج ٢ ص ٧٢٠، ٧٢٤.
(٣) المقريزى: المواعظ ج ٢ ص ١٦٩ — ١٧٠.
(٤) المقريزى: الخطط ج ١ ص ٢٠٣ - ٢٠٤.

التى زرعت فى الحدائق والبساتين (١) .

وأدت الأراضى الزراعية ضريبة الخراج للدولة، واختلف ذلك باختلاف البلاد، فأكثر خراج الوجه القبلى كان عيناً من قمح وشعير وحمص وفول وعدس ونحوها ، وكان يؤخذ فى الغالب عن خراج كل فدان من هذه الأصناف ضريبة تتراوح بين أردبين وثلاثة . أما الوجه البحرى فكان أغلب خراج بلاده نقداً وليس فيه ما خراج بلاده عيناً إلا القليل (٢) . ولما كان هناك تفاوت بين السنة القمرية المعتمد عليها فى استخراج الخراج والسنة الشمسية التى تضبط بها الزروع والثمار ومواعيد استحقاق الجباية — إذ تنقص السنون القمرية عن السنين الشمسية سنة تقريباً كل ثلاث وثلاثين سنة — فإن النظام الخراجى كان يقتضى تقديم السنة الهلالية سنة كلما انقضت ثلاث وثلاثون سنة منها ، وهذا هو السر فى تلك الإشارات التى نجدها فى المراجع المعاصرة فيقول المقريزى مثلا فى حوادث سنة ٦٩٧هـ «وحولت سنة ست وتسعين إلى سنة سبع وتسعين على العادة»(٣) .

* * *

وبالإضافة إلى الثروة الزراعية عنى السلاطين فى عصر المماليك بالثروة الحيوانية فأكثروا من نتاج الأغنام وجلب الأنواع الممتازة منها لتربيتها حتى ازداد عدد المواشى وارتفعت سلالتها . ويقال إن السلطان الناصر محمد بن قلاون قام بمشروع هام للعناية بالثروة الحيوانية، إذ بنى حظيرة على قطعة أرض بجوار قلعة الجبل وأجرى إليها الماء من القلعة وأنشأ بها بيوتاً للدواجن وأخرى للأغنام والمواشى؛

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٥٠ — ٤٥١ ؟
السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٥٠ — ٢٥٢ .
(٢) القلقشندى ، صبح الأعشى ج ٣ ص٤٤٩ — ٤٥٠ .
(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٨٤٥ وكذلك حاشية ١ فى نفس الصفحة ؟
القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٣ ص ٥٠٤ .

ثم أودع بها ألفي رأس من الضأن بعث في طلبها من بلاد الصعيد وأربعة آلاف من الوجه البحرى، فضلا عن عدد كبير من البقر[1]. هذا إلى أن عناية الناصر محمد بإنتاج المواشى والأغنام لم تقتصر على المناطق القريبة من عاصمته، وإنما صار يتتبع مراعيها فى عيذاب وقوص وغيرهما من أنحاء البلاد، كما كان يبعث فى طلب الأغنام الممتازة من بلاد النوبة واليمن[2].

على أن هذه العناية بالزراعة ومرافقها فى عصر المماليك لا تعنى بأى حال تقدم أحد الفلاحين أو ارتفاع مستوى معيشتهم فالفلاح المصرى عاش فى ذلك العصر قنا مربوطا إلى الأرض التى يفلحها ويفنى حياته فى خدمتها وليس له من خيراتها إلا القليل. ذلك أن خيرات البلاد ومحصولات الأراضى الزراعية كانت فى الواقع نهباً موزعاً بين السلاطين والأمراء ومماليكهم، فى حين لم يبق للفلاحين سوى الكد والعمل ودفع ما يطلب منهم من أموال وهم صاغرون. ويذكر الشربينى أن الفلاح فى أغلب مأكوله كان لا يتناول إلا الشعير والجبن القريش والبصل[3]. ولا عجب، فإن «الغلال معظمها لأهل الدولة أولى الجاه وأرباب السيوف الذين تزايدت فى اللذات رغباتهم، فخربت معظم القرى لموت أكثر الفلاحين وتشردهم فى البلاد ... »[4].

الصناعة:

أما الصناعة فقد ازدهرت فى عصر المماليك نتيجة لكثرة الثروة. والمعروف أن الصانع أو الفنان يحاول دائماً أن يرقى بإنتاجه إذا اطمأن إلى أنه سيجنى فى

---

(١) محمد جمال الدين السرور: دولة بنى قلاوون فى مصر ص ٢٩٤.
(٢) المقريزى: المواعظ ج ٢ ص ٢٢٩.
(٣) الشربينى: هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف ص ٤٥٩.
(٤) المقريزى: إغاثة الأمة ص ٣٦، ٤٦.

النهاية ثمن أتعابه ويتقاضى جزاء يناسب ما يبذله من جهد ووقت ومن ناحية أخرى فإن المستهلك إذا عظمت ثروته وفاضت عن مطالبه الأساسية، فإنه يفكر فى اقتناء الكماليات ولا يضن بمال يبذله فى شراء التحف والحصول على النفائس. وكان هذا الوضع الذى أثر فى ارتقاء الصناعة والصناع على عصر المماليك، عندما فاضت الخزائن بالثروة العظيمة، فانعكس أثر ذلك فيما خلفه ذلك العصر من مصنوعات راقية، بلغت شأوا بعيدا فى الدقة والإتقان(١).

وقد رأينا فى صفحات هذا الكتاب السابقة أن دولة المماليك كانت دولة حربية بكل معانى الكلمة، قامت وليدة المعركة الصليبية فى أرض المنصورة، وأثبتت جدارتها فى ساحة الحرب ضد التتار والصليبيين فى الشام، واستمدت بقائها من نجاحها فى الدفاع عن مصر والشام ضد الأخطار الخارجية الكبرى التى هددتهما فى ذلك الدور الهام من العصور الوسطى ... هذا إلى أن المماليك أنفسهم من سلاطين وأمراء وأجناد كانوا يمثلون طبقة حربية تعتمد على الفروسية ويستطيع كل فرد فيها أن يصل إلى أسمى الدرجات ويحقق أضخم الآمال بفضل مهارته فى القتال واستعمال القوس والنشاب والحربة.

لذلك لا عجب إذا احتلت الصناعات الحربية مكانا بارزا فى النشاط الصناعى لدولة المماليك. وقد وجد بالقاهرة فى ذلك العصر سوق كبير اسمه سوق السلاح ذخر بالأسلحة المتنوعة وبالصناع الذين كانوا يصنعونها. فإذا حدثت فتنة أو نشبت حرب هرع الأمراء والجنود إلى ذلك السوق وعندئذ يرتفع سعر الحديد وأجور الحدادين وصناع آلات السلاح، لإقبال الناس على شرائه(٢).

ويرتبط بالصناعات الحربية صناعة السفن، إذ حرص سلاطين المماليك

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ص ٢٠٠

(٢) المقريزى: السلوك ج ١ ص ٥١٢

على إنشاء أسطول بحرى قوى يحمى شواطىء دولتهم الواسعة ويصد غارات المعتدين ويؤدب القراصنة الذين دأبوا على مهاجمة السفن الإسلامية فى البحر المتوسط وقد عنى السلطان الظاهر بيبرس عناية كبيرة بدور صناعة السفن فى الروضة والإسكندرية ودمياط، فكان يتفقد أمورها بنفسه « ويرتب مايجب ترتيبه » ، ومنع الناس من التصرف فى أخشاب السفن(١). ومثل ذلك يقال عن السلطان الأشرف خليل قلاون الذى عنى — أثناء حكمه القصير — بإنشاء أسطول قوى عهد بإعداده إلى الوزير الصاحب شمس الدين بن السلعوس، حتى إذا ما بلغت عدة ذلك الأسطول ستين مركباً ، أمر السلطان بتجهيزها بالآلات الحربية والرجال واستعرضها فى جزيرة الروضة فى يوم حافل مشهود(٢) .

وكانت السفن الحربية على أنواع منها الشوانى والحراريق والطرائد. أما الشوانى فكانت أعظمها شأناً وهى مراكب حربية كبيرة أقيمت فيها أبراج وقلاع للدفاع والهجوم، وتكونت هذه الأبراج من عدة طبقات تقف فى الطبقة العليا منها العساكر المسلحة بالأقواس والسهام والحراب ، وفى الطبقة السفلى الملاحون بالمجاديف . وكانت الحراريق أقل حجماً ، وهى بمثابة ناقلات الجند والذخيرة فكان يحمل فيها المشاة المقاتلون فضلاً عن الذخيرة والبارود والنفط. أما الطرائد فهى السفن الخاصة بحمل الخيل ، وكانت تتسع لنحو أربعين فرساً وأحياناً لثمانين فرساً(٣) . وكانت السفن الحربية فى مصر تصنع على صنفين ، فبعضها كانت تحكم أجزاؤه بمسامير ، ومن هذا النوع السفن المستخدمة فى البحر المتوسط ، والبعض الآخر كانت تضم أجزاؤه بأحبال الليف . أما الأخشاب

---

(١) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ١٩٤ ، ١٩٧ ؛
السلوك : ج ١ ص ٤٤٧ .

(٢) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ١٩٤ — ١٩٥ .

(٣) محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاون ص ٢١٥ .

اللازمة لصناعة السفن فكانت تستورد من بلاد الشام وآسيا الصغرى أو من غرب أوربا عن طريق تجار البندقية. وأحياناً استخدمت الأخشاب المحلية مثل خشب السنط والنبج فى صناعة السفن[1].

هذا عن الصناعات الحربية، أما الصناعات المدنية فكانت عديدة وعلى جانب كبير من الرقى فى عصر المماليك ومن أهم هذه الصناعات صناعة المنسوجات المتنوعة، حتى غدت لمصر فى ذلك العصر شهرة خاصة فى صناعة أنواع معينة من المنسوجات مثل قماش الفستيان نسبة إلى الفسطاط والقماش الدبيقى نسبة إلى دبيق[2]. هذا فضلا عن اشتهار تنيس — قرب الفرما — بصناعة قماش رقيق سمى القصب صنعت منه عمائم الرجال وملابس النساء وكذلك اشتهرت دمياط بصناعة أقمشة من التيل ذات عدة ألوان بحيث يتغير لونها باختلاف الضوء الواقع عليها[3].

وسواء كانت الأقمشة التى صنعت فى مصر فى عصر المماليك من الحرير أو القطن أو الصوف أو الكتان، فإنها امتازت جميعاً بدقة الصناعة وثبات الألوان وجودة الخامة ومتانة النسيج، كما تشهد على ذلك قطع النسيج المتبقاة من ذلك العصر[4]. وبالإضافة إلى أقمشة الملابس العادية، وجدت مصانع خاصة تسمى دور الطرز تصنع فيها الخلع التى يمنحها السلاطين لكبار رجال الدولة وموظفيها وتنقش عليها أسماء السلاطين وألقابهم، كذلك اشتهرت مصر فى ذلك العصر بصناعة الفرش والستور والخيام والفساطيط والحبال المكسوة بالقطن والحرير

---

(١) آدم ميتز : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٣٦٢ ؟
المقريزى : المواعظ ج ١ ص ٢٠٤ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٧٢ .

(٣) محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون ص ٢٩٥ .

(٤) زكى محمد حسن : أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية ص ٢٠٠ — ٢٠١ ، ١٧٤ .

ولم تكن العناية بصناعة المعادن فى عصر المماليك أقل منها بصناعة المنسوجات، فاستخدم النحاس بصفة خاصة فى صناعة الثريات والأوانى المنزلية والأباريق والصحون والطسوت وغيرها، كذلك استخدام النحاس فى عصر المماليك فى تغطية بعض أبواب المساجد وقصور السلاطين والأمراء. وكان النحاس عند استخدامه فى هذا الغرض يعد على هيئة صفائح رقيقة مقسمة إلى أشكال هندسية بديعة المنظر[١]، وما زال بدار الآثار العربية بالقاهرة باب من مصراعين مصفحين بصفائح من النحاس منقوشة برسومات عربية رائعة تتخللها كتابة بالنسخ الجميل، وهذا الباب كان لأحد أمراء السلطان قلاون.

وانتشرت فى عصر المماليك صناعة تكفيت (تطعيم) البرونز والنحاس بالذهب والفضة، واشتهرت بهذه الصناعة سوق الكفتيين بالقاهرة. ويشهد المقريزى على أن المعاصرين كانت لهم « فى النحاس المكفت رغبة عظيمة ... فلا تكاد دار تخلو بالقاهرة ومصر من عدة قطع نحاس مكفت[٢] ». كذلك عنى المصريون فى عصر المماليك بصياغة الذهب والفضة، فأكثروا من صنع الأوانى والحلى الذهبية والفضية، وزينوها بكثير من النقوش والكتابات. أما الحديد فلم تكن مصر مركزاً مهماً لصناعته فى ذلك العصر، ولذا استوردت مصر كميات من الأدوات الحديدية من أوربا. ومع ذلك فقد أجاد العمال المصريون فى ذلك العصر صناعة بعض أنواع الأسلحة والدروع، فضلا عن الشبابيك والأقفال والمفاتيح[٣].

وازدهرت صناعة الزجاج فى مصر فى العصر المماليكى؛ وكان أهم مراكزها الفسطاط والفيوم والأشمونين والإسكندرية وتشهد بذلك أعداد المشكاوات

(١) زكى محمد حسن: فنون الإسلام ص ٥٥٤.

(٢) المقريزى: المواعظ ج ٢ ص ١٠٥ (بولاق).

(٣) سعيد عاشور: مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ص ٢٠٥.



مبخرة من عصر المماليك مصنوعة من النحاس المكفت بالذهب والفضة
ولها غطاء على شكل قبة

الزجاجية المحفوظة بدور الآثار والتي تمتاز بجمال أشكالها وانسجام زخرفتها وإتقان صنعها . وبالإضافة إلى ذلك صنع في مصر الزجاج الملون المستخدم في الشبابيك ، وكذلك بعض أنواع البلور الصخرى المحبب. أما الخزف فكانت مصر من المراكز الأساسية لصناعته في العالم الإسلامى ، ومنها انتشر كثير من نماذجه إلى البلاد الأخرى وقد جرت العادة على أن تزين الأوانى الخزفية المصنوعة خصيصا للسلاطين والأمراء برنوكهم أو شاراتهم(١).

وبلغت المصنوعات الخشبية درجة كبيرة من التقدم في عصر المماليك واتبع المصريون في زخرفة المصنوعات الخشبية عدة طرق منها الحشوات والخرط والتطعيم. فالحشوات استخدمت لتجنب تشقق الخشب من جهة والرغبة في زخرفته بأشكال هندسية من جهة أخرى. والخشب المخروط كانت تصنع منه الشبابيك والحواجز والمشربيات . أما تطعيم الخشب فكان يتم عادة بالعاج أو الأبنوس ،لاسيما في الكراسى والمناضد والأبواب وحوامل المصاحف(٢).

أما المصنوعات الجلدية - وبخاصة السروج -فكان لها شأن كبير في عصر المماليك ، إذ كانت السروج تصنع على أنواع وألوان مختلفة وأثمنها ما كان يصنع من الجلد البلغارى ، وأحياناً كانت تحلى بالذهب والفضة(٣) .

ويضيق بنا المقام عن تتبع كافة الصناعات الصغيرة التى ازدهرت في عصر المماليك ، ولكن يكفى أن نختتم هذا العرض السريع بالإشارة إلى أن مصر شهدت أيضاً في ذلك العصر عددا من الصناعات الغذائية أهمها صناعة السكر. ويذكر المقريزى أنه كان في سمهود سبعة عشر معصرا لعصير القصب، كما كان في ملوى

(١) زكى محمد حسن : فنون الإسلام ص ٤١٩ وما بعدها .

(٢) زكى محمد حسن : فنون الإسلام ص ٤٦٢ وما بعدها .

(٣) المقريزى : المواعظ جـ ٢ ص ٩٨ (بولاق) .

عدة معاصر(١). ومن الواضح أن هذه المعاصر التى انتشرت فى كافة أرجاء البلاد فى عصر المماليك، أنتجت كميات ضخمة من السكر، يدل عليها ماتشير إليه المراجع من كثرة استهلاك السكر فى عمل الحلوى فى ذلك العصر، حتى أن استهلاك السكر على أيام الناصر محمد بلغ فى شهر رمضان وحده (سنة ٧٤٥هـ) ثلاث آلاف قنطار قيمتها ثلاثون ألف دينار، منها ستون قنطارا كل يوم من أيام رمضان برسم الدور السلطانية(٢).

هذا عن الصناعة، أما الصناع وأصحاب الحرف فقد خضعوا فى عصر المماليك لنظام النقابات، فكان أفراد كل حرفة يكونون نقابة خاصة بهم لها نظام ثابت يحدد عددهم ومعاملاتهم فيما بينهم وبين بعض من ناحية، وفيما بينهم وبين الجمهور من ناحية ثانية، وفيما بينهم وبين الحكومة من ناحية ثالثة ولكل نقابة من هذه النقابات رئيس أو شيخ يرأسهم، يفض مشاكل أفراد النقابة ويرجعون إليه فى كل ما يهمهم. ولما كان دخول أى فرد غريب فى حرفة من الحرف يؤدى إلى منافسة أصحابها الأصليين، فإنهم كانوا لا يمرنون أحدا على طرق صناعتهم، إلا أن يكون من أبنائهم ولا يسمحون لأى شخص فى مشاركتهم إلا أن يكون قد أتى ليحل محل أحدهم، وفى هذه الحالة يقبل بشروط خاصة.

التجارة الخارجية :

شاءت الظروف أن يكون قيام دولة المماليك فى مصر والشام فى منتصف القرن الثالث عشر مصحوبا بازدهار طريق البحر الأحمر وموانى مصر، واضمحلال ماعداه من طرق التجارة الرئيسية الأخرى بين الشرق والغرب. ذلك أنه لم

---

(١) المقريزى : المواعظ جـ ١ ص ٢٠٤ .

(٢) المقريزى : المواعظ جـ ٢ ص ٢٣١ .

(٣) سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ٣٦ — ٣٧

يكد يمضى على قيام دولة المماليك سنوات معدودة حتى استولى المغول على بغداد سنة ١٢٥٨ ، وامتد نفوذهم إلى الشام وآسيا الصغرى . فضلا عن بلاد فارس التى اتخذها هولاكو مركزاً لدولته فى الشرق الأوسط ، وبذلك اضمحل طريق التجارة البرى بين الصين من جهة وآسيا الصغرى وموانى البحر الأسود من جهة أخرى .

وقد قام ماركو بولو برحلة شهيرة إلى الشرق الأقصى فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى ، فأشار إلى ماترتب على غزوات المغول من انعدام الأمن فى ذلك الطريق واعتداء اللصوص على القوافل والتجارة[1] . وكان ذلك فى الوقت الذى قل إقبال السفن التجارية الآتية من الشرق الأقصى على الخليج الفارسى بسبب ازدياد نشاط القراصنة من سكان جزر البحرين فى ذلك الخليج ومن ثم تحولت السفن التجارية إلى اليمن وميناء عدن بالذات .

على أن ملوك اليمن أظهروا تعسفاً كبيراً مع التجار ، فلم يكتفوا بفرض الضرائب الباهظة على مايحملونه من بضائع ؛ بل لجأوا إلى استخدام القسوة فى معاملة التجار ، حتى صار من التقاليد المرعية عند وصول إحدى السفن التجارية إلى عدن أن يصعد عمال ملك اليمن إليها وينزعوا قلاعها ودفتها ومرساتها حتى لا يمكنوها من الإبحار قبل أن تدفع الأموال والضرائب المستحقة عليها . أما التجار أنفسهم فكانوا يفتشون تفتيشاً دقيقاً قبل أن يسمح لهم بالنزول من السفن إلى الميناء ، وبلغ من دقة هذا التفتيش وقسوته أنه تناول « العمامة والشعر والكمين وحزة السراويل وتحت الآباط . كذلك وجدت عجوز تفتش النساء وتضرب بيدها فى أعجازهن[2] » . فإذا ما أتم التاجر إزال بضاعته ودفع ما عليها من

---

(1) Marco Polo : Travels (vol,) pp : 107-108 .

(٢) أبو محمد عبد الله بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ج ١ ص ٥٨ .

ضرائب وتسويقها ، أخذ يتأهب للعودة من حيث أتى ، فيطوف المنادى فى طرقات عدن ويعلن فى الأسواق أن التاجر الفلانى سيغادر الميناء فمن له عليه دين أو مال فليطالبه به ، وإن لم يظهر للتاجر دائن يسمح له بالرحيل[1]. وهنا يجدر أن نلاحظ أنه لم يسمح للسفن التجارية الوافدة من الشرق الأقصى سواء كانت من الهند أو الصين أو جزر الهند الشرقية - بتخطى عدن شمالا فى البحر الأحمر؛ وإنما كانت رحلتها تنتهى عند عدن ثم تقفل راجعة من حيث أتت ، فى حين جرت العادة بنقل البضائع من عدن شمالا إما بطريق القوافل فى شبه الجزيرة العربية وإما بطريق السفن الإسلامية ، إلى موانى مصر والحجاز .

وهكذا ترتب على اضمحلال طرق التجارة الآسيوية فى القرن الثالث عشر انتعاش طريق البحر الأحمر — مصر ؛ الأمر الذى أتاح لسلاطين المماليك فى مصر فرصة ذهبية للإفادة من القيام بدور الوسيط بين تجار الشرق وتجار الغرب. وإذا كان السلطان الظاهر بيبرس قد شغل بالأعمال التأسيسية اللازمة لحفظ كيان دولة المماليك الناشئة وحمايتها من الأخطار الخارجية والداخلية التى هددتها ، فإن السلطان المنصور قلاون (١٢٧٩ — ١٢٩٠) عمل على تنشيط التجارة فى البحر الأحمر بمختلف الطرق . من ذلك أن السلطان قلاون أخذ يتودد إلى القوى الإسلامية الواقعة فى حوض البحر الأحمر ويحسن علاقته بحكامها ، فأرسل إلى الملك يوسف الأول ابن عمر ملك اليمن يسالمه ويعاهده على التحالف والمودة ، بعد أن كان بيبرس قد امتهن ملوك اليمن وأهانهم . وعندما وصلت رسل ملك اليمن إلى مصر ، حرص قلاون على إكرامهم وأرسل معهم الهدايا والتحف إلى ملك اليمن[2] . ومثل ذلك يقال عن سياسة قلاون تجاه أبى نمى شريف مكة .

على أن جعل مصر حلقة الوصل فى النشاط التجارى بين الشرق والغرب

---

(١) المرجع السابق ص ٦٧ — ٦٨

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٨١ ، ٧٠٢

كان يتطلب أمرين : أولهما تأمين طرق التجارة داخل مصر ذاتها حتى تصل البضائع سليمة من موانى البحر الأحمر – وبخاصة عيذاب – إلى موانى البحر المتوسط ، وبخاصة دمياط والإسكندرية . وثانيهما إغراء تجار الشرق على جلب بضاعتهم إلى موانى مصر المطلة على البحر الأحمر ، ثم إغراء التجار الأوربيين على التردد على الإسكندرية ودمياط لشراء ما يلزمهم من حاصلات الشرق .

أما عن الأمر الأول فإن السلطان قلاون ومن خلفه من سلاطين المماليك حرصوا على أن يضربوا بيد من حديد على العابثين والمعتدين على قوافل التجارة بين النيل والبحر الأحمر ، وبخاصة قبائل الأعراب الذين سكنوا تلك الجهات والذين اعتادوا حياة السلب والنهب ، حتى أن قوافل الحجاج نفسها لم تسلم من عبثهم[1] . ويروى المقريزى أنه عندما اشتد القتال فى صحراء عيذاب سنة ١٢٨١ بين عرب جهينة وعرب رفاعة ، أمر السلطان قلاون الشريف علم الدين صاحب سواكن « بأن يوفق بينهم ولا يعين طائفة على أخرى ، خوفا من فساد الطريق »[2] .

وأما عن الأمر الثانى فإن السلطان قلاون أرسل إلى نوابه بالثغور يأمرهم بحسن معاملة التجار وملاطفتهم والتودد إليهم وترغيبهم ، ومراعاة العدالة فيما يجبونه منهم من أموال بحيث لا يأخذون منهم سوى الحقوق السلطانية[3] . وقد أورد القلقشندى بعض رسائل صادرة من سلاطين المماليك لناظر ثغر الإسكندرية ، وفيها يأمر السلطان ناظر الثغر بحسن « معاملة التجار الواردين إليه بالعدل والرفق... فإنهم هدايا البحور ودوالبة الثغور ، ومن ألسنتهم يطلع

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٤ ص ٨٥٨ — ٨٥٩ (مخطوط) .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٠٠ .

(٣) تاريخ ابن الفرات ج ٧ ص ١٩٨ .

ما تجنه الصدور ؛ وإذا بذر لهم حب الإحسان نشروا له أجنحة مراكبهم كالطيور ...»[1] . ولاشك فى أن أمثال هذه الوصية إنما كان يوجهها سلاطين المماليك إلى عمالهم بمختلف الثغور المصرية التى يرد إليها التجار من المشرق والمغرب جميعا .

كذلك كتب السلطان قلاون منشورا إلى التجار الذين يفدون على مصر «من الصين والهند والسند واليمن والعراق وبلاد الروم..» يرحب بهم ويصف لهم محاسن مصر ويغريهم على القدوم إليها بمتاجرهم «ومن يؤثر الورود إلى ممالكنا إن أقام أو تردد... فليعزم عزم من قدر الله له فى ذلك الخير والخيرة ، ويحضر إلى بلاد لا يحتاج ساكنها إلى ذخيرة، لأنها فى الدنيا جنة عدن لمن قطن ، ومسلاة لمن تغرب عن الوطن . . . فمن وقف على مرسومنا هذا من التجار المقيمين باليمن، والهند، والصين والسند، وغيرهم، فليأخذ الأهبة فى الارتحال إليها والقدوم عليها ، ليجد الفعال فى المقال أكبر ، ويرى إحسانا يقابل فى الوفاء بهذه العهود بالأكثر . . . »[2].

وفى الوقت الذى دأب سلاطين المماليك على تشجيع تجار الشرق الأقصى بوجه خاص على الحضور ببضائعهم إلى مصر ، حرصوا أيضا على الترحيب بالتجار الأوربيين الذين يفدون إلى الاسكندرية ودمياط لشراء حاصلات الشرق . ولا أدل على التسامح أفق سلاطين المماليك ورغبتهم الأكيدة فى الاستفادة من موقع مصر التجارى ، من أنهم فرقوا بين الدين والتجارة ، فقدموا كافة التسهيلات للتجار الغربيين فى الوقت الذى كانوا يحاربون الصليبيين —ومن خلفهم الغرب الأوربى .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١١ ص ٤٢١ .
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٣ ص ٣٤٠ — ٣٤١ .

ولقد ترتب على تشجيع سلاطين المماليك للتجار الأوربيين على القدوم إلى مصر أن كثر عددهم ، فذكر البلوى المغربى فى رحلته أنه رأى بمصر سنة ١٣٣٦ أناسا كثيرين من مختلف الأجناس[١]. بل إن بعض الباحثين الأوربيين قدروا عدد الأجانب فى الإسكندرية وحدها فى أوائل القرن الرابع عشر للميلاد بحوالى ثلاثة آلاف تاجر أوربى[٢] ومن الواضح أن هؤلاء التجار الأوربيين فضلوا دائما الإقامة بالمدن التجارية والثغور على شاطىء البحر المتوسط مثل الإسكندرية ودمياط[٣]. وكان لكل جالية من هؤلاء الأجانب قنصل يشرف على شئون أفراد الجالية ومصالحهم «وإذا ماحدث من طائفة أحدهم مايشين الإسلام يطلب منه الكف عن ذلك»[٤] كذلك اتخذت كل جالية لنفسها فندقا أو أكثر ينزل فيه أفرادها. وقد زار مصر سنة ١٣٩٥ أمير فرنسى فحكى الكثير عن فنادق البنادقة والجنوية والكتلان والقبارسة وأهل نابلى وأهل كريت وأهل مرسيليا وغيرهم[٥]. ورتبت أمور هذه الفنادق بحيث تكون لكل منها إدارة مستقلة ، على رأسها مدير يدير شئون الفندق . وعند وصول تاجر أجنبى إلى الثغر ، تفتش أمتعته بدقة وعناية ، ويطلب منه دفع ٢٪ من قيمة ما معه من ذهب وعملة نقدية ، وبعد ذلك يقصد فندق جاليته حيث يضع بضائعه ويجتمع بمواطنيه وأبناء بلده ويستطيع أن يعيش وفق النمط الذى اعتاده فى بلاده . ذلك الفندق احتوى جميع ما احتاجه التاجر الأجنبى من مأوى وكنيسة ومخبز وحمام[٦] .

---

(١) رحلة البلوى المغربى ورقة ٤٥ أ (مخطوطة) .

(2) Kammerer : Le Regime et le Status des Etrangers en Ehypte ; p. 17.

(3) Schefer : Le Voyage d'Outremer, p. 122

(٤) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٤١ .

(5) Schefer : Le Voyage d'Outremer . p. 122.

(6) Kammerer : op. cit. p. 20.

ثم إن التجار الأوربيين تمتعوا داخل فنادقهم بقسط وافر من الحرية ، إذ سمحت لهم السلطات المصرية بإحضار الخمور اللازمة لهم فى سفنهم وإنزالها إلى فنادقهم [1]. ويبدو أن التجار الأجانب اعتادوا إحضار هذه الخمور بكميات ضخمة، حتى أنه عند ما حاول السلطان الصالح اسماعيل منع الأجانب سنة ١٣٤٢ من إحضار الخمور إلى الاسكندرية ، عارضه حاكم المدينة ، وقال إن الضرائب التى تحصل فى السنة من تلك الخمور تبلغ أربعين ألف دينار [٢] !.

أما أهم أبواب تجارة مصر الخارجية فى عصر المماليك فكانت مدينة أسوان بالنسبة لتجارة النوبة، وعيذاب بالنسبة لتجارة الصين والهند واليمن، ومنها تحمل المتاجر على ظهور الإبل عبر الصحراء حتى قوص فتسير بها السفن فى النيل شمالا ويبدو أن طريق عيذاب - قوص لم يلبث أن أهمل بعد إخراج الصليبيين من الشام ، وأصبحت التجارة تأتى من البحر الأحمر إلى السويس ومنها بطريق القوافل إلى القاهرة . أما التجارة بين مصر وأوربا ، فكانت أهم أبوابها الاسكندرية ودمياط ، فتأتى إليهما السفن الأوربية محملة بالفراء والجوخ والأخشاب والحديد والنبيذ وغيرها من المنتجات الأوربية ، وتعود محملة بالتوابل والبخور والعطور والخزف والأقمشة وغيرها من منتجات الشرق [٣] .

وبالإضافة إلى تجارة الشرق الأقصى والغرب الأوربى شهدت دولة المماليك نشاطا تجاريا كبيرا مع بلدان السودان الغربى وإفريقية الوسطى وقد عرف تجار تلك الجهات باسم الكارم أو الكارمية نسبة إلى مملكة الكانم كما عرفوا أحيانا باسم التكرور نسبة إلى مملكة التكرور [٤]. وكان هؤلاء التجار يجلبون إلى دولة المماليك بضاعة

---

(1) **Reinaud** : Traité de Commerce, p. 40.

(٢) المقريزى السلوك ج ٢ ص ٦٩٤ .

(٣) سعيد عاشور : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ص ٣٠٨ .

(٤) من المرجح أن تكون تسمية ساحل مصر باسم بولاق الدكرور نسبة الى تجار التكرور الذين كانت ترد بضائعهم من قوص عن طريق النيل الى ساحل بولاق .

من أهم البضائع التى قامت عليها عظمة دولة المماليك وثروتها ، وهى التوابل والفلفل والبهار والبخور والقرنفل، وكلها أصناف اشتد تهافت الأوربيين عليها ، ودفع فيها التجار الغربيون الأثمان المرتفعة . ثم إنه يلاحظ أن تلك الطائفة من التجار لم يقتصر نشاطها على محاصيل بلادها فحسب، وإنما امتد ذلك النشاط إلى جلب البهار من اليمن والصين والهند ، حتى أصبح اسم الكارمية يطلق على كل من اشتغل بتجارة البهار والفلفل(١) . ويبدو أن نسبة كبيرة من تجار الكارمية فى عصر المماليك اتخذوا مدينة قوص مركزاً لنشاطهم الواسع ، فغدت تلك المدينة الهامة فى صعيد مصر سوقاً تجارياً واسعاً لمنتجات إفريقية الوسطى واليمن والهند والحبشة . وهناك فى قوص كون تجار الكارمية نقابة حافلة لأنفسهم ، هيمنت على تجارة التوابل والبخور والعاج واحتكرتها أحياناً ؛ وصار لهذه النقابة رئيس معترف به من قبل حكومة المماليك وأطلق عليه اسم رئيس الكارمية(٢) . ولا شك فى أن تجار الكارمية فى مصر جنوا ثروة طائلة من وراء تجارتهم حتى قال المقريزى مانصه « وكان تجار الكارم بمصر حينئذ فى عدة وافرة ولهم أموال عظيمة » ؛ مما جعل سلاطين المماليك يقترضون المال منهم أحياناً إذا اضطرتهم الظروف إلى ذلك(٣) .

وهكذا نجحت مصر فى عصر سلاطين المماليك فى أن تستأثر بالجزء الأكبر من التجارة العالمية بين الشرق والغرب . ولم يدخر سلاطين المماليك وسعا فى تقوية تلك الروابط الاقتصادية بين مصر وبلدان الشرق والغرب ، عن طريق المعاهدات والاتفاقيات والاتصالات الدبلوماسية مع ملوك وحكام تلك البلدان.

---

(١) انظر ترجمة عز الدين عبد العزيز بن منصور الكولمى التاجر الكارمى المتوفى سنة ٧١٣ هـ
(المقريزى . السلوك ج ٢ ١٣٢ – ١٣٣ ،
النويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ص ٩٢ ،
(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٢ ص ٣٨٢ ،
(٣) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ١٠٣ ،

من ذلك المعاهدات التجارية العديدة التى عقدها سلاطين المماليك فى مصر مع ملوك صقلية وقشتالة وأرغونة فضلا عن جنوا والبندقية وغيرهما من جمهوريات إيطاليا التجارية . وقد حدث سنة ١٢٨٣ أن أرسل حاكم جزيرة سيلان - واسمه أبو نكبا - سفارة إلى السلطان المنصورى قلاون تحمل كتابا يدعوه فيه إلى تنشيط التجارة بين دولة المماليك وجزيرة سيلان الغنية . وقام هذا الحاكم فى كتابه بدعاية واسعة لجزيرته ، فذكر ما يمتلكه من سفن تجارية عديدة ، وما تنتجه سيلان من محصولات وفيرة، فضلا عما يستخرجه أهلها من اللؤلؤ والأحجار الثمينة . وأكد أن المصريين سيجدون فى سيلان كثيراً من الحاصلات التى يسعون للحصول عليها من الهند ، ثم طلب فى كتابه تعيين مندوب تجارى لدولة المماليك فى سيلان . وكان أن رحب السلطان قلاون بسفراء ملك سيلان وأجزل لهم العطايا وأرسل صحبتهم سفارة تحمل رد كتاب ملكهم(١) .

وإذا كانت عيذاب وقوص قد تزعمتا حركة النشاط التجارى بالنسبة للتجارة الآسيوية والإفريقية ، فإن دمياط والإسكندرية قامتا فى عصر المماليك بدور بارز فى استقبال التجار الأوربيين الذين وفدوا بسفنهم عن طريق البحر المتوسط لابتياع حاصلات الشرق وبيع ما يحملونه من حاصلات الغرب . ويبدو أن هدم بعض أجزاء دمياط فى أوائل عصر المماليك خوفا من مجىء حملة صليبية جديدة بعد فشل حملة لويس التاسع على مصر ، ثم ردم فم بحر دمياط زمن السلطان الظاهر بيبرس ، أدى إلى عدم استطاعة سفن البحر الكبيرة الوصول إليها ، فأصبحت ترسو على مقربة من ملتقى النيل بالبحر المتوسط ، ثم ترسل ما تحمله من بضائع أو تأخذ ما تطلبه من حاصلات بواسطة مراكب نيلية صغيرة(٢) . لذلك اختار

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ص ٢٤٤ ؛
المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧١٣ .

(٢) سعيد عاشور : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ص ٢١٠ .

كثير من السفن الأوربية فى عصر المماليك أن تستعيض بالإسكندرية عن دمياط ، وبذا صارت الإسكندرية كبرى موانى دولة المماليك على البحر المتوسط ، وإليها تهوى ركائب التجار فى البر والبحر وتمير من قماشها جميع أقطار الأرض . . . »[1] .

وكان من الطبيعى أن تراقب سلطنة المماليك تلك الحركة التجارية الواسعة ، ففرضت رقابة شديدة على الوارد والصادر من المتاجر ، وضربت عليه مكوسا اختلفت باختلاف الظروف والأحوال ، ثم تختم البضاعة بختم خاص للدلالة على استيفاء المكس . وربما كان هناك خاتم آخر للدلالة على مصدر كل سلعة حتى لا يكون سبيل إلى الغش فى بيعها . وقام بهذا العمل موظفون أطلق عليهم اسم «مباشرى الختم» كانوا أشبه بموظفى الجمارك فى عصرنا الحالى[2] . ويبدو أن هذه الضرائب التى فرضها سلاطين المماليك على التجارة الخارجية - وبخاصة التوابل - كانت قاسية حتى أن حمولة الفلفل التى يبلغ ثمنها فى القاهرة خمسين ديناراً كانت تباع أحيانا فى الإسكندرية للتجار الأوربيين بثلاثة أمثال هذا الثمن . وقد دفع ذلك التجار الأوربيين - وبخاصة البنادقة - إلى رفع شكواهم إلى السلاطين أكثر من مرة ، فيروى المقريزى كيف « قدمت رسل البنادقة (٧٤٥ هـ / ١٣٤٤ م) بهدية وسألوا الرفق بهم والمنع من ظلمهم وألا يؤخذ منهم إلا ماجرت به عادتهم ، وأن يمكنوا من بيع بضائعهم على من يختارونه» . وفى بعض الأحيان كان السلاطين يستجيبون لدعوات التجار الغربيين « ليكثر الفرنج من بلادهم جلب البضائع » ؛ فيأمر السلطان ناظر الخاص بالتخفيف عنهم وعدم إيذائهم[3] .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٠٤ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٤٣٩ حاشية للدكتور محمد مصطفى زيادة .

(٣) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٦٧٠ — ٦٧١ .

على أن نشاط تجارة مصر الخارجية فى عصر المماليك لم يستمر دون محاولات لعرقلته من جانب القوى المعادية لسلطنة المماليك . من ذلك أن البابوية التى آلمها سقوط عكا فى يد المسلمين سنة ١٢٩١ وطرد الصليبيين نهائيا من الشام ، فكرت فى إضعاف سلطنة المماليك عن طريق حرمانها من المورد الأساسى لغناها وقوتها وهو التجارة . لذلك أصدرت البابوية عدة مراسيم تحرم على التجار الأوربيين المتاجرة مع دولة المماليك[١] . وقد تضمنت هذه المراسيم توقيع عقوبة الحرمان على الأفراد والمدن والجمهوريات والدول التى تتعامل تجاريا مع دولة المماليك ، واختصت أصنافا معينة حرمت تصديرها إلى تلك الدولة بعضها له أهميته فى الحرب كالحديد والخشب والقار والكبريت ، وبعضها له أهميته الغذائية كالقمح والنبيذ والزيوت ، هذا كله فضلا عن الرقيق الأبيض الذى اعتمد عليه نظام المماليك[٢] .

ولكن الجهود التى بذلتها البابوية عقب سقوط عكا سنة ١٢٩١ لحمل التجار الأوربيين على مقاطعة مصر اقتصاديا والاستعاضة عن طريق مصر - البحر الأحمر بطريق إياس - تبريز ، هذه الجهود لم تفلح وباءت بالفشل . ذلك أن القوى التجارية فى غرب أوربا أدركت مدى الخسائر التى عادت عليها نتيجة لحرمانها من التجارة مع مصر ، وتحايلت بمختلف الطرق على كسر المراسيم البابوية واستئناف نشاطها التجارى مع الاسكندرية ودمياط . ولم يلبث جايم الثانى ملك أرغونه أن جدد اتفاقيته التجارية مع السلطان الأشرف خليل - وهو السلطان الذى استولى على عكا من الصليبيين - كما حرصت مملكة أرغونة بالذات على عدم سحب قناصلها التجاريين من مصر عقب سقوط عكا . أما البندقية

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٠٣ .

(2) Kammerer : Le Mer Rouge T. 1, partie 2, p. 151 & Heyd.: Hist, du Commerce, II, p. 26.

فقد أرسلت سفيراً إلى مصر سنة ١٣٠٢ — على عهد السلطان الناصر محمد ابن قلاون — ليبلغ المسئولين في القاهرة رغبة جمهوريته في استئناف علاقاتها التجارية مع مصر، وكان أن رحب السلطان الناصر محمد بن قلاون بالسفير البندقي وأعلن من جانبه استعداده الطيب لتقديم كافة التسهيلات لتجار البندقية ومنحهم الامتيازات القديمة التي كانوا يتمتعون بها قبل قطع العلاقات، كما وافق على أن يكون فرانسسكو دى كنالى قنصلا للبندقية في الإسكندرية يرعى مصالحها ومصالح رعاياها الاقتصادية[1].

ولكن إذا كان سلاطين دولة المماليك الأولى قد حرصوا على الاحتفاظ لمصر بمكانتها المرموقة في النشاط التجاري بين الشرق والغرب، فإن الوضع اختلف كثيراً في عصر دولة المماليك الثانية. ذلك أن النظام الإقطاعي الذي اعتمد عليه سلاطين المماليك في عصرهم الأول، لم يلبث أن تطرق إليه الفساد، ولم يعد يكفى لسد حاجاتهم المادية ومطالب ملكهم العريض. لذلك اتجه سلاطين دولة المماليك الجراكسة نحو الاشتغال بالتجارة، واتبعوا سياسة الاحتكار التجاري لتعويض ما حل بهم من خسائر نتيجة لاختلال النظام الإقطاعي من ناحية، وللحصول على المال الوفير من أيسر طريق في نظرهم، من ناحية أخرى.

ولا شك في أن احتكار سلاطين دولة المماليك الجراكسة لبعض السلع والغلات الهامة - مثل التوابل والبخور - أدى إلى ارتفاع أثمانها ارتفاعاً فاحشا، الأمر الذي أنزل أبلغ الضرر بالتجار الأوربيين بوجه خاص، فضلا عن المستهلك الأوربي. وقد بلغت سياسة الاحتكار هذه أشدها على عهد السلطان الأشرف برسباى (١٤٢٢ — ١٤٣٨) الذي أبطل التعامل بالنقد البندقي والفلورنسى وسك الدينار الأشرفي ليكون أساسا للتعامل مع التجار الأوربيين[2]

---

(1) Diehl : Venise, p. 72.

iW (2) et : L' Egypte Arabe, p. 573.

وأخيراً دفع الضيق القوى التجارية فى غرب أوربا إلى مضاعفة جهودها للوصول إلى الهند وتجارة الشرق الأقصى عن طريق المحيط الأطلسى[١] . وما زال الغرب الأوربى يجد لاكتشاف طريق بحرى جديد إلى الهند ، حتى توصل فاسكو دى جاما إلى اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح فى نهاية القرن الخامس عشر ، فجاء ذلك إيذانا بثورة كبرى فى طرق التجارة العالمية من ناحية ، وإعلانا لضياع أهمية طريق مصر بوصفه الطريق الأساسى للتجارة بين الشرق والغرب فى تلك الفترة من ناحية أخرى . ولم يلبث أن أدى تدهور مركز مصر التجارى فى أواخر عصر المماليك إلى إضعافهم ثم سقوط دولتهم بعد أن حرموا من المورد الأساسى الذى طالما أمدهم بالمال والقوة

التجارة الداخلية :

أما التجارة الداخلية فكانت على درجة واسعة من النشاط على عصر سلاطين المماليك ، فاشتهرت المدن المصرية ـ وعلى رأسها القاهرة ـ بأسواقها العامرة ذات الطابع الخاص المميز ، وأهم ما فى هذه الأسواق أن كل سوق منها اختص بنوع معين من البضائع ، فسوق الشماعين اختص ببيع الشمع ، وسوق النحاسين اختص ببيع النحاس ، وسوق الفرايين ببيع الفراء . . . وهكذا[٢] .

ومن محاسن هذا النظام أن التاجر لم يستطع أن يشذ عن جيرانه أو أن يرفع أسعار السلعة التى يتجر فيها ، لأن منافسيه على مقربة منه ، كما أن المشترى إن لم يعجبه نوع السلعة أو ثمنها فإنه يستطيع أن ينتقل فى سهولة من متجر لآخر دون أن يتحمل أدنى مشقة . أما عيوب هذا النظام ، فأهمها أن الفرد

(1) Ronciere : La Decouverte de L'Afrique au Moyen Age, Tome 3 . p . 31 .

(٢) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ١٠٣ (بولاق) .

إذا أراد شراء عدة أصناف متباينة من البضائع ، فعليه أن يقطع المدينة كلها طولا وعرضاً حتى يقضى حاجاته ، لأنه لن يجد فى السوق الواحد سوى نوع واحد من البضائع(١) .

أما المواد الغذائية فوجدت لها أسواق قائمة بذاتها منها بالقاهرة سوق باب الفتوح وسوق بين القصرين وسوق باب الزهومة ، وكلها اشتهرت فى ذلك العصر بكثرة المعروض فيها من لحوم وخضروات وزيوت وألبان ... فضلا عن اكتظاظها بجمهور المشترين(٢) . أما الفواكه فكان لها سوق خاص بها قرب باب زويلة ، وعرف هذا السوق باسم دار التفاح ، كانت تحمل إليه ثمار البساتين المحيطة بالقاهرة ، حيث يتفنن الباعة فى عرضها ، ويتأنقون « فى تنضيدها واحتفافها بالرياحين والأزهار »(٣) .

وقد حفلت البلاد فى ذلك العصر بالمنشآت الخاصة بالتجار الأتراك واليمنيين والهنود والفرس والمغاربة وغيرهم ، وجرت العادة أن التجار المسلمين الوافدين من بلد واحد كانوا ينزلون فى وكالة معينة حيث يألفون بعضهم ببعض ، فوكالة قوصون مثلا كان ينزلها التجار الوافدين ببضائع بلاد الشام - مثل الزيت والصابون والفستق واللوز والجوز وغيرها - وفى الوكالة يستطيع التاجر أن يضع أمواله وبضائعه فى مأمن من كل سوء ، وفى الوقت نفسه حرص سلاطين المماليك على حراسة الوكالات من عبث العابثين ، كما أنهم احتاطوا عليها من خطر الحرائق وغيرها(٤) .

ولم يترك سلاطين المماليك حركة البيع والشراء فى الأسواق دون رقيب أو حسيب ، وإنما عهدوا إلى المحتسبين بالطواف ليلا ونهاراً للتفتيش على

(١) سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر المماليك ص ٨٦ .
(٢) المقريزى : المواعظ جـ ٢ ص ٩٦ — ٩٧ .
(٣) المقريزى : المواعظ جـ ٢ ص ٩٣ .
(٤) محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاون ص ٣٢٦ .

الباعة وضبط من يحاول التلاعب فى الأسعار أو الأوزان أو أصناف البضاعة . وقد روعى فى المحتسب دائماً أن يكون «ذا رأى وصرامة وخشونة فى الدين»[1] . وكانت رقابة المحتسب أشد ما تكون على الأطعمة والمشروبات التى تباع فى الأسواق والطرقات للتأكد من سلامتها ونظافتها حرصاً على صحة الناس ، فإذا وجد بعضها فاسداً أخذ البائع بالشدة[2] .

المالية العامة :

اشمل المالية العامة الموارد الأساسية لبيت المال فى ذلك العصر ، والأوجه التى كانت تنفق فيها هذه الأموال . أما عن الموارد فتنقسم إلى قسمين : موارد شرعية وموارد غير شرعية ، وكانت الموارد الشرعية تتمثل فى عدة ضرائب هى :-

أولا : ضريبة الأرض أو الخراج ، وكانت تتفاوت وفقاً لدرجة خصب الأرض من ناحية ، وزيادة المحصول أو نقصانه تبعاً للفيضان من ناحية أخرى .

ثانياً : الزكاة ، والمفروض فى كتب الفقه أن من وجبت عليه الزكاة كان مخيراً بين أن يدفعها إلى الإمام أو نائبه وبين أن يفرقها بنفسه ، ولكن الذى أصبح عليه الوضع فى عصر المماليك هو أن المؤدين للزكاة صاروا يفرقونها بأنفسهم ، ولم يبق مايؤخذ من الناس على صورة زكاة فى عصر المماليك إلا نوعين ، أولهما مايؤخذ من التجار على مايدخلون به إلى البلد من ذهب وفضة ، وتكون هذه الضريبة حوالى ٢ ٪ أو ٢ $\frac{1}{2}$ ٪ ، وثانيهما

---

(١) ابن الأخوة : معالم القربة فى أحكام الحسبة ص ٨ .

(٢) السبكى : معيد النعم ص ٩٢ .

ما يؤخذ من مواشى أهل برقة من الغنم والإبل عند وصولهم إلى البحيرة للرعى (١).

ثالثا : الجوالى وهى الجزية المقررة على أهل الذمة ؛ وقد نقصت هذه الجزية فى عصر المماليك حتى أصبحت تتراوح بين خمسة وعشرين درهما وعشرة دراهم على الفرد . وكان لهذه الضريبة ناظر فى مصر والقاهرة يوليه السلطان ويضاف جزء من متحصل إيرادها إلى بيت المال ، فى حين يخصص الباقى للإنفاق على بعض القضاة وأهل العلم . أما خارج القاهرة فإن الوضع جرى بأن تكون جزية أهل الذمة فى كل بلد لمقطع تلك البلد من أمير أو غيره ، وتجرى مجرى مال ذلك الإقطاع .

رابعاً : الثغور ، وهى ما يؤخذ من التجار الواصلين فى البحر إلى الديار المصرية . والمعروف أن المقرر فى الشرع هو أن يؤخذ العشر من بضائع هؤلاء التجار ، ولكن مذهب الشافعى أباح للحاكم أن يأخذ أكثر من العشر ، كما أباح له أن يخفض هذه الضريبة إلى نصف العشر ، بل أن يلغى هذه الضريبة كلية إذا وجد أن بلاد المسلمين فى حاجة إلى نوع معين من البضائع المستوردة . وكان الوضع فى دولة المماليك هو أن يؤخذ الخمس عن كل ما يجلبه تجار الفرنج من بضائع « وربما زاد ما يؤخذ منهم على الخمس أيضاً » (٢) .

خامساً : المواريث الحشرية ؛ ويقصد بها مال من يموت وليس له وارث خاص . ولهذه الجهة ناظر يولى من قبل السلطان ، ويحمل المتحصل منها إلى بيت المال .

سادساً : ما يتحصل من دار ضرب النقود بالقاهرة ، وكان يضرب بها ثلاثة أصناف هى الذهب والفضة النقرة والفلوس النحاس . ويقصد بهذه

---

(١) سعيد عاشور : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ص ٢١٤ — ٢١٥ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٦٣ .

الضريبة ما يؤخذ من صاحب الذهب أو الفضة أو النحاس مقابل ضرب معدنه وتحويله إلى دنانير أو دراهم أو فلوس بعد ضبط عيارها. وكان بالديار المصرية، داران أساسيان لضرب العملة، أحدهما بالقاهرة والآخر بالاسكندرية . هذا فضلا عن دور أخرى أقل أهمية فى تروجه وفوه وبلاد الصعيد[١] ، وأجرة كل ألف دينار تضرب بالدار أربعة عشر درهما ونصف تقريباً .

سابعاً : المتجر ، والمقصود به أن الحاكم - سواء كان خليفة أو سلطان — كان يقصد إلى استغلال أمواله بتشغيلها فى التجارة طلباً للكسب ، وبذلك ينافس أرباب الأعمال والتجار فى أرزاقهم .. وكان بعض الخلفاء العباسيين فى بغداد والفاطميين فى القاهرة قد دأبوا على مباشرة هذا الأسلوب فى استثمار أموالهم ، فيشترون مقادير كبيرة من الغلات ويخزنونها للمتـــاجرة فيها . وعند ما وجدوا أن سعر الغلات والحبوب قابل للتقلب مما يعرضهم للخسارة ، فضلا عن احتمال تلفها نتيجة للخزن ، استبدلوا بالغلات الأخشاب والصابون والحديد والرصاص والعسل وغيرها، وعملوا لهذه التجارة ديواناً اسمه ديوان المتجر ظل قائماً حتى عصر المماليك[٢]. وقد انتقد ابن خلدون هذا التصرف من جانب الحكام واعتبره منافسة غير مشروعة لأن «الرعايا متكافئون فى اليسار متقاربون ، ومزاحمة بعضهم بعضا تنتهى إلى غاية موجودهم ، فإذا رافقهم السلطان فى ذلك — وماله أعظم كثيراً منهم — فلا يكاد أحد منهم يحصل على غرضه فى شىء من حاجاته »[٣] .

ثامناً : المعادن المستخرجة من أراضى مصر وأهمها الزمرد والشب والنطرون، وقد احتكرها جميعاً سلاطين مصر لشدة طلب الأوربيين عليها ، وباعوها

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٢ س ٤٤٤ .

(٢) سعيد عاشور : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ص ٢١٧ .

(٣) مقدمة ابن خلدون : ج ١ ص ٢٤٤ — ٢٤٥ .

بأضعاف أثمانها ، وليس لأحد أن يبيعه أو يشتريه سوى الديوان السلطاني ، ومتى وجد مع أحد شيء من صنفه استهلك (صودر)» (١).

* * *

أما الموارد المالية غير الشرعية فيقصد بها المكوس المتنوعة التي لا يوجد سند شرعي اعتمد عليه السلاطين في فرضها. ولم تكن جميع المكوس في عصر المماليك من ابتكارهم، بل كان بعضها موروثاً عن العصور السالفة، حتى أحدث السلطان قطز مكوساً كثيرة «لأجل جمع المال وقتال التتار» (٢). كذلك يلاحظ في أمر هذا النوع من الضرائب أنها لم تكن ثابتة على حال واحد طوال عصر المماليك ، فربما يتطرف أحد السلاطين في جمعها ورفع قيمتها، ثم يعقبه سلطان آخر تغلب عليه روح التخفيف عن الرعية فيلغى بعض هذه المكوس أو معظمها .

ومن أمثلة هذه المكوس مكس ساحل الغلة ، وهي الضريبة المفروضة على الغلات والاتجار فيها، ورسوم الولاية التي يجمعها الولاة من عرفاء الأسواق ومقرر الحوائص والبغال ؛ ومقرر المسجون وهو مبلغ يؤخذ على كل من يسجن ولو لحظة واحدة ، ومقرر طرح الفراريج «فلا يمكن أحداً من الناس في جميع الأقاليم أن يشترى فروجاً فما فوقه إلا من الضامن » (٣) ، ومقرر الأقصاب والمعاصر وهو ما يجبى من مزارعي قصب السكر ومن رجال المعاصر، ومقرر المراكب وهو ما يؤخذ من كل مركب ؛ وزكاة الدولة وهو ما يؤخذ من الرجل عن زكاة ماله ولو عدم ، وإذا مات يؤخذ من ورثته ، ومقرر

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٥٩ .
(٢) المقريزي : المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٠٥ (بولاق)
(٣) المقريزي : المواعظ ج ١ ص ٨٨ (بولاق) .

البشارة بفتح الحصـــون فإذا حضر مبشر بفتح حصن تجمع ضريبة من الناس على قدر طبقاتهم « ويجتمع من ذلك مال كثير » [1] ، ومقرر وفاء النيل إذ يجمع من الناس لهذه المناسبة أموال تعمل بها شوى وحلوى وفاكهة عند المقياس هذا عدا المكوس المفروضة على الخمور وبيوت البغاء وغيرها .

* * *

أما عن الأوجه التى كانت تنفق فيها هذه الأموال المتحصلة من الضرائب الشرعية وغير الشرعية ، فيلاحظ عدم وجود فارق فى تلك العصور بين مالية الدولة ومالية السلطان . وقد استغل سلاطين المماليك الأموال التى جمعوها فى شراء المماليك وتربيتهم والإنفاق عليهم فى سخاء ، حتى أن الطباق السلطانية كانت تعج بأعداد كبيرة من المماليك الذين يأكلون أفخر المأكولات ويلبسون أثمن الملابس. ثم إن حياة السلاطين الخاصة تشهد بما كانوا عليه من ترف وسعة ويكفى أن يقف الباحث على وصف لقلعة الجبل بقصورها الفخمة وسقوفها المذهبة وطرقها المغطاة بالرخام الثمين وبيوتها المزخرفة بالزجاج القبرسى الملون وما احتوت عليه من اسطبلات شريفة ضمت الخيول السلطانية الأصيلة، وساحات للأغنام والطيور والحيوانات الغريبة من زراف وفيلة وغزلان ، إلى غير ذلك من مظاهر الترف والثراء التى استلزمت من سلاطين المماليك صرف الأموال الطائلة عن بذخ وطيب خاطر [2]. ولعل ما أفاضت فى وصفه المراجع المعاصرة عن أفراح السلاطين وحفلاتهم وثرواتهم ، يكفى لتوضيح بعض الأوجه التى كان يصرف فيها سلاطين المماليك أموالهم ، من ذلك ماقيل من أن جهاز الأمير

---

(١) المقريزى : المواعظ ج ١ ص ١٠٦ (بولاق) .

(٢) سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ٥٨ — ٦٣ .

آنوك بن السلطان الناصر محمد بلغ حمولة ثمانمائة جمل وستة وثلاثين قطارا من البغال وبلغ الذهب فى المصاغ والملابس ثمانين قنطاراً ، ومع ذلك استصغر أبوه هذا الجهاز[1] .

ولم يضن سلاطين المماليك على نسائهم وجواريهم بالمال والمتاع . بحيث أننا « لو أردنا وصف ملبوس كل منهن وتجمل بيوتهن لاحتجنا إلى عدة مجلدات » ، على قول أحد المؤرخين المعاصرين[2] . وحسبنا أن إحدى الخوندات توفيت فلما حصرت تركتها بلغت نيفا وستمائة ألف دينار . كذلك يقال إن ابنة الناصر محمد خلفت ثروة طائلة أفاضت المراجع فى وصفها .

على أنه إذا كان الجزء الأكبر من الثروة التى جمعها سلاطين المماليك قد أنفقوها فى حياة الترف ، فإن هناك جانباً منها كان ينفق فى دفع أرزاق موظفى الدولة من الولاة والوزراء والقضاة ورجال الدواوين من نظار وكتاب . هذا فضلا عما تطلبته البلاد من منشئات ومرافق وإصلاحات كالجسور والترع والمساجد والزوايا والمدارس والسجون والطرق ... وغيرها . أما شئون الغزو والجهاد — وبخاصة ضد التتار والصليبيين — فقد تطلبت من سلاطين المماليك كثيراً من الأموال لإعداد الجيوش وتزويدها بالسلاح وبناء الحصون والقلاع فضلا عن إعداد السفن الحربية بمختلف أنواعها من شوانى وطرادات وحراريق وأغربة وغيرها .

السياسة النقدية :

قامت دولة المماليك والنقود التى يتعامل بها الناس فى مصر والشام هى الدراهم الكاملية التى أمر السلطان الكامل الأيوبى بضربها سنة ٦٢٢هـ (١٢٢٥م) ، وكانت نوعين ، الأول من الفضة النقرة بحيث كان ثلثا الدرهم من فضة وثلثه

---

(١) المرجع السابق ص ٦٣ وما بعدها .

(٢) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٢١ .

من نحاس ، والثانى دراهم الفلوس النحاسية وهى مصنوعة من النحاس ، وكثر استخدامها بعد الأزمة الاقتصادية التى حلت بالبلاد سنة ٦٣٠هـ (١٢٢٣م) والتى صحبها انحطاط سعر الدراهم الفضية . وكان الوضع فى أواخر دولة الأيوبيين هو أن يستبدل كل درهم فضة نقرة بستة من الدراهم والفلوس النحاسية(١) .

وكان من الطبيعى أن تكون الاضطرابات التى صحبت سقوط دولة الأيوبيين وقيام دولة المماليك مقرونة باختلال النقد واضطرابه . وعلى الرغم من أن سلاطين المماليك الأوائل — مثل شجر الدر والمعز أيبك والمنصور على بن أيبك والمظفر قطز — قد سكوا نقوداً بأسمائهم ، إلا أن النقد ظل مضطربا طوال العشر السنوات الأولى من تاريخ دولة المماليك . وهكذا استقرت الأمور للسلطان الظاهر بيبرس ، وأخذ ينظم شئون الدولة ، وعندئذ أمر بضرب دراهم جديدة عرفت باسم الدراهم الظاهرية ، نقش رنكه عليها ، وهو يمثل صورة سبع ؛ ومهما يكن من أمر فإننا نستطيع بدراسة العملة فى عصر المماليك أن نميز بين ثلاثة أنواع من النقود هى الدنانير الذهبية والدراهم الفضية والفلوس النحاسية .

أما عن الدنانير الذهبية ، فيلاحظ أن الذهب كان دائماً هو أساس النقد وبه تقوم بقية النقود من فضة ونحاس . ولكن تعرض العملة الذهبية فى عصر المماليك للتلاعب فى العيار والتغيير فى الوزن والتبديل فى الحجم ، جعلها لا تحوز ثقة المتعاملين من التجار وغير التجار . وقد أشار القلقشندى إلى أن العبرة فى وزن الدنانير بالمثاقيل ، ولكنه قال عن الدنانير التى سكت فى مصر فى عصر المماليك ، إن الغالب فيها نقص أوزانها ، وكأنهم جعلوا نقصها فى نظير كلفة ضربها (٢) .

---

(١) عبد الرحمن فهمى محمد : النقود العربية ماضيها وحاضرها ص ٧٦
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤١ .

وفى الوقت الذى اعترى الدنانير المماليكية ذلك الخلل، وتعرضت لتلاعب السلاطين والأمراء بغية الربح غير المشروع، إذا بالبندقية تلجأ فى القرن الثالث عشر إلى ضرب عملة ذهبية تعرف باسم الافرنتية أو الدوكات تمتاز بعيارها الصحيح ووزنها الثابت وسمكها المحدد، مما جعلها تحوز ثقة المتعاملين. وقد وصف القلقشندى هذه العملة الأوربية فقال إنها «معلومة الأوزان، كل دينار منها معتبر بتسعة عشر قيراطاً ونصف قيراط من المصرى ... وهذه الدنانير مشخصة على أحد وجهيها صورة الملك الذى تضرب فى زمنه وعلى الوجه الآخر صورتا بطرس وبولس الحواريين اللذين بعث بهما المسيح عليه السلام إلى رومية. ويعبر عنها بالافرنتية جمع افرنتى وأصله افرنسى ... ويعبر عنه أيضاً بالدوكات وهذا الاسم فى الحقيقة لا يطلق عليه إلا إذا كان ضرب البندقية من الفرنجة، وذلك أن الملك اسمه عندهم دوك ...» [١].

ولم يلبث أن انتشر الدوكات البندقى وعم استعماله فى مصر والشام وغيرهما من بلدان المسلمين بعد أن حاز ثقة المتعاملين، الأمر الذى أزعج سلاطين المماليك، فحاول السلطان الناصر فرج بن برقوق عمل دنانير جديدة «على زنة الدنانير الافرنتية المتقدمة الذكر»، بمعنى أنه جعلها ثابتة الوزن، وبزنة مثقال تماما. وقد عرفت هذه الدنانير بالناصرية نسبة إلى السلطان الناصر فرج، وكثر وجودها وعم استعمالها، ولكنها مع ذلك كانت تقل بمقدار عشرة دراهم عن الدنانير الإفرنتية[٢]. وهكذا ظل «صرف الذهب بالديار المصرية لا يثبت على حاله بل يعلو تارة ويهبط أخرى بحسب ما تقتضيه الحال» على قول القلقشندى؛ الأمر الذى جعل تلك الدنانير التى سكها سلاطين المماليك لا تقوى على منافسة

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤١ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٢ .

الدوكات البندقية ، فانحطت قيمتها فى الأسواق الحرة عن قيمة البندق(١) .

أما الدراهم الفضية فالمفروض فيها أن يكون ثلثاها من فضة وثلثها من نحاس(٢) . ولكن هذه الدراهم لم تلبث هى الأخرى أن تعرضت للفساد منذ أواخر القرن الثامن الهجرى — أو على وجه التحديد منذ سنة ٧٨١ ﻫ (١٣٧٩ م) — عند ما انتشرت الدراهم الحموية التى ضربها المماليك بحماه ، وقد تذمر الناس من هذه الدراهم الأخيرة لزيادة نسبة النحاس فيها حتى بلغت الثلثين ، مما قلل من الإقبال عليها ، فازداد استخدام الفلوس النحاسية(٣) .

أما هذه الفلوس النحاسية فكانت أقل أنواع العملات فى تلك العصور ، وكانت - على قول المقريزى - « لا يشترى بها شىء من الأمور الجليلة ، وإنما هى لنفقات البيوت ولأغراض مايحتاج إليه من الخضر والبقول ونحوها(٤) » . ويروى القلقشندى أن السلطان الناصر حسن ابن الناصر محمد بن قلاون عنى بضرب فلوس جيدة سنة ٧٥٩ ﻫ (١٣٥٨ م) اشتهرت بالفلوس الجدد جمع جديد ، وجعل زنة كل فلس منها مثقال وجاءت فى نهاية الحسن وبطل ما عداها من الفلوس وهى أكثر ما يتعامل به أهل زماننا(٥) » . غير أن الملاحظ فى عصر المماليك أن الفلوس النحاسية هى الأخرى لم تسلم من تلاعب السلاطين طمعا فى الربح فكان وزنها عرضة للتغيير والتبديل ، كما أن السلاطين اختلفوا فى تقدير قيمتها بالوزن ، فحينما يكون الرطل منها بستة دراهم وأحيانا باثنى عشر درهما أو بدرهمين ونصف ، وفى جميع الأحوال يرغم التجار والأهالى على التعامل بها

---

(١) عبد الرحمن فهمى محمد : النقود العربية ص ٩٨ .
(٢) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٤٣ .
(٣) المقريزى : شذور العقود فى أخبار النقود ص ١٥ .
(٤) المقريزى : إغاثة الأمة بكشف الغمة ص ٧٠ .
(٥) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٤ .

وفق القيمة التي تحددها الحكومة مما يشيع حالة من القلق في الأسواق (١).

* * *

وبعد ، فإن اضطراب العملة المتداولة في عصر المماليك أدى إلى زعزعة الحياة الاقتصادية في كثير من حلقات ذلك العصر . وربما أدى ضعف ثقة الناس في قيمة النقود إلى أنهم عمدوا إلى نظام المقايضة ، ومن ذلك ما يرويه المقريزي «وأدركت أنا والناس من أهل ثغر الإسكندرية وهم يجعلون في مقابلة الخضرة والبقول ونحو ذلك كسر الخبز لشراء ما يراد منه ، ولم يزل ذلك إلى نحو السبعين والسبعمائة ، وأدركنا ريف مصر وأهله يشترون الكثير من الحوائج والمأكولات ببيض الدجاج وبنخال الدقيق ..» (٢) . ولم يقتصر نظام المقايضة على التجارة الداخلية بل استعمل على مقياس أوسع في التجارة الخارجية وبخاصة في القرن الخامس عشر ، فكان «الحمل الإسكندراني من الفلفل يزن خمسمائة رطل فرفوري ويشترى في الإسكندرية نقدا أو مقايضة بسلع متعددة كالفضة وقوالب النحاس وسبائك القصدير والرصاص والصابون الأبيض والشمع والمصطكى ؛ كما أنه يقايض أيضا بمأكولات كثيرة كالزيت بأنواعه وعسل النحل وعسل السكر ولوز أبوليا وبرونسة والقسطل وبندق مملكة نابلي وفواكه أخرى ، ويعطى كذلك قنطار من هذه السلع مقابل الحمل الواحد من الفلفل» (٣).

---

(١) المقريزي : إغاثة الأمة ص ٤٧ وما بعدها ؛

السلوك ج ٢ ص ١٧ ، ج ٣ ص ٨٢ — ٨٣ .

(٢) المقريزي . إغاثة الأمة بكشف الغمة ص ٦٩ .

(٣) توفيق اسكندر : نظام المقايضة في تجارة مصر الخارجية

(مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية سنة ١٩٥٧ ص ٤٢)

الفصل العاشر

الأحوال الداخلية

بناء المجتمع :

كان المجتمع فى عصر المماليك مجتمعاً طبقياً ، بمعنى أنه تألف من عدة طبقات متميزة بعضها عن بعض فى خصائصها وصفاتها ومظاهرها ، فضلا عن نظرة الدولة لها ومقدار ما تتمتع به من حقوق أو تنهض به من واجبات . وفى ظل مثل هذا التنظيم الطبقى يبدو الفارق كثيراً بين الحكام والمحكومين ، وبخاصة إذا كان الحكام أغراب عن البلاد وأهلها ، لم تربطهم بأبناء مصر والشام رابطة الدم أو الأصل والجنس ، مما جعل المماليك لا يشعرون فى كثير من الحالات بروح التجاوب مع الأهالى والعطف على مصالحهم والعمل من أجل رفاهيتهم .

والواقع إن المماليك حكموا البلاد دائما بوصفهم طبقة عسكرية ممتازة ، استأثروا بالحكم وبشئون الحرب ، ونظروا إلى الأهالى على أنهم أقل منهم درجة أو درجات لا ينبغى لهم أن يشاركوا فى الحياة الحربية ، وإذا سمح لبعضهم بالمشاركة فى شئون الحكم فبالقدر المحدود الذى تخوله صلاحيتهم . وتشير الشواهد التاريخية إلى أن المماليك لم يكونوا جميعاً من أصل واحد ، بل كان منهم التركى والجركسى والمغولى والصينى والأسبانى والألمانى واليونانى والسلافى وغير ذلك من الجنسيات العديدة التى حملها تجار الرقيق إلى مصر . وقد شجع التجار على مزاولة تلك التجارة ، الأرباح الطائلة التى كانوا يحصلون عليها من وراء الاشتغال بها إذ لم يضن سلاطين المماليك وأمراؤهم بالمال فى شراء مزيد من المماليك يكونوا

لهم سنداً ودعامة تقوى مركزهم داخل البلاد وخارجها . وبقدر مافى المملوك من مزايا وصفات طيبة ومواهب بقدر مايرتفع ثمنه ، وبالعكس بقدر ماقد يكون فيه من عيوب بقدر ما ينحط سعره . ولعل هذا هو السر فى أن مملوكا مثل قلاون عرف بالألفى لأنه اشترى بألف دينار ، وهو مبلغ كبير يستحق الفخر لأنه يشير إلى عظم مواهبه وحسن صورته (١) .

على أنه جرت العادة غالبا أن ينسب المملوك إلى أستاذه ، أى سيده الذى اشتراه بالمال ، فبيبرس البندقدارى نسب إلى أستاذه الأمير علاء الدين البندقدار والمماليك الأشرفية الخليلية نسبوا إلى السلطان الأشرف خليل ، والناصرية إلى الناصر محمد .. وهكذا . وقد ينسب المملوك أحيانا إلى تاجره الذى جلبه إذا كان ذلك التاجر مشهوراً مثل يلبغا السالمى نسبة إلى تاجر معروف اسمه سالم والمماليك العثمانية نسبة إلى الخواجا عثمان فخر الدين وهو من كبار التجار الذين جلبوا كثيراً من المماليك والجوارى إلى السلاطين (٢).

وقد عنى سلاطين المماليك عناية فائقة بمماليكهم وحرصوا على تربيتهم تربية سليمة ، فإذا اشترى السلطان عددا من المماليك أرسلهم أولا لفحصهم للتأكد من سلامة أبدانهم ، وبعد ذلك ينزل كلا منهم فى طبقة جنسه بحيث لا يقيم فى طبقة من الطباق المخصصة للمماليك بالقلعة إلا المماليك ذوى الأصل المشترك أو المجلوبين من بلد واحد . ويقوم بتربية المماليك فى الطباق مجموعة من الطواشية الخصيان ، فضلا عن الفقهاء الذين كانوا يترددون على الطباق لتعليم المماليك القرآن والخط وأحكام الدين الإسلامى ثم إن الأساتذة ـ من سلاطين وأمراء ـ

---

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ص ١٤١ ؟
أبو المحاسن : المنهل الصافى ج ٣ ص ٣٧ ب (مخطوط) ،

(٢) ابن قاضى شهبة : الإعلام بتاريخ أهل الإسلام ج ٤ ص ٢٧٣ (مخطوط)

لم يضنوا على مماليكهم بالأرزاق والأموال ، وإنما نظروا إليهم نظرة أبوة مشبعة بالعطف والحنان ، فخصصوا لهم أشهى الأطعمة وصرفوا لهم الكسوات الفاخرة[١] .

فإذا شب المملوك وأدرك سن البلوغ ، بدأ تعليمه فنون الحرب والفروسية حتى إذا انتهت هذه المرحلة التعليمية خرج من الطباق وانتقل في أدوار الخدمة السلطانية ، رتبة بعد أخرى حتى يصبح من الأمراء . وعندما يغادر المملوك الطباق تعطى له جامكية أو مصروف يبلغ ستة دنانير في المتوسط ، ولكنه سرعان ما ينتقل من الجامكيات إلى الإقطاعات وإلى إمرة العشرات ثم الطبلخانات ، وعندئذ يصبح الأمير سلطانا مختصراً ، على قول القلقشندى[٢] .

على أنه يلاحظ أن المماليك ظلوا طبقة منفصلة عن سائر السكان في مصر والشام ، فلم يتزوجوا منهم واختاروا زوجاتهم وجواريهم من بنات جنسهم اللائى جلبهن التجار . وقد دأبت حكومة المماليك دائماً على تحذير الناس من انتقال مملوك من المماليك عن طريق البيع إلى «كاتب أو عامى» أى إلى أحد من غير طبقة المماليك ، ومن خالف ذلك التحذير تعرض للأذى والعقوبة[٣] . ولا شك في أن هذه العزلة التى عاش فيها المماليك أوجدت فجوة واسعة بين الحكام والمحكومين ، مما ترك أثراً واضحاً في المجتمع المعاصر ، ذلك أن أهل البلاد في مصر والشام ظلوا طول عصر المماليك لا يعنيهم شىء من أمر الأحداث الكبرى الداخلية والخارجية التى أحاطت بمجتمعهم ، وحسبهم ما كانوا يشهدونه من مواكب حافلة أو من منازعات صاخبة بين طوائف المماليك ، وما ترتب على

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصرى في عصر سلاطين المماليك ، ص ١١ وما بعدها .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٦٠ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ٩٢ .

ذلك النزاع من سقوط سلطان وقيام غيره . وهكذا ظل الفلاح يعمل فى حقله والتاجر فى متجره والفقيه فى مدرسته أو جامعه .. ينفذون جميعا مشيئة سادة البلاد من المماليك ويدفعون لهم ما يطلب منهم وهم صاغرون . حقيقة إن المماليك عملوا حسابا لبعض فئات من المصريين والشاميين وأعطوها بعض حقها من التقدير والعطف، ولكن ذلك لم يمنعهم من التنكر لهم أحيانا . ثم إن هذه الفئة التى حظيت بقسط من عطف الحكام المماليك كانت أقلية صغيرة من المعممين ، فى حين ظلت غالبية السكان من التجار والفلاحين والعامة لا تلقى من المماليك سوى الهوان والمغارم[١] .

وإلى جانب طبقة المماليك – وهم حكام البلاد – وجدت جماعة المعممين أو أهل العمامة ، وهذه الطبقة كانت تشمل أرباب الوظائف الديوانية والفقهاء والعلماء والأدباء والكتاب . والملاحظ أن هذه الفئة امتازت طول عصر المماليك بمميزات معينة ، على الرغم مما تعرض له أفرادها من الامتهان أحيانا . ويبدو أن المماليك أحسوا دائما بأنهم غرباء عن البلاد وأهلها ، وبأنهم فى حاجة إلى دعامة يستندون إليها فى حكمهم ويستعينون بها على إرضاء الشعب فلم يجدوا أمامهم سوى فئة العلماء ، بحكم ما للدين ورجاله من قوة وأثر . فالمماليك احترموا العلماء ورجال الدين لأنهم قوة لها خطرها فى اكتساب الرأى العام فى البلاد « ولأن بهم عرفوا دين الإسلام وفى بركتهم يعيشون »[٢] . ومن جهة أخرى فإن المعممين اعتدوا بمكانتهم فى عصر المماليك فعمدوا أحيانا إلى معارضة السلاطين فى الحق ، حتى حكى ابن بطوطة عن السلطان الناصر محمد بن قلاون أنه قال « إنى لا أخاف أحدا إلا شمس الدين الحريرى قاضى قضاة الحنفية »[٣] .

---

(١) سعيد عاشور : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ص ١٥٨ .

(٢) المقريزى : السلوك ، ج ٣ ص ٣٨٣ (مخطوط) .

(٣) رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ٨٨ .

على أن هذه المكانة الكبرى التى وصل إليها العلماء فى عصر المماليك لم تمنع بعض السلاطين والأمراء من التعرض لهم بالنقد والتهكم . ولم يرض المماليك أن تشاركهم فئة من السكان فى ركوب الخيل، فاشترطوا على السلاطين حرمان المتعممين من ركوبها . وكثيراً ما انصابت جموع المماليك فى شوارع القاهرة للاعتداء على الفقهاء والمعممين وإنزالهم عن خيولهم وسلبهم إياها[١].

أما التجار فكانوا يؤلفون طبقة مقربة أحيانا إلى سلاطين المماليك، لأنهم أحسوا بأن التجار دون غيرهم هم المصدر الأساسى الذى يمدهم بالمال فى ساعات الحرج والشدة . وتدل جميع الشواهد على أن التجار تمتعوا فى عصر المماليك بثروات طائلة ، وهذا أمر طبيعى فى عصر كانت مصر حلقة النشاط التجارى بين الشرق والغرب . على أن كثرة الثروة فى أيدى التجار جعلتهم دائما مطمع سلاطين المماليك ، فأكثروا من مصادرتهم بين حين وآخر، فضلا عن إثقالهم بالرسوم الباهظة[٢]. لذلك لم يطمئن التجار فى عصر المماليك على أموالهم وتجاراتهم بل كانوا يدعون على أنفسهم أحيانا « أن يغرقهم الله حتى يستريحوا مما هم فيه من الغرامات والخسارات وتحكم الظلمة فيهم »[٣] .

واكتظت القاهرة وغيرها من المدن الكبرى فى عصر المماليك بجمهور كبير من العمال والصناع والباعة والسوقة والسقائين والمكاريين والمعدمين أو أشباه المعدمين، وهى الفئات التى جمعتها المراجع المعاصرة تحت اسم العوام. وقد عاش أفراد هذه الطبقة فى ضيق وعسر بالقياس إلى المماليك وغيرهم من الطبقات المنعمة ، حتى لاحظ بعض الرحالة الأوروبيين الذين زاروا مصر فى عصر المماليك أن القاهرة وحدها بها عدد يتراوح بين خمسين ألف ومائة ألف بلا مأوى

---

(١) سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ٣٢ .

(٢) ابن حجر : إنباء الغمر ج ١ ص ٣٦٥ ، ٥٢٩ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ٤ ص ٤٤٤ .

سوى الطرقات وبلا ملابس سوى أسمال بالية[١] . كذلك دهش البعض الآخر من كثرة الشحاذين بالقاهرة فى ذلك العصر وقال إنهم أحاطوا به من كل جانب طالبين منه الإحسان . حقيقة إن العوام وجدوا أحيانا بعض العطف من السلاطين المماليك وأمرائهم - لا سيما فى أوقات الشدة والمجاعات - ولكن وضعهم السيء وكثرة عددهم دفعهم فى كثير من الحالات إلى احتراف السلب والنهب وانتهاز الفرص للحصول على أكبر قدر من الغنائم فى أوقات الفتن والاضطرابات[٢].

أما الفلاحون - وهم السواد الأعظم من السكان - فلم يكن نصيبهم فى عصر المماليك سوى الإهمال والاحتقار ، حتى أصبح لفظ « فلاح » فى ذلك العصر مرادفا للشخص الضعيف المغلوب على أمره . وزاد من حال الفلاحين سوءا كثرة المغارم والمظالم التى حلت بهم من الولاة والحكام ليأخذوا منهم «غير العادة أضعافا»[٣] كذلك فرض الولاة على أهل القرية نظام المسئولية المشتركة فى دفع الضرائب ، حتى فى حالة توزيع زمام القرية الواحدة بين عدة ملاك أو مقطعين اعتبر كل فلاح بالنسبة لزملائه شريكا . ثم إن الفلاحين لم يسلموا من أذى العربان وبطشهم ، فتعرضت القرى والمزارع لإغارات العربان بين حين وآخر ، وفى كل مرة ينهب العربان محصولات الأرض ومواشى الفلاحين ، فضلا عما يفرضونه عليهم من إتاوات والواقع إن حركات العربان فى مصر فى عصر المماليك تسترعى انتباه الباحث نظرا لما كان لها من أثر واضح فى أحوال مصر الداخلية فى ذلك العصر .

---

(١) سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ٣٨ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٤٦٤ (طبعة كاليفورنيا) .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٣٠٢ .

ثورات العربان :

وجدت فى مصر فى العصور الوسطى قبائل عديدة من العربان وهؤلاء انتشروا فى أجزاء مختلفة من البلاد، وبخاصة الشرقية والبحيرة والمنوفية والفيوم والمنيا وأسيوط . وكان هؤلاء العربان دائما أبدا مصدر فتن ومتاعب للحكام والمحكومين سواء ، فارتبط تاريخهم فى مصر المماليك بالثورات وحوادث النهب والسلب والاعتداء على الآمنين من أهالى القرى والمدن، حتى أن المراجع المعاصرة لا تشير إليهم دائماً إلا تحت عنوان « فساد العربان » .

وقد حاول السلطان المعز أيبك أن يفيد من قوة العربان فى إحباط المحاولة التى قام بها الناصر يوسف الأيوبى صاحب حلب ودمشق لغزو مصر سنة ١٢٥٠ ، ولكن العربان أنفوا من الخضوع للمماليك، وثارت قبيلة بنى ثعلب - وهى أقوى قبائل العربان فى الصعيد - ونادى زعيمها حصن الدين بن ثعلب « أنا أحق بالملك من المماليك ، وقد كفى أنا خدمنا بنى أيوب وهم خوارج خرجوا عن البلاد ! »[١] . وهكذا أعلن حصن الدين بن ثعلب نفسه ملكا على الصعيد، وأخذ يتصل بالناصر يوسف الأيوبى سنة ١٢٥٣ يعرض عليه حلفا مشتركا ضد المعز أيبك والمماليك ولم يكتف حصن الدين بالسيطرة على الصعيد، وإنما زحف على الوجه البحرى ليستثير قبائل العربان ضد سلطنة المماليك ولكن السلطان أيبك أرسل جيشا كبيرا ضده بقيادة الأمير فارس الدين أقطاى المستعرب ونجح هذا الجيش فى إنزال الهزيمة بالعربان وإخضاعهم سنة ١٢٥٣[٢] .

والمعروف أن العربان لم يكن لهم من النظام والمهارة الحربية وحسن

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٣٨٦ .

(٢) المقريزى : البيان والإعراب ص ٢٥ وما بعدها .

الاستعداد ما يناظر المماليك ؛ ولذلك لم يستطع العربان الثبات طويلا فى وجه المماليك ، وفى كل مرة كانت الهزيمة تحل بالعربان ومع ذلك يعودوا إلى الثورة بعد قليل ، حتى سببوا كثيراً من الفوضى والمتاعب فى ذلك العصر ، من ذلك أن حصن الدين بن ثعلب عاد إلى الثورة سنة ١٢٦١ فى عهد السلطان الظاهر بيبرس ، ولكن السلطان الظاهر استطاع أن يوقع به وشنقه بالإسكندرية(١) ، ويبدو أن شنق حصن الدين بن ثعلب أحدث استياء العربان بالصعيد ، فثاروا وكثر طمعهم وهموا بتغيير المماليك ووثبوا على الأمير عز الدين الهواش والى قوص وقتلوه(٢) ، ولكن السلطان الظاهر بيبرس أرسل إليهم جيشاً بقيادة الأمير عز الدين الأفرم ، فأوقع بالعربان وبدد شملهم وأخضعهم .

ومن الواضح أن العربان فى مصر كانت تراودهم فى أوائل عصر المماليك فكرة إقامة سلطنة عربية يكون الحكم فيها لهم ، وإذا كان تطور الأحداث قد أثبت لهم استحالة تنفيذ هذه الفكرة بعد أن ثبتت دعائم سلطنة المماليك فإن ذلك لم يمنع العربان من المشاركة فى الأحداث السياسية الجارية حسبما تطلبت مصالحهم ؛ وكانت معظم حركاتهم تظهر عند قيام سلطان جديد أو أثناء حكم سلطان قاصر ، وهى فترات الاضطراب عادة فى تاريخ دولة المماليك .

وهكذا عاد العربان إلى الثورة فى الصعيد سنة ١٢٩٠ عند قيام السلطان المنصور قلاون فى الحكم ، ولكن الأمير طرنطاى نائب السلطنة أنزل بهم الهزيمة قرب قوص ، وعاد ومعه عدد كبير من زعمائهم رهائن ، فضلا عن

---

(١) ابن فضل الله العمرى : التعريف ص ١٨٨ ؟
المقريزى : البيان والإعراب ص ٤٤ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٧١ .

مائة ألف رأس من الغنم ومائتى فرس وألف جمل ، غنمها منهم[١] ، ولم يرتدع العربان فى الصعيد بعد ذلك ، إذ انتهزوا فرصة مرض السلطان قلاون سنة ١٢٩٠ وقاموا بثورة جديدة فى منطقة قوص ولكن الأمير طرنطاى عاد إليهم ليؤدبهم من جديد[٢] .

وفى عهدالسلطان الناصر محمد بن قلاون انتهز العربان فرصة الخطر الذى حل بدولة المماليك من جهة غازان حاكم مغول فارس ، ومنعوا الخراج وأعلنوا الثورة على الحكومة سنة ١٣٠٠ ، ولكن الأمير شمس الدين سنقر الأعسر زحف عليهم فى الصعيد وأنزل بهم الهزيمة عند قوص وبطش بهم بطشاً شديداً[٣] ، وعندما اشتد خطر العربان فى الصعيد بعد ذلك حتى غدوا يسيطرون على الصعيد من أسيوط إلى منفلوط ، تظاهر الأميران بيبرس وسلار - أصحاب النفوذ فى مصر فى ذلك الوقت - بأنهما يعدان حملة لمحاربة المغول بالشام ، ثم حصلا على فتوى من القضاة والعلماء بمحاربة العربان ، وبعد أن اكتملت العدة اتجهت الجيوش إلى الصعيد حيث أحاطت بالعربان وصدرت الأوامر بأن يضع المماليك « السيف فى الكبير والصغير والجليل والحقير ولايبقوا شيخاً ولاصبياً ويحتاطوا على سائر الأموال[٤]» . وكانت هزيمة العربان فى تلك المرة ساحقة بحيث لم يمكن إحصاء عدد القتلى لكثرتهم وجافت الأرض بجثث القتلى ، فى حين فر الباقون إلى المغاور والكهوف ، ومن خلفهم المماليك يطاردونهم حتى هلك معظمهم (سنة ١٣٠١)[٥] ، وقد

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢٤ .
(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٥٤ .
(٣) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ ص ٣٩٠ .
(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٩٢١ .
(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٥٣ ؛
النويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ص ٢٠ .

أدى تطرف المماليك فى الانتقام والقتل فى تلك المرة إلى إقفار البلاد وخلوها من أهلها، بحيث أن الفرد كان يمشى فى تلك الجهات «فلا يجد فى طريقه أحدا ويتزل بالقرية فلا يرى إلا النساء والصبيان والصغار» (١).

ويبدو أن شوكة العربان قد كسرت بعد ما حل بهم سنة ١٣٠١ من بلاء على أيدى جيوش المماليك، «فعاد من سلم من معتدى العرب فقيراً وورعاً صالحاً، وحمل أكثرهم المسواك والمسبحة عوضاً عن حمل الرماح والأسلحة» (٢). وليس معنى ذلك أن حركات العربان ومتاعبهم توقفت بعد سنة ١٣٠١، وإنما المقصود أن تلك الحركات لم تعد تتخذ شكلا سياسياً، وإنما اتخذت صورة اقتصادية، وهو ما تسميه المراجع عادة باسم فساد العربان وهكذا أخذ العربان فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر يتطرفون فى نهب الغلال وسلب المواشى، وأحياناً يدفعهم الضيق الاقتصادى إلى الامتناع عن دفع الخراج والضرائب المقررة عليهم كما حدث سنتى ١٣١٣، ١٣٣٠ (٧١٣، ٧٣١ هـ) فى عهد السلطان الناصر محمد (٣) ومن أخطر الحركات التى من هذا النوع والتى قام بها العربان، حركة ابن الأحدب شيخ قبيلة عرك سنة ١٣٥٣ (٧٥٤ هـ) فى عهد السلطان الصالح صلاح الدين بن الناصر محمد (٤).

وفى نفس الوقت لم تسلم المدن الكبرى فى عصر المماليك مثل أسيوط والاسكندرية — بل القاهرة — من عبث العربان وإغاراتهم عليها أو على أطرافها بغية السلب والنهب (٥)، حتى الحجاج وهم فى طريقهم إلى بيت الله

---

(١) المقريزى: السلوك ج ١ ص ٩٢٢.

(٢) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة ج ٩ ص ٤٠٨.

(٣) المقريزى: السلوك ج ٢ ص ١٢٩، ٣٣٥؛
ابن حجر: إنباء الغمر ج ٤ ص ٣٥٧

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور ج ١ ص ٢٠٠

(٥) أبو المحاسن: النجوم ج ٨ ص ١٤٩؛
العينى: عقد الجمان حوادث سنة ٨٠١.

الحرام عبر الصحراء الشرقية تعرضوا لعدوان الأعراب عليهم بالنهب والقتل (١) . وهكذا ظل العربان طوال عصر المماليك مصدرا هاما من مصادر الفتنة والقلاقل وعدم الاستقرار (٢) .

الحياة فى المدن :

اتصفت المدن المصرية فى عصر المماليك — مثل القاهرة والإسكندرية ودمياط ورشيد — بتلاصق منازلها وضيق حاراتها واكتظاظ طرقاتها بالمارة والسوقة والدواب . وقد أشاد الرحالة الذين زاروا مصر فى عصر المماليك بعظمة المدن المصرية وكثرة سكانها إذا قيست بغيرها من المدن الأوربية المعاصرة مثل روما وفلورنسا وباريس . وكان أهم ما استرعى انتباه أولئك الرحالة كثرة الباعة الجائلين فى الطرقات ، فضلا عن كثرة الدواب . فالخيول يركبها المماليك يركضون بها وسط الدروب والأسواق المزدحمة وهم يضربون الناس يمنة ويسرة ليشقوا طريقهم ، غير مبالين إذا سقط بعض المارة تحت حوافر الخيل . والجمال العديدة يطوف بها السقاءون وهى تحمل القرب لإمداد المنازل والأسواق بحاجاتها من الماء . وقدر البلوى المغربى عدد الجمال فى القاهرة بما يتراوح بين خمسين ألفا ومائتى ألف جمل ، وعدد السقائين بين خمسة آلاف وستين ألف سقاء سجلوا أنفسهم عند المحتسب وقاموا بدفع ضريبة معينة للحكومة مقابل ما يأخذونه من ماء النيل (٣) . أما الحمير التى قامت بدور سيارات الأجرة فى أيامنا فقد بلغت عددا كبيرا ، وعنى أصحابها بتطييبها ليستأجرها الناس فى قضاء حاجاتهم وسفرياتهم .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٤ ص ٨٥٨ — ٨٥٩ .

(٢) سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ٥٢ — ٥٤ .

(٣) رحلة البلوى المغربى ص ٥٥ (مخطوط) .

ووصف التاجر الروسي باسل القاهرة في عصر المماليك بأن بها أربعة آلاف شارع ودرب، كل منها له بابان وحارسان، وبكل شارع منها عدد كبير من المنازل فضلا عن سوق كبير لسد الحاجات اليومية للسكان. وفي الليل تضاء تلك الشوارع بالمصابيح بعد أن تغلق أبوابها وتشدد الحراسة عليها، فيرتب لها جماعة من الطواف لكشف الأزقة وغلق الدروب وتفقد أصحاب الأرباع وتأديب المخالف، ومن سار في الليل لغير سبب قبض عليه. وعنيت السلطات بالقاهرة بنظافة الشوارع بالكنس والرش بالماء، وهي المهمة التي قام بها الباعة وأصحاب الحوانيت. كذلك وضعت آنية مملوءة بالماء عند أبواب الحوانيت لتسهيل إطفاء ما يقع من حرائق. وأمر بعض السلاطين - مثل بيبرس - بإخراج البرصاء والمجذومين من القاهرة، وإنذار من يبقى منهم داخل أسوارها بالقتل(١).

وزخرت المدن المصرية عامة والقاهرة خاصة في عصر المماليك بكثير من المنشآت العامة من الوكالات المعدة لاستقبال التجار وبضائعهم، والمارستانات أو المستشفيات لعلاج المرضى، والأسبلة لتيسير حصول الناس والدواب على ماء الشرب، والحمامات التي اختص بعضها بالرجال والبعض الآخر بالنساء، فضلا عن عديد المساجد والمدارس. أما سجون ذلك العصر فكانت على أنواع منها ما هو خاص بالأمراء والمماليك والجند، ومنها ما هو خاص بأرباب الجرائم من اللصوص وقطاع الطرق وغيرهم، ومنها ما هو خاص بالنساء المذنبات. ويفهم من المراجع المعاصرة أن هذه السجون بلغت درجة مخيفة من الحطة والقذارة وسوء معاملة المسجونين فيها، حتى أن الإعدام كان في كثير من الأحوال أهون من عقوبة السجن(٢).

---

(١) سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ٨٢ وما بعدها .

(٢) السخاوي : التبر المسبوك ص ١٤٦ ؟

المقريزي : السلوك ج ٤ ص ٧٦١ .

وعلى الرغم من المتاعب والأزمات التى تعرض لها عامة الناس فى عصر المماليك ، فإن روح المرح والرغبة فى التسلية ، والترويح عن النفس ظلت تسود حياة أهالى المدن . وقد اعتاد الناس فى ذلك العصر الخروج إلى الحدائق والمتنزهات مثل بركة الرطلى وبركة الحبش وجزيرة الروضة ، أو إلى شاطىء النيل - حيث الحدائق والأشجار والزهور - طلبا للتسلية والترويح . وكثيراً ما كانوا يستأجرون القوارب فى النيل ويصطحبون معهم المغانى وآلات الطرب لقضاء وقت سعيد بين أمواج النهر الخالد (١). كذلك اشتهر من وسائل التسلية فى عصر المماليك خيال الظل ، فضلا عن ولع الناس بالتلهى بتطيير الحمام ونطاح الكباش ومناقرة الديوك والمصارعة وغيرها من الألعاب التى كانت تتم عن طريق الرهان (٢) .

واشتهرت الحياة فى المدن فى عصر المماليك بالحفلات الصاخبة التى انقسمت إلى أنواع منها ما هو خاص عائلى ومنها ما هو عام شعبى ، وأشهر الحفلات العائلية ما اختص بالزواج ، إذجرت العادة عندئذ على إقامة الولائم الحافلة واستحضار المغنيات وضاربات الدفوف ، مما يجعل الحفل صاخبا كبيراً . ومثل ذلك يقال عن الحفلات الخاصة بالولادة - وبخاصة إذا كان المولود ذكرا - وختان الطفل وغيرها من المناسبات السعيدة التى تستحق مشاركة الأهل والأحباب فى إحيائها (٣) .

أما الاحتفالات العامة فمنها ما هو دينى ارتبط بمناسبات إسلامية ، ومنها ما هو قومى حرص جميع المواطنين من مسلمين وغير مسلمين على إحيائها وأول الأعياد الدينية هو عيد رأس السنة الهجرية ، وفيه كان السلطان يصرف أرزاقا

---

(١) ابن الحاج : المدخل ج ١ ص ٢٤٦ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٦٤٢ ، ص ٧٥٤ .

(٣) ابن حجر : إنباء الغمر ج ١ ص ٥٦٠ ، ج ٢ ص ٣٧٦ .

إضافية ، ويطلع الخليفة والقضاة الأربعة إلى القلعة ليهنئوا السلطان بالعام الجديد (١). وفى عاشر المحرم يكون الاحتفال بعاشوراء فيوسع القادرون على الأهل ، والأقارب واليتامى والمساكين ، كما يتمسكون فى هذا اليوم بطبخ الحبوب وزيارة القبور وإطلاق البخور . أما طائفة الشيعة فكانوا يحرصون على إقامة عزاء الحسين فى ذلك اليوم فينشد شعراؤهم القصائد وفق ما جرت به العادة فى مصر الفاطمية ، فى حين يناظرهم شعراء السنة ويردون عليهم (٢) ثم يأتى بعد ذلك الاحتفال بالمولد النبوى فى شهر ربيع الأول فيقيم السلطان خيمة المولد بالقلعة ، وتملأ الأحواض بعصير السكر والليمون ليقدم منها للوافدين دون تفرقة بين كبير وصغير . ويبدأ الاحتفال بعد الظهر وينتهى عند ثلث الليل فيتعاقب القارئون والمنشدون والوعاظ ، كما تمد الأسمطة بأنواع الحلوى والمأكولات الشهية (٣). وعند ثلث الليل يبدأ السماع الذى يستمر حتى الفجر ، فتأتى طوائف الصوفية طائفة بعد أخرى ويستمرون فى الذكر والسلطان جالس فى صدر الخيمة . كذلك يترقب عامة الناس موعد المولد ليقيموا الولائم ويتصدقوا على الفقراء ويظهروا السرور . وكانت بعض حفلات المولد النبوى خاصة بالنساء وعندئذ «تكثر البدع والمخالفات» (٤).

وكان الاحتفال بدوران المحمل يتم مرتين فى السنة فى عصر المماليك : الأولى فى النصف الأخير من شهر رجب وقد استحدثها السلطان بيبرس لإعلام الناس أن الطريق من مصر إلى الحجاز آمن ، وأن من شاء فلا يتأخر ولا يتخوف ،

---

(١) السخاوى : التبر المسبوك ص ١٤٥، ٣٥٤ .

(٢) ابن الحاج : المدخل ج ١ ص ٢٩٠ — ٢٩١

(٣) سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ١٢٩ .

(٤) ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ١١ .

وبذلك « تهيج العزمات وتتحرك البواعث فيأخذ من يشاء فى التأهب للحج[١] »، وتكون الدورة الثانية فى شوال وهى دورة خروج المحمل ويحتفل فيها بإحراق النفط وعمل الصواريخ ، على حين يخرج الناس من كل مكان للفرجة ويتغالون فى زينة الحوانيت والأسواق ، ولا تكون دورة خروج المحمل غالباً إلا يوم اثنين أو خميس ، فتوضع الكسوة - وهى من الحرير الثمين المطرز بالذهب والقصب - على جمل ، ويطوف المحمل بشوارع القاهرة حتى يصل إلى الفسطاط فى يوم مشهود[٢] .

أما شهر رمضان فكانته معروفة عند المسلمين فى كل زمان ومكان ، وقد وصف الرحالة ابن بطوطة طريقة احتفال المصريين برؤية هلال رمضان فى عصر المماليك ، كما وصف غيره من الرحالة الأوربيين الذين زاروا مصر فى ذلك العصر كيفية إحياء الأهالى ليالى رمضان بإضاءة الفوانيس والمشاعل فى الطرقات والبيوت والحوانيت . هذا فضلا عن الاحتفالات بالقلعة حيث يقرأ صحيح البخارى وتوزع الصدقات على المستحقين[٣] ، وفى نهاية رمضان يحل عيد الفطر ليستعد له الناس بعمل الكعك والحلوى ، وإعداد الملابس الجديدة ، وكانت معالم القاهرة تكتظ بالناس سواء فى عيد الفطر أو عيد الأضحى ، فتخرج جموعهم إلى شاطىء النيل لاستئجار المراكب أو إلى القرافة للرقص والغناء ، وفى جميع هذه الأحوال تكثر المفاسد الخلقية[٤] ، ومثل ذلك يقال عن عيد الأضحى .

أما الأعياد القومية فى عصر المماليك فكانت كثيرة ومتنوعة ، منها ما ارتبط بالسلاطين مثل الاحتفال بتولية سلطان جديد أو إبلال السلطان

---

(١) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٩٣ .
(٢) المقريزى : السلوك ج ٣ ص ١٥ ، ٤٢٤ .
(٣) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٥٧٩ (طبعة كاليفورنيا) ؛ مورد اللطافة ص ٩٩ .
(٤) سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ١٨٩ .

من مرض أو عودته سالماً من سفر أو ظافراً من حرب ، وفى جميع هذه الحالات تزين القاهرة ومصر بالزينات الفاخرة ، ويخرج السلطان فى موكب حافل فيهرع الناس للفرجة وسط قرع الطبول وزغاريد النساء(١) ، وثمة مناسبة سعيدة حرص المصريون منذ أقدم العصور على إحيائها والاحتفال بها كل عام هى عيد وفاء النيل ، وعندئذ يحتفل بكسر الخليج فى موكب تسير فيه الحراريق والسفن المزينة بالأعلام ، وعند وصول السلطان أو نائبه إلى مقياس الروضة يمد سماط كبير من الشواء والحلوى والفاكهة وسط ابتهاج الناس وفرحهم(٢) .

الثورات والفتن السياسية :

على أن المدن والقاهرة لم تظل على حال واحد من الهدوء والسكينة والأعياد والاحتفالات طوال عصر المماليك ؛ وإنما كثيراً ما كانت تشتعل الثورات المفاجئة فى العاصمة ، ولا تلبث أن تمتد أحياناً إلى بعض أنحاء البلاد والمدن الكبرى فتتحول تلك الصورة الهادئة المرحة إلى صورة مضطربة قاتمة .

ومعظم الثورات والفتن السياسية التى شهدتها البلاد فى عصر المماليك كان مصدرها طوائف المماليك أنفسهم . ذلك أن الحقيقة التاريخية الكبرى التى تحكمت فى تاريخ سلطنة المماليك من أوله إلى آخره ووجهت ذلك التاريخ فى داخل دولتهم ؛ هى اعتقاد المماليك اعتقاداً راسخاً عميقاً بأنهم جميعاً - بحكم أصلهم ونشأتهم وطبيعة التطور الذى مروا به - متساوون ، ولا فرق بين مملوك وآخر إلا بما حباه الله من صفات خاصة كالشجاعة والذكاء والمهارة

(١) المرجع السابق ص ١٩٤ - ١٩٥ .

(٢) للوقوف على الحياة الاجتماعية فى عصر المماليك فى صورة مفصلة دقيقة ارجع الى كتاب :

المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك — للمؤلف .

فى استخدام السلاح والقدرة على استغلال الظروف .

ومادام الأمر كذلك ، فإن جميع المماليك اعتقدوا أن لهم حقاً مشروعاً فى السلطنة ، والمملوك الطموح مهما تقل رتبته أو يصغر شأنه ، فإنه كان يتطلع دائماً إلى اليوم الذى يصبح فيه أميراً كبيراً ، وعندئذ يستطيع أن يستغل مواهبه فى أن ينتزع لنفسه دست السلطنة ، مثلما فعل غيره من السلاطين السابقين . ولاشك فى أن عدم وجود نظام وراثى أو قاعدة معينة ثابتة لاختيار السلاطين فى عصر المماليك ، وتطلع كبار الأمراء دائماً للوصول إلى منصب السلطنة ، أدى إلى كثير من الفتن والثورات والاضطرابات التى شهدها ذلك العصر ، وبعبارة أخرى فإننا نستطيع أن نقرر أن معظم القلاقل والفتن التى شهدها عصر المماليك فى مصر والشام إنما كان مصدرها رغبة الطموحين من الأمراء فى الوصول إلى قمة الهرم المماليكى الكبير واحتلال دست السلطنة ، وكان يكفى أن يرجف بوفاة سلطان أو مرضه أو هزيمة جنوده حتى تضطرب أحوال البلاد[١] ، وكان يكفى أن يعلن قيام سلطان جديد فى الحكم حتى يعلن منافسوه من كبار الأمراء - فى الشام أو فى مصر - عدم رضاهم عنه وثورتهم عليه ، مما ينذر بدور جديد من أدوار الشدة التى اعتادت أن تمر بها البلاد والعباد فى ذلك العصر ، وفى جميع تلك الحالات كانت طوائف المماليك العديدة تجد فرصتها سانحة ، فيثور المماليك ويوالوا الاجتماعات الليلية وتأسيس العصابات السرية للهيجان[٢] ، ثم ينتشرون فى الأسواق والطرقات لنهب الحوانيت وخطف العمائم وانتزاع الخيول من أصحابها ، بل كانوا يهجمون أحياناً على النساء فى بيوتهن وفى الحمامات

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٣٥ ؟ .

المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٠٧ — ٥٠٨

(٢) سيرة الظاهر بيبرس ج ٤٩ ص ٢٠ .

فيخطفون[1] .

ويضيق بنا المقام عن تتبع هذه الثورات طوال عصر المماليك ، فقد سبقت الإشارة إلى معظمها فى صفحات الكتاب السابقة عند الكلام عن كل سلطان من سلاطين دولتى المماليك الأولى والثانية . وسواء كانت هذه الحركات مصدرها بعض كبار أمراء الدولة فى الشام أو فى مصر ، فإنها اتفقت جميعاً فى نتائجها وهى إما انتصار السلطان الجديد على خصومه ، وإما مقتله أو نفيه ، وإما فراره واختفائه إلى أن تتاح له فرصة الظهور واسترداد عرشه . أما أثر هذه الحركات فى مجرى تاريخ دولة المماليك فكان خطيراً ، إذ صبغ ذلك العصر بصبغة خاصة ليس لها نظير فى تاريخ مصر والشام فى العصور الوسطى ، وجعله يتصف إلى حد ما بطابع معين من عدم الاستقرار السياسى والاقتصادى والاجتماعى . ويكفى أن نشير إلى ما كان يصحب تلك الفتن من إغلاق الأسواق والحوانيت والأبواب التى تفصل بين أحياء المدينة ودروبها فتتعطل جميع مظاهر النشاط العمرانى ، وربما استمرت الأوضاع على ذلك بضعة أسابيع يقاسى الناس طوالها الجوع والفوضى والفزع[2] .

المجاعات والأوبئة :

ولم تكن الاضطرابات التى تعرضت لها البلاد فى عصر المماليك منشؤها التنافس بين كبار الأمراء حول منصب السلطنة أو غضب بعض المماليك بسبب سوء التوزيع الإقطاعى وقلة النفقة المعطاة لهم من السلطان فحسب ، بل وجدت أيضاً أسباب طبيعية كثيراً ما تسببت فى إثارة الفتن ونشر الاضطرابات فى

(١) المقريزى : السلوك ج ٣ ص ١٦٤ ؟
أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٤٠١ .
(٢) سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ٨٩ .

البلاد. ذلك أن عدم إمكان التحكم فى مياه النيل فى تلك العصور ، كان يترتب عليه انتشار المجاعات عندما ينخفض الفيضان ، مما يؤدى إلى فساد الزراعة وقلة المحصولات ، وكثيراً ما كانت تلك المجاعات مصحوبة بانتشار الأوبئة والطواعين ، الأمر الذى أفضى إلى موت الآلاف من الناس وقلة الأيدى العاملة ، وبذلك يتوقف معظم مظاهر النشاط العمرانى فى البلاد .

ويضيق بنا المقام عن تتبع كافة المجاعات والأوبئة التى تعرضت لها البلاد فى عصر المماليك ، ولذلك نكتفى بالإشارة السريعة إلى أهمها لنأخذ فكرة عن قسوتها من ناحية وما كانت تتعرض له البلاد والعباد بسببها من ناحية أخرى . من ذلك ماحدث سنة ٦٩٤ — ٦٩٥ هـ (١٢٩٥ — ١٢٩٦ م) من توقف نزول الأمطار فى الشام ، فاشتد الغلاء واضطر الناس إلى صلاة الاستسقاء[1] . وفى نفس الوقت ـ وكان ذلك فى عهد السلطان العادل كتبغا ـ انخفض فيضان النيل عن مستواه « فتزايد الغلاء واشتد البلاء » وجاء الغلاء مصحوباً بانتشار الطاعون فكان يموت بالقاهرة ومصر كل يوم بضعة ألوف « ويبقى الميت مطروحا فى الأزقة والشوارع ملقى فى الممرات اليوم واليومين لايوجد من يدفنه ، لاشتغال الأصحاء بأمواتهم والسقماء بأمراضهم[2] » .

أما وباء سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٩ م) ، فلم يكن له نظير فى قسوته وسرعة انتشاره . ولم يكن هذا الوباء قاصراً على دولة المماليك فى مصر والشام ، وإنما « عم أقاليم الأرض شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، جميع أجناس بنى آدم وغيرهم ، حتى حيتان البحر وطير السماء ووحش البر »[3] وقد عرف ذلك الوباء فى أوربا باسم الطاعون الأسود ، وحكى المقريزى الكثير عن البلاد

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٨٠٨ .

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١٨٩ .

(٣) المقريزى : السلوك — حوادث سنة ٨٤٩ هـ ؛ ج ٢ ص ١٧٣ .

التى انتشر فيها ، فى آسيا وأوربا وأفريقية ، فضلا عن جزر البحر المتوسط كذلك يروى المقريزى أنه كان يموت بالقاهرة ومصر فى اليوم الواحد بسبب ذلك الوباء ما بين عشرة آلاف وعشرين ألف ، وأن الفلاحين بأسرهم ماتوا « فلم يوجد من يضم الزرع » ، وأن المواشى هلكت ، ومات صيادو السمك فى دمياط وهم فى سفنهم « والشباك بأيديهم مملوءة سمكا ميتاً » وهكذا أقفر الريف من الزراع وأقفرت المدن من سكانها ، بحيث غدت « القاهرة خالية مقفرة ، لا يوجد فى شوارعها مار ، بحيث يمر الإنسان من باب زويلة إلى باب النصر فلا يرى من يزاحمه لكثرة الموتى والاشتغال بهم ا » ومعنى ذلك توقف جميع ألوان النشاط العمرانى « فتعطلت أكثر الصنائع . . . ، وصارت كتب العلم ينادى عليها بالأحمال . . وعدمت جميع الصنائع فلم يوجد سقاء ولا بابا ولا غلام » ؛ حتى المساجد والزوايا أغلق معظمها « وتعطل الأذان من عدة مواضع[1] ا » .

وفى عصر دولة المماليك الجراكسة انتشرت المجاعات والأوبئة أيضاً عدة مرات ، مما سبب مصائب كثيرة للعباد والبلاد[2] . وقد حدث فى عهد الأشرف قايتباى وحده أن انتشر الطاعون ثلاث مرات ، أشهرها ما كان سنة ٨٩٧هـ (١٤٩٢ م) . عندما « هجم الطاعون بالقاهرة وفشى جملة واحدة ، وقتك فى الناس فتكا ذريعا » ، واستمر الطاعون يفتك بأهل مصر والقاهرة بضعة أشهر حتى انتهى « جملة واحدة ، ومشى نحو بلاد الصعيد[3] ا » . وقد جرت عادة سلاطين المماليك عند تفشى الطاعون فى البلاد أن يخرجوا بعيداً عن العاصمة طلباً للنجاة فيقصدون سرياقوس أو غيرها من المواضع ؛ ولكنهم مع ذلك لم يسلموا أحياناً من الأذى . من ذلك ما يرويه ابن إياس من أن

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٧٧٢ — ٧٨٦ .

(٢) المقريزى : إغاثة الأمة ص ٧ وما بعدها .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٣ ص ٢٨٧ — ٢٩٢ (نشر محمد مصطفى) .

السلطان برسباى أصيب فى طاعون سنة ٨٤١ هـ (١٤٣٧ م) «فحصل له ماليخوليا» أى ارتباك فى قواه العقلية، وصار يصدر أوامر غريبة مثل نفى الكلاب إلى الجيزة ومنع النساء من الخروج إلى الطرقات وغيرها[١].

فى كثير من الأحيان نجد المعاصرين يفسرون تلك الأزمات التى كانت تحل بهم فى ضوء فساد الناس وخروجهم عن طاعة الله وإسرافهم فى المعاصى مثل شرب الخمر وغير ذلك. لذلك نجد فى المراجع المعاصرة أن الدعوة إلى التوبة إلى الله تعلو فى أوقات الأزمات - من مجاعات وأوبئة - فيسارع الناس إلى إراقة الخمور، والكف عن السيئات عسى أن يتوب الله عليهم ويكشف عنهم الغمة، وقد لجأ سلاطين المماليك فى أوقات الشدة — مثلما حدث سنى ٧٠٩، ٧٨١، ٨٣١، ٩٢٢ — إلى إصدار الأوامر بإراقة الخمور وتحريم تعاطيها فى مختلف أنحاء البلاد إظهاراً للتوبة[٢]، ولكن مفعول هـــذه الأوامر كان لا يستمر طويلا، إذ لا يلبث أن يعود الناس إلى سابق وضعهم «ولم ينتهوا عما هم فيه»[٣].

(١) ابن إياس: بدائع الزهور ج ٢ ص ٣١ — ٣٢.
(٢) ابن حجر: إنباء الغمر ج ٢ ورقة ٢٤٤، ٣١٤، ٣٤٩؛
المقريزى: السلوك ج ٢ ص ٥٣ — ٥٤، ج ٣ ص ٣٥٤؛
العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٨٠٩ هـ.
(٣) ابن إياس: بدائع الزهور ج ٣ ص ٨٥.

الفصل الحادى عشر

الحياة العلمية والدينية

النشاط العلمى فى عصر المماليك :

زار مصر سنة ٧٣٧هـ الرحالة البلوى المغربى (١٢٣٦م) فأبدى إعجابه الشديد بالنشاط العلمى فى البلاد وقال إن مصر منبع العلم(١). والحق إن مصر أصبحت على عصر سلاطين المماليك ميداناً لنشاط علمى واسع ، يدل عليه ذلك التراث الضخم من موسوعات أدبية وكتب تاريخية ومؤلفات فى العلوم الدينية تركها علماء ذلك العصر. ويربط السيوطى بين هذا النشاط العلمى الواسع فى مصر بالذات على عصر المماليك وبين إحياء الخلافة العباسية فى القاهرة بعد أن سقطت فى بغداد، ويقول إنه منذ إحياء الخلافة العباسية فى مصر ، غدت هذه البلاد «محل سكن العلماء ومحط رحال الفضلاء»(٢). أما ابن حجر فيقول عن بعض علماء الشام وغيرها من البلاد الإسلامية أنهم قالوا عن بلادهم «هذا بلد ضيق عن علمى» ، وهجروها إلى مصر (٣).

والواقع أنه ما كان لهذا النشاط العلمى أن يزدهر فى مصر فى عصر المماليك لولا تشجيع بعض سلاطين المماليك للعلم والعلماء . وقد وصف أبو المحاسن السلطان الظاهر بيبرس بأنه «كان يميل إلى التاريخ وأهله ميلا زائداً ويقول سماع التاريخ أعظم من التجارب»(٤). وهكذا عاد الجامع الأزهر فى عهد الظاهر بيبرس إلى

---

(١) رحلة البلوى المغربى ورقة ٥٤ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٦ .

(٣) ابن حجر : رفع الاصر عن قضاة مصر ورقة ١٦٨ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٨٢ .

سابق عهده، قصبة لطلاب العلم فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى؛ وظهر فى عصر بيبرس بعض أعلام الأدب والتاريخ أشهرهم محى الدين بن عبد الظاهر وابن خلكان وجمال الدين بن واصل (١).

كذلك وجد من سلاطين المماليك — كالسلطان الغورى — من حرص على عقد المجالس العلمية والدينية بالقلعة مرة أو مرتين أو أكثر كل أسبوع. وقد بحثت فى تلك المجالس مختلف المسائل والمشاكل العلمية والدينية، التى تناقش فيها الحاضرون من كبار العلماء والفقهاء (٢). كذلك نسمع عن بعض أمراء المماليك وأبنائهم فى مصر أنهم اشتغلوا بالتاريخ والفقه والحديث واللغة العربية، بل تصدى بعضهم لإقراء الطلبة والتدريس لهم (٣).

المدارس والمكتبات :

ولا أدل على رعاية سلاطين المماليك للنشاط العلمى من حرصهم على إنشاء كثير من المدارس، فضلا عن المؤسسات الأخرى التى قامت أحياناً بوظيفة المدارس مثل المساجد. والمعروف أن السلطان صلاح الدين عنى عناية خاصة بإنشاء المدارس وأنشأ بعض المدارس الشهيرة مثل المدرسة الناصرية والمدرسة الصلاحية والمدرسة القمحية (٤). ولكن إذا كان صلاح الدين وخلفاؤه من بنى أيوب قد استهدفوا من إنشاء المدارس أن تكون قبل كل شىء مراكز لنشر المذهب السنى ومحاربة العقيدة الشيعية فى البلاد؛ فإن سلاطين المماليك أكثروا من إنشاء المدارس إظهاراً لشعور التقوى والزلفى من ناحية وليتخذوا من المدرسة أداة

---

(١) محمد جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس ص ١٥٥ .
(٢) عبد الوهاب عزام : مجالس الغورى ص ٤٩ .
(٣) السخاوى : التبر المسبوك ص ٢٢١ ، ٤١٥ .
(٤) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٣٦٣ — ٣٦٤ (بولاق) .

تضمن بقاء الحكم فى أيديهم وتساعدهم على تدعيم مركزهم فى أعين الشعب(١).

ومن المدارس العديدة التى أسسها سلاطين المماليك المدرسة الظاهرية نسبة إلى السلطان الظاهر بيبرس الذى وضع أساسها سنة ١٢٦١؛ والمدرسة الناصرية التى شيدها السلطان الناصر محمد ١٣٠٣، ومدرسة السلطان برقوق التى أنشأها بين القصرين سنة ١٣٨٦. ولم تكن جميع المدارس التى شيدها سلاطين المماليك فى المدن الكبرى، وإنما شيد فى القرى والريف مثل مدرسة سرياقوس التى أنشأها السلطان برسباى. ومن جهة أخرى فإن سلاطين المماليك لم يقتصروا فى إنشاء المدارس على مصر؛ وإنما أقاموا كثيراً منها فى مختلف أنحاء دولتهم الواسعة. ومن ذلك ما نسمعه عن أن السلطان قايتباى أنشأ مدارس عديدة فى مصر والشام والحجاز، كما أنشأ السلطان الغورى مدرسة فى مكة. أما أمراء المماليك فلم يكونوا أقل حماسة لإنشاء المدارس من السلاطين. ومن أشهر المدارس التى أقامها أمراء المماليك المدرسة الجمالية أو المحمودية التى بناها سنة ١٤٠٨ الأمير جمال الدين محمود، وهو أحد أمراء السلطان فرج بن برقوق. وقد تعرض المقريزى لهذه المدرسة فوصفها بقوله إنها «من أحسن مدارس مصر»(٢).

وجرت العادة عند الفراغ من إنشاء مدرسة فى عصر المماليك أن يحتفل بافتتاحها احتفالا كبيراً يحضره السلطان والأمراء والفقهاء والقضاة والأعيان، ويمد سماط فاخر فى صحن المدرسة به ألوان الأطعمة والحلوى والفواكه. وبعد أن يخلع السلطان على كل من أسهم فى بناء المدرسة من المعلمين والبنائين والمهندسين، يعين للمدرسة موظفيها من المدرسين والفقهاء والمؤذنين والقراء

---

(1) Ibrahim Salama : L'Enseignement Islamique en Egypte, pp. 60 — 64.

(٢) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٣٩٥ — ٣٩٧.

والفراشين وغيرهم (١).

وكانت وظيفة التدريس بالمدرسة جليلة القدر ، يخلع السلطان على صاحبها ويكتب له توقيعا من ديوان الإنشاء يختلف باختلاف المادة التى يدرسها المدرس تفسيراً كانت أو حديثاً . وفى هذا التوقيع يقدم السلطان النصح للمدرس بأن يظهر « مكنون علمه» للطلاب ، ويقبل على الدرس وهو طلق الوجه منشرح الصدر ليستميل إليه طلبته « ويربيهم كما يربى الوالد ولده » (٢) . كذلك طلب من المدرس « أن ينظر فى طلبته ويحثهم كل وقت على الاشتغال» (٣).

وجرت العادة على تعيين معيد أو أكثر لكل مدرس ، ليعيد للطلبة ما ألقاه عليهم المدرس ليفهموه ويحسنوه، كما يشرح لهم مايحتاج إلى الشرح (٤) أما الطلبة فقد تمتعوا بحرية اختيار المواد التى يدرسونها بحيث « لا يمنع فقيه أو مستفيد من الطلبة مايختاره من أنواع العلوم الشرعية» (٥). وكثيراً ما اعتمد هذا الاختيار على مكانة المدرس وشهرته العلمية ، بحيث ينتقل طالب العلم من بلد بعيد ليتتلمذ على فقيه أو محدث مشهور (٦) فإذا أتم الطالب دراسته وتأهل للفتيا والتدريس ، أجاز له شيخه ذلك ، وكتب له إجازة يذكر فيها اسم الطالب وشيخه ومذهبه وتاريخ الإجازة وغير ذلك. ولا شك فى أن قيمة هذه الإجازة كانت تتوقف على سمعة الشيخ الذى صدرت عنه ومكانته العلمية (٧).

(١) ابن حجر : إنباء الغمر ج ١ ص ٧٧٢ ؟
المقريزى : السلوك ج ٣ ص ٤٦٤ .
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١١ ص ٢٤٦ — ٢٤٧ .
(٣) النويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٣٤١ .
(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٠٠ .
(٥) النويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ١٥ .
(٦) سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ١٤٥ .
(٧) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٢٢ — ٣٢٦ .

والواقع إن المدارس فى عصر المماليك تمتعت بدخل مالى ثابت مكنها من أداء رسالتها وتدعيم نظامها . أما هذا الدخل فكان مصدره الأوقاف — من أراض وبيوت وأسواق ومعاصر وغيرها — ، وهى أوقاف كان ينفق من ريعها على المدرسة ومن فيها من مدرسين وطلاب علم وموظفين(١) .

المكتبات :

وإذا كانت الحياة العلمية قد نشطت فى عصر المماليك ، فإنه يلاحظ أن الركن الأول للنشاط العلمى فى أى زمان ومكان هو الكتب والمكتبات . فبدون الكتب والمكتبات لا تستطيع المدارس أن تؤدى مهمتها ، ولا يستطيع المتعلمون والمعلمون أن يواصلوا رسالتهم. لذلك لا عجب إذا شهد عصر المماليك نشاطاً منقطع النظير فى التأليف من ناحية وفى جمع الكتب وإنشاء المكتبات والعناية بها من ناحية ثانية . وكان سلاطين المماليك أنفسهم أول من قدر أهمية الكتب فاحتفظوا فى قلعة الجبل بخزانة كتب جليلة القدر، حوت مجموعة ضخمة من الكتب الدينية وغير الدينية . وقد ظلت هذه المكتبة عامرة بالكتب محتفظة بأهميتها ، رغم الحريق الذى تعرضت له سنة ١٢٩٢ على عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاون(٢) .

أما مكتبات المدارس والجوامع فى عصر المماليك فكانت على درجة فائقة من الإعداد والغنى. فإذا كان السلطان الظاهر بيبرس قد أنشأ المدرسة الظاهرية، فإن المراجع تشير إلى أنه ألحق بتلك المدرسة خزانة كتب جليلة تشتمل على مجموعة ضخمة من المراجع فى مختلف العلوم(٣). وكذلك حرص السلطان المنصور قلاون

---

(١) سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ١٤٧ — ١٤٨ .

(٢) المقريزى : المواعظ جـ ٢ ص ٢١٢ ؟

أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ٣٣ .

(٣) عبد اللطيف ابراهيم على : المكتبة المملوكية ص ١٦ .

على أن يزود مكتبة المدرسة المنصورية بالكثير من « كتب التفسير والحديث والفقه واللغة والطب والأدبيات ودواوين الشعراء »[١] . وكذلك المدرسة الناصرية التي أقامها السلطان الناصر محمد ، إذ أنشأ بها « خزانة كتب جليلة » .

ولم يقل سلاطين المماليك الجراكسة عناية بالكتب عن سلاطين دولة المماليك الأولى أو الأتراك ، فنسمع عن خزائن الكتب العامرة التي ألحقها سلاطين الجراكسة مثل الظاهر برقوق والمؤيد شيخ والأشرف قايتباي والأشرف قانصوه الغوري بمدارسهم[٢] . هذا مع ملاحظة أن خزانات الكتب في عصر المماليك لم تلحق بالمدارس فحسب وإنما ألحقت أيضاً بالخانقاوات والجوامع ، وذلك تحقيقاً وتعميماً للفائدة العلمية المرجوة . وفي جميع الحالات قام بالإشراف على خزانة الكتب « خازن الكتب » ومهمته ترتيب الكتب وتنظيمها وحفظها وحبكها وترميمها بين حين وآخر ؛ فضلا عن إرشاد القراء إلى ما يلزمهم من مراجع لذلك كان يختار لخزانة الكتب عادة فقيهاً أو عالماً يراعى فيه سعة العلم والأمانة[٣] .

وكانت عملية تغذية المكتبات بالكتب مستمرة ، فبالإضافة إلى مجموعة الكتب التي يحبسها صاحب المدرسة على خزنتها ، استمرت المكتبات تحصل على جديد من الكتب إما عن طريق الهدايا والهبات وإما عن طريق النسخ وإما عن طريق الشراء[٤] . ولعل صعوبة نسخ الكتب والحصول عليها في ذلك العصر ، هي التي تطلبت تحريم إعارة الكتب خارجياً تحريماً باتاً إلا في حالات نادرة خاصة . ومعنى ذلك أن الاستفادة من الكتب اقتصرت على الاطلاع

---

(١) النويري : نهاية الأرب جـ ٢٩ ورقة ٢٨٢ .

(٢) عبد اللطيف إبراهيم : المكتبة المملوكية ص ٢٤ — ٣٣ .

(٣) سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ١٤٦ .

(٤) عبد اللطيف ابراهيم : المكتبة المملوكية ص ٤٩

الداخلى وفق شروط خاصة تضمن المحافظة على الكتب وعدم استهلاكها[1].

المكاتب :

وإذا كانت المدارس فى عصر المماليك تمثل المعاهد العليا أو الجامعات ، فإن المكاتب نهضت عندئذ بالمرحلة الأولى من مراحل التعليم . ويبدو أن الهدف الأساسى من إنشاء معظم المكاتب كان تعليم أيتام المسلمين ، ولذلك أقبل الخيرون على إقامتها وحبس الأوقاف عليها رغبة فى الثواب . وكان يقوم بتعليم الأطفال فى المكتب « المؤدب » الذى أطلق عليه أحيانا اسم « الفقيه » ؛ واشترط فيه أن يكون « خيراً دينا أمينا على أطفال المسلمين ، متين الخلق عفا متزوجا عارفا بصناعته صالحا للتعليم » . وساعد المؤدب فى عمله « العريف » وهو أشبه بالمعيد فى المدارس ، إذ كان يعاون المتخلفين من الأطفال ، ويعرضون عليه ألواحهم فى غيبة المؤدب[2] . وربما كان فى المكتب الواحد أكثر من مؤدب وعريف إذا تطلبت كثرة الأطفال ذلك ، بحيث يكون لكل مؤدب عدد معين من الأطفال يقوم بالإشراف عليهم وتعليمهم . وقد ذكر النويرى كيف أن السلطان المنصور قلاون رتب فى مكتب السبيل ـ الذى أنشأه ـ فقيهين ـ « يعلمان من كان صغيراً من أيتام المسلمين كتاب الله تعالى ، ورتب لهما جامكية فى كل شهر وجراية فى كل يوم ؛ وهى لكل منهما فى كل شهر ثلاثون درهما ، وفى كل يوم من الخبز ثلاثة أرطال ، وكسوة فى الشتاء وكسوة فى الصيف . ورتب للأيتام لكل منهم فى كل يوم رطلان خبزا ، وكسوة فى الشتاء وكسوة فى الصيف »[3] .

---

(١) المرجع السابق ص ٦٥ .

(٢) سعيد عاشور : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ص ١٩٠ — ١٩١ .

(٣) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٢٨٢ — ٢٨٣ .

وكانت مناهج التعليم فى هذه المكاتب تدور حول القراءة والكتابة وتعليم القرآن والحديث وآداب الدين ، فضلا عن مبادىء الحساب وقواعد اللغة وبعض الشعر . ويبدأ الأطفال بالكتابة فى ألواح ثم ينتقلون بعد ذلك إلى الكتابة بالمداد ، فإذا بلغ الطفل الحلم وزالت عنه صفة اليتم ، صرف من المكتب ليحل محله مستحق آخر ، وقد أوصى المؤدب بأن يحسن معاملة الأطفال ولا يقسو عليهم ولا يضربهم ، إلا إذا أساء صبى منهم الأدب وعندئذ يضربه المؤدب ضربا وسطا يؤلم ولا يؤذى(١) .

فإذا أتم الصبى حفظ القرآن فى المكتب ، احتفل به احتفالا كبيرا يسمى « الاصرافه » فتزين أرض المكتب وحيطانه وسقوفه بالحرير ، ويقوم أهل الصبى صاحب الاصرافه بزينته بقلائد الذهب والعنبر ، ثم يركبونه على فرس أو بغلة مزينة ويحملون أمامه أطباقا فيها ثياب من حرير وعمائم ، على حين يمشى بين يديه بقية صبيان المكتب ينشدون طوال الطريق حتى يوصلوه إلى بيته . وعند البيت يدخل المؤدب ويعطى اللوح لأم صاحب الاصرافه فتعطيه ما تقدر عليه من المال(٢) .

النشاط الدينى :

أما عن الحياة الدينية . فالملاحظ أن مصر شهدت فى عصر المماليك نشاطا دينيا منقطع النظير . وقد يكون السر فى هذا النشاط الدينى الكبير هو شعور المماليك أنفسهم بأنهم أغراب عن البلاد وأهلها ، مغتصبون للحكم والعرش من أصحابه الشرعيين ، ولذلك أرادوا أن يتخذوا من الدين ورجاله ستارا يخفى

---

(١) ابن الأخوة : معالم القربة فى طلب الحسبة ص ١٧٠ — ١٧١ .
(٢) ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ٣٣١ — ٣٣٣ .

هذه الحقائق عن أعين المحكومين ، ويقربهم إلى قلوب الشعب . وما دام المماليك مسلمين، يؤمنون بالله ورسوله. ويحرصون على إقامة شعائر الدين وإحياء سنن الأولين ، ويعمرون مساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً . فهم إذاً حكام صالحون ، ولا داعي للتفكير كثيراً في أصلهم وطريقة وصولهم إلى الحكم .

وثمة ملاحظة أخرى ، هي أن جزءا كبيرا من النشاط الديني في عصر المماليك كان موجهاً لخدمة المذهب السني ومحاربة المذهب الشيعي . ذلك أنه على الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها صلاح الدين الأيوبي ومن خلفه من سلاطين بني أيوب لمحاربة الشيعة والتشيع في مصر ، إلا أن الكثير من آثار المذهب الشيعي ظلت قائمة في عصر المماليك . وقد لجأ سلاطين المماليك إلى استخدام العنف أحياناً لكبت الشيعة ، حتى أن الناس في ذلك العصر كانوا إذا أرادوا أن يكيدوا لشخص «دسوا عليه من رماه بالتشيع ، فتصادر أملاكه وتنهال عليه العقوبات والإهانات حتى يظهر التوبة من الرفض »(١) .

وفي الوقت نفسه حارب سلاطين المماليك ظاهرة التشيع عن طريق غير مباشر ، فأمر السلطان الظاهر بيبرس ١٢٦٧ (٦٦٥هـ) باتباع المذاهب السنية الأربعة « وتحريم ما عداها ، كما أمر بألا يولى قاضي ولا تقبل شهادة أحد ولا يرشح لإحدى وظائف الخطابة أو الإمامة أو التدريس ، ما لم يكن مقلدا لأحد هذه المذاهب »(٢) .

وثمة وسيلة اتخذها سلاطين بني أيوب ، واتبعهم فيها سلاطين المماليك ، لمحاربة المذهب الشيعي والحد من انتشاره في البلاد ، هي إنشاء المدارس . وقد سبق أن تكلمنا عن أهمية المدرسة من الناحية العلمية ، ولكن الحقيقة الكبرى التي لا ينبغي أن تغيب عن أذهاننا هي أن صلاح الدين عندما أنشأ أولى المدارس

---

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٣ ص ٤٦ .
(٢) المقريزي : المواعظ ج ٤ ص ١٦١

فى مصر ، إنما استهدف أن تكون المدرسة ـ قبل أى اعتبار آخر — مركزا لتدعيم الفقه السنى . وقد راعى هذا المبدأ خلفاء صلاح الدين، فأقاموا المدارس واشترطوا أن تكون كل منها خاصة بتدريس مذهب أو مذهبين من مذاهب السنة الأربعة ، حتى كانت المدرسة التى أنشأها السلطان الصالح نجم الدين أيوب سنة ١٢٤٢ (٦٤٠هـ) ، وهى أول مدرسة بنيت فى القاهرة على المذاهب الأربعة — الشافعى والمالكى والحنفى والحنبلى — واستمرت هذه المدرسة تؤدى رسالتها فى خدمة السنة حتى القرن التاسع الهجرى ـ الخامس عشر الميلادى ـ على أيام المؤرخ تقى الدين المقريزى[١] . وهكذا سار المماليك على سنة الأيوبيين فى إنشاء المدارس ، فحرصوا على أن يجعلوا منها أداة لخدمة السنة ومذاهبها. من ذلك ما أورده النويرى من وصف للمدرسة الناصرية التى أقامها السلطان الناصر محمد بن قلاون، إذ يقول أنه كان بها أربعة أواوين كل منها خاص بأحد مدرسى المذاهب الأربعة، فالمدرس المالكى اختص بالإيوان القبلى والشافعى بالإيوان البحرى والحنفى بالإيوان الشرقى والحنبلى بالإيوان الغربى[٢] .

ولم تكن المدارس هى المؤسسات الدينية الوحيدة التى أكسبت عصر المماليك طابعه الدينى الخاص؛ بل شهد ذلك العصر إقامة مؤسسات أخرى عديدة مثل المساجد والزوايا وغيرها ، والملاحظ أن كلا من المدرسة والجامع فى ذلك العصر، قامت بدور مزدوج فى خدمة الدين والعلم، ولكن الفارق بين الحالتين هو أن المدرسة — كما يتضح من اسمها — استهدفت أولا خدمة العلم وجاء نشاطها الدينى ضمنياً عن طريق تدريس العلوم الدينية مثلا ؛ وبالعكس كان الهدف الأول من الجامع أو المسجد خدمة الدين وإحياء شعائره وبعد ذلك جاء استخدام بعض المساجد فى التدريس ليحقق غرضاً آخر ثانويا ، لأن

---

(١) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٣٧٤ (بولاق) .
(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٣٤١ وما بعدها .

العلوم الدينية — من فقه وحديث وتفسير — احتلت مكان الصدارة فى دراسات ذلك العصر .

والواقع أن النشاط الدينى فى عصر المماليك تطلب إقامة «ما لا يكاد يحصى» من المساجد ، وبخاصة فى مصر والشام. وقد قدر المقريزى عدد المساجد التى تقام بها الجمعة بمصر والقاهرة بمائة وثلاثين مسجدا، فى حين قدرها خليل ابن شاهين الظاهرى بأكثر من ألف مسجد[١]. وفى عهد السلطان الناصر محمد، شيد السلطان الناصر وأمراؤه ثمانية وعشرين مسجدا وكان إذا تم بناء جامع أو مسجد رتب له خطيب وخدم واحتفل بافتتاحه فى حفل كبير [٢] .

التصوف والزوايا :

وهناك ظاهرة واضحة اتصفت بها الحياة الدينية فى مصر على عصر سلاطين المماليك، هى انتشار التصوف واتساع نطاقه . ويعلل الباحثون هذه الظاهرة بكثرة من وفد على مصر فى ذلك العصر من مشايخ الصوفية المغاربة والأندلسيين مثل السيد أحمد البدوى وأبى الحسن الشاذلى وأبى العباس المرسى وأبى القاسم القبارى، وهؤلاء وغيرهم ضاقوا بالحالة التى وصل إليها المسلمون فى المغرب والأندلس فهجروا بلادهم إلى المشرق ، حيث صادف أسلوبهم قبولا كبيرا فى مصر بالذات . والمعروف فى التاريخ أن حركات العزلة والانقطاع للعبادة تقوى دائما نتيجة لعدم رضى الناس عن أوضاعهم وتألمهم لسوء أحوالهم ، فينهجون نهجا دينيا ويحاولون الابتعاد ما أمكن عن متاع الدنيا وزخرفها عسى أن يتوب الله عليهم ويبدل حالهم [٣] .

---

(١) المقريزى . الخطط جـ ٤ ص ٩١
خليل بن شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ٣١ .
(٢) سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص ١٥٩ وما بعدها .
(٣) سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص ١٦٢ .

وكان المسلمون فى مصر بالذات فى القرن السابع الهجرى يشعرون بسوء أحوالهم نظرا للأخطار التى تعرضوا لها من جانب الصليبيين والتتار من ناحية فضلا عن تحكم المماليك فيهم واستئثارهم بخيرات البلاد واستبدادهم بأهلها ، وكثرة الفتن واختلال الأمن ، فضلا عن تجدد المجاعات والأوبئة بين حين وآخر . لذلك صادفت دعوة الصوفية استجابة قوية من المصريين، فازدادت أعدادهم فى سرعة وأطلقوا على أنفسهم اسم «الفقراء» إمعانا فى لصق صفة الزهد بهم .

وانقسم الصوفية إلى فرق عديدة ، لكل منها شيخها وشعارها ، فالطائفة الأحمدية مثلا نسبت إلى شيخها أحمد البدوى وشعارها اللون الأحمر، والرفاعية نسبت إلى أبى العباس أحمد المعروف بابن الرفاعى وشعارها اللون الأسود وهكذا وأقامت كل طائفة شيخا لها ، وعند موت شيخ الطائفة يخلفه خليفة يخلع عليه السلطان فى القلعة ثم يغادرها فى حفل كبير وقد أحاط به أتباعه[١]. وإذا ارتبط أحد الفقراء بشيخ من مشايخ الصوفية وأصبح من مريديه ألبسه الشيخ خرقة التصوف، والتزم المريد بطاعة شيخه طاعة عمياء[٢] وبالغ بعض شيوخ الصوفية فى عصر المماليك ، فاشترطوا فى العهد الذى يأخذونه على مريديهم ، ألا يبق للمريد تصرف فى ماله ولا زوجته ولا نفسه .

ومن المعروف أن حياة الصوفية قامت على أساس التقشف فى الملبس والمأكل حتى بالغ بعضهم فى ذلك فلبسوا المرقع من الثياب وصبروا على الجوع والعطش بضعة أيام. ولكن بعض الصوفية بالغوا فى التطرف، فنشأت عن ذلك طائفة المجاذيب أو الدراويش. وقد اشتهر هؤلاء الدراويش فى عصر المماليك بأفعالهم الغريبة التى زعموا أنها من الدين، فحلق بعضهم رأسه ولحيته وحاجبيه، وأزال

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٧٨

(٢) الشعرانى : لواقح الأنوار ج ١ ص ٢٤٢ .

رموش عينيه ، حتى بدوا فى صورة مخيفة أثارت دهشة من رأوهم من الرحالة المعاصرين[1] .

وقد استتبع انتشار التصوف وكثرة الصوفية فى عصر المماليك انتشار البيوت الخاصة بالصوفية ، وهى التى أطلق عليها خانقاوات وربط وزوايا. ذلك أن سلاطين المماليك وأمراءهم عنوا عناية فائقة بإنشاء بيوت الصوفية فشيدوا الكثير منها ، وحبسوا عليها الأوقاف السخية . وكان الأفقر والأحوج يقدم للنزول بالخانقاه ، وبعد ذلك يأتى الفقراء المغتربين ، كما كان يفضل الأعزب على المتزوج .

وجرت العادة أن يعين لكل خانقاه شيخ أو أكثر وعدد من الصوفية ، واشترط فى شيخ الخانقاه أن يكون « من جماعة الصوفية ممن عرف بصحبة المشايخ ، وألا يكون قد اتخذ من التصوف حرفة»[2] وقد كونت كل خانقاه وحدة قائمة بنفسها ، بداخلها عدد معين من الخلوات خصصت كل منها لأحد الصوفية . وكان للصوفيـة فى معيشتهم دخل زواياهم آداب خاصة وقواعد مرعية التزموا بها وأفاض المعاصرون فى وصفها[3] . اما الربط الخاصة بالنساء فكان الغرض منها أن تكون « كالمودع للنساء والأرامل» أى ملاجىء لهن . غير أن حياة الصوفية لم تلبث أن تغيرت أواخر عصر المماليك فتغير وضعهم من الصلاح إلى الفساد ، وتخلوا عن النظم والآداب التى عرفوا بها بين الناس مما أثار استنكار المعاصرين[4] .

---

(١) سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ١٩٩ .

(٢) حجة وقف بيبرس الجاشنكير (المحكمة الشرعية) .

(٣) المقريزى : المواعظ جـ ٤ ص ٢٧٤ ، رحلة ابن بطوطة جـ ١ ص ٧٣ .

(٤) سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص ١٧٤ — ١٧٥ .

الخلافة العباسية :

وثمة عمل خطير تم فى عصر المماليك وترتبت عليه نتائج هامة بالنسبة لتاريخ مصر والعالم الإسلامى ، هو إحياء الخلافة العباسية بمصر . ذلك أن العالم الإسلامى أخذ يحس بفراغ كبير بعد سقوط الخلافة العباسية فى بغداد على أيدى المغول سنة ١٢٥٨ ، إذ أمسى المسلمون بدون خليفة ، وهو أمر لم يعتادوه منذ وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام .

وكان من المتعذر أو المستحيل بعد مقتل الخليفة المستعصم العباسى أن يخلفه أحد أبناء بيته فى بغداد ، إذ غدت حاضرة العباسيين قاعدة للمغول الوثنيين الذين لم يكتفوا بقتال خليفة المسلمين وإنما أحرقوا جوامعهم وهدموا مساجدهم . لذلك أراد بعض حكام المسلمين فى البلدان المجاورة أن يغتنموا الفرصة لإحياء الخلافة فى بلادهم ، بما يعود على من ينجح فى ذلك بالمكانة السامية بوصفه حامى الخلافة العباسية المتمتع بعطفها وبيعتها (١) .

من ذلك ما يقال من أن الناصر يوسف الأيوبى - صاحب حلب ودمشق عند قيام دولة المماليك - فكرة عقب سقوط الخلافة العباسية فى بغداد فى استمالة أحد أبناء البيت العباسى الفارين من وجه التتار إلى مقر إمارته ببلاد الشام ليعلنه خليفة ، ويجنى من ذلك بعض المكاسب السياسية التى تمكنه من الصمود فى وجه المماليك بمصر . ولكن سرعة تطور الأحداث الى صحبت قيام دولة المماليك لم تمكن الناصر يوسف من تحقيق غرضه . كذلك فكر السلطان المظفر قطز فى إحياء الخلافة العباسية ، ومن ذلك ما يذكره السيوطى من أن قطز علم وهو بدمشق - عقب انتصاره على المغول فى عين جالوت - بوصول أحد أمراء بنى العباس . فأمر بإرساله إلى مصر حتى يتخذ العدة لإعادته إلى

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الظاهر بيبرس ص ٤٧ .

بغداد(١) . غير أن العمر لم يمهل قطز لينفذ مشروعه الخاص بإحياء الخلافة العباسية فى بغداد .

وقد شاءت الظروف أن يكون السلطان الظاهر بيبرس هو صاحب فكرة إحياء الخلافة العباسية فى مصر بالذات . ومهما يقال من أن بعض الحكام المسلمين فى بلاد الشام ومصر قد فكروا فى إحياء الخلافة العباسية قبل بيبرس، فإن هذه المشروعات لم تتحقق ، فضلا عن أن أحدها لم يتجه نحو التفكير فى إحياء الخلافة العباسية فى القاهرة بالذات ، مما ضمن للظاهر بيبرس فى التاريخ فخر تنفيذ الفكرة عمليا من ناحية ، وفخر ربط الخلافة العباسية فى ذلك الدور الجديد من أدوار تاريخها بمصر والقاهرة من ناحية أخرى(٢)

ذلك أن الأمير علاء الدين البندقدار نائب السلطان الظاهر فى دمشق كتب إليه يخبره بأن أحد بنى العباس — وهو الأمير أبو القاسم أحمد ابن الخليفة الظاهر أبو نصر محمد بن الناصر لدين الله أحمد بن المستضىء لدين الله العباسى — وصل إلى دمشق ومعه جماعة من عرب بنى مهنا يشهدون على صحة نسبه ، وأنه يريد أن يلحق بالسلطان الظاهر بيبرس بالقاهرة وكان أن وجد بيبرس فرصته فى مجىء ذلك الأمير ، فرد على الأمير البندقدار يأمره «بالقيام فى خدمته وتعظيم حرمته» كما أمره أن يرسل معه حجابا إلى مصر . وهكذا غادر الأمير العباسى دمشق «فسار بأوفر حرمه إلى جهة مصر» ؛ وفى القاهرة استقبل الأمير أحمد استقبالا حافلا ، فخرج السلطان إلى لقائه ومعه الوزير وقاضى القضاة وجمهور كبير من أعيان القاهرة وأهلها ، كما «خرجت اليهود بالتوراة والنصارى بالإنجيل» لاستقباله . وكان يوم دخوله القاهرة من الأيام

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣١٨ .

(٢) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ص ٤٨ .

المشهودة ، إذ سار فى شوارع القاهرة وقد لبس الشعار العباسى ، حتى صعد قلعة الجبل وهو راكب ، فأنزله السلطان « فى مكان جليل قد هيىء له بها ؛ وبالغ فى إكرامه وإقامة ناموسه »[١] .

ولم يمض على وصول الأمير أحمد العباسى ثلاثة أيام حتى عقد السلطان بيبرس مجلساً بقاعة الأعمدة فى القلعة لمبايعة الأمير العباسى بالخلافة . وقد حضر ذلك المجلس جمع حافل من القضاة ونواب الحكم والعلماء والفقهاء وأكابر المشايخ وأعيان الصوفية والتجار ووجوه الناس ، فى حين « جلس السلطان متأدباً » إلى جانب الأمير أحمد ، فلم يستخدم كرسيا أو مرتبة أو مسنداً ولما اكتمل الجمع شهد العربان وخادم من البغادة بصحة نسب الأمير أحمد العباسى ، وأقر هذه الشهادة أيضاً بعض القضاة والفقهاء ، قبل قاضى القضاة تاج الدين تلك الشهادات وسجلها ، ثم بايعه بالخلافة .

ولم يكد قاضى القضاة يفعل ذلك حتى تقدم السلطان بيبرس وبايعه أيضاً « على كتاب الله وسنة رسوله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله وأخذ أموال الله بحقها وصرفها فى مستحقها »[٢] . وبعد السلطان بايع جميع الناس « على اختلاف طبقاتهم » الخليفة الجديد ، كما كتب بيبرس إلى سائر الملوك والنواب خارج مصر لكى يأخذوا البيعة للخليفة العباسى الجديد الذى لقب بلقب المستنصر بالله ، وأمرهم بأن يدعى له على المنابر ، ثم يدعى للسلطان بعده وأن تنقش السكة باسمهما . أما الخليفة العباسى الجديد ، فقد قام بدوره بتقليد السلطان الظاهر بيبرس البلاد الإسلامية . ومعنى ذلك أن

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٤٨ — ٤٤٩ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ص ١٨ — ١٩ (مخطوط) ؛ المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٥٠ .

سلاطين المماليك أصبحوا فى نظر المعاصرين منذ ذلك الوقت أصحاب حق شرعى فى الحكم بعد أن غدوا متمتعين ببيعة الخلافة العباسية .

وقد تم ذلك كله يوم الاثنين ثالث عشر جمادى الأولى سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) . وفى يوم الجمعة التالى مباشرة صلى الخليفة بالناس فى جامع القلعة ودعا فى الخطبة للملك الظاهر بيبرس ، فسر الظاهر بذلك « ونثر عليه جملا مستكثرة من الذهب والفضة »(١) . وهكذا قضى الخليفة المستنصر بالله أيامه فى هناء بين ربوع القاهرة ، فتارة يصحبه السلطان للنزهة فى النيل ومشاهدة السفن الحربية وهى تقوم بمناوراتها وألعابها على صفحة الماء ، وطورا يخرج مع السلطان إلى بعض البساتين خارج القاهرة . ثم إن الظاهر بيبرس لم يقنع بكل ذلك وإنما أراد أن يجمع جميع أمراء المملكة ويقرأ عليهم تقليد الخليفة الملك الظاهر فى اجتماع عام وكان أن عقد ذلك الاجتماع فى المطرية ، وسمع جميع الأمراء تقليد الخليفة للسلطان « الديار المصرية والبلاد الشامية والديار بكرية والحجازية واليمنية والفراتية وما يتجدد من الفتوحات غوراً ونجداً » .

ولما فرغ القاضى فخر الدين بن لقمان - صاحب ديوان الإنشاء - من قراءة ذلك التقليد ، أحضر السلطان مظاهر خلعة السلطنة وهى جبة بنفسجية اللون وعمامة سوداء وطوق من ذهب وسيف ، فلبسها بيبرس واتجه فى موكب كبير نحو القاهرة ، لدخلها من باب النصر وشق القاهرة إلى القلعة وسط الزينات والأفراح « وضج الخلق بالدعاء بخلود أيامه واعزاز نصره »(٢) . على أن هذه المظاهر الضخمة التى صحبت إحياء الخلافة العباسية فى القاهرة ،

(١) المرجع السابق ،
ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٠١ .
(٢) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٤٥٧ .

لم تحل دون تشكك بعض المؤرخين فى صحة نسب الخليفة المستنصر بالله . من ذلك أن المؤرخ أبا الفدا يقول فى حوادث سنة ٦٥٩ هـ . « قدم إلى مصر جماعة من العرب ومعهم شخص أسود اسمه أحمد زعموا أنه ابن الإمام الظاهر بالله . . . » كما يقول أبو الفدا فى موضع آخر : « وبرز الملك الظاهر والخليفة الأسود . . » . أما مفضل بن أبى الفضائل فيسمى هذا الخليفة « المستنصر بالله الأسود »[١] .

وهكذا غدت القاهرة المركز الجديد للخلافة العباسية ، وظل الخلفاء العباسيون يتعاقبون واحداً بعد آخر فى مصر حتى الفتح العثمانى لهذه البلاد سنة ١٥١٧ . وجدير بالذكر أن السلطان الظاهر بيبرس وضع قواعد السياسة التى اتبعها سلاطين المماليك بمصر تجاه الخلافة العباسية ؛ إذ لم يلبث الخليفة العباسى أن أصبح شبه محجور عليه فى القاهرة . فلا يتصل به أحد من المسئولين فى الدولة دون إذن السلطان وبعبارة أخرى فإن الوضع الذى استقر عليه حال الخلفاء العباسيين فى مصر ، صار أن يفوض الخليفة الأمور العامة إلى السلطان ويكتب له عنه عهداً بالسلطنة ، ويدعى له قبل السلطان على المنابر . وفيما عدا ذلك يستبد السلطان بكافة شئون الدولة ، فى حين يقنع الخلفاء بالتردد على أبواب السلاطين والأمراء لتهنئتهم بالشهور والأعياد[٢] . وقد عبر المقريزى عن ذلك الوضع ، فقال عن الخليفة العباسى فى القاهرة إن خلافته « ليس فيها أمر ولا نهى وحسبه أن يقال له أمير المؤمنين »[٣] .

على أنه يجدر بالذكر أن الخلفاء العباسيين حاولوا فى عصر دولة المماليك الجراكسة الخروج عن عزلتهم والمشاركة فى الأحداث السياسية المحيطة بهم

---

(١) أبو الفدا : المختصر جـ ٣ ص ٢١٣ ؛
مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ص ١٠٥ .
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٧٥ .
(٣) المقريزى : المواعظ جـ ٣ ص ٣٩٤ .

وربما كان للضغط الذى لقيه الخلفاء العباسيون منذ إحياء الخلافة العباسية فى القاهرة على أيام بيبرس ، أثر فى تحريك الخلفاء فى الدولة الثانية للتنفيس عن أنفسهم عن طريق الاشتراك فى الثورات التى طفح بهـــا عصر المماليك الجراكسة(١) وكان أن تحققت مطامع الخلفاء العباسيين فى ذلك العصر عندما ولى الخليفة المستعين السلطنة سنة ١٤١٢ م (٨١٥هـ) ؛ وهى حالة فريدة من نوعها فى عصر المماليك . ولكن تعيين الخليفة المستعين سلطانا لم يكن إلا سداً لثغرة ، حتى ينجلى الموقف بين الأميرين المتنافسين حول السلطنة وهما نوروز وشيخ . وعندما انجلى الموقف استطاع الأمير شيخ أن يعزل المستعين من دست السلطنة بنفس السهولة التى وضعه بها فيه .

---

(١) إبراهيم طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ص ٥٣ .

الفصل الثانى عشر

نظام الحكم والقضاء

النظام الإقطاعى:

كانت دولة المماليك دولة إقطاعية بكل معانى الكلمة ، فقسمت أراضى مصر إلى أربعة وعشرين قيراطا . اختص السلطان منها بأربعة قراريط للكلف والرواتب ، واختص الأمراء بعشرة ، والعشرة الباقية كانت من نصيب الأمراء وكان من الطبيعى أن يستأثر السلطان وكبار الأمراء بأجود الأراضى وأكثرها خصوبة ، فى حين أخذ المماليك السلطانية الأراضى الأقل خصوبة ، أما أراضى الدرجة الثالثة فكانت من نصيب أجناد الحلقة والعربان والتركمان[1] .

وكان الإقطاع أمراً شخصياً بحتا لا دخل لحقوق الملكية أو لأحكام الوراثة فيه بمعنى أنه كان مفروضاً فى المقطع أن يحل محل السلطان فى أن يتمتع بغلات الإقطاع وإيراده فحسب ، فإذا مات المقطع أو أخل بشروط الإقطاع ، جاز للسلطان أن يستولى على إقطاعه فوراً[2] . أما المناسبات التى تجرى فيها عملية توزيع الإقطاعات فكانت عديدة ، أهمها قيام سلطان جديد فى الحكم ، فيجرى حركة لإعادة توزيع الإقطاعات - بين منح وزيادة وإنقاص - لمكافأة الأنصار ومعاقبة الخصوم . كذلك اعتاد سلاطين المماليك أن يوزعوا الإقطاعات عند عرض الجنود ، فيستعرض السلطان الجند أكثر من مرة خلال سلطنته ليستوثق من القادرين على الخدمة العسكرية ،

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٥٨ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٠٩ حاشية ٣ للدكتور زيادة .

ويستبعد غير القادرين ويوفر إقطاعاتهم ليوزعها على الأكفاء القادرين . فإذا توافرت للدولة أراضى جديدة عن طريق الفتح أو استصلاح الأرض البور أو شق قناة أو ترعة ، قام السلطان بتوزيع هذه الأراضى على هيئة إقطاعات(١).

على أنه حدث أكثر من مرة فى عصر المماليك أن مسحت أراضى مصر مسحا شاملا قياسها وحصرها فى سجلات، وتقدير قيمتها وخصوبتها. وتشبه هذه العملية فى الوقت الحاضر فك الزمام ، وكان يستتبعها فى عصر المماليك إعادة توزيع الإقطاعات . وقد سميت تلك العملية فى عصر المماليك «الروك»، وأشهرها الروك الحسامى نسبه إلى السلطان حسام الدين لاجين ، والروك الناصرى نسبة إلى السلطان الناصر محمد بن قلاون . أما الروك الحسامى فقد فقد تم سنة ١٢٩٧ م (٩٦٧ هـ) واستغرق إجراؤه مجهود ثمانية وخمسين يوما ولكن الأمراء والجند لم يرضوا عن التغيير الجديد الذى تعرضت له إقطاعاتهم نتيجة لروك الحسامى ، «وبان فى وجوههم التغير لقلة المبرة»(٢). وهكذا ظل الأمراء والجند فى حالة قلق حتى أجرى السلطان الناصر محمد الروك الناصرى سنة ١٣١٥م (٧١٥ هـ) ، فاستغرق إجراؤه خمسة وسبعين يوما ، وترتبت عليه زيادة أنصبة الأمراء والأجناد ، فصارت أربعة عشر قيراطاً بعد أن كانت أحد عشر فى الروك الحسامى(٣).

وفى جميع الحالات السابقة كان السلطان هو الذى يتولى بنفسه غالباً توزيع الإقطاعات، فإذا تقدم إليه المملوك سأله عن اسمه وأصله وتاريخ قدومه إلى الديار المصرية وأستاذه الذى اشتراه من تاجره ، وعن حياته التعليمية من الكتاب فى الطباق إلى ميدان الفروسية(٤) . فإذا وقع اختياره عليه

---

(١) إبراهيم طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ص ٢١٨—٢١٩ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٨٤٥ .

(٣) العينى : عقد الجمان ج ٢٣ ق ١ ص ٥٤ .

المقريزى : المواعظ ج ١ ص ٨٨ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ٥١ — ٥٢

يمنحه إقطاعا أمر ناظر الجيش بأن يكتب له ورقة مختصرة تسمى « المثال » مضمونها حيز فلان كذا ، ويكتب اسم المقطع ثم يناولها للسلطان . وبعد أن يوقع عليها السلطان يعطيها الحاجب لمن رسم له ، فيقبل الأرض ثم يعاد المثال إلى ديوان الجيش فيحفظ فيه . وقد اختص السلطان بإصدار مناشير الأمراء وأجناد الحلقة ، أما أجناد الأمراء فصدرت مناشيرهم عن أمرائهم . كذلك روعى أن يعين فى منشور الأمير ثلث الإقطاع للأمير نفسه ولأجناده الثلثان(١) .

أما الأمراء والمماليك المسنون الذين لا يقوون على تحمل تبعات الإقطاع ، فاعتاد سلاطين المماليك أن يمنحوهم بدل الإقطاع رواتب نقدية تخصص لها جهات معينة يتناول المقطع نصيبه منها . ويذكر المقريزى أنه جاء وقت أصبحت فيه معظم الضرائب والمكوس المفروضة فى مصر « عليها اقطاعات الأمراء والأجناد » . فلما راك الناصر محمد البلاد ، أبطل هذا النوع من الرواتب التى تحمل صفة الإقطاع « وصارت الإقطاعات كلها أراض وبلادا »(٢) . كذلك أصبح من القواعد المستقرة منذ الروك الناصرى ألا يكون الإقطاع وحدة متماسكة من الأرض ، بل يوزع إقطاع الفرد الواحد بين عدة جهات مختلفة . وهكذا أصبح زمام القرية الواحدة مقسما بين عدة مقطعين ، لكل منهم أتباعه الذين يدفعون المستحق عليهم لسيدهم مباشرة أو لمندوبه المسمى « القاصد » . وفى جميع هذه الأحوال لم يتعد المقطع حدوده المرسومة له ، ولم يأخذ من إقطاعه إلا ما جرت به العادة ، فإذا ظلم أحد جاز للمظلوم أن يرفع أمره إلى الديوان السلطانى أو إلى السلطان فى دار العدل(٣) .

---

(١) المقريزى : المواعظ ج ٣ ص ٣٥٠ — ٣٥٣ .
(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ٥٢ ؛
المقريزى : المواعظ ج ٣ ص ٣٥٣ .
(٣) سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص ٢٠ — ٢١ .

على أن النظام الإقطاعى لم يظل على حاله من الثبات والإحكام طوال عصر المماليك، إذ لم يلبث أن تطرق إليه الفساد والخلل - مما يعتبر مظهراً أو سبباً - للفساد العام الذى اعترى الدولة وأجهزتها فى أواخر عصر المماليك. وكان أبرز مظاهر ذلك الخلل تصرف الأمراء والأجناد فى إقطاعاتهم عن طريق البيع والتنازل والمقايضة. فمن أراد النزول عن إقطاعه حمل مالا إلى بيت المال بحسب ما يقرر عليه، الأمر الذى أدى إلى دخول كثير من الكتاب وأرباب الوظائف الدينية وأرباب الصنائع والحرف ضمن أجناد الجيش. ولما كان الجيش فى عصر المماليك يعتمد فى نظامه على الإقطاع، فقد أدى فساد النظم الإقطاعية إلى ضعف الجيش وانهيار دعائمه(١).

السلطان :

وكان سلطان المماليك على رأس الهرم الإقطاعى، وهو فى الوقت نفسه رئيس الجهاز الحكومى فى البلاد وصاحب أعلى سلطة فيها. وقد تلقب سلاطين المماليك بألقاب عديدة منها « سلطان الإسلام والمسلمين » و « قسيم أمير المؤمنين ». ويشير اللقب الأول إلى حرص سلاطين المماليك على التمسح بالإسلام ومحاولة إضفاء صفة شرعية على حكمهم، فى حين يلقى اللقب الثانى ضوءا على العلاقة الصورية بين سلطان المماليك والخليفة العباسى فى القاهرة، بوصفهما شريكان فى حكم المسلمين، أحدهما يمثل الجانب السياسى والحربى، والآخر يمثل الجانب الدينى. على أنه لا ينبغى أن يفهم من ذلك أن جميع سلاطين المماليك اشتركوا فى ألقاب واحدة، وإنما اختلفت الألقاب التى اتخذها كل سلطان عن الآخرين ؛ فهذا « السلطان الأعظم العالم العادل »، وذاك « السيد الأجل الكبير » وهكذا.

---

(١) السيد الباز العرينى : الإقطاع الحربى بمصر ص ٢٢ .

والمعروف أن السلطان فى عصر المماليك كان أميراً من الأمراء وزعيما مكنته قوته وشخصيته وكثرة مماليكه من التفوق على أقرانه والوصول إلى منصب السلطنة . فإذا وصل أمير إلى السلطنة أصبح صاحب الحق فى الهيمنة على بقية الأمراء ومماليكهم بوصفه زعيمهم ورأس دولتهم ، فيرفع من يختار من المماليك إلى مرتبة الإمارة ويمنح الإقطاعات حسب ترتيب معين ، ويباشر سلطاته الواسعة فى توزيع المناصب وتعيين كبار الموظفين(١) .

ولكن ليس معنى هذه السلطة المطلقة التى تمتع بها سلطان المماليك أنه استغنى عن رأى كبار الأمراء ورجال الدولة ، إذ الواقع أن سلاطين المماليك استشاروهم قبل الإقدام على أية خطوة خطيرة ، وكانت هذه الاستشارة تتم فى مشور - أى مجلس المشورة - الذى تألف برياسة السلطان وعضوية أتابك العسكر والخليفة العباسى والوزير وقضاة المذاهب الأربعة وأمراء المئين وعددهم أربعة وعشرون أميرا . فإذا كان السلطان قاصرا تولى رآسة هذا المجلس الوصى عليه أو نائب السلطنة ، وجرت العادة أن السلطان لا يتكلم بنفسه فى هذا المجلس خوفاً من أن ينقض الأمراء رأيه فينقص ذلك من هيبته وجلال مركزه ، ولذلك قام المشير بالكلام عن السلطان ، وقد تعددت اختصاصات مجلس المشورة فى عصر المماليك ، فنظر فى شئون الحرب والصلح ، وناقش شغل مناصب النيابات والوظائف الكبرى فى الدولة . على أن السلطان لم يكن ملزماً بدعوة مجلس المشورة أو الأخذ برأيه ، أى أن السلطان كان صاحب الرأى الأخير فى جميع الأمور بوصفه حاكما مطلقا(٢) .

---

(١) سعيد عاشور : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ص ١٣٨ .

(٢) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٠٦ ، ٩ .

القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٦ — ١٧ .

وكان السلطان يقيم ومعه أسرته وحاشيته ورجال بلاطه فى قلعة الجبل والواقع إن هذه القلعة فى عصر المماليك لم تكن مركز الحكم ودار السلطان فحسب ، بل كانت بمثابة مدينة صغيرة تضم طباق المماليك السلطانية ، ودور خواص الأمراء ونسائهم وأولادهم ومماليكهم ودواوينهم ، فضلا عن دار الوزارة التى اشتملت على قاعة الإنشاء وديوان الجيش وبيت المال وخزانة الخاص[1] . وكانت قلعة الجبل موضع عناية سلاطين المماليك دائماً فأقاموا فيها العمائر الكثيرة والقصور والمساجدالعديدة ، مما جعلها مثار دهشة الرسل والسفراء الأجانب .

وأشرف على أعمال الصيانة العامة بالقلعة ديوان الدولة الشريفة الذى تولى ناظره الإنفاق على قصور السلاطين من عمائر وأسمطة وصدقات وكل ماتحتاج إليه البيوت السلطانية . أما هذه البيوت فكانت عديدة لكل منها مباشر من أمراء المئين له مساعدون وغلمان عديدون[2] . ومن هذه البيوت الشرابخاناه – أى بيت الشراب – ويحوى مختلف أنواع الأشربة والأدوية التى يحتاج إليها السلطان ؛ والطشت خاناه وفيه أنواع الأوانى والطشوت والأباريق اللازمة لغسل الأيدى والوضوء والاستحمام ، والفراش خاناه وفيه أنواع الفرش والبسط والخيام والتخوت والوسائد وغيرها ، والسلاح خاناه وبه جميع أنواع الأسلحة من سيوف وقسى ورماح ودروع ونشاب ، والركاب خاناه وبه آلات الخيل من سروج وغيرها ، والطبلخاناه وبه الطبول والأبواق وتوابعها ، والحوائج خاناه ويختص بالأسمطة السلطانية كما يشرف على المطبخ السلطانى[3] .

---

(١) المقريزى : المواعظ ج ٣ ص ٣٣٣ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٠ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٩ — ١٣ ،
النويرى : نهاية الأرب ج ٨ ص ٢٢٢ — ٢٢٦ .

النظام الإدارى :

بلغت النظم الإدارية فى دولة المماليك درجة كبيرة من الدقة والأحكام فوجدت إدارة مركزية مقرها القاهرة وعمادها مجموعة من الدواوين وكبار الموظفين ؛ ووجدت إدارة محلية تشرف على الأقاليم وعلى رأسها مجموعة من النواب والولاة وعلى رأس هذا الجهاز الضخم وجد سلطان المماليك يوجه أمور البلاد والعباد ، ويتلقى الأخبار ويرسل تعليماته عن طريق شبكة محكمة من خطوط البريد .

وأول الموظفين الكبار الذين ساعدوا السلطان فى شئون الحكم والإدارة هو نائب السلطنة ، ويتضح من اسم هذه الوظيفة أن صاحبها كان بمثابة الوكيل عن السلطان وساعده الأيمن فى تصريف شئون الدولة ، بل كان « السلطان الثانى » على قول القلقشندى[1] ذلك أنه اشترك مع السلطان فى إصدار القرارات ومنح ألقاب الإمارة وتوزيع الإقطاعات ، فضلا عن تعيين كبار الموظفين لذلك تلقب نائب السلطنه بلقب « كافل الممالك الشريفة الإسلامية الأميرى الأمرى »[2] ، لأنه تكفل بكثير من أمور الدولة . وكانت نيابة السلطنه على نوعين فى عصر المماليك ، فهناك النائب الكافل أو نائب الحضرة ، وهو الذى ينوب عن السلطان أثناء وجوده وإقامته فى مصر ، وهناك نائب الغيبة وهو أقل درجة وينوب عن السلطان أثناء غيبته فقط ، فى حرب أو حج أو غير ذلك .

أما نواب السلطنة فى نيابات الشام — وهى دمشق وحلب وطرابلس وحماه وصفد والكرك — فناب كل منهم عن السلطان فى وحدته الإدارية ،

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٩ — ١٢ .

(٢) العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ص ٦٥ — ٩٩ .

واعتبر ممثلا له فى إدارتها . وكان على نواب الشام أن يرجعوا إلى السلطان - أو نائبه فى مصر - فى المسائل التى لا يستطيعون الانفراد بالبت فيها ، ولما كان هؤلاء النواب مسئولين عن الدفاع عن إماراتهم ضد الأخطار الخارجية والداخلية ، حرص السلاطين على اختيارهم دائماً من كبار الأمراء أرباب السيوف المعروفين بشجاعتهم الحربية ومهارتهم الإدارية[١] .

وبعد نائب السلطنة يأتى الأتابك ، وهو القائد العام للجيش المماليكى ، وكان لقب أتابك يطلق عند السلاجقة على المؤدب أو المربى أو الوصى ، ثم أصبح من ألقاب التشريف التى تخلع على كبار الأمراء ، حتى غدا فى عصر المماليك لا يطلق إلا على قائد العسكر ، ومن الواضح أن صاحب هذه الوظيفة تمتع بنفوذ كبير وكلمة عالية فى الدولة ، بوصفه رأس الجيش وصاحب القوة الضاربة بين كبار الأمراء[٢] . ولا أدل على نفوذ الأتابكة وقوتهم من أن كثيراً منهم وصلوا إلى دست السلطنة إما عن طريق الاغتصاب أو بفضل قوتهم . أما إذا ولى الحكم سلطان قاصر . فإنه كان يصبح ألعوبة فى يد أتابك الجيش يتحكم فيه كيفما شاء ، كما فعل الأمير زين الدين كتبغا المنصورى عندما استبد بالسلطان الناصر محمد فى سلطنته الأولى ، حتى انتهى الأمر بالأتابك إلى إعلان نفسه سلطانا سنة ١٢٩٤[٣] .

أما الوزير فكان هو الآخر يلى نائب السلطنة فى المرتبة ، ومن الواضح أن نفوذ الوزير فى دولة المماليك تضاءل عما كان عليه زمن العباسيين بالعراق

---

(١) الخالدى : كتاب المقصد الرفيع ص ٩٠ — ٩٣ (مخطوط) ؟
القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٧٢ وما بعدها ؟ .
Wiet : L'Egypte Arabe pp. 366—398.

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨ .

(٣) على ابراهيم حسن : دراسات فى تاريخ المماليك البحرية ص ٢٢٣ — ٢٢٤ .

أو الفاطميين بمصر . ذلك أن نائب السلطنة فى دولة المماليك أصبح الرجل الثانى فى الدولة وبذلك لم يترك للوزير شيئاً من ذلك النفوذ الواسع الذى تمتع به فى العهود السابقة . ويعبر ابن خلدون عن انحطاط وظيفة الوزير فى عصر المماليك ، فيقول إنها غدت « مرءوسة ناقصة »[1] ، بحيث لم يتعد نفوذ الوزير عندئذ تنفيذ تعليمات السلطان ونائبه ، والإشراف على شئون الدولة المالية بالاشتراك مع ناظر الدولة ، وفى بعض الأحيان عين سلطان المماليك وزيرين فى وقت واحد أحدهما من أرباب الأقلام أو المعممين وأطلق عليه وزير الصحبة ، والثانى من أرباب السيوف أو الأمراء وأطلق عليه الوزير فقط[2] . ولا أدل على تناقص أهمية الوزارة فى عصر المماليك ، من أن هذه الوظيفة كانت تلغى فى بعض الأحيان ، أو تظل شاغرة دون أن يحدث خلل فى الجهاز الإدارى للدولة ، بل لقد حدث أن ألغيت وظيفة الوزارة سنة ٧٢٧ هـ (١٣٢٧ م) ، وظل منصب الوزير شاغرا سبعة عشر سنة إلى أن أعيد سنة ٧٤٤ هـ (١٣٤٣ م) .

وهناك فريق آخر من كبار الموظفين قاموا بدور هام فى إدارة جهاز دولة المماليك ، هى فئة الولاة التى كان أفرادها يختارون دائماً من بين الأمراء ليقوموا بوظيفة المحافظ اليوم فى الأقسام الإدارية . وكان أكبر هؤلاء الولاة شأناً ، والى القاهرة الذى عهد إليه بالإشراف على العاصمة وصيانتها ، وحماية أهلها من عبث المفسدين واللصوص ومثيرى الفتن فإذا شب حريق فى العاصمة بادر الوالى على رأس رجاله لإطفائه ، وإذا كثرت مناسر اللصوص تعقبهم الوالى للقضاء عليهم ، وإذا تفشى شرب الخمور أسرع الوالى إلى مناطق عصر الخمور فى القاهرة لمعاقبة أصحابها ومصادرة خمورهم ، وإذا فشا تعاطى الحشيش كافح

---

(١) مقدمة ابن خلدون : ص ٢٠٨ .

(٢) الخالدى : المقصد الرفيع ص ١٢٦

الوالى بزارع المخدرات بجهة باب اللوق وأحرق منتجاتها(١) . وهكذا تصور لنا المراجع المعاصرة والى القاهرة ورجاله فى صورة حركة دائمة، ففى النهار يطوف معهم الأسواق والدروب لمنع الغش ومكافحته ، وفى الليل يتصيد السكارى واللصوص والعابثين للقبض عليهم ومحاكمتهم. هذا كله فضلا عن مراقبة أبواب القاهرة والإشراف على إغلاقها ليلا حتى لا يتسرب إلى المدينة عدو أو مفسد. ونظراً لأهمية وظيفة الوالى وخطورة مسئولياته، فإنه كان لا يستطيع « النوم خارج المدينة إلا بمرسوم خوفا من حريق أو مفسر أو كسر حاصل أو فتح وغير ذلك(٢)». وقد ساعد والى القاهرة ولاة آخرون، أهمهم والى الفسطاط ويشرف على مصر (الفسطاط والعسكر والقطائع)؛ ثم والى القرافة للإشراف على شئون القرافة ومنع المساخر فيها ، وأخيراً والى القلعة أو نائبها للإشراف على فتح أبوابها فى الصباح وإغلاقها فى المساء (٣) .

وثمة مدينة واحدة فى البلاد المصرية عين لها نائب وصارت نيابة مثل النيابات الشامية، هى مدينة الإسكندرية التى ازدادت أهميتها منذ سنة ١٣٦٥ وأصبحت ثغر مصر الأول على البحر المتوسط ، فكثرت عدد الجاليات الأجنبية بها مما تطلب إعطاءها قسطا خاصا من العناية الإدارية . لذلك تمتع نائب الإسكندرية بمكانة سامية تناسب ما للثغر من أهمية فى ذلك العصر ، حتى جاء وقت أصبح يعادل فى مكانته نائب السلطنة فى دولة المماليك . على أن تحويل مدينة الاسكندرية سنة ١٣٦٥ بالذات من ولاية يحكمها وال إلى نيابة يحكمها نائب أمر يدعو إلى الانتباه ؛ وربما كان ازدياد نشاطها التجارى فضلا عما حدث فى هذه السنة من قيام ملك قبرس بحملته الصليبية الشهيرة على الإسكندرية،

---

(١) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ١٤٨ .

(٢) الخالدى : المقصد الرفيع ص ١٢٨ .

(٣) سعيد عاشور : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ص ١٤٢ .

أثر فى هذا التحول (١) .

إما الإدارة الإقليمية فى أعمال الوجهين البحرى والقبلى — خارج القاهرة والإسكندرية — فأشرف عليها مجموعة من الولاة . وكان الوجه البحرى مقسما إلى عشرة أعمال هى القليوبية والشرقية والدقهلية (المرتاحية) ودمياط والغربية والمنوفية وأبيار والبحيرة وفوه والمنزاوية . وحكم كل منها والى ماعدا البحيرة فكان يحكمها نائب . ولعل السبب فى زيادة عناية السلاطين بأمر البحيرة ، هو تخوفهم من كثرة الأعراب ومايقومون به فيها من فتن وثورات بين حين وآخر . أما أعمال الوجه القبلى فكانت ثمانية ، لكل منها واليها هى الجيزة والفيومية والأشمونية والأخيمية والأطفيحية والبهنساوية والأسيوطية والقوصية . وكانت أسوان تابعة لعمل قوص ، ولكنها استقلت وصارت عملا قائما بنفسه منذ عهد الناصر محمد (٢) . ويلاحظ أنه لم يوجد نائب لكل من الوجهين البحرى والقبلى إلا فى عصر دولة المماليك الجراكسة أو الثانية ، أما فى دولة المماليك البحرية فوجد كاشف للوجه البحرى يمتد نفوذه على جميع أقاليم الدلتا ، وآخر للوجه القبلى يمتد نفوذه على جميع أقاليم الصعيد . وجرى الاصطلاح بتسمية هذا الكاشف « والى الولاة » ، وتمتع بنفوذ كبير على الأقاليم التابعة له (٣) .

ومهما يكن من أمر ، فإن دولة المماليك شهدت نظاما إداريا بالغ الدقة ، ونهض بذلك النظام مجموعة كبيرة من الموظفين . وقد انقسم الموظفون إلى قسمين كبيرين : أرباب السيوف وأرباب القلم . أما أرباب السيوف فكانوا من طبقة المماليك ، أى أنهم لم يختاروا من المصريين ، فى حين كان أرباب القلم

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٠٤ ؛ ج ٤ ص ٢٤ ؛ ج ١١ ص ٤٠٥ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٩٢ — ٣٩٨ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٦٤ .

من طائفة المعممين أى من المصريين المشتغلين بالكتابة والعلم . ويبدو أن الموظفين — كبارهم وصغارهم — لم يتمتعوا بقدر كبير من الاستقرار فى عصر المماليك ، وهذا فى الواقع لا يعدو أن يكون جزءا من الطابع العام الذى اتصفت به دولة المماليك . وكثيرا ما كان يتعرض الموظف للعزل أو الحبس أو الإعدام لمجرد ظنون وأوهام، أو لعدم قدرته على إرضاء أولى الأمر . فإذا أعفى الموظف من عمله فرضت عليه رقابة وربما ألزم بالإقامة فى مدينة بعيدة مثل القدس أو قوص أو مكة . وذلك خشية أن يسبب متاعب للحكام (١) .

الدواوين :

وكان من الطبيعى أن يعتمد هذا الجهاز الإدارى الضخم الذى شهدته دولة المماليك على مجموعة من الدواوين الكبيرة لإدارة مرافق الدولة العديدة . أما أهم هذه الدواوين الحكومية فى عصر المماليك ، فكانت ديوان الجيش وديوان الإنشاء وديوان الأحباس وديوان النظر وديوان الخاص .

وقد تمتع ديوان الجيش بأهمية كبرى فى دولة المماليك ، وهى الدولة ذات الصبغة الحربية ، والتى اعتمدت فى قيامها وبقائها على فكرة الحرب والقتال . ولفهم طبيعة عمل ديوان الجيش يصح أن نشير إلى أن الجيش المماليكى تألف من ثلاثة طوائف أساسية هى المماليك السلطانية وأجناد الحلقة ومماليك الأمراء . أما المماليك السلطانية فهم مماليك السلطان القائم ، ووصفهم القلقشندى بأنهم « أعظم الأجناد شأنا وأرفعهم قدراً وأشدهم قربا وأوفرهم إقطاعا ، ومنهم تؤمر الأمراء رتبة بعد رتبة » (٢) . أما أجناد الحلقة فهم مماليك السلاطين والأمراء

---

(1) Wiet : Les Mosquées du Caire, p. 66.

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٥ .

السابقين وأولادهم ، وهؤلاء احترفوا الجندية وأصبحوا بمثابة جيش ثابت للدولة . وأخيراً تأتى الطائفة الثالثة التى تشمل مماليك الأمراء ، وهم المماليك الذين اشتراهم أمراء المماليك — كل حسب سعته ورتبته وإقطاعه — وتعهدوهم بالتربية والعناية (١) .

وأشرف ديوان الجيش فى دولة المماليك على هذه الطوائف الثلاث التى تألف منها الجيش المماليكى . ففيه تحفظ الأوراق الخاصة بجميع الجنود والأمراء ، وبخصوص أجناد الأمراء ، فقد جرت العادة أول الأمر بإدراج أجناد كل أمير فى ديوان الجيش ، ثم تغير هذا النظام زمن القلقشندى ، وصار لكل أمير ديوان خاص وسجل يحوى أسماء أجناده ترسل منه صورة إلى ديوان الجيش . ولا يستطيع الأمير أن يدخل فى خدمته مماليك جدداً إلا بسبب وفاة أو مقتل أو طرد أحد أجناده من الخدمة (٢) .

ومن أهم اختصاصات ديوان الجيش فى دولة المماليك المسائل المتعلقة بالإقطاعات ، ففيه سجل خاص لكل إقطاع يمنحه السلطان ، واسم المقطع ومساحة إقطاعه ونوعه . أما ناظر هذا الديوان — الذى عرف باسم ناظر الجيش — فكانت وظيفته أهم الوظائف فى الدولة ، وكان يعاونه بعض كبار الموظفين مثل صاحب ديوان الجيش وينوب عن الناظر فى تصريف شئون الديوان ، ومستوفى الجيش ويقوم بتحديد الرواتب التى تصرف للجند وتسجيلها فى كشوف خاصة بمساعدة مستوفى الإقطاعات ، ومستوفى الرزق ويشرف على صرف مرتبات الأجناد وأرزاقهم العينية . واشترط فى هؤلاء الموظفين جميعا الأمانة التامة والكفاية المطلقة (٣) .

---

(١) سعيد عاشور : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ص ١٤٥ .
(٢) السيد الباز العرينى : الإقطاع الحربى بمصر زمن سلاطين المماليك ص ٦ .
(٣) الخالدى : المقصد الرفيع ص ١٣٦ .

أما ديوان الإنشاء فوظيفته تبادل المكاتبات الرسمية الخاصة بالدولة، وهى المكاتبات التى ترد إلى السلطان من مختلف الدول وإعداد الردود عليها، فضلا عن إعداد الرسائل التى يبعث بها السلطان إلى مختلف الملوك والأمراء وتلقب صاحب ديوان الإنشاء فى عصر المماليك بناظر الإنشاء الشريف، كما أضيفت عليه عدة ألقاب أخرى تشير كلها إلى خطورة مهمته بوصفه الأمين على أسرار الدولة ودخائل السلطان، حتى أن السلاطين كانوا « يطلعونه على مالا يطلعون عليه أولادهم ولا أخص الأخصاء من الأمراء والوزراء وغيرهم »[1]. وروعى فى اختيار صاحب هذا الديوان أن يكون « فصيح الألفاظ طلق اللسان أصيلا فى قومه وقوراً حليما . . . »[2] .

ولم تلبث أن اتسعت أعمال صاحب ديوان الإنشاء، إذ كان عليه أن يبلغ السلطان عما يصله من الأخبار الداخلية أولا فأول، ويحضر — بحكم منصبه — اليمين التى يؤديها الولاة والحكام والأمراء عند تعيينهم فى مناصبهم، ويكتب المراسيم الخاصة بتولى هذه المناصب ولم تكن هذه المهمة الأخيرة بالسهولة التى قد يتصورها البعض فى عصر مثل عصر المماليك الذى عرف برعاية قواعد البروتوكول والتمسك بهذه القواعد. فلكل مقام مقال، ولكل موظف أو أمير أو حاكم تقليد خاص وأسلوب خاص يخاطب به حسب درجته ورتبته بل إن الرسائل التى صدرت عن ديوان الإنشاء باسم السلطان اختلفت فى نوع الورق المدونة عليه وحجم هذا الورق، ونوع الخط، وذلك كله باختلاف مكانة الشخص المرسل إليه، وهو ما أفرد له القلقشندى صفحات كثيرة فى كتابه صبح الأعشى.

ولما كان من الصعب على فرد واحد أن يقوم بكل هذا العبء الثقيل، وجد لصاحب ديوان الإنشاء أعوان لهم « نائب كاتب السر »، الذى ينوب

(١) المرجع السابق ص ١٢٠ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ١٠٤ — ١٠٥ .

عن ناظر الديوان فى الرد عن المكاتبات الواردة فى حالة تغيب الناظر أو تخلفه لحضور مجالس السلطان (١) . ويلى نائب كاتب السر فى المرتبة «كتاب الدست الشريف» ، وهم كتاب ديوان الإنشاء الذين أطلق عليهم اسم «الموقعين» لأنهم كانوا يجلسون مع رئيسهم كاتب السر بمجلس السلطان بدار العدل ، ويوقعون على الشكاوى والقصص المرفوعة إليه (٢) .

وتوزعت أعمال ديوان الإنشاء على كتاب الدست ، فكان منهم من يقوم بصياغة الرسائل الموجهة إلى ملوك المسلمين وأمرائهم ، واشترط فيه الدارية الخاصة بألقابهم، ومنهم من يقوم بصياغة المكاتبات الموجهة إلى ملوك الفرنجة أو ترجمة الرسائل الموجهة من هؤلاء الملوك إلى السلطان، ويشترط فى هذا النوع من المكاتبات دراية باللغات الأجنبية ، ومنهم من اشتهر بحسن الخط على أنواعه وارتبط بكاتب السر فى عمله موظف كبير اسمه الدوادار ، وهو الذى يقوم بتبليغ الرسائل عن السلطان وإليه ولما كان صاحب هذه الوظيفة يطلع على كل ما يصدر من ديوان الإنشاء وما يرد عليه من مكاتبات، لأنه هو الذى يختمها بخاتم الدولة ويقيدها فى سجلات خاصة (أرشيف) ، فإن وظيفته كانت من الوظائف الخطيرة فى عصر المماليك ، وكان اختياره دائما من كبار الأمراء (٣) .

وهناك إدارة تمتعت بقسط كبير من الأهمية فى عصر المماليك وكانت تتبع ديوان الإنشاء ، هى إدارة البريد التى تولت ربط مختلف أطراف الدولة بعضها ببعض . وكان البريد على نوعين : برى وجوى ، فالبريد كان بواسطة الخيل

---

(١) الخالدى : المقصد الرفيع ص ١٣٤ .
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ١٣٨ .
(٣) العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ص ٢٥٠ ؟
الخالدى : المقصد الرفيع ص ١٢١ ؟
القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٢ .

وله عدة طرق تتفرع من قلعة الجبل إلى قوص وعيذاب والإسكندرية ودمياط وغزة . وعلى امتداد هذه الطرق جميعا أقيمت محطات متقاربة تزود البريديين وخيولهم بما يحتاجون إليه من طعام وعلف وماء ومأوى. ومن الواضح أن مهمة هؤلاء البريديين كانت جسيمة ، إذ صار عليهم توصيل التعليمات من السلطان إلى النواب والأمراء ، وحمل أخبار هؤلاء السلاطين. وربما كانت هذه التعليمات شفوية ، ولذلك روعى فى البريدى « أن يكون بصيرا بمخارج الكلام وأجوبته مؤديا للألفاظ عن الملك بمعانيها ، صدوقا بريئا من الطمع »(١) أما البريد الجوى فيرجع الفضل الأول فى تنظيمه إلى السلطان الظاهر بيبرس ، فاستخدم فيه حمام الزاجل الذى كانت قلعة الجبل المركز الرئيسى لأبراجه وقد روعى فى الرسائل التى يحملها الحمام الزاجل أن تكون على نوع خاص من الورق الخفيف وأن تكون مختصرة تحوى ما قل ودل حتى لا تعوق الحمامة عن الطيران السريع . وكانت الرسالة توضع تحت جناح الحمامة أو ذيلها بطريقة خاصة. فإذا كانت الرسالة هامة كتبت من نسختين وأرسلت مع حمامتين ، حتى إذا ضلت إحداهما الطريق أو قتلت أو افترستها الجوارح، أمكن الاعتماد على وصول الرسالة الأخرى ومن الواضح أن الحمام الزاجل كان يخصص لنقل الرسائل العاجلة الخطيرة، بحيث إذا وصلت رسالة مع حمامة إلى القلعة حملت الرسالة مباشرة إلى السلطان وعرضت عليه(٢) . وقد شيدت للحمام الزاجل أبراج على امتداد طرق البريد لتكون بمثابة محطات، ولهذه الأبراج موظفون مدربون بحيث إذا وصلت حمامة من هذا النوع إلى البرج عنوا بأمرها وتسلموا منها الرسالة ليبعثوا بها إلى البرج التالى ، فى حين تستريح الحمامة الأولى قبل أن يسمح لها بالعودة إلى قاعدتها .

أما الديوان الثالث فى الإدارة المماليكية فهو ديوان الأحباس (الأوقاف)،

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ١١٥ .

(٢) انظر حسان سعداوى : نظام البريد فى الدولة الإسلامية ص ١٤٣ .

ويقوم صاحبه برعاية شئون المؤسسات الدينية والخيرية من جوامع ومساجد ومدارس وربط وزوايا وغيرها ، كما يشرف على الأراضى والعقارات المحبوسة عليها . وكانت شئون الأحباس فى العصر الأيوبى من اختصاص القاضى ، ولكن المماليك قسموا هذه الشئون إلى عدة أقسام : منها قسم للأوقاف المحبوسة على الحرمين وفداء أسرى المسلمين ، وتسمى الأوقاف الحكيمة ويقال لمن يتولاها ناظر الأوقاف - وهو غالبا قاضى قضاة الشافعية - ، ومنها ما اختص بالأوقاف الأهلية ، ولكل وقف منها ناظر خاص يوليه السلطان أو القاضى ويختار غالبا من أولاد الواقف ، ومنها الأحباس الخاصة بالمساجد والزوايا وكان ينفق من ريعها على هذه المؤسسات الدينية ، ثم يوزع الفائض على شكل صدقات وعطايا على المحتاجين ، وأشرف على هذا القسم الدوادار وناظر الخاص (١) .

ولم تقتصر الأوقاف فى عصر المماليك على الحوانيت والخانات والفنادق والأراضى الزراعية الواسعة — كما كان الحال فى العصور السابقة — وإنما اتسعت الأوقاف فى ذلك العصر حتى شملت كثيرا من الأعيان الموقوفة مثل معاصر الزيت والقصب والحمامات والطواحين والأفران والمصابن ومصانع النسيج ومخازن الغلال ومعامل ترقيد الفروج وغيرها (٢) .

أما ديوان النظر فاختص بمراقبة حسابات الدولة ، والإشراف على إيراداتها ومصروفاتها ، وما يتبع ذلك من القيام بصرف مرتبات الموظفين . وكان جانب من هذه المرتبات أو الأرزاق يصرف نقدا ، على حين صرف الجانب الآخر عينا من غلات ولحوم وتوابل وسكر وشمع عدا الكسوة . ومن الواضح أن

---

(١) المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢٩٦ (بولاق) ؟
الخالدى : المقصد ص ١٣٢ .

(٢) عبد اللطيف ابراهيم : دراسات تاريخية وأثرية فى وثائق من عصر المماليك ، ص ١٣٤ — ١٣٥ .

أصنافا مثل الخبز واللحوم كانت توزع على الموظفين والمستحقين يوميا ، في حين كان السكر والزيت والشمع ونحوها توزع شهريا ؛ أما الكسوة فكانت سنوية . ووصف المقريزى ناظر هذا الديوان بأنه من أكبر موظفى الدولة وأهمهم محلا وأعلاهم قدرا ؛ لإصداره الأمر والنهى وحال جليلة ، لكثرة الحمول الواردة ، وخروج الأموال المصروفة في الرواتب لأهل الدولة ، وكانت أمرا عظيما »(١) لذلك قام بمساعدته جملة من الموظفين أهمهم مستوفى الصحبة - وهو بمثابة وكيل الديوان - وشهود بيت المال ، وصيرفى بيت المال ، وأولئك عدا الكتبة (٢).

وتفرع على ديوان النظر منذ القرن الرابع عشر ديوان خاص بالسلاطين ذلك أن السلطان الناصر محمد أنشأ سنة ١٣٢٧ ديوانا أطلق عليه « ديوان الخاص » ، الإشراف على شئون السلطان المالية ، ومراقبة الخزانة السلطانية ، وعهد بالإشراف على هذا الديوان إلى موظف كبير أطلق عليه « ناظر الخاص » وهو اللقب الذى حور إلى « ناظر الخاصة » في الدول الملكية (٣).

وهناك دواوين أخرى كثيرة نظمت سير الحكم في دولة المماليك ، وذكرها الكتاب المعاصرون — وبخاصة القلقشندى والمقريزى — ، مثل ديوان الطواحين ويشرف صاحبه على طحن الغلال ، وديوان الأمراء ويشرف على مخازن الغلال السلطانية ، وديوان المرتجعات وينظر في كل ما يتعلق بتركات الأمراء (٤) . ولكن هذه الدواوين كانت أقل أهمية . كذلك

---

(١) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٢٢٤ (بولاق) .

(٢) العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ص ١١٥ ؟

القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٩ — ٣٠ .

(٣) سعيد عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ١٥١ .

(٤) الخالدى : المقصد الرفيع ص ١٣٥ ؟

المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٣٧ ؟

القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٣ .

أطلق لفظ « دواوين » فى عصر المماليك على إدارات صغيرة ، مثل ديوان الاصطبلات وديوان العمائر وديوان المواريث الحشرية ، ويشرف الديوان الأخير على أموال من يموت دون وراث له .

القضاء والمظالم :

أما شئون القضاء والعدالة فقد أولاها سلاطين المماليك جانبا كبيراً من اهتمامهم وعنايتهم وكان أهم تغيير أدخله السلطان الظاهر بيبرس فى النظام القضائى هو أنه لم يشأ أن يترك قاضى القضاة الشافعية يتحكم وحده فى جميع الشئون القضائية لما فى ذلك من إجحاف ببقية المذاهب . لذلك عين سنة ١٢٦٥ أربعة من قضاة القضاة يمثلون المذاهب الأربعة ، على أن يحتفظ قاضى القضاة الشافعى بالإشراف على أحوال اليتامى والأوقاف والقضايا الخاصة ببيت المال .

كذلك يفهم مما ذكره المقريزى أن قاضى القضاة الشافعى كان بيده عزل بعض موظفى الدولة عن وظائفهم ، فضلا عما كان يتمتع به من نفوذ على نواب الحكم التابعين له (١) . وهكذا ظل قاضى القضاة الشافعية أرفع درجة من زملائه ، ثم يليه الحنفى فالمالكى فالحنبلى .

أما الجيش المماليكى فكان له «قضاة العسكر» ، وهم مختصون بشئون الجند وليس لهم ولاية على غيرهم ، كما كانوا يفصلون فى القضايا القائمة بين العسكر والمدنيين . ويلاحظ أن قضاة العسكر كانوا ثلاثة يمثلون المذاهب الشافعى والحنفى والمالكى ، وأحيانا كان يوجد قاضى حنبلى . وكان قضاة العسكر يحضرون

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٤٤٣ .

مع القضاة الأربعة بدار العدل ولكن مجلسهم كان دون هؤلاء القضاة، كما جرت العادة بأن يصحبوا السلطان فى أسفاره (١).

والواقع إن القضاة قاموا فى ذلك العصر بدور هام فى المجتمع، أملته كثرة اختصاصاتهم وتنوع مسئولياتهم التى لم تقف عند حد الفصل فى قضايا الأحوال الشخصية، وإنما امتدت إلى جميع أنواع القضايا من مدنية وجنائية هذا فضلا عن إمامة المسلمين ونظر الوصايا والأحباس وشئون اليتامى والمحجور عليهم والتدريس بالمدارس (٢).

أما جلسات المحاكم فكانت تعقد أحيانا فى المساجد وأحيانا فى دور القضاء إذا وجدت. وعند افتتاح جلسة القضاء، يتقدم المتقاضون أمام القاضى وفق ترتيب خاص مع مراعاة النظام وحرمة القضاء. وكان يساعد القاضى عدة موظفين منهم الجلواز الذى يقوم بحفظ النظام أثناء انعقاد المحكمة، كما يقوم بتقديم المتقاضين حسب دورهم؛ وربما حمل فى يده عصا أو سوطا يضرب به كل من يحاول الإخلال بنظام الجلسة. أما الحاجب فكانت مهمته الوقوف على باب القاضى واستئذانه فى دخول الزائرين عليه، فى حين قام الأعوان بإحضار الخصوم إلى المحكمة (٣). وأدى ازدياد المتقاضين فى ذلك العصر إلى صعوبة مهمة القاضى، فاستعان بالعدول الذين يقدمون شهاداتهم للقاضى ويراجعون السجلات والعقود ويزكون الشهود. وأخيرا قام كاتب المجلس بتحرير الدعاوى والأحكام، كما قام الترجمان بمهمة الترجمة بين القاضى والمتقاضين، إذا كان هؤلاء لا يعرفون العربية (٤).

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٦ .

(٢) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٩٢ (بولاق) ؛
القلقشندى : صبح الأعشى ج ٩ ص ٣٤ — ٣٥ .

(٣) السبكى : معيد النعم ص ٨٦ .

(٤) محمود عرنوس : تاريخ القضاء فى الإسلام ص ١٢٩ — ١٣٩ .

وكانت هناك محكمة عليا فى عصر المماليك عرفت بمحكمة المظالم ، نفهم من المراجع المعاصرة أنها كانت بمثابة محكمة استئناف عليا تنظر فى المظالم ؛ أى القضايا التى اختص السلطان بالنظر فيها مباشرة ، أو تلك التى تنشأ بين الحكام والمحكومين . وترجع أهمية هذه المحكمة إلى أنها كانت تعقد برآسة السلطان نفسه فى يومى الاثنين والخميس غالبا من كل أسبوع . وكان السلطان فى الوقت المحدد للنظر فى المظالم يجلس فى دار العدل ـ أو بعد ذلك فى الإيوان ـ على كرسى من الخشب المغشى بالحرير ، وعن يمينه قاضيان من القضاة الأربعة هما الشافعى والمالكى ، وعن يساره قاضيان هما الحنفى والحنبلى . ويلى القاضى المالكى من الجانب الأيمن قضاة العسكر الثلاثة الشافعى فالحنفى فالمالكى ، ثم يليهم مفتو دار العدل فوكيل بيت المال ثم ناظر الحسبة (١). ومن الجانب الأيسر يجلس بعد القاضى الحنبلى الوزير ثم كاتب السر . وهكذا تستدير الحلقة ويقف وراء السلطان مماليك صغار من السلاحدارية والجمدارية ، على حين يجلس على بعد خمسة عشر ذراعا تقريبا ذوو السن من أكابر المئين ، وهم أمراء المشورة. أما أرباب الوظائف وسائر الأمراء فيظلون وقوفا. وخلف هذه الحلقة المحيطة بالسلطان يقف الحجاب والدوادارية لعرض أوراق القضايا المطلوب النظر فيها ثم تقرأ الشكاوى والقصص على السلطان ، فما احتاج منها إلى مراجعة القضاة شاورهم السلطان فيها «ورجع إلى ما يقولون» (٢)، وما تعلق منها بالعسكر تحدث السلطان فيه مع قضاة العسكر وناظر الجيش ، ثم يأمر فى الباقى بما يراه وعلى مر الزمن اقتصر جلوس سلاطين المماليك بالإيوان على مدة قصيرة بصفة شكلية لا تتعدى سوى إقامة رسوم المملكة وإحياء مظاهرها ، لاسيما بعد أن نودى أن أحدا لا يتقدم بشكايته إلى السلطان إلا بعد أن يرفع أمره إلى القضاة أولا ، فإذا

---

(١) سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص ٧٨ .

(٢) ابن قاضى شهبة : الإعلام بتاريخ أهل الإسلام ج ١ ص ١٢ .

لم ينصفوه ذهب إلى السلطان ومن خالف ذلك عوقب (١) .

وكانت وظيفة الحسبة قوية الصلة بالسلطة القضائية فى تلك العصور حتى أنه كان يحدث فى كثير من الأحيان أن يسند القضاء والحسبة إلى فرد واحد والواقع أنه إذا كان عمل القاضى يتصف بشىء من البطء لأنه يقوم على الروية والأناة والتثبت من صحة الوقائع ، فإن عمل المحتسب قام على أساس سرعة البت فى المخالفات التى تتعلق بالآداب العامة ونظام الأسواق ومراعاة الأمانة فى المعاملات التجارية وآداب الطريق ونحوها (٢). لذلك دأب المحتسب ـ ونوابه ـ على المرور بطرقات المدينة وأسواقها لمراقبة الموازين والمكاييل والمقاييس والتفتيش على نظافة الحوانيت وسلامة ما يقدمه الباعة من طعام للجمهور ، هذا فضلا عن مراقبة الخانات والفنادق والحمامات ، فمن وجده المحتسب « قد غش مسلما أو أكل بباطل درهما أو أخبر مشتريا بزائد ، أوخرج من معهود العوائد شهره بالبلد وأركب تلك الآلة قفاه حتى يضعف منه الجلد » (٣) .

وتؤدى بنا العبارة الأخيرة إلى الإشارة إلى العقوبات التى كانت توقع على المذنبين فى عصر المماليك . وأولى هذه العقوبات السجن فى أحد سجون ذلك العصر التى وصف المقريزى بعضها بالظلام وكثرة الوطاويط والروائح

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٢٩ ؛

تاريخ ابن الفرات : ج ٩ ص ١٧ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٦ .

(٣) العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٢٤ — ١٢٥ .

وجدير بالذكر أنه كان بالديار المصرية ثلاثة محتسبين هم محتسب القاهرة وله التصرف بالحكم فى القاهرة والوجه البحرى كله ؛ ومحتسب مصر (الفسطاط) وله التصرف بمصر والوجه القبلى كله ؛ ومحتسب الاسكندرية ونفوذه قاصر على الثغر .

انظر القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٧ ؛

المقريزى : السلوك ، ج ٢ ص ٤١٥ .

الكريهة والقبائح المهولة »(١) ، وبعد ذلك تأتى عقوبة التشهير والتجريس وهى أن يطاف بالمذنب على حمار أو ثور ويضرب الجرس على رأسه ويزفه المنادون ليجتمع الناس حوله ، وفى نهاية المطاف يضرب بالسياط أمام الناس هذا عدا عقوبات أخرى متنوعة مثل عصر أعضاء المذنب بين خشبتين حتى تنكسر عظامه ، أو خلع بعض أضراس المذنب وأسنانه ودقها فى رأسه أو تسخين طاسة من المعدن وإلباسها له فى رأسه ، أو إجلاسه على مقعد معدنى محمى بالنار وغير ذلك من العقوبات (٢) .

---

(١) المقريزى : المواعظ ج ٣ ص ٣٠٥ — ٣٠٩ .
(٢) سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص ٩٨ — ١٠٠ .

الباب الثالث عشر

الفنون

تنقسم الفنون إلى مجموعتين ، المجموعة الأولى تشمل العمارة والتصوير والنحت وهى التى يطلق عليها اسم الفنون الكبرى ، والمجموعة الثانية تشمل الصناعات اليدوية الصغيرة التى تتطلب دقة فائقة وعبقرية راقية ومهارة كبيرة ويطلق عليها اسم الفنون الصغرى .

والمعروف أن رقى الفنون فى أى زمان ومكان إنما يرتبط ارتباطاً شديداً بانتعاش الحياة الاقتصادية وتوافر المال . فالمجتمع الفقير — مثله مثل الرجل الفقير — يفكر أولا فى أسباب الحياة ، ويعتبر الفنون نوعاً من الكماليات لا فائض لها من المال والجهد ، وإذا اضطرته ظروف الحياة الاجتماعية أو الدينية إلى إقامة بعض العمائر والأدوات وغيرها من مطالب الحياة ، فإنه يجنح دائماً للبساطة وعدم التعقيد ، لأنه يستهدف دائماً تحقيق غرضه بأقل نفقات ممكنة . أما المجتمع الغنى — فمثله مثل الفرد الثرى — يبحث عن المتعة وعن أوجه يستغل فيها جزءاً من فائض أمواله فيتفنن فى ابتكار الكماليات : وإذا أقام شيئاً من الأساسيات بالغ فى الإنفاق عليه والعناية به والحرص على جمال صورته . هذا إلى أن الفنان أو الصانع يجهد نفسه فى هذه الحالة ومطمئن تماما إلى أنه سيجد الجزاء الأوفى ، وسيكافأ ماديا بما يتناسب مع جهوده ، الأمر الذى يترتب عليه رقى الفنون وسموها .

وقد سبق أن رأينا فى صفحات هذا الكتاب أن أكبر صفة اتصفت بها

دولة المماليك هى الغنى والثروة وكثرة المال . فدولة المماليك كانت همزة الوصل بين تجار الشرق وتجار الغرب ، والمعبر الرئيسى بين تجارة الشرق وتجارة الغرب ، الأمر الذى عاد على المجتمع المصرى — حكاما ومحكومين — بالثروة الطائلة والمال الوفير . وإذا قيل إن جزءا كبيرا من هذا المال كان سلاطين المماليك مضطرين إلى إنفاقه فى شئون الحرب والجهاد ، فإن حقيقة هامة ينبغى ألا تغيب عن بالنا هى أن معظم حروب المماليك كانت حروبا رابحة تغطى ما أنفق عليها عن طريق الغنائم الوفيرة . وتفيض المراجع المعاصرة فى شرح الأموال والغنائم التى غنمها المماليك من أعدائهم سواء كانوا الصليبيين فى الشام — وفى قبرص — أو الارمن أو النوبيين أو التركمان وغيرهم . وقد ذكر المقريزى عن بعض هذه الغنائم أنه بلغ من كثرتها أن « قسمت النقود بالطاسات »[١] . ومهما يكن فى هذه الآراء من مبالغات فهى تفيدنا أن الحروب الواسعة التى قام بها المماليك لم تكن عملية خاسرة على طول الخط وأنها لم تستنفد جزءاً كبيراً من الموارد الضخمة التى نعمت بها الدولة .

وخير شاهد على الثروة الدافقة التى نعمت بها دولة المماليك ، هو رقى الفنون فى ذلك العصر . فالحقيقة الواضحة التى يخرج بها دارس تاريخ مصر فى العصور الوسطى ، هى أن الحياة الفنية بلغت فى عصر المماليك بالذات أسمى درجات الرقى والروعة . ومازالت التحف الفنية الرائعة التى تزخر بها دور الآثار فى العالم والتى ترجع إلى عصر المماليك ، فضلا عن العمائر المماليكية الفائقة الحسن — من مساجد وقصور ومدارس وقباب وغيرها — تشهد برقى الحياة الفنية فى عصر المماليك ومقدار ما أنفق على تلك المنشآت من مال وجهد . ولا أقل من أن نلقى نظرة عامة سريعة على أركان الحياة الفنية فى عصر المماليك لندرك مدى أهمية ذلك

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٩٨ .

العصر فى تاريخ الفن الإسلامى بوجه عام [١].

العمارة :

يقول الدكتور زكى محمد حسن : « لاريب فى أن عصر دولتى المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧) هو العصر الذهبى فى تاريخ العمارة الإسلامية فى مصر، فقد كان الإقبال عظيما على تشييد العمائر ، من جوامع ومدارس وأضرحة وحمامات ووكالات وأسبلة. كما ظهر التنوع والإتقان والأناقة فى شتى العناصر المعمارية من وجهات ومنارات وقباب وزخارف جصية ورخامية »[٢].

ونستطيع تقسيم العمائر فى عصر المماليك إلى دينية ومدنية، فالدينية أهمها المساجد والمدافن والقباب والمدارس. وكان الجامع مربع الشكل عادة، يتألف من صحن يحيط به أربعة إيوانات تبدو كأنها حنيات فى الجدران ، وأكبرها إيوان القبلة . وفى عصر المماليك الجراكسة ظهر تصميم جديد للجامع أهم معالمه صغر مساحة المبنى واختفاء الصحن المكشوف . ومن أجمل العمائر الإسلامية فى مصر والشام إطلاقا جامع السلطان الناصر حسن ابن الناصر محمد بن قلاون، الذى استغرقت عمارته ثلاثة أعوام انتهت سنة ١٣٦٣ أى بعد وفاة صاحبه بعامين . وقد جاء هذا الجامع فى اتساع مساحته وروعة تصميمه وجمال زخارفه، آية فنية يفخر بها الفن الإسلامى إطلاقا. وقد أشرف على عمارة هذا المسجد المهندس محمد ابن بيليك المحسنى[٣]، الذى استطاع أن يجمع فيه بين الأساليب الشائعة فى فن

---

(١) اعتمدنا فى العرض التالى بصفة رئيسية على مؤلفات المرحوم الأستاذ الدكتور زكى محمد حسن مؤسس مدرسة الآثار الإسلامية فى جامعة القاهرة ورئيس قسم الآثار الإسلامية بجامعة القاهرة ، وأستاذ الآثار الإسلامية بجامعة بغداد سابقا .

(٢) زكى محمد حسن : فنون الإسلام ص ٧١ .

(٣) حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ج ١ ص ١٢٦ - ١٨٠ .

العمارة والزخرفة فى عصره ، وعرجها على نمط جعل المسجد يبدو من الناحية الفنية وحدة جميلة متماسكة . ولهذا المسجد منارتان عظيمتان فى الجانب القبلى الشرقى، وكان المفروض أن يكون للمسجد أربعة مآذن، ولكن اكتفى باثنتين فقط بعد أن انهارت المئذنة الثالثة عقب إنشائها . وامتازت المآذن فى جوامع ذلك العصر بوجه عام بانسجامها ورشاقتها وتوسط ارتفاعها .

ومن العمائر المماليكية الجميلة قبة ومدرسة وبيمارستان السلطان قلاون، وهى المجموعة التى تمت عمارتها سنة ١٢٨٥ . وأجمل ما فى هذه المجموعة القبة التى دفن فيها السلطان المنصور قلاون وابنه الناصر محمد ، وهى تعتبر آية من آيات الفن الإسلامى ، إذ أنها محمولة على أعمدة من الجرانيت ذات تيجان مذهبة وعلى أكتاف ، أجزاؤها السفلية مغطاة بالفسيفساء الجميل (١) .

ومن أهم العمائر ذات الصبغة الدينية فى عصر المماليك الجراكسة ، مدفن السلطان الظاهر برقوق الذى تمت عمارته فى عهد ابنه الناصر فرج سنة ١٤١٠، وقد روعى فى تصميمه أن يكون على هيئة مجمع يضم مسجدا كبيرا وضريحا للظاهر برقوق وأفراد أسرته وخانقاه للصوفية ، ولذلك اجتمعت فيه مختلف مظاهر العمارة الدينية . ويتألف المسجد فى هذا البناء من صحن يحف به أربعة إيوانات أكبرها إيوان القبلة الذى ينتهى طرفاه بقبتين مزخرفتين بزخارف بارزة تتوسطهما قبة ثالثة فوق المحراب . وسقوف الإيوانات الأربعة مغطاة بقبوات نصف كروية من الآجر، ومحمولة على عقود مرفوعة مدببة. أما غرف الخانقاه فهى كثيرة ومعظمها فوق الإيوانين البحرى والقبلى (٢) .

كذلك يعتبر مدفن قايتباى بالصحراء الشرقية بالقاهرة من أهم العمائر

---

(١) زكى محمد حسن : فنون الإسلام ص ٧٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٧٧ .

الباقية من عصر المماليك الجراكسة . وهذا المدفن أيضاً عبارة عن مجمع يضم مدرسة وسبيل ومكتب وقبة . وصحن هذا المدفن مغطى بسقف ذى شخشيخة جميلة وحوله أربعة إيوانات أكبرها إيوان القبلة الذى يقع المدفن قبليه ، وقبته منقوشة برسوم هندسية ونباتية جميلة(١) .

أما المباني المدنية فى عصر المماليك ، فلم يبق منها إلا مداخل بعضها وأجزاء من البعض الآخر . ومن أهم هذه البقايا قصر الأمير بشتاك الذى يرجع إلى سنة ١٣٣٤ ، ولم يبق منه سوى جزء من الواجهة ثم المدخل والقاعة الكبرى وما يحف بها من حجرات ، وتمتاز هذه القاعة بجمال سقوفها المذهبة وبالفسقية الرخامية التى تتوسطها ؛ فضلا عن وزرتها الرخامية الدقيقة وإبداع ما فيها من التحف والأدوات الخشبية ذات الزخارف المخروطة أو المحفورة أو المطعمة . كذلك هناك بقايا قصر الأمير قوصون خلف مدرسة السلطان حسن ويرجع إلى القرن الثامن الهجرى ، وبقايا قصر الأمير طاز بشارع السيوفية بالقاهرة وتشمل المدخل والقـــاعة الكبيرة ذات السقوف الجميلة والمتعددة الأنواع .

وفيما عدا القصور هناك بقايا وكالة الأمير قوصون ومدخل وكالة قايتباى بباب النصر ، فضلا عن بقايا حمام الأمير بشتاك الذى لم يبق منه سوى مدخله المكسو بالرخام الملون . وجميع هذه البقايا وغيرها — مع قلتها — إلا أنها تشهد بسمو الذوق الفنى وروعة البناء(٢) .

الرسم والتصوير :

أما عن الرسم والتصوير فالمعروف أنهما من الأشياء المكروهة فى الإسلام

(١) المرجع السابق ج ٤ ص ٧٨ .

(٢) زكى محمد حسن : فنون الإسلام ص ٨٠ — ٨٤ .

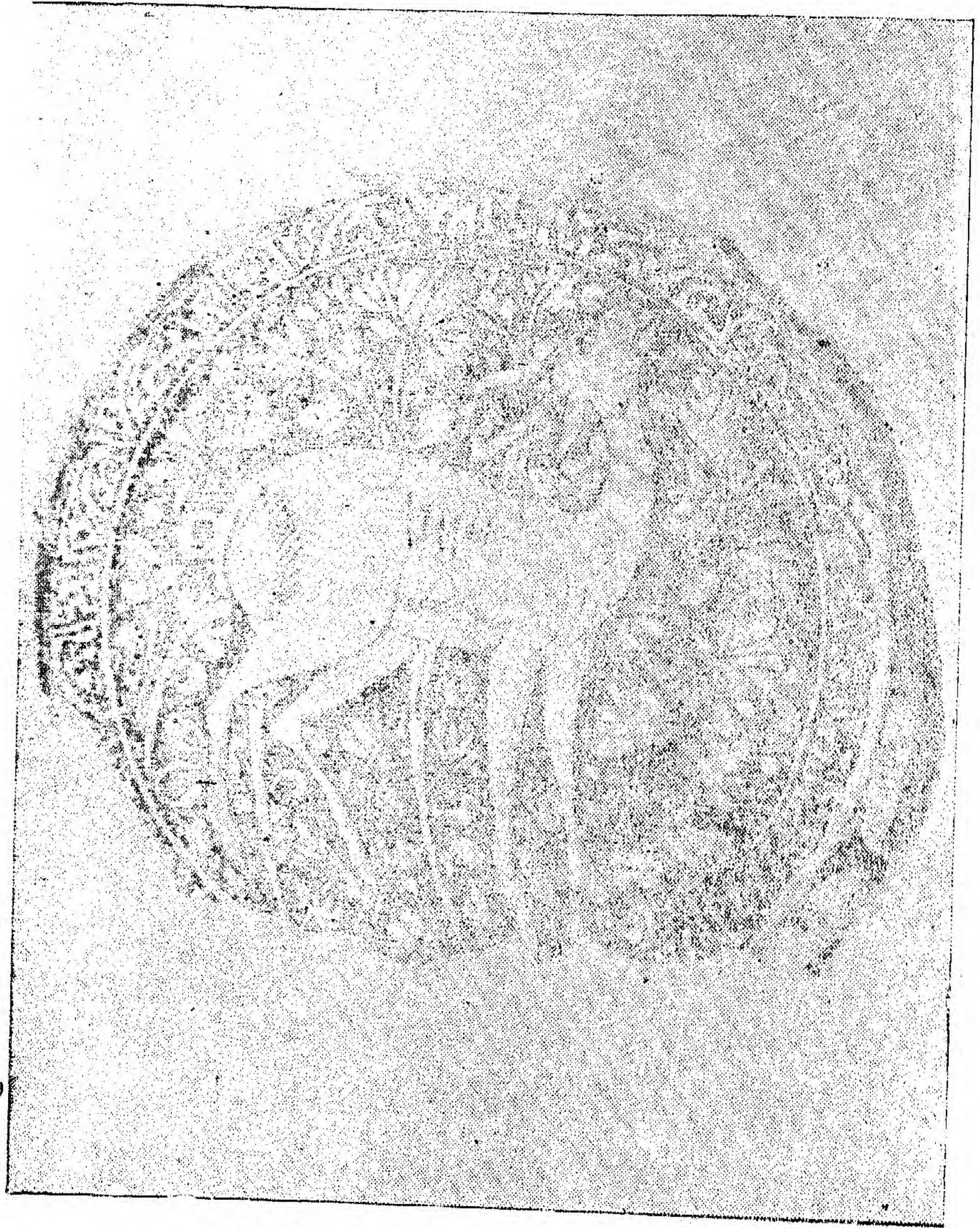
لما فيهما من اتجاه وثنى يرتبط بعبادة الأوثان . ولعل هذه الحقيقة هى التى دفعت الفنانين المسلمين يتجهون منذ وقت مبكر إلى الإعراض عن تصوير الحيوان والإنسان ، واستغلال مواهبهم الفنية فى تصوير بعض الأشكال الهندسية ، أو عمل زخارف من النبات وأوراق الشجر . هذا إلى أن الخط العربى صالح للزينة والزخرفة بطبيعته ، فاستغل الفنانون المسلمون ذلك الخط فى كتابة عبارات بالخط الكوفى الجميل على الجدران أو الأوانى أو غيرها . ومع ذلك فإن الفنانين المسلمين فى العصور الوسطى لم ينصرفوا تماماً من تصوير الكائنات الحية ، مما جعلهم يتركون مجموعة ضخمة من الزخارف والتصاوير والرسوم التى تشهد جميعها بمدى رقى هذا الجانب من الفنون عندهم .

وامتاز عصر المماليك بالذات بكثرة الرسوم والزخارف ورقيها ، فضلا عن أن هذه الرسوم اتصفت بالطابع العربى الواضح . ويؤكد الباحثون أن تعرض بلاد العراق لغزو التتار فى القرن الثالث عشر للميلاد ، ساعد على انتقال المدرسة العربية فى التصوير إلى أراضى دولة المماليك فى الشام ومصر ، بعد أن هاجر إلى هذه الأراضى كثير من فنانى العراق فراراً من خطر التتار هذا فضلا عن أن إحياء الخلافة العباسية فى مصر ، جعل دولة المماليك قبلة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ؛ ومن ثم امتازت التصاوير التى أنتجتها مصر والشام فى عصر المماليك ، بمحافظتها - إلى حد كبير - على التقاليد العربية ؛ وخلوها - إلى حد كبير أيضاً - من المؤثرات المغولية التى ظهرت فى البلاد الأخرى التى حكمها التتار (١).

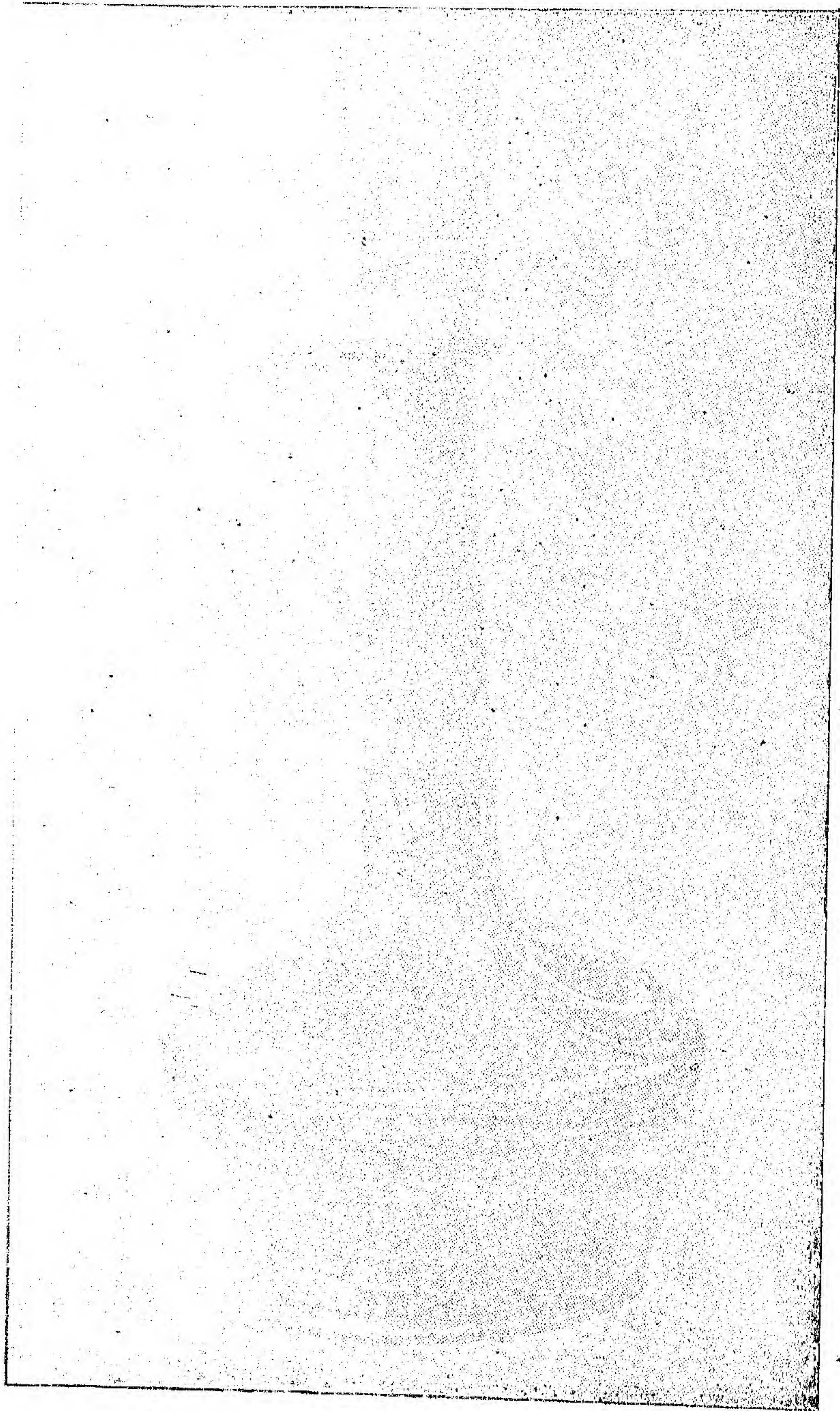
ففى العمارة المماليكية نجد إيوانات المساجد وقد كسيت بالرخام وزخرفت زخارف جميلة ، من وحدات نباتية أو رسوم هندسية ، فضلا عن بعض الآيات

---

(١) حسن الباشا : التصوير الإسلامى فى العصور الوسطى ص ١٦٥ .

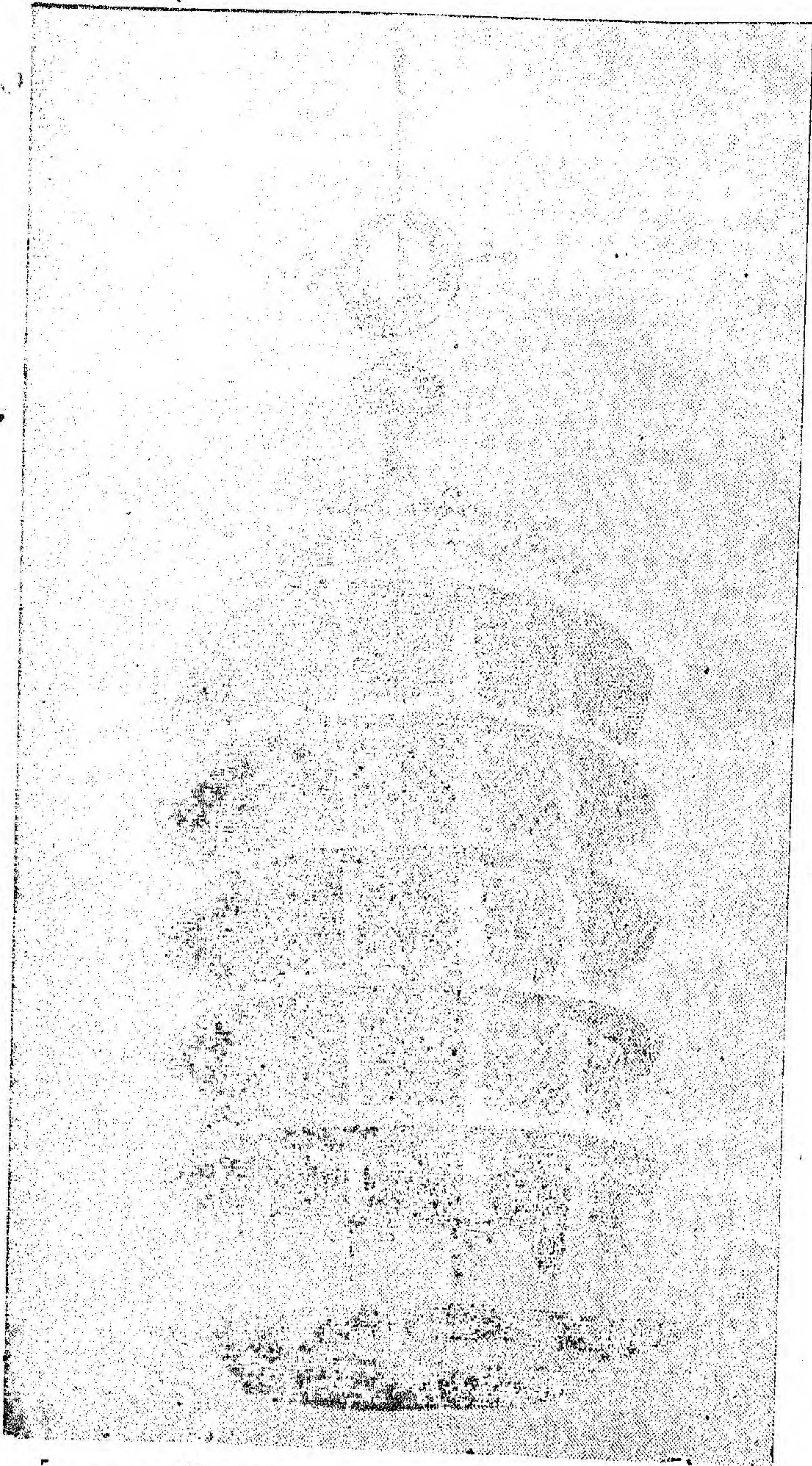


قطعة من إناء من الخزف يرجع إلى عصر المماليك .
مرسوم عليه صورة غزال يأكل الحشائش


إناء جميل صنع فى الشام فى عصر المماليك وهو من الزجاج المموه
بالمينا المتعددة الألوان





ثريا من النحاس باسم أحد أمراء المماليك وعليها اسم الصانع الذى
ذكر أنه أتمها فى أربعة عشر يوما .



القرآنية المكتوبة بالخط الكوفى الجميل المزخرف . كذلك عنى المماليك بزخرفة سقوف مبانيهم بالرسوم المذهبة وجدرانها بالفسيفساء الدقيقة أو تكسى بالرخام الملون وكذلك الأرضيات . أما واجهات المبانى من الخارج فكانت تزخرف على هيئة طبقات أو مداميك أفقية بحيث تكون طبقة منها صفراء فاتحة ، تعقبها أخرى حمراء داكنة .

ولم يقتصر التفوق فى مجال الرسم والزخرفة فى عصر المماليك على العمائر وإنما شمل الخزف والمنسوجات والتحف المعدنية والزجاج والبلور ، فضلا عن أغلفة الكتب. أما الزخرفة على الخزف فقد بلغت شأواً بعيداً فى الشام ومصر فى عصر المماليك ، ولشهد على ذلك كثرة الأوانى التى لدينا والتى تمتاز برسوم الحيوانات والطيور فضلا عن الرسوم النباتية والأشكال الهندسية الجميلة (١) . وبعض هذه الأوانى عليها زخارف خطية بخط الثلث ، وتحيط بهذه الكتابات رسوم فروع نباتية ووريقات وزهور باللونين الأبيض والأزرق على مهاد أسود ، مما جعل منها آية فنية رائعة . كذلك توجد لدينا بعض قطع من الخزف ، أو الفخار ترجع إلى عصر المماليك ومزخرفة بالمينا البارزة عن سطح الطلاء ، وبعض هذه الزخارف قوامها عبارات دعاء بخط النسخ أو رنوك مختلفة الأشكال كالنمر أو السبع أو النسر (٢).

أما زخرفة النسيج فى عصر المماليك فقد بلغت هى الأخرى درجة فائقة من الروعة فى عصر المماليك وأجمل قطع النسيج المحفوظة بدار الآثار العربية والتى ترجع إلى عصر المماليك مصنوعة من الحرير ، واتخذت زخرفتها شكل عبارات مثل « العز الدائم والإقبال » و « سعادة مؤبدة ونعمة مخلدة »

---

(1) Hobson : A Guide to the Islamic Pottery of the Near East, p. 65. (1944).

(٢) زكى محمد حسن : أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية ص ٤٢٣ — ٤٢٧

و «السلطان العالم» و «وعز لمولانا السلطان الملك الناصر» و «الله». وكانت هذه العبارات فى النسيج تحيط بها زخارف أخرى تمثل أوراق الشجر أو خطوطاً حلزونية أو رسوم بعض الحيوانات مثل فهد يطارد غزالا أو بعض السباع [١]. كذلك يوجد بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة بعض قطع من القماش ترجع إلى عصر المماليك كتبت عليها عقود زواج، والقماش مصنوع من القطن ومكتوب عليه بمداد أسود [٢].


والمعروف أن صناعة المعادن ارتقت فى عصر المماليك، فصنعت فى ذلك العصر كثير من الصناديق والثريات والطاسات والأوانى والكراسى المعدنية وغيرها. وجميع هذه المصنوعات كانت تزخرف برسوم جميلة رائعة. وهنا أيضاً نجد أن جزءاً كبيراً من الرسوم والزخارف الموجودة على التحف المعدنية الباقية من عصر المماليك اتخذت شكل عبارات وكتابات بالخط الكوفى أو خط النسخ، مثل «عز لمولانا السلطان ...» و «المقر العالى المولوى الأميرى الكبيرى الغازى ...» و «الملك الأشرف قايتباى عز نصره». وهذه الكتابة الزخرفية كانت توجد عادة فى مناطق تتخللها وتحيط بها رسوم هندسية متعددة الأضلاع، أو فروع وأوراق نباتية مألوفة، أو رسوم حيوانات وطيور وأسماك، أو رسوم آدمية كرسم صياد يستخدم الباز [٣].

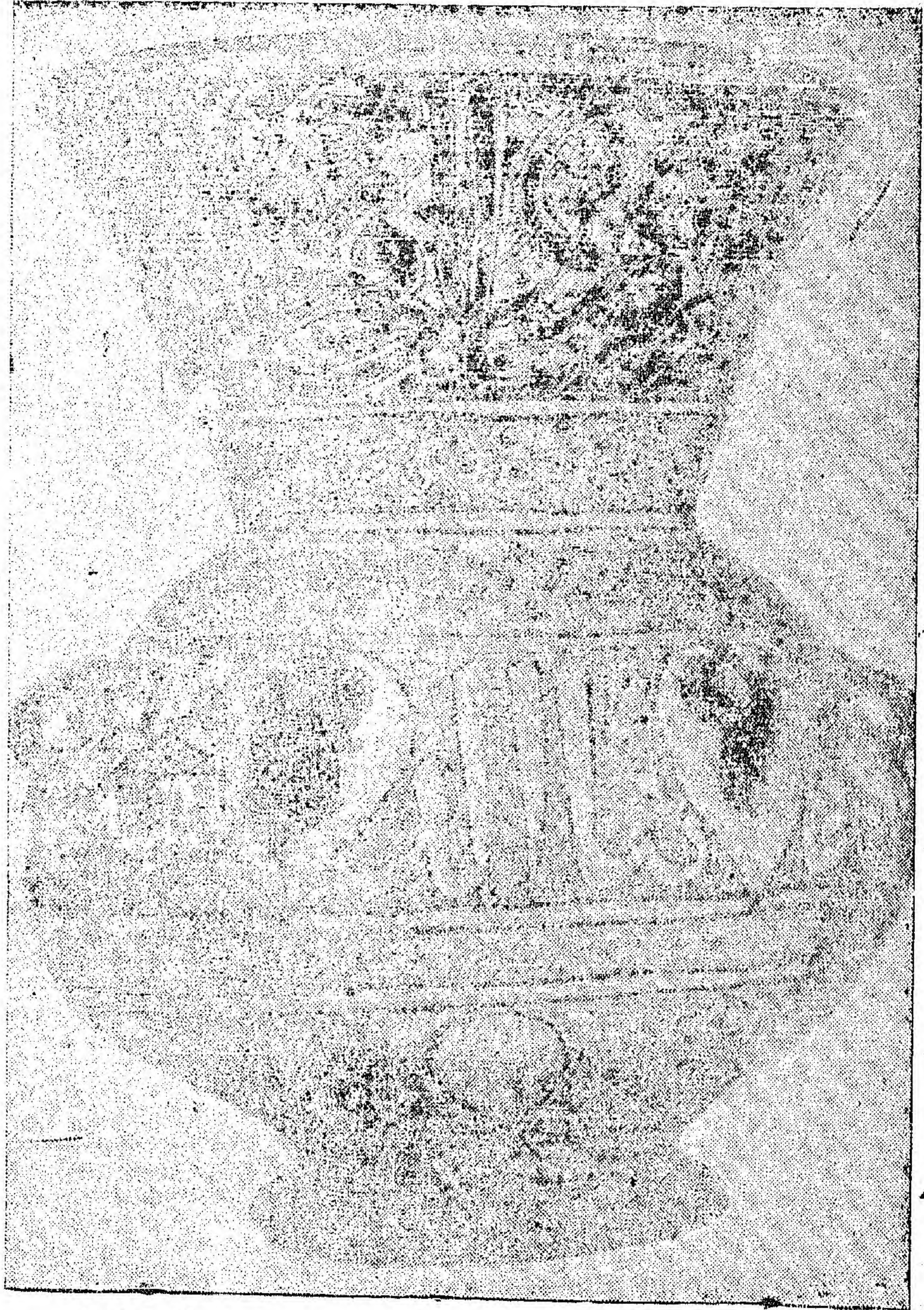
وأخيراً فإننا نجد أن فن الرسم والتصوير عبر عن رقيه فى عصر المماليك فى ناحيتين. الناحية الأولى هى ناحية الزجاج والبلور، والناحية الثانية هى أغلفة

---


(١) المرجع السابق ص ٤٧٣ — ٤٧٤ ؛
فنون الإسلام ص ٣٦٥ — ٣٦٨.
(٢) سعاد ماهر : عقود الزواج على المنسوجات الأثرية ص ٤ وما بعدها.
(3) Wiet : Objets en Cuivres, p. 272 &
زكى محمد حسن : أطلس الفنون الزخرفية ص ٤٦٢ — ٤٦٥.

سيفان احدهما باسم السلطان قانصوه الغوري والآخر باسم السلطان طومان باى
وهما من الصلب المزين بزخارف وكتابات مكفته بالذهب





مشكاة تحمل اسم السلطان الناصر محمد وهى من الزجاج المموه بالمينا
وعليها كتابات من القرآن الكريم بالخط النسخ



الكتب أما عن الزجاج والبلور . فمعظم المشكاوات الباقية لدينا من عصر المماليك مدهونة بالمينا الحمراء أو الزرقاء أو الخضراء أو البيضاء ، ومزخرفة بأشرطة فيها كتابات مثل « عز لمولانا السلطان الناصر ناصر الدنيا والدين عز نصره » أو آية قرآنية مثل « وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل » أو « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح » وحول هذه الكتابات توجد زخارف من أشكال نباتية من أوراق النبات وزهر اللوتس والزنبق ، أو أشكال هندسية تمثل دوائر وحلقات قد تضم رنوكا وقد تضم صور بعض الحيوانات والطيور (١).

وأما عن زخارف أغلفة الكتب ، فمعظمها فى عصر المماليك كانت تذهب وتزين برسوم دقيقة بارعة. ذلك أن جلدة الكتاب فى عصر المماليك امتازت بزخارف هندسية متشابكة ، زاد من جمال شكلها بعض أجزاء مضغوطة من الغلاف ، وهذه الأجزاء المضغوطة كانت تذهب وتزخرف على شكل وريدات وخطوط مجدولة . وبالإضافة إلى هذا النوع من الزخارف الذى نجد منه عدة نماذج فى متحف المتروبوليتان ، نجد بعض جلود أخرى من عصر المماليك تتوسطها جامات مزخرفة بقطع رقيقة من الجلد على شكل زخرفة نباتية فوق أرضية ملونة . وكثيراً ما اتبعت طريقة الضغط لتزيين بواطن جلود الكتب بزخارف نباتية ، يضاف إليها أحيانا أشكال أزهار مختلفة ، وأصبحت هذه الطريقة الزخرفية محببة إلى رجال الفن فى أوائل القرن الرابع عشر (٢).

وكان من الطبيعى أن يختص القرآن الكريم بجزء كبير من عناية الفنانين فى ذلك العصر ، فعنوا بتذهيب المصاحف وتفننوا فى زخرفة أغلفتها ، الأمر الذى

(1) Wiet : Lampes en Verre emaillé, pp. 67—100 &.
زكى محمد حسن : أطلس الفنون الزخرفية ص ٤٩٦ — ٤٩٧ .

(٢) ديماند : الفنون الإسلامية ص ٨٧

تشهد عليه مجموعة المصاحف الثمينة المحفوظة بدار الكتب المصرية ، والتى يرجع جزء كبير منها إلى عصر المماليك بالذات . والملاحظ على هذه المصاحف أن الأساليب الفنية لا تبدو فى غلاف المصحف أو فاتحته فحسب ، وإنما تظهر كذلك فى سائر صفحاته ولا سيما فى فواصل الآيات . ومن أمثلة المصاحف الجميلة المحفوظة بدار الكتب المصرية مصحف يرجع إلى سنة ١٣٦٩م (٧٧٠هـ) باسم السلطان شعبان . وقوام الزخرفة فى غرة هذا المصحف ساحة من مربع، فوقه وتحته مستطيل ، ويحيط بهذه الساحة ، إطار ضيق ثم إطار أعرض منه. أما الشريطان العلوى والسفلى فى الساحة، ففيهما رسوم وريقات وسيقان نباتية دقيقة تقوم فوقها أربع جامات مفصصة المحيط ، وتضم هذه الجامات كتابة بالخط الكوفى من سورة الشعراء . وفى المربع الأوسط فى الساحة إطار يضم ثمانى مناطق فيها آيات أخرى من القرآن الكريم مكتوبة بالخط الكوفى . وبعد الإطار مربع داخلى قوام الزخرفة فيه طبق نجمى كامل الشكل ، غنى بالرسوم النباتية الدقيقة فى النجمة التى تتوسطه ، وفى الحشوات السداسية الأضلاع الموزعة فى نظام إشعاعى ودائرى حول النجمة . وفى الإطار الخارجى فروع نباتية ووريقات تؤلف رسوما جميلة من الزخرفة العربية .

على أن تزيين المخطوطات بالرسوم الجميلة وتذهيبها لم يكن وقفا على المصاحف ، وكتب المسلمين فحسب ، بل وجدت مخطوطات من الإنجيل والتوراة مكتوبة بخط عربى جميل ، وذهبت صفحاتها وزينت برسوم هندسية ونباتية وفق الطراز العربى . ومن هذه المخطوطات نسخة من الإنجيل محفوظة فى المتحف القبطى ونسخت فى دمشق سنة ١٣٤٠ ، أى فى عصر المماليك وغرة هذا المخطوط عليها منطقتان مفصصتان فيهما زخارف من فروع نباتية ووريقات فوقها فى المنطقة العليا بالخط الكوفى « الإنجيل الطاهر » ، وفى المنطقة السفلى « والمصباح الزاهر ينبوع ... » وبين هاتين المنطقتين مربع قوام زخرفته أربعة

أشكال ثمانية الأضلاع . وفى وسط كل منها رسم صليب اتخذ عنصرا زخرفيا فوق مهاد من الفروع النباتية والوريقات الدقيقة ، وتحصر هذه الأشكال بينها شكلا نجميا مؤلفا من معينين متداخلين وفى وسطه رسم وريدة . وحول هذه الأشكال جميعا وفى الإطارات المحيطة بها رسوم خطوط مجدولة ورسوم زهور ، فضلا عن الوريقات والسيقان الواقعة فى الإطار الخارجى والتى تؤلف رسوما جميلة . على أنه يلاحظ أن هذه الزخارف وسائر الرسوم المذهبة فى ذلك المخطوط لا تختلف فى أسلوبها الفنى عن زخارف الصفحات المذهبة التى ترجع إلى عصر المماليك ، كما يلاحظ أن شارة الصليب اتخذت عنصرا زخرفيا فى الرسوم المذهبة ولكنها مع ذلك لم تخرجها عن الطراز الإسلامى (١) .

النحت والحفر :

أما فن النحت فى الحجر والرخام والجص فقد بلغ درجة كبيرة من التقدم فى عصر المماليك . والواقع أنه إذا كان عصر المماليك قد امتاز بازدهار الفن وكثرة المنشآت الفخمة ، فإن أهم ما تتصف به هذه المنشآت هى الزخارف والنقوش الفنية التى تحلى جدرانها وسقوفها ، فضلا عن المقرنصات وصنجات العقود المعشقة ، والألواح الرخامية والفسيفساء ، والمنحوتات الجصية والحجرية فى الزخرفة الداخلية . وقد نحتت تلك الزخارف نحتا غائرا ، واقتصرت فى أغلب الأحيان على الأشرطة والألواح المنقوشة التى زين بها المبنى حسب التصميم . وتعتبر الزخارف الجصية التى مازالت موجودة فى مسجد الظاهر بيبرس ، من الأمثلة الواضحة لروعة هذا النوع من الزخارف فى عصر المماليك ؛ كما أن النقوش الحجرية التى تزين مدخل مدرسة السلطان حسن ، تعتبر مثلا

---

(١) زكى محمد حسن : أطلس الفنون الزخرفية ص ٥٠٧ — ٥٠٨
الفنون الاسلامية ص ١٥٩ — ١٦٣

رائماً لما بلغه فن الحفر في ذلك العصر[1].

ويتضح تقدم فن النحت والحفر في عصر المماليك في الألواح الرخامية الكثيرة المحفوظة بدور الآثار العالمية ، والتي عليها أشكال جميلة لنباتات وطيور وحيوانات وزخارف منحوتة نحتا دقيقا . ويوجد بدار الآثار العربية زير من الرخام يرجع إلى القرن الرابع عشر الميلاد ، وسطح الزير مزين بزخارف شديدة البروز قوامها رسوم فروع نباتية ووريقات ، وفي أعلاه كتابة بالخط الكوفي وفي أسفله عصابة من رسوم السمك . كذلك من أمثلة النحت البارزة في عصر المماليك ، الإفريز الذي نراه فوق عقد قناطر أبي المنجا . وتمثل هذه النقوش سباعا متجهة إلى الجنوب الشرقي ورؤوسها منظورة من الأمام ، ولكل منها شارب وأذنان دقيقتان ومدببتان وعينان ملوزتان وذنب مرفوع على ظهره ، وترمز هذه السباع إلى السلطان الظاهر بيبرس ، لأنه اختار رسم السبع رنكا له[2]. كذلك تجلى فن النحت في عصر المماليك في المنابر الرخامية الجميلة الغنية بزخارفها النباتية ، فضلا عن الشبابيك الداخلية في جوامع ذلك العصر ، وهي مصنوعة من الجص وتمتاز بزخارفها الجصية البديعة .

أما الحفر في الخشب فقد بلغ درجة فائقة من الإبداع في عصر المماليك، فأقبل الفنانون المشتغلون في هذه المهنة على إنتاج التحف الخشبية الدقيقة لاسيما المنابر والخزانات والكراسي والدكك . وامتازت رسوم الحشوات في ذلك العصر بأنواع المراوح النخيلية والفروع النباتية والوريقات ، فضلا عن تطعيم الحشوات بخيوط أو أشرطة رفيعة من نوع آخر من الخشب، أغلى ثمناً وأندر وجودا كالأبنوس أو بالعاج والعظم . وعندما استخدم الخشب في إنشاء السقوف كان يزخرف بالرسوم الجميلة المنقوشة أو المحفورة . كذلك ازدهرت

---

(١) ديماند : الفنون الاسلامية ص ١٣٢ ـ ١٣٣

(٢) زكي محمد حسن : فنون الإسلامية ص ١٣٢ ـ ١٣٣ ،

فى عصر المماليك صناعة مشربيات النوافذ من الخشب المخروط ، ولدينا نماذج منها تشهد على براعة الفنان المصرى فى ذلك العصر . أما الخزانات والدكك والكراسى ، فيوجد منها عدد كبير بدار الآثار العربية وكلها تشهد بدقة الصناعة وجمال الزخرفة وسمو الذوق الفنى[1].

كذلك ارتقى الحفر على العاج والعظم زمن المماليك ، واستخدمت رقائق العظم فيما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر فى زخرفة الأبواب والمنابر. وتحتوى المتاحف الكبرى فى أوربا - فضلا عن المتحف الإسلامى بالقاهرة - على نماذج كثيرة من التحف العاجية التى ترجع إلى عصر المماليك[2].

الفنون الصغرى :

أما الفنون الصغرى فتشمل الصناعات الصغيرة التى يبدو فيها تفوق الصانع ومهارته الفنية وذوقه الجميل ودقة عمله ، وقد سبق أن تكلمنا عن رقى الصناعة فى عصر المماليك ، ولا بأس من أن نشير هنا إشارة أخرى سريعة إلى أهم الصناعات التى ظهرت فيها مهارة الصانع وسمو ذوقه الفنى فى ذلك العصر.

ففى صناعة الخزف بلغ الصانع فى عصر المماليك درجة كبيرة من المهارة والدقة تدل عليها البقايا الخزفية من ذلك العصر ، ومن ذلك الخزف نوع ذو زخارف منقوشة تحت دهان شفاف باللون الأزرق أو الأخضر . وقد كتب بعض الخزفيين الذين أنتجوا لنا أنواعاً رائعة من الخزف أسماءهم على الوجه الخارجى من قاع الإناء ، ومن هذه الأسماء غيبى وغزال ودمين والأستاذ المصرى وغيرهم ، كذلك امتاز عصر المماليك بصناعة نوع خاص

---

(١) زكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ٤٦٧ – ٤٧٤

(٢) ديماند : الفنون الاسلامية ص ١٣٢ – ١٣٣

من الفخار المطلى بالمينا ؛ وعجينة هذا الفخار مائلة إلى الحمرة وفوقها قشرة بيضاء يعلوها دهان بالمينا الصفراء أو الخضراء أو ذات اللون البنى ، وكان هذا النوع من الفخار يستعمل بكثرة فى بيوت الأمراء .


وفى صناعة النسيج أنتج عصر المماليك منسوجات راقية من الحرير ، امتازت برقتها وجمال رسومها ورقة نسيجها ، ومثل ذلك يقال عن صناعة السجاد التى أشار إليها الرحالة الأوربيون الذين زاروا مصر فى عصر المماليك . واتصف السجاد المصرى فى ذلك العصر بجمال ألوانه ومتانة صناعته وجمال زخارفه الهندسية ، أما فى صناعة الخشب فقد أبدع النجارون فى صناعة التحف الدقيقة مثل المنابر والدكك والكراسى والحوامل والصناديق والخزانات وغيرها ، وظهرت مهارة النجارين فى ذلك العصر فى خرط الخشب وتطعيم حشواته بالعاج والعظم وغير ذلك ؛ فضلا عن كسوة الخشب أحيانا بطبقة دقيقة من الفسيفساء تتألف غالبا من قطع صغيرة من الأبنوس والسن ، وهو ما يسمى الترصيع ، على استخدام العاج والعظم لم يقتصر فى عصر المماليك على التطعيم والترصيع ؛ وإنما صنعت فى ذلك العصر بعض تحف نادرة من العاج ، معظمها علب صغيرة عليها زخارف نباتية وهندسية رائعة .

أما صناعة المعادن فقد بلغت هى الأخرى درجة فائقة من الدقة تدل عليها مخلفات ذلك العصر من أبواب وشمعدانات وكراسى وطاسات وآنية وأسلحة وغيرها ، وجميعها استعملت فيها مختلف الأساليب الفنية فى صناعة المعادن من حفر وتكفيت وتصفيح وتخريم ، ومثل ذلك يقال عن صناعة الزجاج إذ صنعت مشكايات من الزجاج الأبيض المائل إلى الصفرة أو الخضرة ، ومموهة بالمينا . وأبدع نماذج لهذه المشكايات صنعت فى الشام ومصر حوالى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى ، وبالإضافة إلى المشكايات العديدة صنعت

فى ذلك العصر كؤوس وقنينات وآنية جميلة من الزجاج ، تشهد كلها على مهارة الصناعة ودقتها فى ذلك العصر .

وهكذا يبدو لنا أن عصر المماليك كان عصر نشاط فنى ضخم ، وأن الحياة الفنية بجميع أوجهها ومظاهرها ، ارتقت فى ذلك العصر الى أسمى درجات الرقى والاتقان .

والحمد لله رب العالمين



كشاف

شرح أهم المصطلحات الواردة فى مراجع العصر المماليكى

(أ)

الأبازرة :

تجار البذور .

(المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٤١٤)

أتابك (أطابك) :

مقدم العسكر والقائد العام للجيش المماليكى .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨)

أجناد الحلقة :

محترفو الجندية من مماليك السلاطين السابقين وأولادهم ، وهم أقرب فئات المماليك إلى الجيوش النظامية فى العصور الحديثة ، ومرتباتهم من ديوان الجيش .

إخوان سلار :

وظيفة بالمطبخ السلطانى يقوم صاحبها بتقديم الخوان بالطعام إلى السلطان . ويبدو أن صاحب هذه الوظيفة كان كبير رجال المطبخ السلطانى ، وهو يقوم مقام المهتار فى غير المطبخ من البيوت السلطانية .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٧١) .

آدر :

جمع دار ، وآدر الضرب هي دور سك العملة ، والآدر الشريفة يقصد بها الحريم السلطانى . والآدر كذلك من ألقاب التشريف التى تستعمل للاشارة إلى الخوندات أو صاحبات العصمة من علية النساء دون ذكر أسمائهن .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٧١ — ٢٧٢ ،
خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٢١ — ١٢٢)

الادعاء فى الصيد :

الانتساب : بمعنى أن المبتدىء فى الصيد لا يصير فى زمرة هواة الفن إلا بعد أن ينتسب لأحد رماة الصيد القدماء ، فإذا تم ذلك يقال أنه ادعى لفلان أى انتسب إليه .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٥٢٣)

أرباب الخيال :

(انظر المخايل)

أرباب الضوء (الضوية) :

الأشخاص المكلفون بأعمال الإضاءة .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

أرباب الملعوب :

أصحاب الملاهى المعروفة « من المناطحين بالكباش والمناقرين بالديوك ، والمعالجين والمصارعين والمثاقفين والملاكمين والمشابكين .. والقرادة والدبابة الذين يلعبون بالقرود والدب ... »

(المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٦٤٢) .

الارتفاع :

مايتحصل من الدواوين عامة ، ويقال ارتفاع الديوان الخاص أى مايتحصل من الديوان الخاص بأموال السلطان .

(المقريزى : السلوك ج ا ص ٥٢ ، ١١١)

اسباسلار (اسفهسلار) :

لقب من الألقاب الخاصة بأمراء الطبلخاناه فى عصر المماليك ، على أن هؤلاء الأمراء لم يلبثوا أن أعرضوا عن هذا اللقب عندما وجدوا أن العامة يطلقونه على بعض من يقف بباب السلطان من الأعوان .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٦ ص ٧ — ٨)

الاستادار :

وظيفة من وظائف أرباب السيوف يتولى صاحبها شئون بيوت السلطان كلها من المطابخ والشراب خاناه والحاشية والغلمان . وله مطلق التصرف فى استدعاء ما يحتاجه كل من فى بيت السلطان من النفقات والكساوى وما يجرى مجرى ذلك من المماليك وغيرهم .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٠ ، ج ٥ ص ٤٥٧ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ٢٣٢ حاشية ١) .

أستاذ :

معلم ، وأطلقت فى المصطلح المماليكى على السيد الذى اشترى المملوك بالمال وتعهده بالتربية حتى كبر وأعتقه . وكانت رابطة الأستاذية — التى تربط المملوك بأستاذه — من أقوى الروابط فى نظام المماليك ، حتى أن كثيراً منهم نسبوا إلى أساتذتهم ، فيقال مثلا بيبرس البندقدارى نسبة إلى أستاذه الأمير علاء الدين البندقدار .

استيفاء الصحبة :

(انظر مستوفى الصحبة) .

الاستيمار :

السجل الحكومى « الذى يشتمل على أرزاق ذوى الأقلام وغيرهم ، مياومة ومشاهرة ومسانهة من الرواتب ... »

(المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٢٢٦)

الأسطول :

مجموعة مراكب حربية مجتمعة ، وأطلق أحياناً على مركب واحد فقط . والأسطولى هو العسكرى الذى يعمل فى البحر .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٥٧) .

أسلمى :

وجمعه أسالمة . ويقال أيضاً مسلمانى وجمعه مسالمة أو مسلمة ويقصد به كل من دخل الإسلام حديثاً من أهل الديانات الأخرى .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٨٤٣) .

الإشارة :

وظيفة من الوظائف الكبرى فى الدولة المملوكية ، جعلها القلقشندى فى الترتيب بعد نيابة السلطنة والوزارة . ومع ذلك لا نجد تحديداً ثابتاً لاختصاص صاحب هذه الوظيفة فى المراجع المعاصرة ، وإن كان من الثابت أنه تولاها عادة بعض كبار أمراء المماليك ، وأن صاحبها كان يحضر مجلس المشورة .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ١١ ص ١٥٣ — ١٥٥ ، المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٨٩٠ حاشية ١)

أشكرلاط :

نوع من القماش أحمر اللون ، كان يرد من جزيرة أيرلند .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

أصحاب الأرباع :

الأرباع جمع ربع ، وهى أقسام أو أحياء المدينة الآهلة ، وأصحاب الأرباع هم الخفراء الذين يقومون بحراسة تلك الأحياء ليلا .

اصطبل :

مجموعة من المبانى يبنيها الأمير المملوكى لسكنه وسكن أسرته ومماليكه وخيوله .

الأطلاب :

الحرس الخاص لأمراء المماليك ، ويحملون سلاحا كالأجناد .

(أبو المحاسن : النجوم ج ١٠ ص ٢٩ حاشية ٢) .

الأطلس الخطائى :

نوع من الحرير ، أصل صناعته فى بلاد الخطا شمالى الصين .

(Dozy : Dict. Ar.)

إقامة :

وجمعها إقامات، مايلزم الجند من المؤونة والعلف وغيرها. وربما قصد بها ماينزل فيها المسافر من الخيام ولوازمها ومايتبعها من أمتعة السفر. (زيادة : السلوك ج ١ ص ١٥٠ حاشية ٣ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ٥٥ حاشية ٥) .

إكديشن :

وجمعها أكاديشن ، الرجل الخليط الذى لا ينتسب إلى أصل واحد ، الحصان غير الأصيل المستخدم فى حمل الأثقال .

أمير آخور :

وظيفة يقوم صاحبها بالإشراف على اصطبل السلطان أو الأمير ورعاية مافيها من خيل وحيوانات .

زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٣٨ حاشية ٣) .

أمير جاندار :

(انظر الجاندار) .

أمير خمسة :

أصغر مرتبة من مراتب الأمراء ، ويعتبر أصحابها من كبار الأجناد . كذلك كانت تمنح هذه الرتبة لأولاد الأمراء المتوفين من باب التشريف .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٤ — ١٨) .

أمير شكار :

موظف يقوم برعاية الجوارح السلطانية من الطيور وغيرها . وكذلك كل مايتعلق بالصيد وحيواناته .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٢ ، ج ٥ ص ٤٦١) .

أمير طبلخاناه :

مرتبة حربية من مراتب أرباب السيوف فى مصر المملوكية، صاحبها يلى أمير مائة مقدم ألف فى الدرجة . وسمى أمير طبلخاناه لأحقيته فى دق الطبول على أبوابه كما يفعل السلاطين وأمراء المئين . ويطلق على أمير طبلخاناه أيضا أمير أربعين ، بمعنى أن يكون فى خدمته أربعين مملوك ، وقد يزيد هذا العدد إلى سبعين أو ثمانين .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٢٢٩ حاشية ١) .

أمير عشرة :

مرتبة حربية يكون فى خدمة صاحبها عشرة مماليك . ويكون صغار الولاة من طبقة أمراء العشرات .

أمير علم :

هو الذى يتولى أمر الأعلام والسناجق والرايات السلطانية، ويشترط فيه الدراية بنوع الأعلام اللازمة لكل موكب من المواكب السلطانية.

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٨ ، ج ٥ ص ٤٥٦—٤٥٨)

أمير مائة مقدم ألف :

أعلى مراتب الأمراء فى عصر المماليك ، وهذه المرتبة خاصة بأرباب السيوف ويكون فى خدمة صاحبها مائة مملوك ، وهو فى نفس الوقت مقدم على ألف جندى من أجناد الحلقة فى وقت الحرب .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٢٣٩ حاشية ١) .

أمير مجلس :

يتولى صاحب هذه الوظيفة أمر مجلس السلطان أو الأمير . كما كان يتحدث على الأطباء والكحالين ومن شاكلهم .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨ ، ج ٥ ص ٤٥٥)

الأهراء السلطانية :

المخازن والشون التى تخزن فيها الغلال الخاصة بالسلطان ولا تفتح إلا فى حالات الشدة والمجاعات .

(خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٢٢ - ١٢٣) .

الأوشاقية (أو الأوجاقية) :

مفردها أوشاق أو أوجاقى ، وهى فرقة من خدم السلطان عملها ركوب الخيل للتسيير والرياضة .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٤)

إيلجى :

وجمعها إلجية ، السفير أو المبعوث .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

(ب)

باب سر لطيف :

هو الباب الذى يوجد بمكان غير ظاهر من العمارة الإسلامية ، ويدخل منه السلطان أو غيره من الشخصيات الكبرى فى حالة الزحام فى الحفلات مثلا أو عند التخفى فى حالة وجود حريم . والمقصود بباب لطيف أى صغير .

(عبد اللطيف إبراهيم على : دراسات تاريخية وأثرية مجلد ٢ تحقيق ٢٤٦) .

بابا :

وجمعها بابية ، وهو « لقب عام لجميع رجال الطشت خاناه ممن يتعاطى الغسل والصقل وغير ذلك . وهو لفظ رومى معناه أبو الآباء ... وكأنه لقب بذلك لأنه لما تعاطى ما فيه ترفيه مخدومه من تنظيف قماشه وتحسين هيئته ، أشبه بالأب الشفيق » .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٧٠) .

البادهنج (باداهنج أو بادنج) :

جمعه بادهنجات ، وهو المنفذ الذى يوجد وسط المبنى للتهوية (المنور أو الشخشيخة) . وقد ورد اللفظ بالذال أيضاً .

(Dozy : Dict. Ar.)

البازدار :

هو الذى يحمل الجوارح والطيور المعدة للصيد على يده .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٦٩) .

بازهر (بازدهر) :

حجر خفيف هش ينسب إليه قوى غريبة فى مقاومة السموم .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الباشورة :

وجمعها بواشير ، وهى سد من التراب لمنع وصول الخيالة والرجالة والسهام إلى موضع المحاربين .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ١٥٠ حاشية ٤)

البرانية (المماليك ...) :

المماليك والأمراء الذين ليسوا من الخاصكية ، ويقال لهم الخرجية أيضاً . أما الخاصكية فكانوا يسمون باسم الجوانية .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٧٦ ، ج ٤ ص ٥٦ ؛ المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٢١٧) .

البرددار :

« هو الذى يكون فى خدمة مباشرى الديوان فى الجملة ، متحدثاً على أعوانه والمتصرفين فيه .... »

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٨) .

البوك :

ثقل المسافر ومتاعه .

(كترميرج ١ ص ٢٥٣ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ٨٧)

بركستوان (بركصطوان) :

ما يوضع حول بدن الفرس كالدرع .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ١٧٧ حاشية ٥) .

البركيل :

مرتاد البحار من التجار والمغامرين ، والبراكية نوع من السفن .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

البشت :

بكسر الباء أو ضمها وجمعه بشوت ، العباءة من الصوف بلونه الطبيعي .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

البشتكى :

نوع من الخمور نسبة إلى الأمير بشتك .

البشخاناه :

وجمعها بشاخين ، وهى ما يطلق عليها اليوم الناموسية المزركشة أو داير السرير ، أى الحلية التى توضع فوق السرير ، وقد تكون حول الغرفة كلها .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

البشمقدار (البجمقدار) :

هو الذى يحمل نعل السلطان أو الأمير .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٩) .

بطال :

وجمعها بطالون ، أى الأجناد والأمراء العاطلون من أعمال الدولة ووظائفها وإقطاعاتها نتيجة غضب السلطان أو كبر السن، أو اضطرارا إلى الاعتكاف والاختفاء ، أو لمجرد حب الإنزواء والابتعاد .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٣ حاشية ٤) .

البطسة :

نوع من السفن الحربية ، ويفهم من عبارة ذكرها النويرى أن السفينة من هـــذا النوع كانت تتسع لعدد كبير من الجند يصل إلى نحو سبعمائة .

(النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ١٣٢٣) .

البغلطاق :

قباء بلا أكمام أو بأكمام قصيرة جداً يلبس تحت الفرجية . وكان يصنع من القطن البعلبكى الأبيض أو من السنجاب .

(Dozy : Dict. Vet. Ar.)

البقط :

المال الذى فرضه المسلمون على النوبة بعد فتحهم لها ، وظل يحمل إلى مصر كل سنة .

(المقريزى : المواعظ ج ١ ص ١٩٩)

بقيار :

عمامة سوداء مصنوعة من وبر الجمل ، نوع من العمائم الكبار كان يلبسها الوزراء أصحاب القلم .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٥٥ حاشية ٤) .

البكلة :

المشبك الذى يشبك فى الثياب للزينة ، وقد يكون من ذهب .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

بليق :

وجمعه بلاليق ، نوع من النظم الخاص بالأغانى الشعبية .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

البندق :

كرات تصنع من الطين أو الحجارة أو الرصاص يستخدمها الرماه فى تطيير الحمام . وكان البندق يرمى بالأقواس ثم صار يرمى بالمزاريق والأنابيب عن طريق ضغط الهواء من مؤخر الأنبوب. والبندقانيون هم صانعو البندق .

(زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ج ٥ ص ١٥٣) .

البندقدار :

حامل كيس البندق خلف السلطان أو الأمير .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ١٣٧ ، ج ٥ ص ٤٥٨ ، السلوك ج ١ ص ٣٥٠ حاشية ٢ ، النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٩٤)

البواردى :

وجمعه بواردیون ، تاجر الطيور المحفوظة بالتبريد أو التمليح .

(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٦١٣ حاشية ١) . ويفهم من بعض كتب الحسبة المعاصرة أن اللفظ أطلق أيضاً على تاجر الخضروات المحفوظة بالصلق وإضافة الخل والزيت والتوابل والملح إليها .

(ابن الأخوة : معالم القربة فى أحكام الحسبة ص ٩٦) .

البواقى :

مايتأخر كل سنة عند الضمان والمتقبلين من مال الخراج .

(المقريزى : المواعظ ج ١ ص ٨٢)

بيدر :

وجمعها بيادر ، الموضع الذى تدرس فيه الغلال .

بيضة :

وجمعها بيض ، خوذة من الحديد يلبسها الجندى لوقاية رأسه، وسميت كذلك لأن شكلها يشبه البيضة .

البيكار :

وجمعها بياكير ، الحرب عامة .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

بيمارستان :

(انظر مارستان)

(ت)

التجريس :

هو أن يشهر المذنب فى طرقات المدينة ، ويضرب الجرس على رأسه ليجتمع الناس حوله ، ثم يضرب أو يوسط علناً فى نهاية المطاف .

(انظر التشهير والتوسيط)

التحتانية :

القميص الذى يلبس تحت الملابس ، وعكسه الفوقانية .

(Dozy : Dict. Vet. Ar.)

تخت :

مقعد : وتخت الملك (سرير الملك) منبر من رخام بصدر إيوان السلطان الذى يجلس فيه .

تضريج (الجوارح) :

تدريب الجوارح .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٠٠ حاشية ٢) .

تخليق (المقياس) :

التخليق هو التعطير بالرائحة العطرية المسماة (خلوق) ، ومعنى تخليق المقياس تعطيره ومسحه بالزعفران عند وفاء النيل .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٧) .

التذرع بالسخام :

تلطيخ الأذرع بالسخام ؛ وهو الفحم وسواد القدر ، وذلك إظهاراً للحزن .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٩٦ حاشية ٤) .

تذكرة :

وجمعها تذاكر ، مكتوب يصدر من السلطان إلى نوابه وقصاده لتذكرتهم بتفاصيل ما يوكل إليهم ، وليكون بمثابة ورقة اعتماد عند الجهات التى يقصدونها .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٨٠ حاشية ٥) .

الترابى :

الأطفال من أسرى الحروب .

(المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ١٩٤) .

الترسيم :

وجمعه تراسيم ، وهو الأمر الذى يصدر من الجهة المختصة لمعاقبة شخص بوضعه تحت المراقبة .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٤٠ حاشية ٥) .

التركاش :

الكنانة أو الجعبة التى توضع فيها النشاب .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

التسمير :

عقوبة تقضى بتعرية المحكوم عليه من الثياب ، ثم يربط إلى خشبتين على شكل صليب ، وتدق أعضاؤه فى الخشب بواسطة مسامير غلاظ .

التشريف :

الخلعة أو الملابس المهداة من السلطان إلى كبار الأمراء فى مناسبات خاصة أهمها التعيين فى الوظائف الكبرى كالنيابات .

التشهير :

عقوبة تقضى بأن يطرح المذنب على ظهر جمل ثم يطاف به فى المدينة ليشهر ، وقد تزفه المغانى وهو على هذه الصورة ليجتمع الناس حوله ، وفى نهاية المطاف يضرب أو يوسط أمام الناس .

تشهير :

وجمعه تشاهير ، وهى الأشرطة التى توضع حول صدر الحصان .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

التصقيع :

إحصاء البيوت والعقارات لأجل فرض ضريبة عليها ، والتقويم تقدير قيمة كل من البيوت المحصاة من أجل الفرض نفسه .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٣٨٤ حاشية ٢) .

تعبية :

وجمعها تعابى ، أى ثياب أو قطع من قماش .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

تفصيلة :

ثوب .

التقليد :

المرسوم الموقع من السلطان لتعيين شخص فى وظيفة كبيرة .

التقويم :

(انظر التصقيع) .

التكلاوات :

نوع من الملابس كان يلبسه الأمراء فى العصر المملوكى ، غير معروف وصفه بالضبط . واللفظ على صيغة الجمع .

(Dozy : Dict. Vet. Ar. p. 29.)

التمر بغاوى :

نوع من الخمور نسبة إلى الأمير تمربغا .

التوسيط :

عقوبة تقضى بضرب المحكوم عليه بواسطة السياف ، على أن تكون الضربة قوية تحت السرة ، فتقسم الجسم نصفين من وسطه وتنهار أمعاء المحكوم عليه إلى الأرض .

تومان (طومان) :

الفرقة التي يبلغ عددها عشرة آلاف مقاتل .

(زيادة : المقريزى ج ١ ص ٩٣٣ حاشية ١)

(ج)

الجاشنكير :

الأمير الذي يقوم بذوق المأكول والمشروب قبل السلطان أو الأمير خوفاً من أن يدس عليه فيه سم أو نحوه .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٠)

الجالية :

وجمعها جوالى ، وهى ما يؤخذ من أهل الذمة من الجزية المقررة عليهم كل سنة .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٢ ، النويرى : نهاية الأرب ج ٨ ص ٢٣٦)

الجاليش :

راية عظيمة فى رأسها خصلة من الشعر تحمل فى مواكب السلطان ، لاسيما المواكب الخاصة بالحرب . وكان المماليك يطلقون اللفظ أيضاً على الطليعة من الجيش .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٦٢٨ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ١٠١) .

الجامكية :

وجمعها جوامك ، الراتب المربوط لشهر أو أكثر .

(Dozy : Spp. Dict, Ar.)

الجاندار :

الأمير الذى يستأذن على دخول الأمراء للخدمة السلطانية ويدخل أمامهم إلى الديوان .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٠ ، ج ٥ ص ٤٥٩)

الجتر :

مظلة أو قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب على أعلاها طائر من فضة مطلية بالذهب ، وتحمل على رأس السلطان فى موكب العيد .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٧ — ٨) .

جرائحى (جارحى) :

طبيب الجراحة .

جرخ :

جمعها جروخ ، وهى آلة حربية تستعمل لرمى السهام والنفط والحجارة ويقال لمستخدمها من الجند جرخى .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ١٠٠٣ حاشية ١) .

جريدة :

فرقة من العسكر الخيالة لا رجالة فيها . ويقال ركب السلطان جريدة .. أى ركب على وجه السرعة دون أن يصطحب معه أثقالا أو حشداً .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ١٠٦ حاشية ٨).

جفت :

وجمعه جفوت ، وهو الزخرفة البارزة المنحوتة فى الحجر على شكل إطارات أو سلسلة حول فتحات النوافذ والأبواب والإيوانات .

(عبد اللطيف ابراهيم على : دراسات تاريخية وأثرية مجلد ٢ تحقيق ٥٨)

الجفته :

وجمعها جفتاوات ، اثنان من أوشاقية أصطبل السلطان ، قريبان فى السن ، يركبان أمام السلطان فى بعض المواكب السلطانية ، ويلبسان قباءان أصفران من حرير وتحتهما فرسان أشهبان .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٧ — ٨) .

جفير :

جعبة من جلود لاخشب فيها ، أو من خشب لا جلود فيها .

(أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٣١٣ حاشية ٦) .

الجمدار :

الموظف الذى يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٩) .

الجقدار :

هو الذى يمشى فى المواكب السلطانية عن يمين السلطان حاملا دبوساً له رأس ضخم مذهب ، على أن يتجه نظره الى السلطان من أول خروج الموكب حتى انفضاضه .

جناية :

وجمعها جنايات ، وهى ما يفرضه السلطان من ضرائب وغرامات تأديبية على رعيته .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٨٨ حاشية ١) .

جنب :

وجمعها جنائب ، وهى الخيول التى تسير وراء السلطان فى الحروب لاحتمال الحاجة إليها .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٣٤١ حاشية ٣) .

جنك :

آلة من آلات الطرب ، والجنكيات الجوارى اللاتى يلعبن على الجنك .

الجنكى :

لاعب آلة الجنك ، وكذلك رقاص الأفراح . وانتمى معظم هذه الفئة من الرقاصين إلى شباب الأرمن واليهود واليونان والترك .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٢٧٥ حاشية ٣) .

الجنوية :

النقالة التى تستخدم لنقل الموتى .

الجوسق :

وجمعه جواسق ، أى القصر والقصور .

الجوشن :

الدرع .

الجوك :

الركوع على الركبتين (فى حضرة عظيم) .

الجوكان :

عصى مدهونة طولها نحو أربعة أذرع ، برأسها خشبة مخروطة معقوفة تزيد عن نصف ذراع ، تستخدم فى لعب الكرة (بولو) .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٨ ، زيادة : السلوك ج ١ ، ص ٤٣٥) .

الجوكندار :

هو الذى يحمل جوكان السلطان أثناء لعبة الكرة .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٨) .

(ح)

الحاجب :

أمير وظيفته « أن ينصف بين الأمراء والجند ، تارة بنفسه وتارة بمراجعة النائب إن كان ، وإليه تقديم من يعرض ومن يرد ، وعرض الجند وما ناسب ذلك » .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٩) .

حاجب الحجاب :

تسمى وظيفته « الحجوبية الكبرى » ، « وهو يقوم بالنظر فى مخاصمات الأجناد واختلافهم فى أمور الإقطاعات ونحو ذلك » .

(المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٢١٩) .

حراسة الطير :

وظيفة يقوم صاحبها برعاية طيور الصيد وحراستها فى الأماكن التى ينزل فيها السلطان لمباشرة رياضة الصيد .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٢ ، ج ٥ ص ٤٦١) .

حراقه :

وجمعها حراريق : نوع من السفن الحربية استخدمت لحمل الأسلحة النارية (كالنار الأغريقية) ، وكان بها مرام تلق منها النيران على العدو . واستخدم نوع منها فى النيل أثناء الاستعراضات التى تقام فى الحفلات العامة مثل الاحتفال بكسر الخليج .

(قاموس محيط المحيط ، المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٠٦) .

حرسى :

وجمعه الحرسيـــــة ، وهم الجنود المكلفون بحراسة مكان من الأمكنة .

حرفوش :

وجمعه حرافيش أو حرافشة ، أى الرعاع والدهماء وضعاف الخلق .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

١

الحرمدان :

حقيبة السفر ، المحفظة الخاصة التى يحمل فيها الفرد أوراقه ونقوده ، ويطلق اللفظ أيضاً على حقيبة الحلاق .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الحرمية :

قاعة خاصة بالحريم فى عمارة القصر أو البيت الإسلامى، وهى تشتمل على إيوان أو أكثر ودور ومرافق وحقوق من مطبخ وخزانات ومرحاض وغيرها، وهى التى عرفت بعد ذلك فى العصر العثمانى بالحرملك.

(عبد اللطيف إبراهيم على : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ٢٢٤) .

حرير غيار :

هو الثوب أو القماش الذى يبدى أكثر من لون واحد .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الحماية :

وجمعها حمايات ، وهى مكس يفرضه الأمير أو السلطان على بعض الأراضى والمتاجر والمراكب والأرزاق ؛ ويقوم الأمير بحماية الشخص الذى يدفع ذلك المكس المقرر .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٨٧٥ حاشية ٣) .

الحمل :

وجمعه حمول ، ما يحمل إلى السلطان من محصول إقليم نوعاً أو عيناً ، وكذلك ما يحمله المحكوم عليه عدلا أو ظلماً من الأموال إلى خزائن السلطان .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الحوائج خاناه :

ومعناها بيت الحوائج : وهى الجهة التى « منها يصرف اللحم الراتب المطبخ السلطانى والدور السلطانية ، ورواتب الأمراء والمماليك السلطانية وسائر الجند والمتعممين وغيرهم من أرباب الرواتب الذين تملأ أسماؤهم الدفاتر ، وكذلك توابل الطعام ... »

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٢) .

الحواصل السلطانية :

يطلق هذا الاسم على ثمانية بيوت هى الشرابخاناه ، والطشت خاناه، والفراش خاناه ، والسلاح خاناه ، والركاب خاناه ، والحوائج خاناه ، والمطبخ ، والطبلخاناه . وكان لكل منها موظفون يقومون بالعمل فيها وتدبيرها .

حوندار :

وجمعه حوندارية ، وهم المكلفون بخدمة طيور الصيد من الكراكى والبلشونات وحملها إلى موضع تعليم الطيور،وأصل اللفظ حيوان‌دار. (القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٧٠) .

حياصة :

وجمعها حوائص ؛ وهى الحزام أو المنطقة .
(Dozy : Dict, Vet. Ar. p.p. 146 — 147)

(خ)

خاتون :

لقب لقبت به الملكات والأميرات .

الخازندار :

المشرف على خزائن السلطان من نقد وأمتعة .

الخاصكية :

جماعة من حاشية السلطان يأتون فى ترتيب البروتوكول المملوكى بعد الأمراء المقدمين . كان عددهم فى أول الأمر أربعة وعشرين ثم زادوا

على الأربعمائة . وقد تمتع الخاصكية بمكانة كبيرة فكانوا يدخلون على السلطان فى أوقات فراغه وفى خلواته بغير إذن ، وخصص لهم السلاطين الأرزاق الواسعة والعطايا الجزيلة، وامتازوا بحسن المظهر وأناقة الركوب والملابس .

(كاترمير ج ٢ ص ١٥٩ ، خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١١٥ — ١١٦ ، أبو المحاسن: النجوم ج ٧ ص ١٧٩ — ١٨٠) .

خاطية :

وجمعها خواطى ، المرأة الداعرة .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الخان :

وجمعه خانات ، وهى الوكالات أو الفنادق المعدة لاستقبال التجار وبضائعهم ودوابهم ، وغيرهم من المسافرين والحجاج . ويوجد به اصطبل للدواب وفى أعلاه طباق ومساكن للنازلين به تطل على حوش أو ساحة تتوسط الخان . كذلك يوجد بالخان بئرمياه وميضأة ومسجد صغير .

(عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، المجلد الأول تحقيق ٧٨)

خان :

وجمعه خانات ، أماكن العبث واللهو .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

خانقاه :

وجمعها خوانق وخانقاوات ، بيت ينقطع فيه الصوفية للعبادة والذكر .

خبز :

وجمعه أخباز . من معانى هذا اللفظ فى عصر المماليك إقطاع من الارض ، فيقال أخباز الأجداد أى إقطاعاتهم .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الخبز القار :

أو المقر بالنار ، وهو الخبز المقدد الذى يمكث مدة أطول فى النار حتى يمكن حفظه أو خزنه مدة طويلة دون أن يتلف . وكان الصوفية بالخوانق يفضلون هذا النوع من الخبز على غيره .

(عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، المجلد الأول تحقيق ٦٩٩) .

الخرستان :

وجمعها خرستانات ، وهى حجرة تشبه الخلوة أو الحاصل (خزانة) ، تفرش بالبلاط وتسقف ، وقد يكون بها منفذ أو بادهنج ، ولكن الغالب أن تكون حبيسة بدون فتحات .

(عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، مجلد ١ تحقيق ٢٠٣) .

الخركاه :

« بيت من خشب مصنوع على هيئة مخصوصة ويغشى بالجوخ ونحوه » تحمل فى السفر لتكون فى الخيمة للمبيت فى الشتاء لوقاية البرد » .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ١٣٨) .

الخروبة :

قطعة صغيرة من النقود النحاسية ، قيمتها عشر درهم . والخروبة أيضاً مكيال .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٨٩٩ حاشية ١) .

الخزان :

الشخص الذى يوكل إليه مراقبة خزانة السلطان فى الأسفار والحروب .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٩٣٧ حاشية ١) .

خشداش :

زميل فى الخدمة ، والخشداشية هى رابطة الزمالة بين الأمراء الذين نشأوا مماليك عند أستاذ أو سيد واحد .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٣٨٨) .

الخطة :

لعبة تلعب ببعض البندق والحلوى والماء وما شابهها ، وهى تقوم على أساس القرعة فمن وقع له الحلوى أو البندق أكل وشرب الذى بجواره وقد تكون الحلوى من نصيب فرد واحد مرتين أو ثلاثة ، فيضطر من بجواره إلى الشرب مرتين أو ثلاثة مما يسبب ضحك المجموعة .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٢٥ حاشية ٥) .

الخواجا (الخوجة) :

المعلم ، التاجر ، الكاتب .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الخوانيق :

المرض المسمى بالذبحة

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الخوخة :

باب صغير فى بوابة كبرى لسور أو حصن ، وجرت العادة أن يخصص هذا الباب الصغير للاستعمال اليومى ، فلا تكون حاجة

الى فتح البوابة الكبرى إلا عند الاقتضاء أو الضرورة . وقد يقصد بالخوخة فتحة فى السور نفسه دون أن تكون هناك بوابة كبرى .
(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٢١٥ حاشية ٢) .

خوشطاشة :

وجمعها خوشطاشية ، وهى امرأة من موظفات القصر السلطانى .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

خونجة :

وجمعها خونجات ، خوان صغير أو صينية من الخشب أو المعدن .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

خوند :

لقب يفيد معنى الاحترام ، ويخاطب به الذكور والإناث سواء . (سيد ، سيدة) .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

خيل النوبة :

الخيل التى تربط قرب قصر السلطان ليركب منها حين يريد الركوب . وتسمى أيضاً فرس النوبة .

(د)

دبابة :

وجمعها دبابات ، وهى آلة حربية تشبه البرج المتحرك على عجلات ، وتكون من عدة أدوار تصعد اليها الجند لمهاجمة الحصون وتسلق الأسوار .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الدبندار :

الذى يضرب على الطبل .

الدبوس :

وجمعه دبابيس : آلة من آلات الحرب فى العصور الوسطى تشبه الإبرة . كانت تصنع من عود طوله نحو قدمين من الخشب الغليظ فى أحد طرفيه رأس من حديد قطرها ثلاث بوصات تقريباً .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

دراية :

جمعها دراريب ، إحدى مصرعى الباب .

(Dozy : Sopp. Dict. Ar.)

الدراعة :

جمعها دراريع ، جبة مشقوقة المقدم ولا تكون إلا من صوف .
ويطلق الاسم أيضاً على صدرية تلبسها البنات .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٥٢ حاشية ٢) .

الدرب :

وجمعه دراب : باب السكة الواسع .

درج :

وجمعه دروج ، ورق خاص بالدواوين ، وهو كما عرفه القلقشندى « الورق المستطيل المركب من عدة أوصال وهو فى عرف الزمان عبارة عن عشرين وصلا متلاصقة لا غير » .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ١٣٨) .

الدركاه :

وجمعها دركاوات ، الفضاء أو الممر المؤدى لمدخل بناء كبير .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الدستور :

الإذن : فيقال أعطى السلطان الأمراء دستوراً ، أى أعطاهم إذناً بكذا .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الدلق :

بكسر الدال وسكون اللام ، أو بفتح الدال وكسر اللام ، رداء يتكون من عدة قطع من القماش على ألوان مختلفة يشبه العباءة وكان يرتديه المتصوفة والقضاة والعلماء .

(Dozy : Dict. Vet. Ar.)

الدليل :

وهو الشخص من أهل الناحية يقوم بتعيين أسماء المزارعين للأراضى المزروعة التى يمسحها السلطان من المساحين « ويلزمه أن يحمل القناديق والقوانين والسجلات ، ويفصل الأرض ببقاعها وأصناف مزروعاتها وقطايعها وأسماء المزارعين » .

(ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ١٠) .

منة :

وجمعها دمن ، قطعة الأرض من القرية ، وما عليها من دور الفلاحين والجامع والمقبرة وغيرها من المنافع العامة .

(عبد اللطيف إبراهيم : دراسات مجلد ٢ تحقيق ٥٩٩) .

الدوادار :

أى ممسك الدواة ، والوظيفة اسمها الدوادارية وصاحبها يحمل دواة السلطان أو الأمير ويقوم بإبلاغ الرسائل عنه وتقديم القصص والشكاوى إليه .

دولاب :

وجمعها دواليب ، وهى الآلات العجلية المستعملة فى الزراعة والصناعة عموماً ، سواء صناعة السكر أو النسيج أو غيرها .

(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٤٠٨ حاشية ٤) .

الدينار الديوانى :

الدينار الشرعى الصادر عن الديوان أو دار الضرب السلطانية ، فهو مضروب حسب قوانين الدولة القائمة بوزن معين وعيار معين من الذهب ، ولذلك يكون مقبولا فى المعاملة لدى الناس فى الأسواق .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٥ — ٤٦٨) .

الدينار الصورى (المشخص) :

تطلق الدنانير الصورية أو المشخصة على الدنانير الإفرنجية ، وسميت كذلك لنقش صور أصحابها من ملوك الإفرنج على وجوهها .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤١) .

الديوان الخاص :

هو الديوان السلطانى الخاص بالنظر فى أموال السلطان والتحدث فى جهاته ومضافاته .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٥٦)

ديوان المفرد :

الديوان الذى يتولى نفقة المماليك السلطانية من جامكيات وعليق وكسوة ، وإيراده من البلاد المفردة له .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٥٧)

ديوان المواريث الحشرية :

(انظر المواريث الحشرية) .

(ر)

رأس الميسرة :

كبير الأمراء المتقدمين فى السن من أكابر أمراء المائة ، وهم أمراء المشورة.

(أبو المحاسن : النجوم ج ١٢ ص ٢٤٧) .

رأس النوبة :

وظيفة يقوم أصحابها بالحكم على المماليك السلطانية والأخذ على أيديهم ، وقد جرت العادة أن يكونوا أربعة أمراء ، واحد منهم مقدم ألف وثلاثة طبلخاناه .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨) .

الرباط :

وجمعه ربط ورباطات ، وهو فى الأصل مكان إقامة الحامية المرابطة عند ثغور العدو ، ثم صار اللفظ يطلق على بيت الصوفية حيث يرابطون للزهد والعبادة .

الربع :

عدة مساكن علوية تحتها حوانيت ووكائل للتجارة ، ولكل ربع باب يتصل مباشرة بسلم داخل وجهة البناء المشرفة على الطريق العام ، وبواسطته يصعد السكان إلى مساكن الربع المخصصة لسكنى العامة بأجور شهرية زهيدة .

(أبو المحاسن : النجوم ج ١٠ ص ٣٠٣ حاشية ٣) .

الرخت :

كلمة فارسية تفيد عدة معان منها المتاع والبضائع والماشية والخيل والرياش ، والرختوانية هم الذين يتولون العناية بمتاع السلطان أو الأمير فى الأسفار .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ١٩٠ حاشية ٤ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ٦٠ حاشية ٦) .

الرزق :

وجمعه أرزاق ، وهى المرتبات سواء كانت يومية أو شهرية .

الرزقه :

وجمعها الرزق ، وهى الأطيان التى كان يعطيها الخلفاء والسلاطين ، بمقتضى حجج شرعية أو تقاسيط ديوانية إلى بعض الناس على سبيل الإحسان والإنعام رزقه بلا مال . ومن تلك الأراضى ماهو موقوف صرف ريعه على المساجد والخوانق والربط وغيرها من الجهات الخيرية للقيام بمصالحها والوفاء بمطالبها . ومنها غير الموقوف فيصرف ريعه إلى مستحقيه ، والرزق التى من النوع الأخير تنحل بانقراض أصحابها .

(أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ٥٣ حاشية ٦) .

رستاق :

وجمعه رساتيق ، وهى القرى أو البلاد أو الأعمال . واللفظ فارسى ومنه بالعربية رزداق وجمعه رزاديق .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٣١٠ حاشية ٢) .

الرفرف :

سقف خشبى مائل ، يحمل على كباش (كوابيل) خشبية مثبتة فى

الحوائط فوق المقاعد أو المصاطب أو مكاتب الأيتام ، للوقاية من المطر وأشعة الشمس ، كما يستعمل فى تغطية الميضأة وسط الصحن المكشوف فى المدارس والمساجد لحماية المتوضئين .

(عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ١٣٠) .

رفيعة :

وجمعها رفايع ، وهى الرقعة ترفع إلى السلطان لتبليغ ظلامة أو غيرها .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ١٣٨ حاشية ٣) .

الرقبة :

رقبة من أطلس أصفر مزركشة بالذهب ، تجعل على رقبة الفرس السلطانى فى موكب العيدين ، وتكون من تحت أذنى الفرس إلى نهاية عرفه .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٨) .

ركاب :

وجمعه ركابون وركابية ، وهم الذين يركبون خيول السلطان والأمراء لترويضها وتدريبها (سائس) .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الركاب خاناه :

أى بيت الركاب الذى تكون به السروج واللجم وغيرها من معدات ركوب الخيل، وله موظف موكل بحواصله يعبر عنه بمهتار الركاب خاناه .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٧ ، ١٢) .

الركابدارية :

هم الذين يحملون الغاشية بين يدى السلطان فى المواكب ، وهم تابعون للركاب خاناه .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٧ ، ١٢) .

الرنك :

وجمعه رنوك ، وهو الشعار الذى يتخذه الأمير لنفسه عند تأمير السلطان له . ويقول القلقشندى « ومن عادة كل أمير كبير أو صغير أن يكون له رنك يخصه ... بحسب مايختاره ويؤثره ، ويجعل ذلك دهاناً على أبواب بيوتهم والأماكن المنسوبة إليهم كمطابخ السكر وشون الغلال والأملاك والمراكب وغير ذلك » .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٦١ — ٦٢) .

روشن :

وجمعها رواشن ، وهى النافذة أو الكوة للإضاءة وقد يقصد بها الخرجات فى العمائر .

(عبد اللطيف ابراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ١٧٨) .

الروك :

وفعله راك ، وهى عملية مسح الأراضى الزراعية وفك الزمام وتعديل الخراج . وقد تمت هذه العملية فى مصر الإسلامية عدة مرات ، أشهرها فى عصر المماليك الروك الحسامى الذى أجراه حسام الدين لاجين والروك الناصرى الذى أجراه الناصر محمد .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٨٤١ — ٨٤٢) .

(ز)

زاوية :

وجمعها زوايا ، اسم أطلق قديماً على كل مسجد صغير ، فيه أحد الرجال

المعروفين بالتقوى والزهد ، ويقوم بوعظ وإرشاد من يتردد على زاويته من الناس . وقد تطور معنى زاوية فى العصر المماليكى فأصبح يقصد به الخانقاه أو منزل الصوفية .

(انظر مادة زاوية فى دائرة المعارف الإسلامية — بروفنسال) .

زبدية :

وجمعها زبادى ، وعاء للشرب أو الطعام .

الزحافة :

وجمعها زحافات ، آلة من آلات الحرب والحصار.

الزراق :

وجمعه زراقون ، أى رامى النفط من الزراقة وهى الأنبوبة التى يزرق بها النفط .

(زيادة : السلوك ج١ ص٥٩٨ حاشية ٢) .

الزردخاناه :

بيت الزرد أى بيت السلاح ، وبها « من السيوف والقسى العربية والنشاب والرماح والدروع المتخذة من الزرد الصانع ... وفى كل سنة يحمل إليها ما يعمل بخزائن السلاح من الأسلحة ، يحمل على رءوس الحمالين ويزف إلى القلعة ويكون يوماً مشهوداً . وفى هذه السلاح خاناه من الصناع المقيمين بها لإصلاح العـــدد وتجديد المستعملات جماعة كثيرة ... »

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١١ — ١٢) .

الزردخاناه :

أطلق اللفظ أحياناً على السلاح نفسه ، أو على السجن المخصص للمجرمين من الأمراء وأصحاب الرتب .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الزردكاش :

الصانع الذى يعمل فى السلاح خاناه، فى صنع السلاح وإصلاحه وتجديده.

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٢) .

الزعر :

انظر حرفوش والشلاق .

الزغل :

النقود المزيفة ، ويطلق اسم الزغلية على مزيفيها .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

زكاة الدولبة :

ضريبة على الآلات المستعملة ، بمعنى أن هذه الزكاة كانت تفرض على من يستخدم الدواليب (أى الآلات والعجلات) فى الرى أو الغزل أو صناعة السكر أو غيرها .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٦٦٤ حاشية ١) .

زكاة العداد :

زكاة مفروضة للسلطان سنوياً على قطعان القبائل العربية والتركمانية ، وكانت تصل فى كل سنة إلى عشرات الآلاف من الغنم .

زمام دار (زنان دار) :

الموكل بحفظ الحريم : أى الذى يتحدث على باب ستارة السلطان أو الأمير من الخدام والخصيان .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٩ — ٤٦٠)

زنار :

جمعه زنانير، وهو حزام أو وشاح تميز بلبسه أهل الذمة فى العصور الوسطى .

(Dozy : Dict. Vet. Ar.)

الزنارى :

كسوة للحصان تكون مفتوحة فوق صدره ومسدولة على الكفل بحيث لا يرى الذيل ، وكان الزنارى يعطى بدل الكنبوش لمن عظمت مقدرته ومقامه عند السلطان ، ويصنع من الأطلس الأحمر أو الجوخ .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٨٥١ حاشية ٥) .

زنجير :

سلسلة .

الزيار (أو الزيارة) :

جمعها زيارات ، وهى آلة حربية كالقوس الذى يرمى به البندق .

(س)

الساقى :

الأمير الذى يتولى سقى السلطان على الموائد ، والإشراف على مد السماط وتقطيع اللحم ، وسقى المشروب بعد رفع السماط .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٤) .

ستارة :

وجمعها ستائر ، حائط أو حاجز خارجى يحتمى خلفه المدافعون عن حصن أو سور ، ويستخدم المهاجمون الستائر كذلك للوقاية من قذائف العدو .

(Dozy : Supp. Dict. Arc.)

السراخور :

وجمعها سراخورية : كبير الجماعة الذين يتولون علف الدواب ، وتحرف أحياناً إلى سلاخور وسلاخورية .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٠ — ٤٦١ .
أبو المحاسن : النجوم ج ١٠ ص ١٢ حاشية ٢) .

سرير الملك :

هو تخت الملك : وهو عبارة عن « منبر من رخام بصدر إيوان السلطان الذى يجلس فيه ، وهو على هيئة منابر الجوامع إلا أنه مستند إلى الحائط ، وهذا المنبر يجلس عليه السلطان فى يوم مهم كقدوم رسل عليه ونحو ذلك ... »
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٦ — ٧) .

سقرق :

وعاء خاص بشرب الخمر ، ويوجد نوع من النبيذ الحبشى اسمه سقرقة .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٥٥)

سقمان :

خف ثان يلبس فى القدمين فوق خف آخر ، إعتاد أن يلبسه السلطان والأمراء والجنود والحريم فى عصر المماليك .
(أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٣٣١ حاشية ٥) .

سكرجة :

وجمعها سكارج ، وهى الأوانى .

السماط :

المائدة : مايبسط على الأرض لوضع الأطعمة وجلوس الآكلين .

السمط :

الثوب الذى ليست له بطانة ، طيلسان .

السنجق :

وجمعه سناجق ، وهى رايات صفر صغار تربط بطرف الرماح ويحملها السنجقدار .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٨ ، ج ٥ ص٤٥٦—٤٥٨) .

السنجقدار :

حامل السناجق .

السواق :

وجمعه السواقون ، الشخص المكلف بإدارة سانية الماء فى جامع أو غيره .

(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٧٥٩ حاشية ١) .

سوسى :

نوع من الملابس أو الأقمشة المزخرفة أو المطرزة بالزخارف ، يرجح أنها كانت من الحرير أو الكتان الرقيق ، واستخدمت فى عمل القمصان (السواسى) .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

(ش)

شاد (أو مشد) :

مفتش ، فيقال شاد الدواوين أى الذى يفتش على الدواوين ويراجع

حساباتها ، ومثله شاد الجوالى وشاد الزكاة .. وتسمى العملية شد ، فيقال شد الدواوين أى التفتيش عليها .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ١٠٥ حاشية ٢) .

شاد العمائر :

يكون صاحب هذه الوظيفة « متكلما فى العمائر السلطانية مما يختار السلطان إحداثه أو تجديده من القصور والمنازل والأسوار »

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٢) .

الشاش :

ما يلف حول غطاء الرأس من قماش رقيق .

(Dozy : Dict. Vet. Ar.)

الشحنة :

الشرطة ، وصاحب الشحنة هو متولى رياسة الشرطة، ويقال للوظيفة الشحنكية .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الشرابخاناه :

بيت الشراب ، ويحوى مختلف أنواع الأشربة — ومنها الأدوية — التى يحتاج إليها السلطان ، فضلا عن الأوانى النفيسة المصنوعة من الصينى الفاخر .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٠ . النويرى : نهاية الأرب ج ٨ ص ٢٢٤) .

الشرابي :

هو الذى يصنع الأشربة والأدوية ، وهو أحد رجال الشرابخاناه ، مثل الشربدار .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٩) .

الشرب :

وجمعه شرابى ، قماش رفيع من الكتان كان يستعمل فى معظم الأحيان للعمائم .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الشربدار :

هو الذى يقوم بالخدمة فى شرابخاناه السلطان أو الأمير ، وكانت هذه الوظيفة من وظائف الخدم أو الحرف الصناعية . أما الأمير الذى يتولى سقى السلطان على الموائد فاسمه الساقى .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٩ ، ٤٥٤)

الشربوش :

قلنسوة طويلة تلبس بدل العمامة وكانت شارة الأمراء فلا يلبسها المعممون ، وقد ألغى استعمالها بمصر زمن المماليك البرجية .

(Dozy : Dict. Vet. Ar.)

الششش :

نوع من الخوخ .

(أبو المحاسن : النجوم — طبعة كاليفورنيا ج ٩ ص ٧٩٨ — ٧٩٩)

شعار السلطنة :

مظاهر السلطنة ، أى أنواع الملابس والأدوات والترتيبات التى كان يظهر بها السلطان فى المواكب سواء داخل القلعة أو خارجها .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٧ - ٨ ، ٤٤ - ٤٩) .

شكارة :

وجمعها شكائر . وهو الكيس للنقود أو غيرها

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الشلاق :

الزعر والرعاع الذين يضايقون الناس فى الطرقات ويدخلون الخوف فى قلوبهم ، والشلق الضرب بالسوط .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٦٩٥ حاشية ١) .

شمسة :

سماعة الباب أو المدق من الحديد أو النحاس الأصفر ، وجمعها شماسات .

(عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ٦٥) .

شمعة :

وجمعها شموع وهى الأعمدة الخشبية الدقيقة .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

شنبر :

وجمعه شنابر ، شريط من الحرير الأسود أو الأحمر القاتم ، عرضه شبران وطوله نحو سبعة أذرع ، تلفه النساء على رءوسهن فوق العصابة بحيث يتدلى أحد طرفيه من مقدم الرأس والثانى من مؤخرها ،

(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٥٢٨ حاشية ١) .

شنى (شينية) :

وجمعه شوانى . أكبر نوع من السفن الحربية عرفته مصر فى العصر المماليكى ، وكان يجدف بمائة وأربعين مجدافاً وتركب فيه المقاتلة والجدافون

(ابن مماتى : كتاب قوانين الدواوين ص ٣٣٩ — ٣٤٠ ، المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ١٩٤ — ١٩٥) .

(ص)

الصاع :

مكيال للحبوب يساوى نصف ويبة ، والويبة ثلاث كيلات .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٠٩ حاشية ١) .

الصبر :

البيع إلى أجل مسمى ، أو بغير ثمن معين .

(المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٧٧٦ حاشية ٤) .

صفه :

مسطبة ، أريكة ، مقعد .

صولق :

وجمعه صوالق ، وهو جراب أو كيس من جلد توضع به حاجات السفر من الزاد ، ويضعه الشخص فى حزامه من الجهة اليمنى .

(الخطط التوفيقية ج ١٠ ص ٣٥ ، زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٨٩ ، حاشية ٩ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٧٨) .

(ط)

الطارمة :

وجمعه طارمات ، بيت من خشب يبنى سقفه على هيئة قبة لجلوس السلطان .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الطارىء :

ثالث سماط سلطانى يمد فى أول النهار ، ويكون منه مأكول السلطان .

(المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٢١٠—٢١١) .

الطبائعى :

طبيب الأمراض الباطنية .

طبر :

وجمعه أطبار ، وهو الفأس من السلاح ، معرب تبر .

الطبردار :

هو الذى يحمل طبر السلطان — أى فأسه — عند ركوبه فى المواكب . وأمير طبر هو الذى يتحدث على الطبردارية الذين يحملون الأطبار .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٨ ، ٤٦٢) .

طبقة :

وجمعها طباق ، وهى ثكنات المماليك بقلعة الجبل ، وكانت كل طبقة تضم المماليك المجلوبين من بلد واحد .

(المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٢١٣ - ٢١٤) .

الطراحة :

وجمعها طراريح ، مرتبة يفترشها السلطان إذا جلس .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

طراد (طريدة) :

وجمعه طرائد ، وهو نوع من المراكب الحربية يستعمل غالباً فى حمل الخيول والفرسان .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

(ابن مماتى : كتاب قوانين الدواوين ص ٣٣٩) .

الطراز :

هو الشريط من الكتابة على الحجر أو الرخام أو الخشب ، ويكتب عليه عادة اسم المنشىء وتاريخ الإنشاء . ويوجد على جانبى المدخل الرئيسى للعمارة أو على فتحات الأبواب والنوافذ والإيوانات أو على واجهة العمارة .

(عبد اللطيف ابراهيم : دراسات تاريخية ، مجلد ٢ تحقيق ١١٨)

طرخان :

الأمير المتقاعد دون أن يكون مغضوباً عليه ، ولذا كان له أن يقيم حيث شاء .

طرد وحش :

نوع من قماش حرير منقوش بمناظر الصيد والطرد . وكانت تصنع منه بعض الخلع السلطانية

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

طريدة :

(انظر طراد) .

الطشت خاناه :

أى بيت الطشت ، وفيه يكون أنواع الطشوت اللازمة لغسل الأيدى والقماش وغيرها ، فضلا عن المقاعد والمخاد والسجادات التى تلزم السلطان ، وللطشت خاناه مهتار يشرف عليه .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٠—١١) .

الطشت دارية :

هم غلمان الطشت خاناه .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٠ — ١١) .

طلب :

لفظ كردى معناه الأمير الذى يقود مائتى فارس فى ميدان القتال ، ويطلق أيضاً على قائد المائة أو السبعين . وقد عدل مدلول اللفظ فأصبح يطلق على الكتيبة من الجيش .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٢٤٨ حاشية ٢) .

الطمغا (تمغا) :

البراءة التى تصدر من قبل السلطان أو الملك بالعفو عن مجرم أو تأمين خائف والطمغا أيضاً شعار السلطان أو الأمير .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٣٧٩ حاشية ٤ ، ص ٨٧٢ حاشية ١) .

الطواشى :

وجمعه طواشية ، وهم الخصيان الذين استخدموا فى الطباق المملوكية ، وفى الحريم السلطانى ، « وكانت لهم حرمة وافرة وكلمة نافذة ، ويعد شيخهم من أعيان الناس » .

(المقريزى : المواعظ ج ٤ ص ٢١٩) .

الطومار :

نوع من أنواع الخط ، أو من أنواع الكتابة .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٢) .

(ظ)

الظرف :

وجمعه ظروف ، وهو الوعاء وكل ما يستقر فيه غيره .

(ع)

العاقد :

هو الذى يتولى تحرير العقود وكتابتها ، كعقود البيع والزواج ، وهو دون القاضى فى الرتبة .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

العامل :

وجمعه عاملون ، وهو من يتولى تنظيم الحسابات الديوانية وكتابتها .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٦) .

العبرة :

مقدار المساحة ، وهى فى الإصطلاح المالى القديم مقدار المربوط من الخراج أو الأموال على كل إقطاع من الأرض ، وما يتحصل عن كل قرية من عين أو غلة .

(عبد اللطيف ابراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ٥١٠) .

عرادة :

وجمعها عرادات ؛ وهى آلة حربية أصغر من المنجنيق ، ترمى بالحجارة إلى المرمى البعيد .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٦٢ ، حاشية ٤) .

العريف :

مساعد المؤدب فى الإشراف على الأيتام المسجلين بالمكتب ، ويكون بالمكتب عادة عدة عرفاء يختص كل منهم بالإشراف على بضعة صبيان .

العصابة :

وجمعها عصائب ، وهى راية عظيمة من حرير أصفر مطرزة بالذهب ، عليها ألقاب السلطان ، تحمل فى المواكب السلطانية .

العلامة السلطانية :

هى ما يكتب السلطان بخطه على صورة اصطلاحية خاصة ، وكان لكل سلطان علامة وتوقيع .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٣٤٤ حاشية ١) .

علم دار :

هو الذى يحمل العلم فى ركاب السلطان .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٢ ، ج ٥ ص ٤٥٦ ، ٤٦٣)

العنبرينه :

نوع من الحلى العنبر تلبسه النساء حول الرقبة ، والعنبريون هم تجار العنبر المستخدم فى الحلى وكان لهم سوق كبير بالقاهرة .

(المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ١٠٢ — ١٠٣)

(غ)

الغاشية :

قبة « من أديم مخروزة بالذهب ، يخالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب ، تحمل بين يديه (السلطان) عند الركوب فى المواكب الحفلة كالميادين والأعياد ونحوها ، يحملها الركاب دارية » .
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٧)

غراب :

وجمعه أغربة ؛ نوع من السفن الحربية تركب فيه المقاتلة والجدافون.
(ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٣٩ — ٣٤٠) .

الغفار :

وجمعه غفائر ، المعطف .

(Dozy : Supp. Dict, Ar.)

غلام :

وجمعه غلمان ؛ وهو من يقوم بخدمة الخيل . وهذا اللفظ « فى أصل اللغة مخصوص بالصبى الصغير والمملوك ، ثم غلب على هذا النوع من أرباب الخدم » .
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٧١) .

الغلاميات :

الجوارى يلبسن لباس الغلمان .

(Dozy : Supp Dict. Ar.)

الغيار :

نوع من الملبوس تميز به أهل الذمة عن المسلمين فى العصور الوسطى .
(Dozy : Supp. Dict, Ar.)

(خ)

فانوسية :

وجمعها فانوسيات ، كمية معينة من شمع الفوانيس .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الفراش خاناه :

بيت الفراش ، وكانت تشتمل على أنواع الفرش من البسط والخيام اللازمة للسلطان فى أسفاره وإقامته خارج القلعة .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١١) .

فرس النوبة :

فرس مجهز بالسرج والغاشية ، يحفظ بقرب حضرة السلطان لاستخدامه فى الطوارىء أو للركوب إعلاناً بقيام سلطان جديد .

(ابن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ، ص ٤٣٢) .

الفرمان :

وجمعه فرمانات ، ما يصدره السلطان أو الملك من الكتب للولاة والوكلاء والقصاد يعلن فيها تقليدهم مناصبهم أو تعيينهم فيها .

الفضة النقرة :

سبيكة من الفضة والنحاس الأحمر بنسبة ثلثين من الفضة وثلث من النحاس الأحمر ، ومنها كانت تضرب الدراهم النقرة .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٣ ، ٤٦٦) .

الفلس :

وجمعه فلوس ، عملة صغيرة ، وكانت فى مصر على نوعين أحدهما المطبوع بالسكة وثانيهما غير المطبوع . وكان الصنف الثانى عبارة عن قطع مكسرة من النحاس الأحمر أو الأصفر ويعبر عنها بالمتق .
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٣ — ٤٤٤) .

فهاد :

وجمعه فهاده ، وهم الأشخاص الموكول إليهم حراسة الفهود .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٩٤ حاشية ٤) .

فوطة :

مرادف البقجة ، وهى قطعة من قماش من الحرير السكندرى تحمل فيها الأوراق الرسمية مرتبة إلى حضرة السلطان .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٥٧٨ حاشية ١) .

الفوقانية :

وجمعها الفوقانيات ، الرداء الذى يلبس فوق الملابس ، وعكسها التحتانية .
(Dozy : Dict. Vet. Ar.)

(ق)

القباء :

ملبوس (فرجية — قفطان) وقد وصف المقريزى الأقبية على عصر المماليك بأنها « إما بيض أو مشهرة أحمر وأزرق ، وهى ضيقة الأكمام على هيئة ملابس الإفرنج اليوم » .
(Dozy : Supp. Vet. Ar.)

القبز :

آلة موسيقية .

قبع :

وجمعه أقباع ، غطاء للرأس يشبه الطاقية ، ويصنع من الحرير أحياناً . وكان يوضع تحت الطربوش الذى تلف حوله العمامة. وجاء فى خطط المقريزى ذكر سوق الإقباعيين .

(ابن الحاج : المدخل ج ٤ ص ٢٤) .

القبق (القباق) :

القرعة العسلية ، وأطلق فى عصر المماليك على الهدف المستعمل فى لعب الرماية المعروف بالقبق أيضاً ، وكان هذا الهدف يصنع على شكل قرعة عسلية من ذهب أو فضة .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٥١٨ حاشية ٦) .

قرباص :

وجمعها قرابيص ، وهى الحجارة .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

القرط :

البرسيم .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٥٠٦ حاشية ٤) .

قرطاس :

وجمعها قراطيس ، وهى نوع من الفلوس النحاسية أو الدراهم الملفوفة فى شكل أصبع .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

القرقل :

قميص النساء ، أو الثوب الذى لا أكمام له والقرقل كذلك سلاح يشبه الدرع يتخذ من صفائح الحديد ويغشى بالديباج الأحمر والأصفر .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٤٧ حاشية ٤ ؟
عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ٣٠٠) .

القصة :

الطلب ، الإلتماس ، الشكوى ، ويرفعها صاحب الحاجة إلى حضرة السلطان عن طريق موظف خاص اسمه قصه دار .
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٣ ص ١٥٤) .

القطاعة :

وجمعها قطاطيع ، المطرقة تستعمل لقطع الصخر أو هدم البناء .

قطيعة :

وجمعها قطائع ، وهى الفئة من الجند .

القلعة :

وجمعها قلاع ، قصد بها — فضلا عن معناها الأصلى وهو الحصن — قوس النصر أو الزينة التى تقام بعرض الطريق على ألواح من الخشب ليمر من تحتها موكب السلطان .

قلنسوة (أو قلنسية) :

وجمعها قلانس ، لباس للرأس (طاقية — طربوش) تصنع من جلد الماعز أو الصوف أو الحرير ، وربما لبست تحت العمامة .

القلوبات :

اللوز والجوز والبندق والفستق وسائر أنواع المكسرات المقشورة .

(Dozy ; Supp. Dict. Ar.)

القمز :

نوع من الخمور يصنع من لبن الخيل ، واللفظ تترى الأصل .

(زيادة : السلوك ص ٧ ٦ حاشية ٢) .

القند :

وجمعها قنود ، عصارة قصب السكر إذا جمد

القود :

ما يبعث به العرب إلى السلاطين من هدايا الخيل والإبل والحيوانات النادرة

القياسة :

وجمعها قياييس ، سفينة تستعمل فى الإبحار فى المياه القليلة العمق كشواطىء البحار ، وتكون عادة عريضة المساحة قليلة الارتفاع بطيئة السير .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

القيسارية :

وجمعها قياسر ، السوق المسقوفة ، وأطلقت أيضاً على الخان أو الوكالة ، أى البناء الذى يحتوى على غرف ومخازن للتجار ، ويعلوه طباق للسكنى بارتفاع دورين أو ثلاثة .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

القيطون :

والجمع قياطين وقياطن ، الحجرة الصغيرة فى لغة أهل مصر ، والخيمة فى لغة المغرب .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

(ك)

كارمى :

وجمعه كارمية وأكارم ، أى تجار الكارم ، وهم تجار البهار والتوابل الواردة إلى مصر من الهند عن طريق ثغور اليمن ، وهم كذلك أرباب المال والأعمال المصرفية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى . وكان معظمهم من بلاد الكانم الإسلامية (بالسودان الغربى) فنسبوا إلى أصلهم بعد تحريف اللفظ إلى الكارم .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٨٩٩ حاشية ٢ ، ج ٢ ص ٨٣٧ حاشية ٣) .

كاملية :

وجمعها كوامل ، نوع من الملابس الخارجية كالعباءة .

(Dozy : Supp. Vet. Ar.) .

كبش :

وجمعه كبوش وأكبش ، آلة حربية لها رأس ضخم وقرنان تدفعها الجنود نحو أسوار الحصون لتهديمها .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

كجاوة :

هودج النساء (فارسية) .

(أبو المحاسن : النجوم ج ١٠ ص ٧٠) .

كحال :

طبيب العيون .

الكنراز :

كوز ضيق الرأس يستعمل لحفظ الماء صالحا للشرب .

(Dozy : Sopp. Dict. Ar.)

الكراع :

ذخيرة الحرب من الأطعمة والمؤونة .

(زيادة : السلوك ج١ ص ٦٢٠ حاشية ٣) .

كردوس (كردوسة) :

وجمعها كراديس ؛ وهى الفرقة الحربية الراكبة والقطعة العظيمة من الخيل .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الكراغند :

وجمعه كراغنديات ؛ وهو المعطف القصير يلبس فوق الزردية ويصنع من القطن أو الحرير المبطن

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٢٥٣ حاشية ٤) .

الكسابة :

هم الذين ينتهزون فرصة الفتن للنهب ، أو فرصة الحروب لجمع الغنائم.

الكسارة :

وجمعها كسارات ؛ وهى من أدوات التعذيب .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الكشاف :

وجمعه الكشافة ؛ جماعة معينة من العسكر تقوم بكشف أخبار العدو .

الكلابزى :

وجمعه الكلابزة والكلابزية ، ومعناه فى الأصل الشخص الذى يتولى تربية الكلاب وبيعها ، ثم أصبح يطلق على الشخص الذى يركب بكلاب الصيد عند سلطان أو أمير وقد يقصد باللفظ أيضا الغوغاء والدهماء .
(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٢٢٥ حاشية ١) .

الكلاليب :

ومفردها كلاب ، وهى المشابك المستخدمة فى تحلية الكلوته .
(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الكلبنده :

وجمعها كلبندات ، وهى لباس الرقبة أو الكوفية يلبسها النساء على رءوسهن وتربط تحت الذقن لحفظ مافوق رءوسهن من اللباس .
(أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٣٣٠) . وهى كذلك جزء من غطاء الرأس سواء كان عمامة أو كلوته (زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٩٤ حاشية ١) .

كلفه (كلفتاه أو كلفته) :

انظر كلوته .

كلوتة :

وجمعها كلوتات ، غطاء الرأس ، طاقية صغيرة تلبس وحدها أو بعمامة . وتسمى أيضا كلفه وكلفتاه وكلفته .
(أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٣٣٠ حاشية ١) .

كمر :

وجمعه كمرات ، لفظ فارسى معناه الحزام المفرغ من وسطه لوضع النقود والأشياء الثمينة فيه .
(أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٣٣١) .

كنبوش :

وجمعه كنابيش ، وهو خمار لتغطية الوجه . وأطلق اللفظ أيضا على البرذعة توضع تحت سرج الفرس . وقد حرف اللفظ أحياناً إلى كنفوش وكنافيش .

كوسة :

وجمعها كوسات ، « وهى صنوجات من نحاس تشبه الترس الصغير ، يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص » . والكوسى هو الذى يضرب بالكوسات .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٩ ، ١٣) .

(ل)

اللاطية (اللاطئة) :

وجمعها لاطيات ، وهى القلنسوة الصغيرة لاطاً بالرأس أى تلصق بها.

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

اللبخة :

لعبة استحدثت فى عصر المماليك ، تشبه اللعبة المعروفة اليوم باسم التحطيب أو النبوت ، فكان الشخص « يخرج له عشرة من الشطار ويهجمون عليه بالضرب فيمسك عصاه من وسطها ويرد الجميع » .

(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٧٠٣ ؟ الشعرانى : الطبقات الكبرى ج ٢ ، ص ١٠٦ — ١٠٧) .

(م)

المارستان (البيمارستان) :

مستشفى لمعالجة المرضى وإقامتهم .

مباشر :

وجمعه مباشرون ، وهم الموظفون الإداريون .

مباشرو الختم :

اطلق هذا اللقب على موظفين أشبه بموظفى الجمارك فى العصر الحالى ، يقومون بمراقبة الوارد والصادر من البضائع ، ويفرضون عليه مكوسا تختلف باختلاف الأحوال ، ثم يختمون البضاعة بخاتم خاص دلالة على استيفاء المكس .

(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٤٣٩ حاشية ١) .

المتجر :

ما يتجر فيه السلطان من البضائع لحسابه الخاص ، وكان يقوم بذلك موظف من موظفى السلطان .

(مقدمة ابن خلدون ج ١ ص ٢٤٤ — ٢٤٥) .

مثال :

وجمعه مثالات ، وهو أول مايكتب من الأوراق الرسمية إيذانا بإعطاء أحد المماليك إقطاعا من الإقطاعات الخالية .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٣ ص ١٥٣) .

محارة :

وجمعها محاير ، وهى صناديق تشد إلى جانبي الرحل ، وكان للمحاير سوق خاص بالقاهرة اسمه سوق المحايريين .

(المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ١٠١) .

المخايل :

وجمعه المخايلون ، الرجل الذى يدير لعبة خيال الظل .

مخفية :

وجمعها مخاف ، طبق واسع عميق يتسع لكمية كبيرة من اللحم والطعام فى الموائد الكبرى وللرواتب المقررة للأمراء .

(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٤٦٨ حاشية ٢) .

مدورة السلطان :

خيمته الكبيرة الخاصة به والتى تنصب له فى الأسفار والحفلات .

مراوة :

وجمعها مراوات ، قطع من المعدن أو غيره يزان بها سرج الفرس وتخاط بقماش السرج .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

مرمة :

وجمعها مرمات ، نوع من السفن الكبار .

المرملة :

ظرف يوضع به الرمل الذى كان الكتاب يستعملونه لتجفيف الكتابة .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٧٨ — ٤٨٠) .

المروزى :

قماش سميك من الحرير الجيد أو القطن ينسب إلى مدينة مرو .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

المزملاتى :

هو الذى يقوم بتسبيل الماء فى السبيل ، ويتولى الخدمة فى الأوقات المحددة ليسهل الشرب على الناس والحيوان .

(عبد اللطيف ابراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ٦٦٨) .

المسالمة :

(انظر أسلمى) ،

المسترقة :

حجرة صغيرة بمثابة خزانة بأعلى المنزل أو مجاورة للمطبخ عادة ، وتكون حبيسا غالبا .

(عبد اللطيف ابراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ٢١٧) .

المستوفى :

موظف من كتاب الأموال بالدواوين ، عمله ضبط الديوان التابع له والتنبيه على مافيه مصلحته من استخراج أمواله ونحو ذلك . ومن المستوفين مستوفى الصحبة وهو يشارك الوزير ويعاونه فى الأمور العامة مثل كتابة المراسيم وتسجيلها ومثله فى النفوذ مستوفى الدولة . وكان لكل ديوان من دواوين الدولة ناظر وتحته المستوفى والشاد .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٦) .

مسخرة :

وجمعها مساخر : وهى ألعاب لإضحاك الناس .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

مسطبة :

الجزء الأمامى من الدكان ، وتمتد خارج إغلاق الدكان نفسه لعرض البضائع عليها أو الجلوس المترددين على المتجر .

مسطح :

وجمعه مسطحات ، نوع من السفن له سطح .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

المسقفات الهلالية :

هى العقارات المسقفة الموقوفة من بيوت وحوانيت ورباع وخانات وطواحين ومعاصر وغيرها ، والتى تدر دخلا هلالياً أو شهرياً (مال هلالى) ، ويطلق عليها كذلك اسم المستغلات الهلالية .

(عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ٤٢)

المشارفة :

وظيفة يتولاها الموظفون الذين يشرفون على الأمور المالية ، وبخاصة فى الأوقاف .

(ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٠٢) .

المشتريات (المشتروات) :

هم المماليك الجلبان أو الأجلاب الذين كان السلطان يشتريهم لنفسه .

المشير :

(انظر الإشارة)

المصانعات :

أموال الرشوة والمداراة .

مطلق :

جمعه مطلقات ، وهى مايرسله السلطان من رسائل عامة إلى نوابه بمصر ونيابات الشام . وقد يكون فيها سر لايراد إظهاره إلا عند الوقوف عليه ، وفى هذه الحالة تصدر مختومه .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٧ ص ٢١٨ — ٢٣١) .

المعادى :

المراكب التى استخدمت لتعدية الناس عبر النيل ، وكان لها مواضع معينة لضبط رسوم التعدية . ومن هذه المعادى فى عصر المماليك معدية الباية ومعدية المقياس ومعدية الجسر بالجيزة ومعادى جزيرة الذهب .

(المقريزى : المواعظ ج ١ ص ١٠٤ ؟ زيادة : السلوك ج ٢ ص ٥١٨ . حاشية ١) .

المعالج :

وجمعها المعالجون ، وهم الذين يلعبون برفع الأثقال .

(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٦٩٥ حاشية ١) .

المعامل :

وجمعه معاملون ، وهم المتعهدون الذين يمدون المطبخ السلطانى بما يلزمه من حوائج ومواد غذائية .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

المعصرة :

آلة للتعذيب تتكون من خشبتين مربوطتين ببعضهما يوضع بينهما وجه المعاقب أو رأسه أو رجلاه أو عقباه ، ثم تشد الخشبتان شداً وثيقاً حتى يؤدى ذلك — فى كثير من الأحيان — إلى كسر العظم المعصور بين الخشبتين .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٤٠ حاشية ٣)

المعيد :

صاحب وظيفة بالمدرسة ، يأتى دون المدرس فى الأهمية ، وعمله أن يعيد للطلبة ما ألقاه عليهم المدرس ليفهموه ويحسنوه .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٤) .

المفرد :

هو الديوان الذى كانت تخرج منه فى زمن الدولة المملوكية نفقة المماليك السلطانية من جامكيات وعليق وكسوة ؛ ويرجع تأسيسه إلى أيام الفاطميين .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص٣٥٧ ، خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٠٧) .

المفرد :

غاية ارتفاع النيل .

المفرد :

يطلق اللفظ على الجندى أو المملوك ، فيقال وصل مفرد من الصعيد

(على مبارك : الخطط التوفيقية ج ٩ ص ٣٥) .

مفردى :

وجمعه مفاردة ، نوع من عساكر حلقة السلطان كانوا يتبعون ديوان المفرد مباشرة .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٨٠ حاشية ٢) .

المقام :

لقب من ألقاب كبار رجال الدولة فى عصر المماليك ، فيقال المقام السلطانى أو المقام العالى السلطانى للسلطان ، والمقام الملكى للملك نفسه وأتباعه المنسوبين إليه من أمراء ووزراء . أما المقام العالى فقط فكان من الألقاب التى اشترك فيها أرباب السيوف والأقلام .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٩١ ، ج ٦ ص ٥) .

مقدم الدولة :

« هو الذى يتحدث على الأعوان والمتصرفين لخدمة الوزير . والمراد المقدم على الدولة ، والدولة لفظ خصه العرف بمتعلقات الوزارة كما يقال لناظر الدواوين ناظر الدولة ... »

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٨) .

مقدم المماليك :

هو أجل الطواشية وأقربهم إلى السلطان ويشغل رتبة أمير طبلخاناه ويعاونه نائب برتبة عشرة . وكان الأمراء أيضاً مقدمون للقيام على شئون مماليكهم . وكان لمقدم المماليك أن يتحدث فى شأنهم ويحكم فيهم ، كما كان يحضر تفرقة الجامكية عليهم .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٨٠ حاشية ٣ ، ابن إياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ١٥٥ ، ج ٤ ص ٢٩١) .

المقرنص :

وجمعها مقرنصات ، حلية معمارية استخدمت على نطاق واسع فى عصر المماليك فى أجزاء مختلفة من العمارة مثـــل أركان القباب والمنارات .

(عبد اللطيف ابراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ٦١) .

مقنع :

وجمعه مقانع ، وهو منديل تغطى به المرأة رأسها ويكون أضيق من القناع ، أو هو النصيف الذى تضعه النساء فوق وجوههن .
(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٤٢٣ حاشية ١) .

مكاحل البارود :

هى المدافع التى يرمى عنها النفط . وهى أنواع .
(أبو المحاسن : النجوم ج ١٢ ص ٢٧٧) .

المكس :

وجمعه مكوس ، وهى كل ما تحصل من الأموال لديوان السلطان أو لأصحاب الإقطاعات أو لموظفى الدولة خارجا عن الخراج الشرعى .
(المقريزى : المواعظ ج ١ ص ١٠٣ - ١١١ ، ج ٢ ص ١٢١ - ١٢٤ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٨ — ٤٧١) .

مكوك :

وجمعه مكاكيك ، وهو مكيال للحبوب يسع صاعاً ونصفاً ، والصاع قدر نصف ويبة ، والويبة ثلاث كيلات .

الملطفات :

رسائل كانت تكتب عادة إلى الأمراء للترضية والمدح أو التغرير والتأمين ، تمهيداً لما يرمعه لهم السلطان من عقوبة أو قتل .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٨٥٢ حاشية ٣) .

الملوطة :

وجمعها ملاليط ، قباء واسع الكمين طويلهما يلبس فوق الفرجية ، وكانت تصنع أحياناً من الحرير الخالص أو الكتان الرقيق ، وكانت لباساً قومياً في عصر المماليك .

(Dozy : Dict. Vet. Ar.)

المماليك الأحداث :

هم المماليك الحديثو العهد بالخدمة ، وربما قصد باللفظ المماليك الأراذل أو السفلة .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٦٤٣ حاشية ١) .

مماليك الأمراء :

هم المماليك التابعون للأمراء مباشرة ، ومنهم تتألف الوحدات الحربية التي يذهب بها الأمراء مع السلطان في حروبه .

المماليك البرانية :

المماليك والأمراء الذين ليسوا من الخاصكية ، ويقال لهم أيضاً الخرجية .

(المقريزي : المواعظ ج ٢ ص ٢١٧) .

المماليك الجوانية :

المماليك الخاصكية .

المماليك الحرسية :

هم المماليك الذين يوكلون بحراسة مكان من الأمكنة .

المماليك الخاصكية :

قسم من المماليك السلطانية يتميزون عن بقية المماليك السلطانية بانضوائهم وهم صغار في خدمة السلطان ؛ فهو الذي يتولى تربيتهم وعتقهم .

المماليك السلطانية :

مشتريات السلطان وجلبانه ، وما يتبقى عنده من مماليك من سبقه في السلطنة ، ومرتباتهم جميعاً من ديوان المفرد .

المناخ :

وجمعه مناخات ، وهى الأمكنة المخصصة لأنواع الجمال السلطانية — كالإصطبلات لأنواع الخيل — وجميعها كانت تابعة لإدارة الإصطبلات السلطانية .

(خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٢٥ ، المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٢٢٤ — ٢٢٥) .

منجنيق :

وجمعه مجانيق ، آلة من خشب لقذف الحجر على العدو إلى مسافات بعيدة .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ١٣٧) .

منشور :

وجمعه مناشير ، وهى فى الأصل كل ما يصدر عن السلطان من مكاتبات لا تحتاج إلى ختم كالمكاتبات الخاصة بالولاية ومنح الإقطاعات .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٣ ص ١٥٨) .

المنطقة (المنطق) :

نوع من الأحزمة التى توضع حول الوسط ، ويكون غالباً من الذهب أو الفضة وأحياناً من الجلد أو القماش . وجاء فى دوزى أنه لا يجوز للرجال التحلى بالذهب والفضة إلا فى ثلاثة مواضع هى الخاتم والمنطقة وحلية السيف .

(Dozy : Dict. Vet. Ar. p. 420.)

المنفر :

الذى ينفخ البوق .

المهتار :

لقب يطلق على كبير كل طائفة من غلمان البيوت ، فيقال مهتار الشرابخاناه ومهتار الطشت خاناه ، ومهتار الركاب خاناه .
(القلقشندى : ج ٥ ص ٤٧٠ . أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ٤٧ ، حاشية ٣) .

المهمندار :

هو الذى يتلقى الرسل والعربان الواردين على السلطان وينزلهم دار الضيافة ويتحدث فى القيام بأمرهم .
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٢ ، ج ٥ ص ٤٥٩)

المواريث الحشرية :

هى تركات من يموت ولا وارث له .

الموجب :

ما يدفعه التجار على متاجرهم وأموالهم بنسبة مقررة .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٩٥٥ حاشية ١) .

المودع :

وجمعه مودعات ، وهو صندوق لحفظ مال مخصوص لغرض معين ، ومودع الحكم صندوق يوضع فى عهدة قاضى القضاة لحفظ أموال اليتامى القصر وأموال الغائبين أيضا .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٨٦٤ حاشية ٣) .

المؤدب :

معلم المكتب ، الذى يقوم بتعليم أيتام المسلمين ويشرف عليهم علميا وخلقيا .

الميعاد :

درس دينى للوعظ والإرشاد والحث على التقوى . وكان أهم هذه المواعيد ميعاد الرقائق (رقائق الحديث النبوى) .

Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الميقات :

وظيفة من الوظائف الهامة فى المؤسسات الدينية ، يتولاها مؤذن عارف بالمواقيت والفلك وعلم الهيئة ، ويعرف من يباشر هذه الوظيفة بالميقاتى . وكان يعتمد فى تحديد الزمن وأوقات الصلاة على المزولة والساعة الرملية وغيرها من الآلات .

(عبد اللطيف إبراهيم : دراسات : مجلد ٢ تحقيق ٦١٦) .

(ن)

الناس :

استعمل هذا اللفظ فى مصطلح مؤرخى عصر المماليك بمعنى الرؤساء

أو الزعماء أو الأمراء . وقد وجدت فرقة من فرق الجيش المماليكي سميت باسم « أولاد الناس » شملت أبناء أمراء المماليك فقط .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٦٩٠ حاشية ٢) .

ناظر :

وجمعه نظار ، وهم كبار الموظفين ورؤساء الدواوين الذين شاركوا الوزير في تصريف أعماله . وقد تنوعت ألقاب النظار حسب الأعمال التي قاموا بها ، فناظر الجيش يتحدث في أموال الجيوش وحساباتها ، وناظر الخاص ينظر في خاص أموال السلطان ، وناظر الدولة يشارك الوزير في التصرف عامة ، ويسمى الأخير ناظر الدواوين أو ناظر النظار أو الصاحب الشريف ومقره ديوان النظار .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٥ — ٤٦٦) .

ناظر الأهراء :

يقوم صاحب هذه الوظيفة بالإشراف على شون الغلال السلطانية وما يصل إليها من غلال وما يصرف منها .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٢) .

ناظر البيوت :

يتولى هذه الوظيفة عادة أحد أرباب القلم ، ليقوم بمشاركة الاستادار — وهو من أرباب السيف — في إدارة البيوت السلطانية كلها من المطابخ والشرابخاناه والحاشية والغلمان .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٠ ، ٢١) .

ناظر الدواوين الحشرية :

هو الذي يقوم « بالتحدث على ديوان المواريث الحشرية ، ممن يموت

ولا وارث له ، أو له وارث لا يستغرق ميراثه ، مع التحدث فى إطلاق جميع الموتى من المسلمين وغيرهم » .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٣) .

ندب :

وجمعه أنداب ، وهو كيس صغير يسع خمس بندقات .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

ندب :

ندب النشاب اللعب به ، يقال لعب أندابا فى الميدان ، وكان عارفا بأنداب الحرب .

(كاترمير ج ٢ مجلد ٢ ص٩٨؟ أبو المحاسن : النجوم ج٧ ص٦٨٧؟
Dozy : Supp. Dict, Ar.)

النصفية :

وجمعها نصافى ، قماش من نسيج الحرير والكتان . وربما أطلق اللفظ على ثياب من القطن الخشن .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

النقرة :

انظر الفضة .

نقيب :

وجمعها نقباء ، وكان عمل صاحب هذه الوظيفة عند السلطان أو الأمير تأدية الخدمات الصغيرة لسيده .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢١ — ٢٢) .

نقيب الجيش :

هو الذى يتكفل بإحضار من يطلبه السلطان من الأمراء وأجناد الحلقة ونحوهم .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢١ ، ج ٥ ص ٤٥٦)

نقيب المماليك :

يبدو أن المقصود بهذه الوظيفة نقدمة المماليك وموضوعها « التحدث على المماليك السلطانية والحكم فيهم » .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢١ ؛ زيادة السلوك ج ٢ ، ص ١٦٥ حاشية ١) .

النوبة :

الوقعة الحربية ، ويقال ضربت النوبة أى صدر الأمر للعسكر بالتقهقر .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٦١ حاشية ٢) .

النوبة :

اسم لآلات الطرب إذا عزفت سويا ، أو لمجموعة من المطربين إذا اجتمعوا (أوركستر) .

النوبة :

فرق الجند التى تتناوب الوقوف لحراسة شخص السلطان ، وهى خمس يكون تغييرها فى الظهر والعصر والعشاء ونصف الليل وعند الصباح .

النوبة :

انظر خيل النوبة .

النيابة :

يسمى صاحب هذه الوظيفة نائب السلطنة والنائب الكافل ، وكافل الممالك الإسلامية . وهو يحكم فى كل مايحكم فيه السلطان ويعلم فى التقاليد والتواقيع والمناشير وغير ذلك مما يعلم عليه السلطان . وهناك نواب أقل درجة أشبه بالحكام المحليين ، لايختص الواحد منهم إلا بما يتعلق بحدود نيابته .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٦) .

(ه)

الهرجة :

دنانير تستعمل خاصة فى الحلى كالأساور والعقود وغيرها ، بأن يصاغ فى أطرافها حلقات صغيرة أو يعمل فى جوانبها ثقوب ، ومفردها هرج .

(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٢٩٣ حاشية ٤)

الهناب :

قدح الشراب

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

(و)

وافدى :

وجمعه وافدية ، ويقصد به الغريب الوافد إلى بلد جديد ، وأطلق هذا اللفظ على الترك والتتر الذين وفدوا على دولة المماليك فى مصر والشام . واختص به — بوجه خاص — الأفراد الذين هاجر معظمهم من بلاد المغول إلى مصر وافدين مستأمنين أحرارا لا أجلابا

مملوكين . واندمج كثير من أولئك الوافدية فى فرق المماليك السلطانية حتى وصلوا إلى أرفع مناصب الدولة ، غير أنهم ظلوا دون المماليك الذين جلبوا رقيقا ، لأن الوافدية لم ينشأوا نشأة مماليكية .

(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٨ ، ص ٧٥٠) .

الورق :

الدراهم الورق — بفتح الواو أو ضمها — هى الدراهم المضروبة .

ورقة :

وجمعها أوراق ، استعملت فى عصر المماليك بمعنى الصك الذى يكتبه المدين للدائن .

وزير الصحبة :

يكون صاحب هذه الوظيفة وزيرا متنقلا ، يرافق السلطان فى أسفاره وحروبه ليقوم بوظيفة الوزير ويصرف الشئون ، وذلك ليتسنى للوزير الأصلى أن يقيم بالقاهرة حيث مقر عمله .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٦٢٧ حاشية ٢) .

وطاء :

جمعها أوطية ، وهو الحذاء .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الوطاق :

الخيمة الكبيرة التى تعد للعظماء .

الوكالة :

فندق لنزول التجار وبضائعهم ودوابهم للبيع والشراء .

(ى)

اليرك :

رئيس العسس ، ومن يراقب من مضى فيتبعه .

(أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ١٧٣) .

* * *

قائمة المراجع

التي ورد ذكرها في حواشي الكتاب

أولا : المراجع العربية :

— إبراهيم علي طرخان :

مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة

(القاهرة ١٩٦٠)

— ابن الأثير :

الكامل في التاريخ ١٢ جزءاً

(القاهرة ١٣٥٧ ﻫ)

— أحمد عزت عبد الكريم :

التقسيم الإداري لسورية في العصر العثماني

(مقال نشر في حولية كلية الآداب)

— ابن الأخوة :

معالم القربة في أحكام الحسبة

(كمبردج ١٩٣٧)

— آدم ميتز :

الحضارة الإسلامية

(القاهرة ١٩٥٧)

— ابن إياس :

كتاب تاريخ مصر المعروف باسم بدائع الزهور

طبعة بولاق في ثلاثة أجزاء (١٣١١ — ١٣١٢ﻫ) ، وكذلك رجعنا في الأجزاء الأخيرة من المتن إلى طبعة جمعية المستشرقين الألمانية التي قام بتحقيقها دكتور محمد مصطفى .

— ابن أيبك :

كنز الدرر أو الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب

(مخطوط)

— ابن بطوطة :

رحلته ، المسماه تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار

(باريس ١٨٨٠)

— البلاذرى :

فتوح البلدان

(القاهرة ١٣١٨ هـ)

— البلوى المغربى :

رحلته ، المسماه تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق .

(مخطوط)

— بيبرس الدوادار :

زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة .

(مخطوط)

— توفيق اسكندر :

نظام المقايضة فى تجارة مصر الخارجية .

(مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٥٧) .

— توماس أرنولد :

الدعوة إلى الإسلام

ترجمة حسن ابراهيم حسن وعبدالمجيد عابدين واسماعيل النحراوى .

(القاهرة ١٩٥٧)

ابن الحاج :
المدخل — أربعة أجزاء .
(القاهرة ١٩٢٩)

ابن حبيب :
درة الأسلاك فى دولة الأتراك .
(مخطوط)

ابن حجر :
الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة .
أربعة أجزاء
(الهند ١٩٢٩)

حسن أحمد محمود :
الإسلام والثقافة العربية فى أفريقية .
(الطبعة الثانية — القاهرة ١٩٦٣)

حسن الباشا :
التصوير الإسلامى فى العصور الوسطى
(القاهرة ١٩٥٩)

حسن عبد الوهاب :
تاريخ المساجد الأثرية
جزءان
(القاهرة ١٩٤٦)

الخالدى :
كتاب المقصد الرفيع المنشا الهادى لديوان الإنشا
(مخطوط)

— ابن خرداذبة :

المسالك والممالك

(ليدن ١٨٨٩)

— الخطيب :

نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان

(مخطوط)

— ابن خلدون :

العبر وديوان المبتدأ والخبر .

(بولاق ١٢٨٤ هـ)

— خليل بن شاهين الظاهرى :

زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك .

(باريس ١٨٩١)

— ابن دقماق :

الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين

(مخطوط)

— ديماند :

الفنون الإسلامية ، ترجمة أحمد محمد عيسى .

(القاهرة ١٩٥٣)

— رشيد الدين الهمذانى :

جامع التواريخ

نقله إلى العربية محمد صادق نشأت ومحمد موسى هنداوى

وفؤاد عبد المعطى الصياد .

(القاهرة ١٩٦٠)

— زكى محمد حسن :
١ - فنون الإسلام (القاهرة ١٩٤٨)
٢ - أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية .
(القاهرة ١٩٥٦)

— ابن زنبل :
آخرة المماليك.
نشره عبد المنعم عامر
(القاهرة ١٩٦٢)

— زيتر شتين :
تاريخ سلاطين المماليك
(لندن ١٩١٩)

— سبط بن الجوزى
مرآة الزمان
(الهند ١٣٥١ ﻫ)

— السبكى :
معيد النعم ومبيد النقم (لندن ١٩٠٨)

— السبكى :
طبقات الشافعية الكبرى ، ستة أجزاء
(القاهرة ١٣٢٤ ﻫ)

— السخاوى :
التبر المسبوك فى ذيل السلوك .
(القاهرة ١٨٩٦)

— السخاوى :

الضوء اللامع لأهل القرن التاسع .

(القاهرة ١٩٣٤—١٩٣٦)

— سعاد ماهر :

عقود الزواج على المنسوجات الأثرية

(القاهرة ١٩٦٠)

— سعيد عبد الفتاح عاشور :

١ — الحركة الصليبية (جزءان) (القاهرة ١٩٦٣)

٢ — قبرس والحروب الصليبية

(القاهرة ١٩٥٧)

٣ — المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك .

(القاهرة ١٩٦٢)

٤ — مصر فى عصر دولة المماليك البحرية .

(القاهرة ١٩٥٩)

٥ — الظاهر بيبرس (القاهرة ١٩٦٣)

— السيد الباز العرينى :

الإقطاع الحربى بمصر زمن سلاطين المماليك .

(القاهرة ١٩٥٦)

— سيرة الظاهر بيبرس (خمسون جزءاً) (القاهرة ١٩٢٦)

— السيوطى :

تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الله .

(القاهرة ١٣٥١)

— السيوطى :
حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة
(القاهرة ١٨٨١)

— السيوطى :
غزوات قبرص ورودس .
(فينا ١٨٨٤)

— ابن شاكر الكتبى :
عيون التواريخ . (مخطوط)

— ابن شاكر الكتبى :
فوات الوفيات .
جزءان (بولاق ١٨٨١)

— أبو شامة :
كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين
(القاهرة ١٢٨٧هـ)

— ابن الشدياق :
أخبار الأعيان فى جبل لبنان .
(بيروت ١٨٥٩)

— الشربينى (يوسف بن محمد بن عبد الجواد) :
هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف . (بولاق ١٨٩٠)

— الشعرانى :
لواقح الأنوار فى طبقات السادة الأخيار
جزءان (القاهرة ١٨٨١)

— صالح بن يحيى :

تاريخ بيروت (بيروت ١٩٢٧)

— عبد الرحمن فهمى :

النقود العربية ، ماضيها وحاضرها .

(القاهرة ١٩٦٤)

— عبد اللطيف ابراهيم على :

١ — المكتبة المملوكية (القاهرة ١٩٦٢)

٢ — دراسات تاريخية وأثرية فى وثائق من عصر المماليك

(رسالة تحت الطبع)

— عبد الوهاب عزام :

مجالس السلطان الغورى . (القاهرة ١٩٤١)

— ابن عربشاه :

عجائب المقدور فى أخبار تيمور .

(القاهرة ١٢٨٥هـ)

— على ابراهيم حسن :

دراسات فى تاريخ المماليك البحرية .

(القاهرة ١٩٤٨)

— عماد الدين الكاتب :

الفتح القسى فى الفتح القدسى .

(القاهرة ١٣٢٢هـ)

— العينى :

عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان

(مخطوط)

— العينى :

السيف المهند فى تاريخ الملك المؤيد

(مخطوط)

— أبو الفدا :

المختصر فى أخبار البشر

١٤ جزءاً

(القاهرة ١٣٢٥هـ)

— ابن الفرات :

تاريخ الدول والملوك

(بيروت ١٩٣٦-١٩٤٢)

— ابن فضل الله العمرى :

التعريف بالمصطلح الشريف .

(القاهرة ١٣١٢هـ)

— ابن قاضى شهبة :

الإعلام بتاريخ أهل الإسلام

(ذيل تاريخ الإسلام) . (مخطوط)

— القلقشندى :

صبح الأعشى فى صناعة الإنشا

١٤ جزءا

(القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٧)

ـ القيروانى :

المونس فى أخبار إفريقية وتونس

(تونس ١٢٨٦هـ)

ـ ابن كثير :

البداية والنهاية .

أربعة أجزاء

(القاهرة : ١٣٥٨هـ)

ـ أبو المحاسن (ابن تغرى بردى) :

المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى

ثلاثة أجزاء

(مخطوط)

ـ أبو المحاسن :

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة .

رجعنا إلى طبعة دار الكتب المصرية حتى نهاية الجزء الثانى عشر (٨٠٨هـ) ، وبعد ذلك رجعنا إلى طبعة كاليفورنيا لشر وليم بپر (كاليفورنيا ١٩٣١) .

ـ أبو المحاسن :

مورد اللطافة فيمن ولى السلطنة والخلافة .

(كمبردج ١٧٩٢)

— محمد جمال الدين سرور :

١ — دولة الظاهر بيبرس

الطبعة الثانية (القاهرة ١٩٦٠)

٢ — دولة بنى قلاون فى مصر

(القاهرة ١٩٤٧)

— أبو محمد عبد الله بامخرمه :

تاريخ ثغر عدن

(ليدن ١٩٣٦)

— محمد كرد على :

خطط الشام

جزءان (دمشق ١٩٢٥)

— محمد كعت التنبكتى :

تاريخ الفتاش فى أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس

(باريس ١٩١٢)

— محمد مصطفى :

١ — صفحات لم تنشر من بدائع الزهور لابن إياس

٢ — انظر ابن إياس .

— محمد مصطفى زيادة :

١ — نهاية السلاطين المماليك فى مصر

(مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ١٩٥١)

٢ — المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس .

(مجلة الجيش ١٩٤٦)

٣ — حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة

(القاهرة ١٩٦١)

— محمود محمد عرنوس :

تاريخ القضاء فى الإسلام

(القاهرة ١٩٣٤)

— محى الدين بن عبد الظاهر :

١ — الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الملكية الأشرفية . (القاهرة ١٩٢٠)

٢ — تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور

نشر مراد كامل (القاهرة ١٩٦١)

— المسعودى :

مروج الذهب (جزءان)

(باريس ١٨٦١ — ١٨٧٧)

— مصطفى محمد مسعد :

الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى .

(القاهرة ١٩٦٠)

— مفضل بن أبي الفضائل :

النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد

(باريس ١٩١١)

— المقريزى :

١ — إغاثة الأمة بكشف الغمة ، نشره محمد مصطفى زيادة وجمال الدين محمد الشيال .

(القاهرة ١٩٤٠)

٢ — البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب .

نشره وستنفلد (جوتنجن ١٨٤٧)

٣ — السلوك لمعرفة دول الملوك

نشره وحققه محمد مصطفى زيادة حتى نهاية سنة ٧٥٥ هـ ؛
وبقية الكتاب مخطوط بدار الكتب المصرية .

٤ — شذور العقود فى أخبار النقود .

(اسطنبول ١٢٩٨ هـ)

٥ — المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار .

طبعة بولاق فى جزئين (١٢٧٠هـ)
والطبعة الأهلية فى أربعة أجزاء .

(القاهرة ١٩٠٧ م)

— نظير حسان سعداوى :

نظام البريد فى الدولة الإسلامية

(القاهرة ١٩٥٣)

— النويرى : (أحمد بن عبد الوهاب)

نهاية الأرب فى فنون الأدب .

(مخطوط)

— النويرى السكندرى (محمد بن قاسم بن محمد)

الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية فى واقعة الاسكندرية (جزءان)

(مخطوط)

— ابن واصل :

مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب . نشره وحققه جمال الدين الشيال حتى نهاية سنة ٦١٥ ﻫ . وبقية الكتاب مخطوط .

— ابن الوردى :

تاريخ ابن الوردى (جزءان)

(القاهرة ١٩٣٩)

ثانياً : المراجع الأوربية :

— Allau :

The Cambridge Shorter Hist. of India.
(Cambridge, 1924)

— Alvarez :

Portugheus Embassy
(Glascow, 1905)

— Arnoid :

The Caliphate

— Atiya :

Egypt and Aragon
(Lepzig, 1938)

— Beazley :

Note Book of Med. History
(Oxford, 1917)

— Coulbeaux :

Hist. Politique et Religieuse de l'Abysinie.
(Paris, 1929)

— Demombynes :

La Syrie a l'epoque des Mamelouks
(2 vols.)
(Beirouth, 1921)

— Demombynes :

Masalik Alabsar
(Paris, 1927)

— Diehl :

Venice
(Paris 1916)

— D'O Hsson :

Hist, des Mongols (4. Vol).

(Amesterdam, 1852)

— D'O Hsson :

Tableau de l'Empire Othman.

(Paris, 1824)

— Grousset :

Hist. des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem (3 vol.)

(Paris, 1934)

— Hauteceour, et Wiet :

Les Mosquées du Caire.

(Le Caire, 1932)

— Heyd :

Hist. du Commerce de Levant au Moyen Age. (2 vols).

(Leipzig, 1885)

— Hobson (R. L.) :

A Guide to the Islamic Pottery of the Near East.

(London 1944)

— Howorth :

The Hist. of the Mongols (4. vols.)

(London, 1885)

— Ibrahim Salamai :

L'Ensignement Islamique en Egyote.

— Joinville :

Hist. de Saint Louis

(Paris, 1874)

— Kammerer :

Le Regime et le Status des Etrangers en Egypte

(Memoires de la S. R. G. d'Egypte — Tome 15 — Le Caire. 1929.

— King :

The Knights Hospitallers in the Holy (London, 1931)

— Lane—Poole :

A Hist. of Egypt in the Middle Ages. (London, 1936)

— Lane—Poole :

Med. India Under Mohammedian Rule. (London, 1912)

— Machaut :

La Prise de l'Alexandrie (Geneve 1877)

— Mac. Michael :

Hist, of the Arabs in the Sudan. (London, 1922)

— Makhiaras :

Recital Concerning the the Sweet Land of Cyprus. (Oxford, 1932)

— Marco Polo :

Travels. (2 vols) (London, 1903)

— Piloti :

L'Egypte au Commencement du Quinzieme Siecle. (Le Caire, 1930)

— Quatremere :

Memoire sur l'Egypte. Hist. de Sultans Mamlouks de l'Egypte — 2 vols. (Paris, 1837—1845)

— Reinaud :

Traité de Commerce entre la republique de Venice et les derniers sultans Mameloucs d'Egypte. (J. A. 2m Serie — Tome 4 — Paris, 1829)

— Ronciere :

La Decouverte de l'Afrique au Moyen Age. (S. R. G. d'Egypte, 1925)

— Runciman :

A Hist. of the Crusades (3 vols.)

(Cambridge, 1957)

— Schefer :

Le Voyage d'Outremer de Jean Thenaud.

(Paris, 1864)

— Schlumberger :

Prise de Saint Jean d'Acre En l'an 1291 Par l'armée de Soudan d'Egypte.

(Paris, 1914)

— Setton :

A Hist. of the Crusades

(Pennsylvania, 1958)

— Stevenson :

The Grusaders in the East.

(Cambridge, 1907)

— Van Berchem :

Titres Califiens

(J. A. 1907)

— Wiet :

L'Egypte Arabe

(Paris, 1926)

— Wiet :

Lampes et Bouteilles en Verre emaillé Catalogue General du Musée Arabe du Cairc.

(Le Caire, 1929)

— Wiet :

Objets en Cuivres : Catalogue Genral du Musée Arabe du Caire.

(Le Caire, 1932)

— Ziada :

Foreign Relations of Egypt in the 15 th Century.

(Thesis).

فهرس الموضوعات

صفحة

صفحة

صفحة

فهرس الخرائط

فهرس الصور

للمؤلف

١ ـ قبرص والحروب الصليبية ١٩٥٧

٢ ـ أوربا العصور الوسطى ،

الجزء الأول ـ التاريخ السياسى

الطبعة الثالثة ١٩٦٤

٣ ـ أوربا العصور الوسطى .

الجزء الثانى ـ النظم والحضارة

الطبعة الثانية ١٩٦٣

٤ ـ مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ١٩٥٩

٥ ـ الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى. ١٩٥٩

٦ ـ النهضات الأوربية فى العصور الوسطى وبداية الحديثة ،

بالاشتراك الطبعة الثانية ١٩٦٠

٧ ـ المجتمع العربى

بالاشتراك مع مجموعة من أساتذة جامعة القاهرة ١٩٦٢

٨ ـ الظاهر بيبرس . ١٩٦٣

٩ ـ المدنية الإسلامية وأثرها فى الحضارة الأوربية . ١٩٦٣

١٠ ـ المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك . ١٩٦٣

١١ ـ الحركة الصليبية ـ جزءان : ١٩٦٣

١٢ ـ ثورة شعب . ١٩٦٤

١٣ ـ العصر المماليكى فى مصر والشام . ١٩٦٥

القافلة تسير . . .